شرح

[illegible]

[illegible] الثالث

تأليف

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مفتاح علوم أهل البيت عليهم السلام

العالم الربّاني والحكيم الصمداني مولانا الأوحد الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي

أعلى الله مقامه

المرجع الديني الكبير خادم الشريعة الغرّاء

المولى المجاهد الحاج ميرزا عبد الرسول الأحقاقي الحائري

دام ظله العالي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال العبد المسكين أحمد بن زين الدين الإحسائي

قال عليه السلام بأبي أنتم وأمّي وأهلي ومالي وأسرتي

أقول(بأبي) أصله معمول ثانٍ لأفدي و(أنتم) مفعول أوّل والمعنى أفديكم بأبي وأمي .. الخ فكثر استعماله وتداوله على ألسنتهم في مخاطباتهم فحذفوا أفدي اختصاراً لظهور معناه لكثرة الاستعمال حتّى انتقش في أذهانهم عند ذكر بأبي أنتم وإن لم يقصدوا تصوّره، وذلك لشدة حرصهم في طلب الاختصار فيقتصرون على أقل ما يدلّ على المقصود وإن لم يكن في المنطوق بل اكتفوا بما كان في محلّ النطق كدلالة الاقتضاء والتنبيه والإشارة بل بالمفهوم والمجازات والاستعارات واللّوازم البعيدة والأمثال إذا أمكن فهم المخاطب لها ولو بنصبِ قرينةٍ فلمّا حَذفوه لظهور المعنى تمادى بهم الحال والمداومة على الحذفِ لكثرة الاستعمال حتى غفلوا عن المعنى الفعلي الملحوظ فيه الحركة لعدم فائدة التجدّد للفداء ودعاهم دوام الاستعمال إلى دوام حضور الفداء نفسه في خيال المتكلّم عند لفظ بأبي أنتم، فأقيم متعلّقه الذي هو بأبي مقامه في التصدّر ولمّا كان ظرفاً كان غير صالح للابتداء الاصطلاحي مع أنه المفعول الثاني كان المفعول الأوّل الذي هو أنتم أولى بالابتداء الاصطلاحي لأنه اسم مقدم على (بأبي) رتبة في الأصل فهو أولى برتبته ولما كان (أنتم) لا يصلح لنيابة أفدي لأنه المفدى جعلوا بأبي نائبا عن

أفدي لأنه متعلقه ومعناه فيه ولما جعلوه نائبا عنه لأنه الفداء أوجبوا تقديمه لفظا لينزل في مرتبة الفعل وإن كان خبرا لأن الخبر مسند إلى المبتدأ ، والفداء مسند إلى المفدى.

ولما كان (أنتم) هو المبتدأ ألبس حلة المبتدأ وصورته لأنه كان حين وجود الفعل ضمير المفعول ، وضمير المفعول إن كان متصلا كان (كم) وإن كان منفصلا كان إياكم وليستا من ضمائر الرفع ليصلح أن يجعل مبتدأ فأتى بضمير الرفع الذي هو بمعناه أي ضمير الجمع المخاطبين لأن الصحيح عندي أن الضمائر في الخطاب صورتان ، وضع الواضع للرفع صورة وهي (أنْ) بسكون النون وألحقها علامات تميز معودها وهي ألف بعد أن للمتكلم وإنما حركت النون لالتقاء الساكنين ، وتاء مفتوحة للمخاطب المذكر ، ومكسورة للمخاطبة ، وتاء وميم وألف للمثنى ، وأما التاء فأتى بها لئلا يزيد المفرد على المثنى ، وأما الميم للفرق بينه وبين ضمير المخاطب إذا لحقته ألف الإطلاق ، وأما الألف فللفرق بينه وبين ضمير الجمع ، وإنما خص الألف بالمثنى لأنه ضميره في الغائب ، وأما التاء والميم الجمع فلِما قلنا في المثنى من أن التاء لئلا يزيد المفرد عليه،والميم علامة الجمع ، وفي المؤنث النون المشددة وللنصب صورة وهي الكاف المفتوحة وحدها للمفرد على الأصل ، وكسرت للمخاطبة للفرق ، وفي المثنى بزيادة الميم والألف ، وفي الجمع بزيادة الميم للمذكرين والنون المشددة للمؤنث لما قلنا في الرفع ، وكل هذه الملحقات علامات فارقة وليست أصلية ، وزِيد في صورة الانفصال (إيا) وهي دعامة يعتمد الضمير عليها عند انفراده عن فعله لا أصلية وهنا اختلافات للنحاة هل الضمير (إيا) وحدها أو الكاف وحدها أو المجموع ، وكذلك في

ضمائر الرفع والأصح ما قلنا لك ، فلما عدلوا عن ضمير النصب أتوا بضمير الرفع ، والمعنى فيهما واحد وإنما التغيير لأجل صورة الإعراب لصلوح كل صورة لما هي له لأسباب يطول ذكرها.

فقيل أنتم فالضمير (أن) وما زاد على (أن) فعلامات فارقات ، فكان بأبي خبرا مقدما وأنتم مبتدأ مؤخرا ، ولو أخر الخبر على الأصل لما صح الإخبار لفساد المعنى، لأجل انقلابه لأن صورة أنتم بأبي تدل على كون المفدَّى فداء وبالعكس إلا بأن يقدر خبر يكون بأبي معمولاً له أي أنتم مفديّون بأبي وتقديمُ بأبي مع نيابته عن العامل المتقدّم أعني أفدي أولى من أصالة عدم تقديم الخبر للموجب ولفساد المعنى وانقلابه ومن التقدير لزيادة الكلفة فالتزموا التقديم لما سمعتَ.

فإن قلت: لِمَ قدم الأب ثم الأم وهكذا؟

قلتُ: لأنه أَتى بها على جهة الترقي وهو الانتقال من الأقوى إلى الأضعف جرياً على وفاق الغالب لأن الغالب في الإثبات كذلك من الأقوى إلى الأضعف وفي النفي من الأضعف إلى الأقوى إلاّ أن العكس قد يستعمل وإن كان خلاف الأغلب قال الله تعالى (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ)، وفي دعاء ليلة الجمعة من الجمع الأربعين كما رواه ابن طاووس في مهج الدعوات (ولا يأخذك نوم ولا سنة) والأم أضعف من الأب لأنّها تقتل بالابن ولا يقتل به الأب ولاشتراط إذنه في مثل النذر وصوم المندوب دونها على الأشهر، ويلزم الابن القضاء عنه ولا يلزم القضاء عنها على المشهور، لأن الأب أصل للولد والأم فرع عليه ولهذا خلق من الأب العصب والعروق والمخ والعظم التي هي أصل الإنسان وليّه، وخلق منها اللحم والدم والشعر والجلد وهي ظاهرهُ وقشرهُ، وذلك لأنّ ما منه المادة وما

منها الصورة وحديثُ مَن أُبِرُّ (قال عليه السلام: أمّك قال ثم من أبرّ قال أمّك قال ثم مَنْ أبرّ قال أمّك قال ثمّ مَنْ أبرّ قال أبُوك)

ولأن الأب مقدّم في الوجود والتكليف الأول كما في عالم الذر ولأنها خلقت من نفسه أي من فاضل طينة نفسه وإنما نسبت إلى النفس ولم تنسب إلى العقل لقلّة ما منه وكثرة ما منها، فإنها ثلث من العقل وثلثان من النفس والأب بالعكس، ومزاجه من الأصل في عقله ونفسه ومزاجها من الفاضل في عقلها ونفسها، ووجوب إجابة ابنها لها في الصّلاة دون الأب محمول على ملاحظة الضعف وعدم احتمالها ما يحتمله الأب فوجبت الشفقة بها والرأفة.

وإنّما قيل بأبي أنتم ولم يؤخر أنتم إلى آخر الفداءات للاهتمام والاعتناء بذكر المفدى بالمبادرة إليه ولئلاّ يتوهم مَن غفلَ عن بأبي لبعده أو يسهو فيجعل أنتم خبراً للمذكورات أو لما يقاربه منها فإذا وصل إلى أنتم والتفت إلى ما قبله وجد مثلاً أهلي ومالي أنتم فيكون عنده خبراً وما قبله مبتدأ ويختلّ المعنى وملاحظة الكلام من أوّله لئلاّ يختلّ المعنى فيه مشقّة وكلفة ومبنى اللغة العربيّة على السهولة والخفّة ، كما هو مشاهد عند الإعلال وتوالي الأمثال والتقاء الساكنين وعدم الابتداء بالساكن والتزام المدّ وغير ذلك، فالتزموا التقديم في أنتم على غير بأبي لما قلنا ولا يلزم احتمال الاستئناف وتوهّمه في (وأميّ) للفصل بأنتم لظهور المعنى، وذكر الأم بعد الأب قرينة على إرادة التشريك بينهما ولأنه لو احتمل الاستئناف كان مبتدأ ولو كان كذلك لوجب ذكر الخبر ولا يجوز حذفه لمعارضة العطف لذلك الاحتمال ولأصالة عدم الحذف وعدم ذكره دليل على عدم احتماله.

وهذه العبارة تستعمل لبذل الحبيب والعزيز وِقايةً للأحبّ والأعزّ بحيث يفنى الحبيب والعزيز من كتاب الرعاية والمحافظة مطلقاً كما هنا لعموم الإحاطة وشمولها لجميع الإقتضاءات أو في رتبة ما يقتضيه المقام عند توهّم محاذرة تغيّر الأحب والأعز أو تبدله مطلقاً أو عن خصوص صفة الأحبيّة والأعزيّة أو فنائه عنها أو مطلقاً، مثلاً إذا وجدتَ مَن ظهر بصفةٍ حسنة قد هان عند ظهورِها لَكَ كلّ جليل وعزيز عندك قلتَ بأبي أنت وأمي ..الخ، أي أفدي من تغيّرك عن هذه الصفة أو تبدّلك بغيرها مما لم يستدع ميل قلبي إليها، أو فناءك أو فقدانك بأحب الأشياء عندي وأعزّها عليَّ وهي أَبي وأمي وأهلي أي عشيرتي وذوي قراباتي والزوجات والأولاد والبناتِ والأصهار ومالي وأسرتي بالضم، أي رهطي الأدنون أي أبذلهم وقاية لكَ من كل مكروه ومحذور، وهذا تستعمله العرب عند الخطاب لمن يحترمون مقامه ويعظّمون إكرامه فلمّا أراد الزائر خطابهم بأن يشهدوا على ما انطوى عليه من الاعتقاد مما أبرزه بإقراره الحتمي على جهة المعاهدة بالعهد المؤكد وكان قد أحلهم من قلبه محلاً أجلّ من أن يطلُبَ منهم الشهادة.

إمّا لكونهم أجلّ قدراً من ذلك لعلوّ مرتبتهم كما كانت عادة المملوك القنّ الذليل الحقير أنه لا يحسن منه أن يقول لسيّده العظيم الجليل الشأن العالي المكان الشديد الأركان أُشهِدُك على حسن حالي عندك مع ما يعلم من نفسه من وقوع كثير من التقصيرات في حقّ سيّده ومولاه الأجل.

وإمّا لعلمه باطلاعهم على حقيقة ما أشهدهم عليه فاستشهاده لهم سوء أدب، ولم يكن له استغناء عنهم في حال من الأحوال مع أنّهم أمروا عليهم السلام بذلك وأمثاله لأن القول عبادةٌ إذا طابقَ الضمير ولمّا أراد تعظيمهم والتأدّب معهم قبل أن

يطلب الشهادة المعلومة بذل أعظم ما يقدر عليه ولم يقدِر على شيء أعظمَ عنده من أن يدعو بأن يكون أعزّ الأشياء عنده ، وعليه فداءً فداء لهم من كل مكروهٍ ومحذورٍ فقال بأبي أنتم وأمي وأهلي ومالي وأسرتي.

فإن قلت: إذا كانت علّة جعلِه أبويه وغيرهما ممّن ذكر فداءً لهم هي عِظَم منزلتهم عنده وكبر شأنهم لديه على نحو ما ذكرت فهل يجري ذلك في تعظيم الله سبحانه وتعالى وإجلاله لأنه تبارك وتعالى شأنه أجلّ وأعظم منهم ومن غيرهم وإنما العظم وكبر الشأن بما أفاض عليهم من آثار أفعاله.

قلتُ: هو الله سبحانه أجلّ من أن يساوى وأكبر من أن يدانى وأعزّ من أن ينسب إلى نسبة شيء من خلقه ولكنه لا يصحّ ذلك القول إلاّ لمن يجوّز أن تجري عليه المكاره أو التغيّر أو التبدّل أو الفناء أو الفقدان وإن لم يَرَ بعض خلقه أنه يجده أو في حال، فهو سبحانه موجود حاضر في كلّ حال فوجوده حال وجدانهِ كوجوده حال فقدانه فلا يصحّ أنْ يفرض عليه التحوّل عن حالٍ ليُدْعَا له بأن يُفْدَى من ذلك بمن دونه ولا يصح ذلك إلاّ على من يجوز عليه التحوّل والتغيّر فلذا فدى من يجوز عليه ذلك.

قال عليه السلام أشهد الله وأشهدكم أني مؤمن بكم وبما آمنتم به كافر بعدوكم وبما كفرتم به

قال الشارح المجلسي رحمه الله أشهد الله لمّا أراد مخاطبتهم بالشهادة فداهم بأبيه وأمه وأشهدكم كما هو المتعارف عند العرب، أشهد الله تعالى وإياهم بأنه مؤمن بهم وبجميع ما آمنوا به مجملاً وإن لم يعلم تفصيله وكافر أي جاحدٌ وعدوّ لأعدائهم

كما قال تعالى (فمن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى) فانظر إلى كلامه تعالى كيف قدّم الكفر على الإيمان لبيان أنه لا يمكن الإيمان بدون عداوتهم كما ورد في الأخبار الصحيحة أنه من قال (إنّي مؤمن بالأئمة عليهم السلام وليس لي شنآن بالمخالفين أنه ليس بمؤمن بل هو من أعدائِنا فإن المحبَّ من يحب أولياء المحبوب ويبغض أعداءه انتهى).

أقول: قوله عليه السلام (أشهد الله وأشهدكم أنّي مؤمن بكم.. الخ) تجديد للعهد المأخوذ منه في التكليف الأوّل وموافاة منه أشهد الله وأشهدهم عليها ليشهدوا له عند السؤال في القبر وعلى الصراط بل ليشهدوا له الشهادة الفِعليّة بأن يكتبوا في قلبه الإيمان بنور ولايتهم وفي أعماله قبولها وفي حسناته مضاعفتها وفي سيّئاته التّجاوز عنها وفي القدر الجاري عليه صرفَ سُوئه وشره وجلبَ خيرِه وفي كتاب عداده أنّه من حزبهم وفي رتبته أنه موصول بهم، وفي سلوكه أنّه داخل مدخلَهُمْ وخارج مخرجَهُمْ وغير ذلك، فإن هذه وما أشبهها مترتّبة على الموافاة.

وقوله عليه السلام (وبما آمنتم به) يعني أني مؤمنٌ بكم كما أنتم عليه في المقامات التي أقامَكم الله فيها على نحو ما أشير إليه فيما تقدم، وبما آمنتم به مما أطلعكم الله عليه مما أراده لكم ولغيركم من الحقّ من صفاته وأفعاله وعبادته، وممّا أنزل من كتبه ووحيه ومن جميع ملائكته ورسله وأنبيائه وأوليائه وأصفيائه من المصْطفيْن وأتْباعِهم، وممّا أجراهُ على أعدائه من قدره وقضائه في ذواتهم وأعمالهم إلى غير ذلك من كلّ ما شاء وأرادَ وقدر وقضى من مقتضياتِ فضله وعدله مجملاً ومفصلاً.

وقوله عليه السلام (كافر بعدوِّكمْ) يعني به أنّي جاحِدٌ لما يدّعيه أعداؤكم من الأوّلين والآخرين ممّا ليس لهم أو يدّعيه لهم مدّع من أتباعهم ممّا اغتصبوه من مقامات

غيرهم ومن أموالهم وغير ذلك، لا أن المراد أنّي كافر بوجود عدوّكم أو بوجودِ ما صدر منهم من الدعوى أو التعدّي بمعنى عدم وقوعه لأن ذلك لا شك فيه ويجَب الإيمان به ولا يجوز إنكارُ ذلك، وإنما الواجب إنكاره وجحوده منهم ذلك وهو ما يدّعونه وما اغتصبوه وما فعلوه من الأعمال الّتي لا يَرْضاها الله سبحانه، فَأُسُّ ولايتهم صلّى الله عليهم الإيمان ظاهراً وباطناً، بما ثبتَ لهم من الإيمان بهم وبما آمنوا به كما تقدّم، وبما سُلِب عنهُمْ من الأسماء السوءى بالكفر بعدوِّهم على نحو ما أشَرنا إليه فلهم عليهم السلام صفاتٌ ثبوتية وصفات سلبيّة كما قيل أنّ لله صفاتٍ ثبوتيّة وصفات سلبيّة، والصفات الثبوتيّة قسمان صفات ذات وصفات أفعال، والصفات السلبيّة ترجع في ظاهر العبارة إلى قسمين صفات ذات وصفات أفعال.

أما الصفات الثبوتية الذاتية فهي في حقّهم عليهم السلام في كل مرتبة من مراتبهم الأربع نفس الذات فيها.

وأمّا الثبوتية الأفعالية فهي نفس ظهور الذات بها في تلك المرتبة.

وأمّا السلبية الذاتية فهي نفي ظاهر الاشتراك وظاهر الاشتراك ليس هو الذات ونفيه ليس هو الذات أيضاً فلا تكون السّلبية نفس الذات وإن أطلق عليها الذاتية وإن وصفت بها الذات وصفاً صناعيّاً أو تعريفياً وقوله تعالى (باب باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذابُ) من هذا المعنى الذي أشرنا إليه فإن ظاهر الباب أي ما كان وراءه وخلفه ليس هو الباب وإن نسب إليه أو كان به فإنه ليس منه ولا إليه بخلاف باطنه فإنه منه وإليه.

وأمّا السلبية الفعلية ففي الظاهر حكمها بالنسبة إلى الأفعال حكم الذاتية بالنسبة إلى الذات بمعنى أنها لا تكون صفة إلاّ كما أشرنا إليه بالوصف الصّناعي

أو التعريفي.

أمّا في الباطن يعني في نفس الأمر فالسلبية الفعليّة بحكم الثبوتيّة الفعلية لأن نفي الممكن ممكن كما يقال في الظلمة أنها عدم الضّوء عمّا من شأنه أن يكون مضيئاً عند من يجعلها عدم النور وهي نفي وقد قال الله تعالى (الْحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ) ولا يكون الشيء مجعولاً وليس بشيء بل شيء مخلوق، ويؤيّده ما رواه علي بن يونس بن بهمن قال للرضا عليه السلام (جعلتُ فداك إنَّ أصحابنا اختلفوا فقال في أي شيء اختلفوا فتداخلني من ذلك شيء فلم يحضرني إلاّ ما قلت جعلتُ فداءك من ذلك ما اختلف فيه زرارة وهشام بن الحكم فقال زرارة النفي ليس بشيء وليس بمخلوق، وقال هشام النفي شيء مخلوق فقال لي قل في هذا بقول هشام ولا تقل بقول زرارة) هـ.

وبيانه أنّك تقول تَركتُ فعل كذا لما لم تفعله لأنّ فعله ممكن لك فتركتَ ما كان فعله ممكناً لك فقولك تركتُ وقولي تركتَ لما لم تفعل وتعبيرنا عن هذا العدم بالفعل الماضي مسنداً إلى مَنْ لم يفعل دليل على حدوث فعل ممّن أُسْنِدَ إليه وهو حركة ضميره بالتّرك.

وقول أمير المؤمنين عليه السلام لأبي الأسود (والفعْل مَا دَلَّ على حركةِ المسمى) يشمله للاتفاق على أنّ مثل ماتَ زيدٌ وظنَّ عمروٌ وسمِعَ بكرٌ ورأى خالد وما أشْبَهها أفعال، وأنّها داخلة في كلامه عليه السلام لأنّها حركة المسمّى كما في مات زيد، فقوله (كافر بعدُوِّكم) صفة سلبٍ وثبوتٍ على نحو ما أشرنا إليه هنا.

وقول الشارح رحمه الله أنه (لا يمكن الإيمان بدون عداوتهم).

يعني أنّ الإيمان بهم عليهم السلام لا يمكن بدون عداوة أعدائهم وهو صحيح لأن

الإيمان بهم هو الحق وهو لا يجامع الباطل الذي هو ولاية أعدائهم وعدم البراءة منهم وهو قوله تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ).

قال القميّ ذلك بأن الذين اتبعوا الباطل وهم الذين اتبعوا أعداء رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام.

وقال في قوله (وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ).

عن الصادق عليه السلام قال (بما نزل على محمد في علي ، هكذا نزلت) وقال أيضاً (نزلت في أبي ذر وسلمان وعمار والمقداد ، لم ينقضوا العهد قال وآمنوا بما نزل على محمد ﷺ أي ثبتوا على الولاية التي أنزلها الله وهو الحق يعني أمير المؤمنين عليه السلام) هـ.

فلما كان عدم البراءة من أعدائهم باطلاً كانت البراءة من أعدائهم حقاً وهي جزء الولاية لهم عليهم السلام لأن الولاية حق فإذا لم تنضم إليها البراءة لزمها عدم البراءة وهو الباطل ولا يجتمع الحق مع الباطل ولا يكون جزء له ولا لازماً، والمراد بالإتيان بالإيمان بهم والكفر بعدوّهم لبيان أن الإيمان مركب منهما لأنّ الإيمان هو محبتهم والعمل بقولهم خاصة من دون البراءة من أعدائهم فإذا قلنا البراءة شرط لا يراد بالشرط هنا ما هو خارج عن المشروط إلاّ إذا أريد به السلب على الظاهر أو السلب الذاتي، وهنا المراد به الفعلي على الباطن كما ذكرنا وقولنا على الباطن إذا لوحظ في الكفر بعدوّهم والبراءة منه السلب وإذا لم يلاحظ فيه السلب كان جزءاً على الظاهر والباطن وظاهر كلام الشارح رحمه الله أن البراءة من عدوّهم شرط في قوله لا يمكن الإيمان بدون عداوتهم بقرينة قوله فانظر إلى قوله تعالى كيف قدّم الكفر على الإيمان يعني في قوله (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ).

وفيه أنّه لو كان الأمر كذلك مراداً لقال عليه السلام إني كافر بعدوّكم وبما كفرتم به مؤمن بكم وبما آمنتم به وإنما يراد به الجمع كما قلنا، نعم كلامه يحتمل ما قلنا ولو قيل أنه لم يرد بكلامه هذا الاستشهاد على كلامه عليه السلام ليلزم ما فيه قيل لو لم يرد ذلك لما حسن جعله شرحا لكلامه عليه السلام.

قال عليه السلام مستبصِرٌ بشأنكم وبضلالةِ مَنْ خالفكم

موالٍ لكم ولأوليائكم مبغض لأعدائكم ومُعاد لهم

أي أنّي مستبصر بشأنكم يعني مستبين لهُ والمراد به المعرفة بشأنهم والشأن الخطب يخبر أني عارف بكم بالمعرفة النورانية يعني عرفت بدليل الحكمة والعيان أنكم المقامات التي لا تعطيل لها في كل مكان وأنكم معادن كلمات الله وأركان توحيد الله وآياته ومقاماته وبيوت علمه وحكمه وغيبه وحقه وأمره، وأنكم جنبه ويده ولسانه وعينه وأذنه وقلبه ووجهه وظاهره وسرّهُ وأنكم بابُه وخزائنه ومَفاتِحُ غيبة الّتي لا يعلمها إلاّ هو وكتابه المبين وصراطه المستقيم وأنكم حججُه وأولياؤه والدُّعاة إليه وخلفاؤه في أرضه والنذر الأولى والنذُرُ الأخرى والدعاة إلى الله وإلى دينه الذين أوجب محبّتهم وفرض طاعتهم وعرفتُ أيضاً بدليل الحكمة والعيان أن من خالفكم هم الضّالّون عن سبيل الهدى في كلّ موضعٍ من كتاب الله ذكر الضّالّين، فإنّما عناهم وأتباعهم مثل قوله تعالى (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ)برهانها كالشمس في رابعة النهار أو ومن يعرض عن الولي أو عن ولايته أو ومَن يَعْمَ على قراءة فتح الشين (وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) فالسبيل هو الولي أوْ ولايته وقرناؤهم من الشياطين يصدونهم عنه وعن ولايته وهدوهم إلى سبيل

الغيّ (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) فضلّوا عن سبيل النجاة بمخالفة الوليّ من بعد ما تبيّنَ لهم الهدى فالضّلالة تستعمل في حقّ مَنْ خالفهم وفي اتباعهم كما ذكر عليه السلام هنا، فإنّ المراد بمن خالفهم المضلّون لمن تبعهم واقتدى بهم عن سبيل الرشاد الضّالّون بأنفسهم لأعراضهم عن ذكر الرحمن وبصَدِّ اتباعهم عنه فهم أهل الضلالة بمخالفتهم سبيل الهدى فإن الهدى أن يتبّع الحق عليه السلام ويدعو إلى اتّباعِه وهم على العكس قال تعالى (ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ).

فإن قلت قوله تعالى (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) يدلّ على أنهم لا يعلمون بضلالتهم وإنما يظنون أنهم على الحقّ واللازم من هذا عدم ضلالتهم لأن الله تعالى يقول (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ).

قلتُ: إنّهم إنّما خلقوا بقبولهم الإيجاد وما قبولهم إلاّ موافقة ما أمدّوا به من الوجود وما أمدّوا إلاّ بما هو هيئة فعله تعالى وما هيئة فعله تعالى إلاّ صفة رضاه وما صفة رضاه إلاّ اتباع أوليائه وموالاتهم والتسليم لهم والرد إليهم ومحبّتهم بالقلب واللسان والجوارح ومعاداة أعدائهم والبراءة منهم، فإذا كان كل مخلوق هكذا لأنّه إنّما خلقه الله ليعرفه ولا يعرفه إلاّ بما وصف به نفسه له وما وصف نفسَهُ له إلا بنفسه ولهذا قال عليه السلام (من عرف نفسه عرف ربه) وهم عليهم السلام حقيقة كلّما وصف الله نفسه لخلقه من الدرّة إلى الذرّة لأنه سبحانه إنّما وصف نفسه لكلّ شيء من خلقه بهم عليهم السلام أي بصفةٍ من صفاتهم وجب أن يعرفهم ويعرف حقيّتهم كلّ شيء لأن فطرته صفةُ حقيّتهم ثم لمّا حسدهم أعداؤهم واستكبروا

عن طاعتهم التي افترضها الله عليهم وعلى جميع خلقه التَوَت فطرتهم وتلوّنت بلون استكبارهم وتقدّرت بهيئة حسدهم وعلوّهم، فكانت لهم صورتان صورة الفطرة التي هي الإجابة وهي الموافقة للوجود الذي هو المدد وبها عرفوا الولاة عليهم السلام وعرفوا حقيّتهم وصورة الاستكبار والعلوّ والحسد التي هي الإنكار والجحود وهي المخالفة للوجود الموافقة للماهيّة التي هي منشأ الشرور وبهذه الصورة أنكروا معرفة الولاة وأنكروا حقيّتهم لأن هذه الصورة الخبيثة صورة الباطل ولا توافق شيئاً من الحق لأنها ضدُّه وهي التّغيّر والتبديل المذكوران في قوله تعالى (فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله) وفي قوله تعالى (فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله) ولمّا كانت دواعيها كلها نفسانيّة دائرة مدار شهوتها كان عملهم بمقتضياتها، ولمّا كانت الأولى دواعيها كلها عقلانية مخالفة لشهوات النفس ومقتضى إنّيّتِها الذي حصل به التكبّر والعلوّ والحسد لم يعملوا بمقتضياتها التي هي معرفة الحقّ وأهله وفروعها من الأعمال الصالحات تمكّنتْ في حقائقهم وأعمالهم مقتضيات الصورة المغيّرة والمبدّلة حتى كانت ذاتيّة لهم من حيث مواظبتهم على مقتضياتها، فبصورة الفطرة الأولية عرفوا الحق بموافقته لها معرفةً قامت بها عليهم الحجة وكانوا ضالّين بمخالفتها، وبصورة الاستكبار والعلوّ والحسد التي لبسوها واستبطنوها بالتغيّر والتبدّل أنكروا الحق واتّبعوا الباطل وتديّنوا به لموافقتها له ومطابقتها إيّاه، حتى ظنّوا أنهم مهتدون إلى طريق النجاة بها، فهم في مشاعرهم بين داعِيَيْن متنازِعَين، فبداعي الضّلالةِ جحدوا بها وبداعي الهداية استيقَنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً وهما معمولانِ لجحدوا بها لا لاستيقنتها.

وقوله عليه السلام (موالٍ لكم ولأوليائِكم) أي محبّ لكم ولأوليائكم وصديق وناصر

ومتابعٌ بالقلب واللسان والأركان، فالمحبّة التي تعقد على الإخلاص والمتابعة في القلب بالمتابعة والتّسليم لهم والبُغْض لأعدائهم وفي اللسان والأركان بالأخذ عنهم والاقتداء بهم والمجانبةِ لَمن جانبوا وهذا كله وأمثاله حدودُ فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي هيكل التوحيد كما مرَّ مكرّراً، يعني أنّ التوحيد له صورة والصورة إنّما هي الهندسة المشتملة على الحدود، كالمثلث المشتملِ على ثلاثة خطوط محيطة بسطح، والمربع المشتمل على خطوط أربعة محيطة بسطح وهكذا، وكذلك الأجسام فإنها موادّ اكتنفَتْها خطوط الصور، ولا فرق في ذلك بين المعنويّة وغيرها، مثلاً الإيمان له حدود كما تقدّم حد التصديق بالقلب والاعتقاد فيه بتوطين النفس على القيام بمتعلّق مقتضاه من الخدمة والأعمال والأقوال، وحدّ المجاهدة وحدّ الإخلاص وحدّ الانقياد وحدّ التسليم وحد عدم وجدان حرجٍ في النفس فيما اقتضاه ذلك التصديق من الأعمال والأقوال والأحوال وحدّ الزهد وحدّ الورع وحدّ اليقين وحدّ العلم وحدّ المعرفة وحدّ الصلاح وحدّ المروّة وحدّ الصبر وحدّ التوكل وحدّ الثقة بالله وما أشبه ذلك من الحدود، كذلك هيكل التوحيد أي صورته التي استقرّ غيبهُ فيها لتمامها وكمالِها لَها حدود منها ما ذكر في حدود الإيمان، ومنها الإخلاص في تفريد الذات وتجريد الصفات وتوحيد الأفعال وقطع الجهات في العبادة، وهذا جملة حدود التوحيد لأنه من جهة أصول حدوده الكليّة له أربعة حدود.

الأول (وَقَالَ الله لاَ تَتَّخِذُواْ إِلـهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلهٌ وَاحِدٌ)

والثاني (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ)

والثالث (هذا خَلْقُ الله فَأَرُونِي ماذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ).

والرابع (فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً).

وأما فروعُ حدوده فليسَ في الوجود ممّا في الوجدان والعيان ولا في الغيب والفقدان شيء يُرى قبل الله أو بدون الله قال أمير المؤمنين عليه السلام (ما رأيتُ شيئاً إلاّ ورأيتُ الله قبله أو معه) ومعنى قوله عليه السلام (أو معه) ليس (أو) للتقسيم بأن يكون ما يراه قسمين.

أحدهما يرى الله قبله والآخر يرى الله معه، ولا للترديد بأن يكون ما يراه متردداً بين الحالين، بل المراد شيئان كلٌّ منهما مرادٌ.

أحدهما أن يكون المعنى ما رأيتُ شيئاً إلاّ وأرى الله قبله ومعه ويلزم هذا في حكم المنطوق ومحلّه وبعده، أي يرى الله قبل الشيء ومع الشيء وبعده.

وثانيهما أنه عليه السلام له حالتان حالة المقامات وفي هذه الحالة كلّ شيء يرى الله قبله أي لا يرى إلاّ الله تعالى، وحالة الإمام عليه السلام وفي هذه الحالة كلّ شيء يرى الله معه، فأوفى الوجه الثاني للتقسيم لحال الرائي عليه السلام فإنه حالتان.

ومثل قول أمير المؤمنين عليه السلام قول ابنه الحسين عليه السلام في ملحقات دعاء عرفة في المناجاة (أيكون لغيرك من الظهور ما لَيس لك حتّى يكون هو المُظْهِر لَكَ مَتى غِبْتَ حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدْتَ حتى تكون الإشارة (الآثار) هي التي تدل عليك) الدعاء.

فإذا فُقِد حدّ من حدود التوحيد الكليّة الأصلية أو الفرعية نقص هيكله وكانت فطرة الله فيها تبديل وخلق الله فيه تغيير وبنسبة هذا التبديل والتغيير تنقص الولاية.

وقوله عليه السلام (مبغض لأعدائكم ومعادٍ لهم).

الفقرة الأولى عبارة للركن الأيمن من الولاية وهذه الفقرة عبارة للركن الأيسر من الولاية المعبّر عنه بالبراءة ولا ريب في تقابلهما تقابُلاً عاماً فهما معاً للتوحيد وللنبوة وللولاية وللشهادتين وللصلاة وللزكاة وللصيام وللحج ولسائر أحكام الإيمان، كاليد اليمنى واليَدِ اليُسْرَى للإنسان، فإن الدين إنسان حقيقي معنوي ناطق باللسان العربيّ يسمع نطقه كلّ مَنْ عرفه ووجوهه متعدّدة باعتبار قوابله من المكلّفين، فيختلف في الحسن والقبح والكبر والصغر والتمام والنقص باختلاف قابله بحسب اتصافه به، كالوجه إذا قابل المرايا المختلفة في كمّها وكيفها واستقامتها واعوجاجها وصفائها وكدورتها وكبرها وصغرها وقربها وبُعْدِها، فإنّ صورته المنطبعة فيها مختلفة بسبب ذلك الاختلاف ولكن لا بدّ من مقابلة الوجه ومن صقالة المرآة إذ بدون أحدهما لا يحصل الانطباق في الاتفاق والاختلاف، نعم لو حصلت الصقالة وعدم مقابلة الوجه انطبع خلفه وضدّه، كذلك الإيمان إذا توجّه إلى المكلّف بالتكليف به انطبع في المكلّف وصفه وصورته على حسب استعدادِه وقابليّته كما أشرنا لك به، ولو لم يكلّف به لم يحصل انطباع لعدم توجّه الإيمان إليه وعدم حصول القابليّة الخاصّةِ التي هي الاستطاعة الفعلية لا العامّة التي هي الاستطاعة الإمكانيّة، نعم لو حصلت الاستطاعة الخاصّة بالتكليف بالإيمان إلاّ أنَّ هذا المكلّف لم يقبل شيئاً من الإيمان بل قابل التكليف بالإنكار والردّ انطبع في قابليته خلف الإيمان وضده وهو الكفر.

فإذا فهمت الإشارة والتمثيل ظهر لك أن هذا الإنسان الشريف الذي هو باطن الإنسان المعلوم إن كان مؤمناً لأن الإنسان إذا لم يكن مؤمناً كان حيواناً

أو شيطاناً والصورة الإنسانيّة الظاهرة مُعارة تُنتزع منه حدودُهُ هي الإنسانيّة الحقيقيّة الناطقة وهي كذا وهو مادّتها، والمكلّف كلّما نقّص من تلك الحدود شيئاً بتقصيره نقصت صورة إيمانه بما قصّر فيه سواء كان من جهة يمين الإيمان التي هي الولاية وما يتفرّع منها أم من جهة يساره التي هي البراءة وما يتفرّعُ منها.

فإذا عرفتَ هذا عرفتَ أن الفقرة الثانية مع مطابقتها للأولى وتقوّم أحديهما بالأخرى على عكس الأُولى في التعبير وبمعناها في التقدير، فيكون معناها مبغِض لأعدائكم ولأوليائهم وعَدُوّ وخاذل ومخالف بالقلب واللسان والأركان، فالبغض لهم يعقد على الإخلاص والمخالفة بالقلب بالمخالفة في الاعتقادات والإنكار عليهم وبالمحبّة لأعدائهم الذين هم أنتم وشيعتكم وفي اللسان والأركان بترك الأخذ عنهم وبالأخذ بخلافهم في الأقوال والأفعال والأعمال، وبترك الاقتداء بهم والتشبّه بهم في الملابس وسائر الأحوال إلاّ لِتقيّة لأنها السدّ الذي ردمتموه بيننا وبينهم، وبالموالاة لمن جانبوا وهذا كله وأمثاله حدوده فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي هيكل التوحيد كما كان في الأولى، وليس الأولى خاصّة هيكلاً تامّاً للتوحيد ولا هذه أيضاً بل هما معاً تمام هيكل التوحيد، لأنّ الأولى متقوّمة بالثانية تقوّم ظهورٍ والثانية متقوّمة بالأولى تقوّمَ تحقّق، لأنّ الأولى هي مادة الإيمان من النور والثانية هي صورة الإيمان من الرحمة التي هي صبغة الله التي صبغ أحبّاءه المؤمنين فيها وهو قوله تعالى ﴿إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾.

فالتوحيد الحقّ ما هدى الله سبحانه أهل محبته إليه وهم الذين خلقهم للجنّة وخلق الجنّة لهم ولا يتحقّق ولا يعرف إلاّ بحدوده التي تعرّف بها لأوليائه، وهي الاعتراف بالوحدانية والاستقامة عليها بالاعتراف بالنبوّة والولاية لأوليائه

والبراءة من أعدائه الذين هم أعداء أوليائه وشيعتهم وما يتفرّع على هذه الحدود الكليّة من جميع جزئيّاتها وأجزائها وإلى هذه الإشارة بقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) وفي تفسير القمي (ثُمَّ اسْتَقَامُوا قال على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام)

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال (اسْتَقَامُوا عَلَى الأَئِمَّةِ وَاحِدٍ بَعْدَ وَاحِدٍ).

وقال علي عليه السلام في نهج البلاغة (وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ اللهِ وَحُجَّتِهِ قَالَ اللهُ تَعَالَى إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ وَقَدْ قُلْتُمْ رَبُّنَا اللهُ فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ ثُمَّ لا تَمْرُقُوا مِنْهَا وَلا تَبْتَدِعُوا فِيهَا وَلا تُخَالِفُوا عَنْهَا فَإِنَّ أَهْلَ الْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

وروى الطوسي في مجالسه بإسناده إلى أبي الصلت عبد السلام بن صالح الهروي قال (كنت مع الرضا عليه السلام لما دخل نيسابور وهو راكب بغلة شهباء وقد خرج علماء نيسابور في استقباله فلما سار إلى المرتعة تعلقوا بلجام بغلته وقالوا يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حدثنا بحق آبائك الطاهرين حدثنا عن آبائك صلوات الله عليهم أجمعين فأخرج رأسه من الهودج وعليه مطرف خز فقال حدثني أبي موسى بن جعفر عليه السلام عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين عن أبيه الحسين سيد شباب أهل الجنة عن أبيه أمير المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أخبرني جبرئيل الروح الأمين عن الله تقدست أسماؤه وجل وجهه قال إني أنا الله لا إله إلا أنا وحدي، عبادي فاعبدوني وليعلم من لقيني منكم بشهادة أن لا إله إلا الله مخلصا بها أنه قد دخل حصني ومن دخل حصني

أمن عذابي قالوا يا ابن رسول الله وما إخلاص الشهادة لله قال عليه السلام طاعة الله ورسوله وولاية أهل بيته عليهم السلام) .

أقول: وهذا الذي أشرنا إليه هو التوحيد الخالص الذي أشار إليه عليه السلام بقوله (مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا الله مُخْلِصاً دَخَلَ الْجَنَّةَ) ، فإنّ المراد بالإخلاص القيام بهذه الشروط التي هي في الحقيقة أركان التوحيد فافهم، بل ليس التوحيد إلاّ هذا وإلى هذا أشار سبحانه بقوله (إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ) فإن المراد بلا إله إلاّ الله ذلك لأنه سبحانه قال (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ الله يَسْتَكْبِرُونَ)

فتدبّر سياق الآيات وارتباطها بقوله (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ) فقد ورد من الطرفين أنّ المراد أنهم مسئولون عن ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، فمن ذلك ما في الأمالي وتفسير القمي قال عن ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وكذا في عيون الأخبار عنه عليه السلام وفي العلل عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في تفسير هذه الآية قال (لا يجاوز قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن شبابه فيما أبلاه وعن عمره فيما أفناه وعن ماله من أين جمعه وفيما أنفقه وعن حبنا أهل البيت)

وفي السادسة عشرة من مناقب ابن شاذان بإسناده عن أبي سعيد الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يقول إذا كان يوم القيامة أمر الله ملكين يقعدان

على الصراط فلا يجوز أحد إلا ببراءة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ومن لا يكون معه براءة أمير المؤمنين أكبه الله على منخريه في النار وذلك قوله تعالى وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ قال فقلت بأبي وأمي يا رسول الله ما معنى براءة أمير المؤمنين قال مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين وصي رسول الله صلى الله عليه وآله) .

أقول: فحيث لم يأتوا بهذه البراءة أخبر عنهم (أنهم إذا قيل إلا إله إلا الله يستكبرون) ثم فيدخل في الآيات كل من لم يأتِ بما أُمِرَ به إلاّ أنّه إذا تمسّك بالأصل المأمور به جاز في الحكمة العفو عن التقصير في بعض فروعه فلا يضرّه ذلك كما أنّ من ترك الأصل وتمسك بالضدّ المنهي عنه لم يجز في الحكمة القبول لشيء مما أتى به من الفروع فلا ينفعه ذلك وقد تقدّمت الإشارة إلى ذلك.

قال عليه السلام سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم

قال الشارح المجلسي تغمده الله برحمته أني صلح لمن صالحتم إيّاه بترك الجهاد معهم كما في زمان الغيبة أي لا أجاهد حتى تجاهدوهم أو أنا محبّ لشيعتكم وعدوّ لأعدائكم انتهى.

أقول: السِّلم الصلح والطّاعة وبمعنى الاستسلام والمحبّة والولاية والإسلام والمُسَالِم، فعلى معنى الصلح يكون بمعنى المصالح ليستقيم المعنى أي مصالح لمن صالحتم لاقتضاء المفاعلة المشاركة سواء كانت المصالحة بترك الجهاد كما ذكره الشارح أم بمعنى ترك المحاجّة أم باستعمال التقيّة في مواضعها أم بالرضى عمّن رضيتم عنه ورضي عنكم، كما في بعض شيعتهم على تأويل يطول بيانه.

وعلى معنى الطاعة أنّي مطيع لمن أطاعكم وإنْ عصاني لأنّ طاعتكم موجبة لا تضر مَعِها معصيةٌ لا تُنافيها، لأن المعصية التي تنافي طاعتهم وطاعة اللهِ هي عداوتهم وبغضهم وكلّ ما سوى هذه لا تضرّ مع طاعتهم، نعم لو عصاه لأنه مطيع لهم لم يكن مطيعاً لهم والمراد بطاعة من أطاعهم طاعته فيما لهم أوْ منهم لأنّ المعنى أنه مطيع لمن أطاعهم فيما هو طاعة لهم، وعلى الاستِسْلام إنّي منقادٌ لمن انقادَ لكم فيما لا ينافي مرادكم الذي هو مراد الله، وعلى المحبّة إنّي محبّ لمن أحبّكم بهوى القلب وثناء اللسان وعمل الأركان، وعلى الولاية أنّي وليّ لمن والاكم بالمعاني المذكور في الولي كما تقدّم، والإسلام كالطاعة والاستسلام والمحبّة والولاية وأنّ مَنْ سلمتم منه فيما تريدون منه كما سَلِمَ منكم فيما يريد الله سبحانه منكم فأنا أُواليه وأُصافيه ولا أُجانبه ولا أعاديه، فهو أي الإسلام كالمُسَالِمِ.

وهذه السبعة المعاني في سلم تجري في سالمكم فينضمّ كل واحدٍ منها في سلم مع كل واحدٍ منها في سالمكم فتكون تسعةً وأربعين معنى وكلّ واحدٍ منها يكونُ بالجنان وباللسان وبالأركان فتكون مائة وسبعة وأربعين وينضمّ إلى ذلك الاحتمالات المتعدّدة فيما تعدّدت فيه كما ذكرنا بعضها في معنى الصّلح، ويلاحظ في كلّ شقٍّ منها الحقيقة في حق بعض المُسَالِمين والمجاز في بعض والأغلبيّة في بعضٍ وأمثال ذلك فيشتمل على جميع مراتب الإيمان من كون السلم نفس المسالم في ولايتهم عليه السلام أوْ أخاهُ أوْ أنه تَعارف معه عليها وعلى جميع آحاد فروعها، ولا يشترط في كونه سلماً للمُسَالم الموافقة في كلّ شيء ممّا أشير إليه وإلاّ لما وُجد ذلك إلاّ في الأربعة عشر المعصوم عليه السلام كما لا تكفي الموافقة في شيء واحدٍ من ذلك حيثما اتّفق وإلاّ لما وقع اختلاف بين أحدٍ من الخلق، والشرط الموافقة في الأصل الأعظم

وفي معظم الأشياء بحيث لا تكون جهة المخالفة أرجح أوْ مُسَاوية فافهم.

وحيث كان المراد من السلم حقيقةً الولاية، وإنّما ذكر له وجوهاً لأنّ هذه الوجوه من المعاني اللغويّة للسلم وكلها عند أهل البيت عليهم السلام من الولاية فلذلك ذكرنا كثيراً منها هُنا، كان قوله عليه السلام (حرب لمن حارَبكم) يراد به البراءة من أعدائهم على نحو ما تقدّم في موافقةِ الرّكنيّة لقوله (سلم لمن سالمكم) ومخالفة الضّدّيّة له وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، فَإِنْ زَلَلْتُمْ) يعني عن الدخول في السلّم، ففي أصول الكافي قال (في ولايتِنا).

وفي تفسير علي بن إبراهيم قوله (ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً) قال في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام)

وفي أمالي الشيخ قال الصادق عليه السلام (في ولاية علي بن أبي طالبٍ عليه السلام وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ قال لا تتبعوا غيره).

وفي تفسير العيّاشي عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام إلى أن قال (أتدري ما السلم قال قلت أنت أعلم، قال ولاية علي والأئمة الأوصياء من بعده، قال وخطوات الشيطان والله ولاية فلان وفلان)

وعن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام في هذه الآية قالا (أمروا بمعرفتنا)

وعن أبي جعفر عليه السلام (السلم هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أمر الله بالدخول فيه)

وعن أبي جعفر عن أبيه عليهما السلام (هو ولايتنا)

وقال أمير المؤمنين عليه السلام وقد ذكر عترة خاتم النبيّين والمرسلين (وهم باب السلم فادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان)

أقول: والأحاديث متظافرة في هذا المعنى بأن السّلم الولاية وخطوات الشيطان ولاية أعدائهم، وإذا وافقت في الضّدّيّة كان المؤمن حرباً لأعدائهم بالمجاهدة بالسّيف حيث يسوغ وبالمحاجّة بالبراهين وبالمداهنة والتّقيّة في مواضعهما وبالإعراض مطلقاً إلى فتحِ سدِّ يأجوج ومأجوج أو حتّى يخوضوا في حديث غيره أو بالمغفرة لهم أي عدم الانتقام ليكون الله عز وجل هو الذي ينتقم منهم لأنه شديد الانتقام وهو قوله تعالى (قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ) وأيّام الله الأئمة عليهم السلام أي لا يوالونهم ولا يقتدون بهم، وأوّل وقت الانتقام قيام القائم عليه السلام اللهم عجّل فرجه وسهلّ مخرجه.

وقولي حتّى يخوضوا في حديث غيره أُشيرُ به إلى أنّ خوضهم في آيات الله عليهم السلام اتّخاذ أَوْلياء من دونهم فحينئذٍ جهادُهم قبل قيام ولي الله عليه السلام الإعراض عنهم إلى أن يدخلوا في ولايةٍ أخرى كَأَمرِ معاشهم من بيعهم وشرائهم وزراعتهم وما أشبه ذلك، وذلك لأن الحديث والقول والكلمة وما أشبه ذلك في التأويل رجالٌ طاهرون وعباد مكرمون كما نطقت به أحاديث أهل العصمة عليهم السلام في تأويل كلام الله سبحانه قال تعالى (وَلَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) أي (إِمَامٌ إِلَى إِمَام) عن الكاظم عليه السلام أوْ (إمام بعد إمام) عن الصّادق عليه السلام وقال تعالى (بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ) وقال تعالى(ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللهِ) وقال تعالى (لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي) الأئمة عليهم السلام وقال تعالى (اللهِ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ) الآية، وقال تعالى (فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ) وأحسن القول هو أحسن الحديث في الآية الثانية في قوله تعالى (هذا كِتابُنا يَنْطِقُ

عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ).

والحاصل أنّ من عرف التّأويل من كلامهم صلى الله عليهم ظهر له أنّ القرآن يرجع تأويله وباطن تأويله بأجمعه فيهم وفي شيعتهم وفي أعدائهم وفي شيعتهم وأنّ كلّ الخلق أمّا معهم أو مع أعدائهم، وإنّ ما أشرنا لك هنا من البيان والتلويح هو من وصف سلم لمن سالمهم حربٌ لمن حاربهم والله الموفّق.

قال عليه السلام محقق لما حققتم مبطل لما أبطلتم

قال الشارح المجلسي رحمه الله محقِّق أي أعتقد أنه حقّ أوْ أسعى في بيان أنه حق بالأدلَةِ كما في الإبطال.

أقول: إنّي محقق لما حققتم أي أعتقد أن ما أثبتموه ثابت وما أبطلتموه باطل أوْ أعلم ذلك بالأدلّة القاطعة.

فالأول: متفرّع على ما ثبت بالأدلّة القطعية عقلاً ونقلاً من أنّهم عليهم السلام عالمون لا يجهلون ومعصومون لا يكذبون ومسدَّدون لا يخطئونَ ومؤيّدون لا ينزفون وناصحون لا يغشّون وحكماء لا يتجاهلون ولا يزهون، وذاكرون لا ينسون ومتيقّظون لا يغفلون ومتوسّمِون لا يُهْمِلون خلقهم الله له وخلق الخلق لهمِ وأشهدهم خلقَ أنفسهم وخلقَ كلِّ شيء من خلقه واتّخذهم أعْضاداً لخلقِه وأشهادا عليهم ومُنَاةً لهم وأذواداً لهم وحفظةً عليهم ورُوَّاداً لهم، وجعلهم محالّ مشيّته وألْسِنةَ إرادته فلا ينطقون إلاّ عن الله عز وجل ولله وبأمره لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، فإذا ثبت لهم ما سمعتَ في حقّهم بالأدلّة القاطعة ثبت أنّ الحقّ ما حقّقوه والباطل ما أبطلوه، لا يشكّ في شيء من أقوالهم وأحوالهم

وأفعالهم وأعمالهم من لم يشكّ فيهم ولا فيما لهم.

والثاني: أنّ من عرف لهم ما ذكرنا في حقّهم آتاهُ الله علماً ونوراً وشرح صدره حتى يشاهد الغيب ويعرف الحقّ حقّاً كما عرّفوه والباطل باطلاً بما أبطلوه، فإن هذا هو الإحسان الذي وعد سبحانه من اتّصف به أن يؤتيه العلم قال تعالى (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

وقال ﷺ (ليس العلم بكثرة التعلّم وإنّما هو نور يقذفه الله في قلبِ من يشاء فينشرح فيشاهد الغيب وينفسح فيحتمل البلاء قيل وهل لذلك من علامةٍ قال ﷺ التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله) وقال الباقر عليه السلام (ما من عبدٍ أحَبّنا وزاد في حُبِّنا وأخلص في معرفتِنا وسئل مسألة إلا ونفثنا في روعه جوابا لتلك المسألة).

وقد ذكرنا فيما سبق معنى ما أشير إليه في هذا الحديث وغيره من الأخبار المتكثرة من أنهم عليهم السلام أبواب الله ومصدر الفيض من خزائنه فلا يصل إلى أحد من الخلق شيء إلا بواسطتهم وقد مر مكررا فمن حقق متحققا فبما حققوه له لأنهم الأدلاء إلى كل خير والهداة إلى كل صواب، وكذلك من أبطل باطلا فإنما أبطله بما أبطلوه له وإلى ما ذكرنا الإشارة بقوله تعالى (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) و (نا) الذي هو ضمير المتكلم ومعه غيره أي هم عليهم السلام معه كما في كلام الصادق عليه السلام في قوله تعالى (وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ) الآية، قال (نحن الذين عنده)، ومعنى معه في الكلام أنه محل كلامه وتراجمة وحيه والحاكون عنه، وأن (نا) ضمير المعظم نفسه وهم تلك النفس المتكلمة المحدثة وهم تلك العظمة وهم الصفة وهو الموصوف بهم وصفا فعليا،

وهم الأسماء وهو المسمى بهم تسمية التعريف والمحبة.

فيكون المعنى أني باتباعكم والأخذ عنكم والرد إليكم والتسليم لكم والاقتفاء لآثاركم والاهتداء بهداكم والتفويض إليكم في كل شيء محقق لما حققتم مبطل لما أبطلتم، إذ ليس لي معرفة ولا علم إلا منكم ولا بصيرة إلا بكم ولا نور أستضيء به في طرق حقائق الأشياء إلا ما أفدتمونيه من فاضل أنواركم كما أمركم الله سبحانه.

والذي حققوه عليهم السلام معرفة الله بما وصف به نفسه وتوحيده بما دلهم عليه ومعرفة ما وصف به نفسه وعرف به من أفعاله وعلم من عبادته واتباع أوامره واجتناب نواهيه والإقرار بنبوة الأنبياء ووصية الأوصياء عليهم السلام خصوصا نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووصية أوصيائه وإمامتهم عليهم السلام والإيمان بهم والإقرار بفضائلهم والتسليم لهم والرد إليهم والتفويض إليهم في كل شيء من التكاليف والأحوال والاعتقادات وجميع ما يريد الله من جميع خلقه في الدنيا والآخرة وأن الله سبحانه أعطاهم عليهم السلام كل شيء وجعل لهم الدنيا والآخرة وقرن طاعتهم بطاعته ومعصيتهم بمعصيته ورضاهم برضاه وسخطهم بسخطه، فلا يقبل طاعة من أحد من خلقه إلا إذا كانت مع طاعتهم ، وأن التكليف تشييد لمجدهم وتأسيس لطاعتهم وإظهار لفضائلهم ونشر لمادحهم ودعاء إلى سلطانهم، وأن الحق لهم ومعهم وفيهم وبهم، وأنهم حجج الله وأبوابه وبيوت الله وعينه ووجهه وحكمه وأمره وعلمه وخزائنه ومفاتح غيبه وجميع معانيه وظاهره في خلقه وسُفَراؤه إلَيْهم فيما يجري عليهم من أحكام قضائه من خير أو شرٍّ محبوب أوْ مكروه، وأنّ ما أنزل سبحانه من كتبه وأوامره ونواهيه إلى أنبيائه ورسله والمستحفظين

لدينه وأحكامه وما أخبروا به عنه سبحانه ممّا يريد من عباده مما يتعلّق بأعمالهم واعتقاداتهم كأحكام تكليفاتهم وحياتهم ومماتهم في الأيّام الخمسة، الذرّ والدّنيا والرجعة والبرزخ والآخرة لم يكن شيء مما ذكر ونحوه ولا شيْء من أفراده وما يتفرّع عليه إلاّ ذكروهُ وحقّقوه وأشاروا إلى دليله، عرف ذلك من عرفه وجهل من جهل وأنكر من أنكر فالمؤمنُ الثّابتُ الإيمان محقق لما حقّقوه على ثلاثة أنحاء، مؤمن اعتقد ذلك بالتسليم لهم وهو دليل إجمالي، ومؤمن اعتقد ذلك مع التسليم لهم بسماعه ذلك من أقوالهم وإرشاداتهم عليهم السلام بحسب مفهومه وقد يسمّى دليلاً تفصيليّاً والحقّ أنّ هذا التفصيل في صورة الدليل لا في حقيقته ولا في المدلول، ومؤمن اعتقد ذلك بعلمه كما أشار إليه سبحانه بقوله (وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) والمراد بهذا العلم الخاص أنّه قرأ الكتاب الكبير الذي كتب فيه القلم بيد الله عليه السلام، كما أمره عز وجل آياته وأمثال ما شاء لما يشاء، والكتاب الكبير هو آفاق العَالَم كذا الكتاب الصغير وهو الإنسان كتب ما كتب في الكبير فلمّا قرأ فيهما بتبْيانهم عليهم السلام وشاهَدَ ما أوْقفُوه عليه شاهَدَ المدلول في الدليل وفي نفس المدلول والمدلول دَليلاً وهذا هو التفصيلي حقيقة، وصاحب هذه المعرفة هو الذي عنيناه أوّلاً بقولنا الثاني إنّ من عرف لهم ما ذكرنا في حقّهم آتاه الله علماً ونوراً وشرح صدره حتّى يشاهد الغيب ويعرف الحقّ حقّاً كما عرّفوه . . .الخ، هذا في الحق وفي الباطل على هذا حرفاً بحرفٍ فقابل هذا بهذا في جميع التفاصيل.

قال عليه السلام مطيع لكم عارف بحقّكم مقرّ بفضْلكم

أقول: قد تقدّم معنى هاتين الفقرَتيْنِ مفرّقاً ولا بأس بالإشارة إلى مجمل ذلك هنا لأنّ ذكره هنا يكون مجتمعاً فيكون أدلّ ولِئلاّ يحتاج الناظر إلى التّتبّع في المراجعة وقد يحصل عنده بعض هذا الشرح ومطلوبه في البعض الآخر فلا يتمّ مطلوبهُ مع أنّ إعادته كما قال الشاعر:

أَعِدْ ذِكرَ نَعْمـــانٍ لنا إنّ ذكـره
هو المِسْكُ مَا كرَّرْتَـــهُ يَتضَوَّع

فأقول: قد تقدم فيما ذكرنا أنّ الله سبحانه خلقهم عليهم السلام لَهُ فلا يقع منهم فعل أو عمل أو قول أو اعتقاد حقيّة حقّ أو بطلان باطل أوْ حركة أو سُكونٌ إلاّ له تعالى وما له إلاّ ما أمر به، وما من شيءً لشَيْء أو عن شيء أو بشيء إلاّ به تعالى، فهم عليهم السلام وما مِنْهم وعنهم وبهم ولهم حمده وثناؤهُ ومعرفته وذكره وآلاؤه ثم خلق خلقه لهم وذلك لِتَتْميم ما لَهُ وتكميله فلا يقبل الله سبحانه طاعة شيء من خلقهِ إلاّ بطاعتِهمْ ولا يقبل شيئاً من طاعتهم إلاّ له، ولم يقبل شيئاً لهُ من طاعة خلقه إلاّ لهم فليس لهم من الطاعات والأعمال إلاّ ما كان له منهم لأنّهم عليهم السلام له ولا يكون شَيْء طاعة له إلاّ ما كان لهم لَهُ فقوله (مطيع لكم) أي لكم لله فإطاعَةُ المؤمِنِ لهم حقيقة أن يعمل لله بكل ما أمرُوا به وأنْ ينتهي للهِ عن كُلِّ ما نَهَوْا عنه، وذلك عامّ في كلّ حقٍ والنهي عن كلِّ باطل، ومن الأوّل مثلاً أنْ يقول الخمسة ثلاثة واثنان، ومن الثاني أن تقول الخمسة اثنان واثنانِ، وإلى نحو هذا أشار تعالى حكاية عن بعض من عمل بالثاني (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفى بِهِ إِثْماً مُبِيناً).

ثم إنّ الطاعة قد تكون صوريّة بأن تكون العبادة مثلاً رياءً فصورتها طاعة

وحقيقتها معصية ولذا قال تعالى (يُراءونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً) أي ممّا لم يُراءوا فيه أوْ أنّ ذكرَ الله في صلاتهم قليل، أوْ بصورة صلاتهم أو بالذكر والنسيان، وقد تكون غير ثابتةٍ بل تكون متزلزلةً كمن عبد سمعةً فعبادته واقفة بين القبول بنسبتها كما لو مات قبل أنْ يطلِعَ عليها أحداً وبين الرّدّ كما إذا أطلع عليها أحداً، وكاعتقاد المنافق فإنّه وإن طابَق صورته الواقع كما إذا أقرّ بالحقّ وربّما أثيب عليه بثواب الدنيا بمثل حقن الدماء وتحريم الأموال والدماء ظاهراً وكالتناكح والتّوارث، إلاّ أنّ باطنه من ذلك المعتقد غير مطابقٍ للواقع لأنه منكر له وهو عالم به، فكان في إقراره كاذباً كما قال تعالى حكاية عنهم (قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ) لأنّ اعتقاد المنافق في الحقيقة رؤية الحقّ ومعرفته حَقّاً لا الثبات عليه بأن يجري على مقتضاه ولو بالعزم لأنّ رؤية الحق ومعرفة كونه حقّاً لا غير لا يثبت به الإيمان الّذي هو الثبات على الحقّ إلاّ باستعمال أركانه الثلاثة كلٌّ في محلّه، وهي الاعتقاد الّذي هو جزء الإيمان كما ذكرنا والإقرار باللّسان والعمل بالأركان، وفي الخصال عن الصادق عليه السلام في الحديث الطويل (والإيمان هو معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان) فإذا حصلت هذه الثلاثة متطابقةً لا يرد على شيء منها واردٌ من الآخر ينافيه بفعل أو عزم تحقّق الإيمان، وقول الأكثر منّا أنه التصديق القلبي لا غير وأنّ ما ورد عنهم عليهم السلام من أنه تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان كما هو مذهب المعتزلة وجماعة منّا فتوجيه صحته إمّا بأن يراد به أقلّ ما يتحقق به مصداقه مع اعتبار العزم على الإقرار والعمل، وإلاّ لكان هو المعرفة الّذي هو شرط قيام الحجة على المكلّف لأنه جحد ما استيقن ومعنى جحوده

أنه لم يجر على مقتضى استيقانه ولو بالعزم ولهذا قال تعالى في حقهم (وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً) أوْ أن التّصديق أقوى أركانه وأعظمها فإذا صدّق فقد أتى بمعظم ما طُلِبَ منه، أوْ لأنّه مستلزم لهما غالباً، أو لأنّهما تصديق لساني وأركاني، كما أنه عمل وإقرار قلبي فيشملهما إذا أطلقَ.

وأمّا تحقّقه بهما مع التطابق فهو الإيمان الكامل فالتّصديق المُعرَّى عنهما وعن العزم عليهما ليس إيماناً وقد تكون الطاعة قبول التكليف الوجودي المسمّى بالشرعي الوجودي وهو ظاهر الشرعي، وهذه في الحقيقة كلها يصدق عليها اسم الطاعة ظاهراً، قال تعالى في رجل من المنافقين (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ) فوصفه بالإيمان لعلمه وقوله مع أنّه ما آمن بالله طرفة عين وكذا إيمان صورته وهذه وأمثالها تدخل في اسم الطاعة بوجهٍ لكن لمّا كانت لا تترتّب عليها نجاة مما أُريدَتْ للنجاة منه لم تدخل في الطاعة حيث تطلق مع أنّ ما قد يترتّب عليها من الثواب كلّه أوْ جُلُه إنّما هو في الدُّنْيا لا يكاد يَصِل إلى البرزخ منه شَيء فضلاً عن أن يصل إلى الآخرة، فلا تدخل في الطاعة حيث تطلق، نعم لو كان شيء من عمل يترتّب عليه ثواب الدنيا لا غير، لكنه يترتّب عليه النجاة مما أُريد للنجاة منه أو حصول ما أُريدَ له كالأوامر والنّواهي الإرشادية أمكن دخول الامتثال به في الطّاعة في قوله عليه السلام (مطيع) مثل ما استشار علي بن محمد علاّن خال الكليني صاحب الزّمان عليه السلام وعجل الله فرجه في السفر للحج فنهاه عليه السلام فمضى وقُتِل فإنّه يصدق على ذلك المعصية، وإن كان النهي إرْشادّياً ولو لم يمض صدق عليه أنه أطاع إلاّ أن الطَاعة تختلف باعتبار مراتب التكليف والمكلّفين ولا يبعد ربط هذه الطّاعة

بقوله ﷷ (عارف بحَقِّكم) لأنّ الطّاعة باعتبار الإخلاص ومحبّة القيام بخدْمة الآمر تكون على حسب المعرفة بحقه، ولهم ﷷ في الوجود بحسب ما نُدِبُوا إليه أربع مراتب.

الأولى: مرتبة المقامات التي لا تعطيل لها في كل مكان وحقّهم هنا معرفتهم يعني معرفة الله سبحانه بهم وهو قول الحجة ﷷ في دعاء شهر رجب (يعرفك بها من عرفَك) وقولهم ﷷ (من عرفنا عرف الله) وقولهم ﷷ (من لم يعرفنا لم يعرف الله) وقول علي ﷷ (نَحْنُ الأَعْرَافُ الَّذِين لا يُعْرَفُ الله عَزَّ وَجَلَّ إِلا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِنَا).

الثانية: مرتبة المعاني وحقهم معرفة أنّهم معانيه سبحانه يعني معاني أفعاله فهم علمه وقدرته وحكمه وأمره وعدله وعينه وأُذُنه ولسانه وقلبه ووجهه ونوره ويده وعضده وكتابه وخزائنه ومفاتح خزائنه، وعيبة علمه وأسرار غيبه ومحالّ مشيته وألسِنَةُ إرادته وصفاته العليا وأسماؤه الحسنى وأمثاله العُلْيا ونِعَمُهُ الَّتي لا تُحْصَى، إلى غير ذلك من معاني أفعاله ومظاهر إبْداعاتِه واختراعاتِه، ومعنى معرفة أنّهم معانيه مشاهدة ذلك في عبادتهم ودُعائهم وذكرهم وفكرهم واعتبارهم وفي جميع وُجْداناتهم ووجوداتهم فيتوجّه الداعي إلى الله بهم ويخاطبه ويناجيه بهم وهكذا.

الثالثة: مرتبة الأبواب ومعرفة حقّهم فيها أن يعلم أنّهم أبواب الله التي منها يؤْتَى في سائر العبادات والدعوات والمناجاة وطريق قبول الأعمال، ومنها يُؤتي عباده ما يشاء من خلق ورزْقٍ وحياةٍ ومماتٍ في غيبهم وشهادتهم وفي ذواتهم وأحوالهم وأقوالهم وأفعالهم وأعمالهم وما منه صادرون وإليه صائِرون فلا يخرج

من الخزائن خارج ولا يَصعَدُ إليها صَاعِدٌ إلاّ منهم وبهم فهذا ومثله من معرفته واعتقاده حقهم عليهم السلام في هذه المرتبة.

الرابعة: مرتبة ظاهر الإمامة وحقّهم في هذه المرتبة فرض طاعتهم والاقتداء بهم والرَّدِّ إليهم والأخذ عنهم والتسليم لهم وتفضيلهم على مَنْ سواهم وأن لا يسوي بهم غيرهم في نسب ولا حسب ولا علم ولا شجاعة ولا كرم ولا تقوى ولا زهد ولا صلاح ولا ديانة ولا عبادة ولا إخلاص ولا قرب منزلة من الله ولا في شيء من محاسن الأحوال والأفعال ومكارم الأخلاق لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا مؤمن ممتحن وأن كل ما نسب إلى غيرهم من المحاسن والمكارم والصفات الحميدة فإنما هو ذرة من تيار متلاطم من بحار ما أوتوا من الفضائل كيف وقد سأل يحيى بن أكثم أبا الحسن العالم عليه السلام عن قوله تعالى (سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله) ما هي فقال هي (عين الكبريت وعين اليمين وعين البرهوت وعين الطبرية وحمة ماسيدان وحمة أفريقية وعين ناجروان (بلعوران) ونحن الكلمات لا تدرك فضائلنا ولا تستقصى).

والحاصل حقهم أن تعتقد أنهم أولياء الله على جميع خلقه وأوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلفاؤه على أمته والقوّام بدينه بعده وحفظة شريعته القائمون مقامه في كل شيء أقامه الله فيه لخلقه ما عدا النبوة.

فقولي لا يبعد ربط هذه الطاعة بقوله عارف بحقكم لأنه إذا لم يعرف حقهم ربما أطاع بما ينافي حقهم فتكون تلك الطاعة معصية لهم وإنما قلت لا يبعد لأن كلام الإمام عليه السلام يراد به أحد وجوه متعددة، أو يراد منه وجوه متعددة.

وقد وردت آثارهم عليهم السلام بما يدل على الإرادتين، لأنه قد يلاحظ ويقصد

إحداها أي أحد السبعين الوجه كما روي عنهم، إما لأنه المتعارف فينصرف الإطلاق إليه عرفا أو يراد منه الإبهام أو التعريف أو التعميم ليعلم كل أناس مشربهم ويتيسر كل لما خلق له وينال ما كتب له وغير ذلك فإن أريد الأول مثلا اتجه عدم ربط هذه الطاعة بمعرفة الحق، وإن أريد الأخير تعين الأخير، وإن أريد الوسط احتمل الربط وعدمه.

وقوله عليه السلام (مقر بفضلكم) يحتمل بناؤه على ما قبله لأن من عرف حقهم تبين له أنهم لا يساويهم خلق فيلزمه الاعتراف والإقرار بفضلهم ويكون المراد من هذا الفضل ما هو أعم من الظاهر فيدخل فيه الأسرار والفضائل الظاهرة لأن بناءه على ما قبله يترتب على المراتب الأربع ويظهر لك أن من فضائلهم ما لا يحتمله سواهم كما هو مقتضى الأولى وبعض الثانية ومنها ما لا يحتمله إلا الخصيص من الشيعة الأخصّ فالأخصّ كالأنبياء والمرسلين، والكرُوبيّين وكبعض المؤمنين الممتحنين أولي المدُنُ الحصينة ومن شاءوا عليهم السلام تعليمهم وذلك كالبعض الآخر من الثانية وبعض الثالثة، ومنها ما لا يحتمله إلاّ الخواصّ من الشّيعة كبعض الثالثة الآخر وبواطن مقتضى الرابعة، ومنها ما يحتمله عوامّ الشيعة كظواهر مقتضى الرابعة، وهذا المقرّ يعرف من فضلهم بقدر رتبته من الإيمان ودرجته من الإحسان (هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلاَّ الْإِحْسانُ) وقيمةُ كلّ امرئ ما يحسنه ورتبته ما يتحقّق ويستقرّ فيه ويستقيم عليه من درجات الإيمان.

ويحتمل عدم بنائه على ما قبله ويكون الإقرار على حسب المعرفة والعزم على الموافاةِ والإدراك وبدون المعرفة والإدراك والعزم على الموافاة لا ينفع بل ربّما يضرّ كما تقدمت الإشارة إليه في حق المنافقين، نعم لو فقدت المعرفة والإدراك

لم يتحتّم عليه العزم على الموافاةِ إذا لم يفهم ولم يعزم على عدم الموافاة لجهل أو لخبث طينةٍ، فإذا فَقَدَ هذه الأشياء كفاه التسليم في حفظ أصل إيمانه إذا لم يجد في نفسه المنافاة كما أشار سبحانه إليه بقوله الحق في خطاب وليّه الحقّ وخليفة رسوله المصدّق ﷺ (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) فإذا لم يبن عليه ترجّحت إرادة الخصوص من الطاعة لأن الإقرار بالفضل من أعظم أفرادها لأنه إطاعة المرء لعَقْلِه فيما دلّه عليه من هذه الفضائِل لأنّ هذه الفضائل آثار أفعْالِ الربوبيّة بتراجمة العبوديّة في أفعال ألسنَةِ الرّبوبية وأيْديها وخلق الله المكلّفين فيما فطرهم عليه من صِبْغَتِه على هَيْئات تلك الآثار، فمن لم يغيّر البُنْيَةَ ولم يبدل الفِطرةَ لَزِمه الإقرار بفضائلهم التي هي تلك الآثار وهو لب الطّاعة ومخّ العبادة لأنّها هي الثّناء على الله تعالى وتسبيحه وتحميده وتهليله وتكبيره وتمجيده بألسنةِ إرادته وإليه الإشارة بها في الزيارة الجامعة الصغيرة التي رواها في المصباح قال (إِنِّي لَمِنَ الْقَائِلِينَ بِفَضْلِكُمْ مُقِرٌّ بِرَجْعَتِكُمْ لا أُنْكِرُ للهِ قُدْرَةً وَلا أَزْعُمُ إِلاَّ مَا شَاءَ اللهُ سُبْحَانَ اللهِ ذِي الْمُلْكِ وَالْمَلَكُوتِ يُسَبِّحُ اللهَ بِأَسْمَائِهِ جَمِيعُ خَلْقِهِ وَالسَّلامُ عَلَى أَرْوَاحِكُمْ وَأَجْسَادِكُمْ...الخ)وهم عليهم السلام أسماؤه الحسنى التي أمركم أن تدعوه بها وفي تفسير العياشي عنه عليه السلام (إذا نزلت بكم شدة فاستعينوا بنا على الله وهو قول الله (وَللهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا) قال أبو عبدالله نحن والله الأسماء الحسنى الذي لا يقبل من أحد إلا بمعرفتنا) فتسبيحه تعالى بأسمائه موالاتهم والبراءة من أعدائهم والإقرار بفضائلهم واعتقادها وبنقائص أعدائهم واعتقادها، والتسليم لهم والرد إليهم وسؤال الله بهم، والتسليم والصلاة عليهم وزيارة قبورهم وذكر

ممادحهم ومثالب أعدائهم وذكر مصائبهم ورثاهم والبكاء عليهم ولهم وترك الهم عند ذكر مناقبهم وما خصهم الله به فقد جعل سبحانه ذلك شعار الإيمان والخضوع لعرفان الحق من الملك الديان فقال (وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) وقلت في ذكر فضائلهم ومصائبهم في قصيدة رثيت بها سيد الشهداء عليه وعلى آبائه وأبنائه الصلاة والسلام:

فهيهات ما قضيت مـــن شغـــفي بكم
مناي ولا نــوحي لكـــم وانقضى العمر

وقبله:

أهيم ببلـــواكم أهيـــم بحبكـــم
ودمعي علـــى الحالين من شغفي غمر

وبالجملة فيما خصصنا به أن الطاعة والإقرار بالفضائل متساويان لأن المراد عندنا من الطاعة ليس مخصوصا بما هو معروف عند العوام والإقرار بالفضائل ليس مقصورا على اللسان بل به وبالجنان وبالأركان وهو تأويل قوله تعالى (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا) وقوله تعالى (أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ) والأصل أن المعبود الحق جل وعز إنما يدعى ويعبد ويسبح بها أمر من أسمائه وهم أسماؤه فإنك إذا قلت يا زيد فإن المدعو هو الذات المسماة بهذا اللفظ واللفظ هو الاسم هذا إذا كان الاسم اسم ذات ومرتجل فإن كان اسم فعل كان الاسم في الحقيقة هو اللفظ ومفهومه والمسمى هو المعني

باللفظ وبمفهومه لأن اللفظ حينئذ اسم فعل ومفهومه الفعل وهما اسمان للذّات من حيث ظهورها بذلك الفعل الخاصّ، كالقائم إذا جعلناه اسماً لزيدٍ فإنّا نريد باللفظ ما ظهر به زيد من القيام والمفهوم من هذا اللفظ هو ما ظهر به زيد من القيام فلفظ قائم ومعناه أي مفهومه اسمان لزيدٍ من حيث ظهوره بالقيام فهم عليهم السلام أسماءٌ له تعالى من حيث ظهوره تعالى بفعله لما فعل حقائقهم مفهوم الألفاظ التي يُدْعَى بها، كما لوّحنا لك في المرتبة الثانية وليسوا عليهم السلام أسماء للذات البحت المقصودة بالعبادة لأن الذات البحت لم يكن لها اسم يقع عليها وأسماؤه الحسنى إنّما هي لما دَلَّ به على نفسه وعَن ابْنِ سِنَانٍ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام (هَلْ كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَارِفاً بِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ يَرَاهَا وَيَسْمَعُهَا قَالَ مَا كَانَ مُحْتَاجاً إِلَى ذَلِكَ لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْأَلُهَا وَلا يَطْلُبُ مِنْهَا هُوَ نَفْسُهُ وَنَفْسُهُ هُوَ قُدْرَتُهُ نَافِذَةٌ فَلَيْسَ يَحْتَاجُ أَنْ يُسَمِّيَ نَفْسَهُ وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً لِغَيْرِهِ يَدْعُوهُ بِهَا لأَنَّهُ إِذَا لَمْ يُدْعَ بِاسْمِهِ لَمْ يُعْرَفْ فَأَوَّلُ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ لأَنَّهُ أَعْلَى الأَشْيَاءِ كُلِّهَا) انتهى.

فحيث ظهر لك أنّه سبحانه إنما سمى نفسه لغيره وأنهم أسماؤه التي تسمّى بها لخلقه ليدعوه بها ويعبدوه بها ظهر لك أنّهم معاني أفعاله وأوامره ونواهيه ولو عرفتَ ما انطوي عليه ما ذكر في المرتبة الثانية رأيتَ أن جميع التكاليف وهيئات العبادات صفات معانيه وهيئات أوامره ونواهيه عرف من عرف وجهل من جهل ومن عرف فأمامه اليقين ومن جهل فأمامه سجّين.

قال عليه السلام محتمل لعلمِكم محتجِبٌ بذمّتِكم معترِفٌ بكم

قال الشارح المجلسي رحمه الله محتمل لعلمكم أي أعلم أنه حق وإن لم تصل إليه

عقولنا محتجِب بذمّتكم أي مستتر وداخل في الداخلين تحت أمانكم أوْ أجعل الدخول في أمانكم مانعاً من النار والشياطين، كما ورد عن النبي ﷺ أنه قال الله تعالى (محبّة عليّ حصني من دخل حصني أمِنَ من عذابي) رواه الصدوق وغيره هـ.

وقال السيد نعمت الله الجزائري تغمده الله برحمته في شرح التهذيب محتمل لعلمكم قيل معناه أني أرويه وإن لم أفهم معانيه.

أقول: يجوز أن يكون إشارة إلى ما روي عنهم عليهم السلام (علمنا صعبٌ مستصعب لا يحتمله إلاّ نبي مرسل أو ملك مقرّب أو عبدٌ امتحن الله قلبه للإيمان) ومعناه حينئذ إنّي مصدّق بتفاصيل علومكم وأنّ عندكم علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامةِ.

وكما رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (لو لا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان وِما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة وهي هذه الآية يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ).

محتجب بذمّتكم أي احتجِبُ عن شرور الدّارَيْنِ بالدّخول في حماكم وجواركم وعهدكم انتهى.

أقول: ظاهر قوله محتمل لعلمكم أنّي أعلم حقيّة علمكم عن علمٍ وفهْمٍ لأن الاحتمال في هذا المقام أغلب ما يستعملونه عليهم السلام في العلم به عن إدراكٍ وإنْ كان علمي لا يسع تفاصيل علمهم وقد يستعملونه هنا بمعنى التّسليم، فإنّه يطلق على العلم الراسخ كما قال تعالى (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا) فسمّى أهل التسليم راسخين في العلم وأثنى عليهم ثانياً فقال (وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبابِ) وقد يستعمل في الكتمان والحفظ.

وممّا يدلّ على الأول قول الصادق عليه السلام (إن حديثنا صعب مستصعب شريف كريم ذكوان ذكي وعر لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن قلت فمن يحتمله جعلت فداك قال من شئنا) وفي رواية (نحن نحتمله).

لأنّ الملك المقرب الخ، لا ينكرونه وإلاّ لكفروا فليس المراد بنفي الاحتمال إلاّ عدم العلم والفهم ويؤيّده ما في الرواية الأخرى من قوله عليه السلام (نحن نحتمله) لأنّ المراد من احتمالهم لعلمهم فهمهم له وكذلك قال عمير الكوفي في معنى حديثنا صعبٌ مستصعب لا يحتمله ملك مقرّب ولا نبي مرسل (فهو ما رويتم أنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف ورسوله لا يوصف والمؤمن لا يوصف فمن احتمل حديثهم فقد حدّهم ومن حدّهم فقد وصفهم ومن وصفهم بكمالهم فقد أحاط بهم وهو أعلم منهم) انتهى.

ومثله ما ورد عن الصادق عليه السلام في تفسيره للحديث الذي فيه لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب الخ، قال عليه السلام (إن من الملائكة مقرّبين وغير مقرّبين ومن الأنبياء مرسلين وغير مرسلين ومن المؤمنين ممتحنين وغير ممتحنين وإن أمركم هذا عُرِضَ على الملائكة فلم يقرّ بِهِ إلاّ المقرّبون وعرض على الأنبياء فلم يقرّ به إلاّ المرسلون وعُرِضَ على المؤمنين فلم يقرّ به إلاّ الممتحنون).

فإن قلت: إنّ قولك لأنّ الملك المقرّب لا يُنكره وإلاّ لكفر يشعر بأنّ مَن أنكره فقد كفر ويلزم من هذا أن الملك الغير المقرّب والنبي الغير المرسل والمؤمن الغير الممتحن الذين لم يحتملوا ولم يقروا منكرون له.

قلتُ: إنّ الإنكار لا يكون ولا يتحقّق إلاّ بعد المعرفة كما قال تعالى (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) و قال تعالى (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا) فمن لم يحتمل أو لم يقبل لا عن معرفةٍ بل عن قصورٍ لا يكون منكِراً كما كان ذلك

في حق آدم عليه السلام قال تعالى (وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً).

وفي العلل عنه عليه السلام في حديث (وَأَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُولِي الْعَزْمِ أَنَّنِي رَبُّكُمْ وَمُحَمَّدٌ رَسُولِي وَعَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَوْصِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ وُلاةُ أَمْرِي وَخُزَّانُ عِلْمِي وَأَنَّ الْمَهْدِيَّ أَنْتَصِرُ بِهِ لِدِينِي وَأُظْهِرُ بِهِ دَوْلَتِي وَ أَنْتَقِمُ بِهِ مِنْ أَعْدَائِي وَأُعْبَدُ بِهِ طَوْعاً وَكَرْهاً قَالُوا أَقْرَرْنَا يَا رَبِّ وَشَهِدْنَا وَلَمْ يَجْحَدْ آدَمُ وَلَمْ يُقِرَّ فَثَبَتَتِ الْعَزِيمَةُ لِهَؤُلاءِ الْخَمْسَةِ فِي الْمَهْدِيِّ وَلَمْ يَكُنْ لآدَمَ عَلَى الإِقْرَارِ بِهِ عَزْمٌ وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً قَالَ إِنَّمَا هُوَ فَتَرَكَ) هـ.

أقول: إنّ الحجة عليه السلام كان حينئذٍ في بعض أحوال الثّانية أو الأُولى ظاهراً به للأنبياء عليهم السلام فعرفه به أولوا العزم ووحّدوا واعترفوا بذلك العهد المأخوذ عليهم لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته ولمّا عرض عليهم العهد للقائم عليه السلام فرجه وهو في تلك الحال قَبِلَ أولو العزم ووقف آدم فلم يقر لعدم احتماله لحال القائم عليه السلام بالمعنى الأول لعدم فهمه ولم يجحد لعلمه أنه عليه السلام من جملة من أقر لهم لأنه محتمل لعلمه عليه السلام بالمعنى الثاني فكان عدم احتماله بالمعنى الأول لقصوره فلذا قال عليه السلام (ولم يجحد) ولقد مرّت الإشارة إلى أنه ما ابتلي أحد من الأنبياء إلا بتقصيره في احتمال علومهم وما هم عليه وكل ما وقع من عدم الاحتمال من أحد من شيعتهم فإنما هو من المعنى الأول ولا سيما أهل العصمة من شيعتهم.

وأما عدم الاحتمال بالمعنى الثاني فلا يقع من شيعتهم لأن ذلك من شعار أعدائهم وما وقعت العقوبة عليه في حق بعض الأنبياء عليم السلام كيونس وأيوب ويعقوب وأشباههم عليهم السلام مع أنه قصور فيهم ولم يجحدوا مع ذلك ليستحقوا العقوبة على عدم تسليمهم فإنما هو لأجل سؤالهم عن العلة وعن البيان استعجالا وعدم صبر منهم على شدة البلاء فكان السؤال والاستعجال

وعدم الصبر حيث لا يراد منهم منافيا لمقامهم من تحمل ولاية محمد ﷺ وأهل بيته الطاهرين صلى الله عليهم أجمعين وذلك بحكم حسنات الأبرار سيئات المقربين وليس ذلك منافيا للتسليم لأنه في الحقيقة إنما هو قصور وقد علم بدليل الحكمة أن للقصور عقوبات بنسبة مراتبه يسرع إلى أكثرها العفو والتجاوز إذا كانت مشوبة بنوع اختيار لتنسب إلى الأفعال الاختيارية فتكون دواعيها غير ثابتة الأصل للجهل والقصور بخلاف ما إذا لم تكن مشوبة بالاختيار فإنها لاحقة بالأفعال الطبيعية الجبلية فإنها قد لا يسرع إليها العفو وقد لا يعفى عنها وإن كانت في نفسها حقيرة فلأجل أن للقصور عقوبات ابتلي الأنبياء عليهم السلام بنسبة قصورهم ولأجل كونه مشوبا بنوع اختيار أسرع العفو إليها لكونها غير ثابتة الأصل في دواعيها وما لم تكن مشوبة كانت طبيعية ثابتة الداعي ومما يدل على الثاني ما ذكر بعده من آية (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ) الآية، وقد تقدم والأخبار فيه كثيرة.

ومما يدل على الثالث وهو كون المراد بالاحتمال الكتمان وحفظ السر ما رواه في البصائر عن أبي الحسن عليه السلام في تفسيره (إنما معناه أن الملك لا يحتمله في جوفه حتى تخرجه (يخرجه) إلى ملك مثله ولا يحتمله نبي حتى يخرجه إلى نبي مثله ولا يحتمله مؤمن حتى يخرجه إلى مؤمن مثله إنّما معناه ألاّ يحتمله في قلبه من حلاوة ما هو في صدره حتى يخرجه إلى غيره) انتهى.

فعلى هذه المعاني يجري قوله عليه السلام (محتمل لعلمكم) ويكون الزائر بها عند هذا اللفظ يقصد ما هو عليه إن كان عرف نفسه أنه من أهل أي مرتبةٍ من المراتب ا لأربع.

أمّا المرتبة الأولى فلهم عليهم السلام لم يشاركهم في حقيقتها أحدٌ إلا ما يظهر من آياتها على قلوب شيعتهم وحقائقهم فإنّها حقائقهُمْ ولهم.

وأما الثانية فيعثر بعض خصيصي شيعتهم في بعض معانيها كما جرى على بعض الأنبياء عليهم السلام مثل أيّوب عليه السلام لمّا سمع الكلام عند انبعاث المنطق شك وبكى وقال (خطب جسيم وأمرٌ عظيم) وقد ذكر ذلك وقد يثبت في بعضٍ فيقصد احتمال علمهم هذا وإن كان من أهل المرتبة الثالثة فكذلك ما عرفه قصَد احتماله، وكذلك إن كان من أهل الرّابعة وما لم يعرفه من كل مرتبةٍ قصد بالاحتمال المعنى الثاني وهو التسليم ويقصده فيما عرَف أيضا وليعلم أنّ ما عرف فبتَعْليمِهِمْ وأنّ ما سلَّم فيه فبتوفيق الله ببركتهم وبهم وعنهم، وإن كان من أهل المعنى الثّالث وهو أنّه لا يحتمله أي لا يقدر على كتمانه حتّى يخرجه إلى مثله فلا بأس فيه ولا ينافي هذا قوله محتمل لعلمِكم لأنّه يريد به الفهم والتّسليم وعدم إخراجه إلى من ليس من أهلِه، ثم على المعنى الثالث كما فسّره أبو الحسن عليه السلام وقع احتمال إشكال وهو أنّه إذا ورد هذا الحديث وجب على من سمعه من الأصناف الثلاثة من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين والمؤمنين الممتحنين إعلامُ مثله فإن كان هذا المثل أريد منه مطلق أنه ملك مقرّب أو نبي مرسل أو مؤمن ممتحن من غير أن يعتبر فيه ما اعتبر في الأوّل من عدم الكتمان لزم خلاف الظاهر من الخبر لأن الظاهر منه أنّ هذا مقتضى الحديث ولو أريد بعض من هذا النوع لقال إنّ بعض أولئك لا يحتمله وإطلاق الحديث إطلاقٌ وتفسيره يقتضي ذلك ويلزم من هذا أن يكون آخرهم يخرجه إلى أوّلِهِمْ وهو أوّل مَنْ سمعه وأخرجَهُ إلى مثله وهو حينئذٍ لا يحتمله فيخرجه إلى مثله، وهكذا إلى أن لا يبقى لجميع هذه الأصناف الثلاثة وقت ولا عمل ولا حال إلاّ استماع حديثٍ واحدٍ من أحاديثهم وإسْماعه المثل فيشتغلون بحديث واحدٍ عن كلّ شيءٍ بل على نحوٍ من الاعتبار يقال،

وعن حديثٍ آخر من أحاديثهم مقتضٍ لما اقتضاه الأوّل، فيلزم في غير الأول أنّه لو فرض استماعُه ما حصل إخراجه إلى المثل لشغله بالأوّل وشغل المثل أيضاً فيلزم أنهم ﷺ لم يريدوا بتلك الأوصاف إلاّ حديثاً واحداً، وكلّ ما سمعتَ خلاف المعروف والمتبادر من مرادهم ودفعه هو أنّ المراد أنّ الملك المقرّب الذي لا يحتملْ قد يخرجه إلى مثله ملك مقرّب يحتمل فيكتمه ولا يخرجه ولو كان غير محتمل أخرجه ولكن مراتب المقرّبين متفاوتة جدّاً ودفع ذلك النحو من الاعتبار أنه إنّما يفهم منه أنه إذا أخرجه استراحَ وسكنَتْ سَوْرة الحلاوة على نفس الملك بحيث لو سمعه مرّة ثانية لما اقتضى إخراجه ثانياً لأنّ المثل قد سمعه منه فلا تَتُوق نفسه إلى استماعه ثانياً، وإذا علم الأوّل ذلك من الثاني لم تتقْ نفسه إلى إخراجه إليه وليس أبدا إخراج مثل تلك الأحاديث ولو حصل إخراج آخر جرى فيه كما جرى في الأوّل فلا يلزم شيء ممّا ذكر مع أنّ المراد بيان نوع هذه الصفة فقد تلزم في واحدٍ خاصّة فيخرجه إلى مثله ثم لا يلزم في المثل ذلك.

قال عليه السلام محتجبُ بذمّتكم

الاحتجاب الاستتار والمراد أنّ الائتمام بكم والتسليم لكم والردّ إليكم والاعتماد والاتّكال على ذلك لأنكم باب القدر والقضاء ووسيلة القبول والرّضا حصنٌ منيع لا يُحَاول وملجأ رفيع لا يُطاول، والذمّة والذّمام واحد وهو العهد والأمان والضمان والحرمة، والحق، أمّا على معنى العهد فإنّ الله سبحانه حين خلق الخلق خلقهم على صورة عهده إليهم وهو ما أخذه منهم من مقتضى أحكام الولاية المطلقة الكبرى التي ذكرها الله في كتابه فقال (فَاللهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي

المَوْتى) وقال (هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لله الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا)وهي الولاية ظهر بها عليّ وأهل بيته الطّاهرين صلى الله على محمد وعليهم أجمعين الله سبحانه أعطاها نبيّه ﷺ وسلم وهم ظهروا بها وهي لواء الحمد في قوله ﷺ أعطيت ثلاثا وشاركني عليٌ فيها أعطيت لواء الحمد وعلي حامله وأعطيت الجنة والنار وعلي قسيمهما وأعطيت الحوض وعلي ساقيه وأعطي عليا ثلاثا ولم أعطى مثلها أعطي زوجة ولم أعطى مثلها وأعطي ولدين ولم أعطى مثلهما وأعطي حموا ولم أعطى مثله انتهى.

والحمو (بفتح الحاء) أبو الزوجة هنا وحين أخذ على الخلق ذلك العهد الذي كرم به وبقبوله عباده الصالحين فقال (أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ) ومعناه ألست بربكم ومحمد نبيكم وعلي وليكم وإمامكم والأئمة أولياؤكم وأئمتكم، ومعناه ما مر عليكم من معرفة التوحيد وما يتعلق به ونبوة محمد ﷺ وما يترتب عليها وإمامة الأئمه عليه وعليهم السلام وما يتفرع عليها وأحوال التكاليف الشرعية والوجودية والعقلية والنفسانية والطبيعية والمثالية والجسمانية في الدنيا والآخرة قالوا بلى فعاهدوه على الوفاء وعاهدهم على حسن الجزاء فقال (وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُم) فههده المأخوذ هو ولاية محمد ﷺ وهو أصل الوجود ولب الأسرار وسر الأنوار ونو الاقتدار وأمر الواحد القهار وكل شيء من الخلق محتاج إلى ذلك (كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) وكل شيء خائف منه (وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون) وكل شيء قائم به (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِه) وكل شيء في قبضته (قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)وهو درع الله الحصينة التي يحفظ بها من يشاء (وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)من الشيطان وجنوده

وكيدهم ومكرهم وخدائعهم وحيلهم وإغوئهم وتزيينهم وكل شيء من سلطانهم وهو الذمام المذكور في دعاء الصباح والمساء (أصبحت اللهم معتصما بذمامك المنيع الذي لا يطاول ولا يحاول من شر كل غاشم وطارق من سائر ما خلقت من خلقك الصامت منهم والناطق في جنة من كل مخوف بلباس سابغة ولاء أهل بيت نبيك محمد صلواتك عليه وعليهم محتجبا من كل قاصد لي بأذية بجدار حصين الاخلاص في الاعتراف بحقهم والتمسك بحبلهم موقنا أن الحق لهم ومعهم وفيهم وبهم ...إلخ)

وهذا الذمام ولايتهم عليهم السلام رفيع المكان والمكانة فلا يطاول شيء منيع حصين لا يحاوله شيء وهو منيع من سائر ما خلق الله من خلقه الصامت والناطق وهو الجُنة بضم الجيم أي الدرع الحصينة أو المجنّ بكسر الميم والجيم من كل مخوف أي من كل ما يخاف منه ذي روح أو نبات أو جماد أو عرض أو جوهر أو ألم أو هم أو غم أو وسواس أو خاطر سوء أو طبيعة أو تخيل أو تمثل أو تعرض أو شيء من الحميات وسائر الأوجاع والآلام وضربان العروق والأرياح والاختلاجات وسوء الأحلام، وما يخطر في اليقظة والمنام وما لا يحسن من الكلام في الدنيا والآخرة، واللباس السابغة الدرع الظافية التي تشمل جميع البدن ولاء أهل بيت نبيّك محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولاء مجرور على البدل مِن لباسٍ سابغة يبيّن عليه السلام أن اللباس السابغة التي هي الدرع الظافية الحافظة للابِسها من جميع المكاره، هي ولاء أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وكذا قوله (من كل قاصد لي بأذية بجدار حصين) وهو ولايتهم عليهم السلام.

الاخلاص باجر بدل من جدار حصين يبين عليه السلام أن الجدار الحصين هو

الاخلاص في الاعتراف بحقهم بأن يتولاهم ويقتدي بهم في كل شيء ويجعلهم الوسيلة بينه وبين الله سبحانه في كل شيء وأن يكون ذلك كله مشفوعا بالبراءة من أعدائهم متلبسا باللعن لأعدائهم معتقدا أن الله لا يرد عملا على هذه الطريقة ولا يقبل عمل بدون شيء منها وهو قوله (والتمسك بحبلهم موقنا أن الحق لهم... إلخ).

فلما أخذ من الخلق العهد المؤكد بما سمعت ونحوه على سائر خلقه قال شهدت عليكم بما عاهدتموني وقال يا أوليائي ويا ملائكتي اشهدوا قال محمد ﷺ شهدت لك يا رب بذلك عليهم وقال علي عليه السلام شهدت بذلك وقال الأئمة عليهم السلام شهدنا بذلك وقالت الملائكة شهدنا فقال الله حكاية عن نفسه وعن أوليائه وملائكته (شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) الآيات.

فقال الله تعالى جرياً على جميل عادته وابتداء تفضّله ومنّه (أُوفُوا بِعَهْدِي) الذي عاهدتموني عليه بمشهد الشاهدين (أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) أي أنه أقسم بعزته وجلاله أنَّ مَن وَفى له بعهده أي أتى يوم القيامة موالياً لهم معادياً لأعدائهم أنّه يقبل عمله وينجيّه من النار ويدخله الجنّة فقال المجيبون لخطابه المستجيبون لدعوته على لسان نبيّ ﷺ وسلم حين قال لهم (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ)(رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الأَبْرارِ رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) لأنه سبحانه وعدهم بالوفاء مع الموافاة وأشهدَ على وعدِه لهم عباده الصالحين فلذا أخبر عن حال الشيعة المسلّمين حين ذكرهم هذا

المحضر الشريف قال (وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ) يعني ذكر ما أشرنا إليه ذكروا الموقف المكرم (تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ) بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم كما جرى منهم في ذلك الموقف ونسوه وذكّرهم به سبحانه على لسان نبيه وأوليائه صلى الله عليه وعليهم (يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) الذين أشهدتهم على عهد عبادك لك وعهدك لهم مع الموافاة وأنا أقول (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول) وآل الرسول (فاكتبنا مع الشاهدين).

والحاصل معنى الاحتجاب بذمتهم التي هي عهد الله وعهد خلقه بالموافاة الاحتجاب بالموافاة أي بأن تستجيب لهم سبحانه بأن تدخل في عهده بأن يستجيب القلب له بما طلب منه واللسان بما دعي إليه والأركان بما أمر به، فإذا دخل في عهده بهذا الدخول فقد احتجب بذمّتهم وأَمِنَ من كلّ مخوفٍ لما أشرنا إليه قبل من أن هذه الذمّة هي أصل الوجود ولبُّ الأسرار وسرّ الأنوار ونور الاقتدار وأمر الواحد القهار الخ.

ولذلك كانت أمناً من كلّ شيءٍ ولا يؤمن منها شيء (وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) وقد كرّرنا هذا المعنى وأمثاله في هذا الشرح في مواضع متعدّدة تأكيداً للبيان وتكريراً عن النسيان، وإذا فسّرت الذمّة بالأمان الذي هو الحصن من كلّ مَخُوف عرفتَ ممّا ذكرنا أن الأمان المطلق الذي لا يكون معه خوف أبداً إنّما هو ولايتهم عليهم السلام لأنّها طاعة الله فيما أمر ودعا إليه وخوف مقام الله بما عرّف من عظمته وكبريائه وعز جلاله ومن أطاع الله في كل شيء أطاعَهُ كلّ شيء كما قال تعالى يا عبدي أنا أقول للشيء كن فيكون اطِعني أجعلْكَ مثلي تَقُول للشيء كن فيكون ومن خاف الله في كلِّ شَيْءً أخافَ الله منه كلّ شيءً ولا يراد

من ولايتهم حقيقة إلا طاعة الله في كل شيءٍ وخوفَهُ في كلّ شَيْءٍ ، فإذا احْتجَبَ بذمّتهم الّتي هي طاعة الله في كلّ ما أمر به ظاهراً وباطناً وخوف مقام الله في كلّ ما نهى عنه ظاهراً وباطناً كان في أمان الله وجوار اللهِ وفي بيتِ الله الذي من دخله كان آمنا من جميع مكاره الدنيا والآخرة الّتي فيها سخط الله وأمّا المكاره الّتي فيها رضى الله فإنّها محبوبات وإنّما كرهها المؤمن لعدم علمه، ألا ترى أنّ القتل من أعظم المكاره وإذ كان في سبيل الله كان محبوباً مطلوباً لكل مؤمن بل هو غاية ما يتمنّاه فإذا كان في بيت الله الحرام هذا وجرى عليه بعض البلايا التي هي هديّة الله إلى عبده المؤمن كالفقر وكالقتل ظلماً وكموت من يحبّ وكالأمراض لم يكن ذلك مكاره حقيقةً إنّما تجري على المؤمن رفعاً لمقامه فإنّ عند الله منازل في رضوانه لا تنال إلاّ بالبلايا في الدنيا وكيف لا يكون المؤمن في حال البلاء آمِناً من المكاره وهو في سلامةٍ من دينه لأنّ الله سبحانه أخبر أنّ مَن دخل هذا البيت الشريف كان آمِناً فقال (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَهُدىً لِلْعالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)وسلامةُ الدّين هي الأَمْنُ من مكاره الدنيا والآخرة وبلايا الدنيا مع سلامةِ الدين تكرمةٌ من الله تعالى لعبده المؤمن ليرجع إليه مُحِقّاً طاهراً مطهراً مستحقّاً للدرجات الرفيعة، ولهذا ورد عن الكاظم عليه السلام من عاش في الدّنيا عيشاً هنيئاً فليتّهم في دينه فإن البلايا أسرع إلى المؤمن من اللمح بالبصر).

وعن الصادق عليه السلام (المؤمن كثير البلوى قليل الشكوى).

وقال الباقر عليه السلام (إنّ الله ليتعاهد المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل بالهديّة ويحميه الدنيا كما يحمي الطّبيبُ المريض).

وقال النبي ﷺ (من حسن إيمانه وكثر عمله اشتدّ بلاؤه ومن سخف إيمانه وضعف عمله قلَّ بلاؤه).

وعن الصادق عليه السلام (المؤمن مبتلى طُوبَى للمؤمن إذا صبر على البلاء وسلّم لله تعالى القضاء، قال سعدان بن مسلم قلتُ جُعلتُ فداءك من المؤمن الممتَحَن قال الذي قد امتحن بولِيّه وعدوِّه إذا مرّ بإخوانه اغتابوُه، وإذا مرّ بأعدائه لعنوه فصبر على تلك المحنة كان مؤمناً ممتحناً)

وعن يونس بن يعقوب قَالَ سَمِعْتُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ عليه السلام يَقُولُ (مَلْعُونٌ مَلْعُونٌ كُلُّ بَدَنٍ لا يُصَابُ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ يَوْماً قُلْتُ مَلْعُونٌ قَالَ مَلْعُونٌ فَلَمَّا رَأَى عِظَمَ ذَلِكَ عَلَيَّ قَالَ يَا يُونُسُ إِنَّ مِنَ الْبَلِيَّةِ الْخَدْشَةَ وَاللَّطْمَةَ وَالْعَثْرَةَ وَالنَّكْبَةَ وَالْقَفْزَةَ وَانْقِطَاعَ الشَّسْعِ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ يَا يُونُسُ إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَكْرَمُ عَلَى الله تَعَالَى مِنْ أَنْ يَمُرَّ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ لاَ يُمَحِّصُ فِيهَا ذُنُوبَهُ وَلَوْ بِغَمٍّ يُصِيبُهُ لا يَدْرِي مَا وَجْهُهُ وَاللهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَضَعُ الدِّرْهَمَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَزِنُهَا فَيَجِدُهَا نَاقِصَةً فَيَغْتَمُّ بِذَلِكَ فَيَجِدُهَا سَوَاءً فَيَكُونُ ذَلِكَ حَطّاً لِبَعْضِ ذُنُوبِهِ) هـ.

وأمثال ذلك كثير وقد تقدّم غير هذه فإذا وقفتَ على هذه الأخبار ومثلها مع ما سمعتَ من سلامةِ دينِ مَن أقامَ الولاية وأن الله لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم علِمْتَ أنَّ مَنْ غيَّرَ اللهُ ما بِهِ مع أنّه لم يغيّر ما بنفسه فإنّما هو رفعٌ لدرجتِهِ وحَبْسٌ له عن الركون إلى الدنيا الّتي حُبّها رأس كلّ خطيئة ففي الحقيقة ما فعل الله به ليْس تغييراً بل إصلاحٌ وتحسين.

وعلى معنى الضّمان يكون المعنى أنّي محتجبٌ بضمانكم أي باعتمادي على وَعْدِكم على الله سبحانه أنّه أقسم بعزته وجلاله أنّه يدخل الجنّة من أحبّ عليّاً

وإنْ عصاه، ولقد روي عن رضي الدين بن طاووس رحمه الله أنه قال سمعتُ القائم عليه السلام وعجل الله فرجه بسرّ من رأى يدعو من وراء الحائط وأنا أسمعه ولا أرَاهُ وهو يقول (اللهم إن شيعتنا منا خلقوا من فاضل طينتنا و عجنوا بماء ولايتنا اللهم اغفر لهم من الذنوب ما فعلوه اتكالا على حبنا وولائنا يوم القيامة ولا تؤاخذهم بما اقترفوه من السيئات إكراما لنا ولا تقاصهم يوم القيامة مقابل أعدائنا فإن خفت موازينهم فثقلها بفاضل حسناتنا) انتهى.

أقول قوله عليه السلام (اللهم اغفر لهم من الذنوب ما فعلوه اتكالا على حبنا) يراد منه حسن ظن في أن الذنوب لا تضر مع حبهم والحديث المروي من طرق الخاصة والعامة أن الله تعالى قال (أقسم بعزتي وجلالي أني أدخل الجنة من أحب عليا وإن عصاني) الحديث شاهد لما في الدعاء وقد تقدم هذا الحديث القدسي وجواب ما يرد عليه، والمراد أنهم عليهم السلام عهدوا إلى شيعتهم بذلك والأخبار فيما يفيد هذا المعنى كثيرة فإذا وقع من محبهم ذنب ندم على ذلك ورجى من الله العفو والمغفرة ولم يقنط من الرحمة رجاء في حبهم وولايتهم واعتمادا على إخبارهم بذلك عن الله تعالى وهم لا يسبقونه بالقول مشفوعا بما وعدهم بالشفاعة لأهل ولايتهم فعهدهم إلى محبيهم ضمان لهم بالنجاة لمن لقيهم منهم بذلك وهو والله كذلك، يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك ودين نبيك صلى الله عليه وآله وسلم ولا تزغ قلبي يا رب بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

فلمّا كان أعظم المضارّ وأشدّ المكاره القنوط وأحسن الأعمال وأحصن الحصون حسن الظنّ كان احتجابه بحسن الظّنّ بضمانهم لمحبّهم من أعظم المهلكات وهو القنوط عند عروض التقصيرات حصْناً منيعاً ممّا يخاف منه ويخشى، لأنه من جملة

الذمّة إذ قد عهدوا إلى شيعتهم بذلِك وفي عوالي اللآلي بسنده المتصل إلى المُعَمّر السُّنْبُسي قال سمعتُ من مولاي أبي محمّد الحسن العسكري عليه وعلى آبائه ووَلدِهِ أفضل الصلاة والسلام يقول(أحسن ظنك و لو بحجر يطرح الله فيه سره فتتناول نصيبك منه فقلت يا ابن رسول الله ولو بحجر فقال أ لا تنظرون إلى الحجر الأسود) هـ.

والأخبار عنهم عليهم السلام في ترغيب شيعتهم ووعدهم إيّاهم بالشّفاعة وعدم المؤاخذة بذنوبهم وإن عظمت وقبول أعمالهم وإن ضعفت وإنّ حبّهم وولايتهم متمّم لنقص أعمالهم وإن سيّئاتهم تبدّل حَسَناتٍ ، وغير ذلك كثيرة جدّاً والقرآن آياته تنطق بهذا، فهذا ونحوهُ عهده إليهم وقد احْتجب وليهم بذلِك واطمئنّ بعهدهم وذمّتهم الناطق بضمانهم لهم بالنّجاة ولله دَرُّ من قال:

ولايـــتي لأميـــر النحـل تكفيني
عند الممـاتِ وتغسيــلي وتكفيني
وطينَتي عُجِنَتْ مـــن قبل تكويـني
في حبّ حيـدر كيف النارُ تكويــني

وعلى معنى الحُرمةِ أنّ المحبّ العارف بحقّهم يصفهم بمثل ما أشرنا إليه في مواضع متعددة من هذا الشرح بحيث لا يجدُ في ذلك حدّاً يقِف عليه إلاّ بما أجملوه لنا من الحدّ الغير المتناهي كقول الصَّادق عليه السلام (اجعلوا لنا ربا نؤوب إليه وقولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا ،قال السائل نقول ما نشاء، فقال عليه السلام وما عسى أن تقولوا والله ما خرج إليكم من علمنا إلا ألف غير معطوفة).

أقول: نقلتُ هذا الحديث الشريف بالمعنى فقوله عليه السلام اجعلوا لنا ربّاً نؤوب إليه

تحديد بغير تناهٍ لأنّ المعنى أنّك تقول فيهم من العظمة والقدس والقهر والتسلّط والعلم والإحاطة والتصرف ونحو ذلك بما لا يتناهى إلاّ أنّك تعتقد أن ذلك كله وهم عليهم السلام صادرون عن فعل الله تعالى وقائمون به قيام صدورٍ ، فإذا كشفتَ عن الوصف فإذا هم (عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)فإذا جمعت بين هذه الآيات التي معناها ما ذكرنا لك لا غير من أنهم قائمون باللهِ قيام صدورٍ وبين ما سمعتَ مراراً متعددة وأنّهم مقامات الله التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفه بها من عرفه لا فرق بينها وبينه إلاّ أنّهم عباده وخلقه، وأنّهم معانيه وظاهره في خلقه، وأنهم أبوابه وبيوتُه وأنّهم حججه وآياته وسفراؤه إلى خلقه وأنّهم خلفاؤه وأنهم أعْضَاده لخلقه وأمناؤه وأولياؤُه عليهم، وغير ذلك ظهر لك ظلّ الكبرياء والعظمة والعزّة التي أظهرها سبحانه عليهم وألْبَسَهم جلابيب صفاتها حتى صغر لكبريائهم كلّ كبير وذلّ لعزّتهم كلّ عزيزٍ وانحطّ لعلوّ مكانهم كل رفيع واستحقر لعظمتهم كل عظيم، وشاهَدْتَ عزّةً وجلالةً وسلطنة انقاد لها كلّ ما في الإمكان، وإنّ كلّ شيء واقف على ذلك الباب ولائذ بذلك الجناب، احتجبت ولُذْتَ بذلك الحرَم ومددْتَ يدَ طمَعِك وعين رجائك إلى ذلك الكرم فكان احتجابُك من كلّ ما تكره في الدنيا والآخرة بطمعِك ورجائك في تلك الحرمة الظاهرة وذلك عهدهم إلى محبيّهم بقول الله سبحانه فيهم (قال وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ)وهم عليهم السلام رحمة الله الّتي وَسِعَتْ كُلَّ شيء فإذا كان احتجابك بهذه الحرمة الّتي لا يردّ الله سبحانه سائِلاً بها ولا يُخيف مستجيراً بها ولا يعذّب من اسْتظَلَّ بفيْئِهَا ولا يسخَطُ ولا يغضب على من لاذَ بها كنتَ

سائِلاً بوجهه الباقي الذي يتوجّه إليه الأولياء ومستجيراً بكَنفه الذي لا يُضَامُ، ومستَظِلاً بظِلّ عرشه المجيد العظيم الكريم ولائذاً برحمته الّتي وسعت داخِلاً في رحمته المكتوبة لعباده المتّقين وهم الّذين اتّقوا ولاية أول الظالمين واجتنبوها كما قال تعالى (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرى) واجتناب عبادة الطاغوتِ هو اجتنابُ الولايةِ الأولى، والإنابة إلى اللهِ هي الإنابة والرجوع إلى الولايةِ الآخرة قال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) ثم قال (إِنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ★ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) ولهذا روي أن الألواح التي نزلت فيها التوراة تسعة ألواح وأنّ موسى أظهر لقومه سبعة وكتمَ اثنَيْن عن قومه لعدم احتمالهم لما فيهما وكان مما فيهما بيان ما أشرنا إليه من المراد بالدنيا وعبادة الطاغوت والمراد من الآخرة والإنابة إلى الله تعالى، فإذا كنتَ كذلك كنتَ آمِناً من جميع محذورات الدنيا والآخرة لأنك احتجبت بحرمتهم وجاههم عند الله (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ).

وعلى معنى الحق بمعنى متعلق الاستحقاق أي تقتضيه ذواتهم لا ضدّ الباطل وإنْ كان الأصل واحداً، لأنّ المعروف من إطلاق قولك لَهُ حقّ على زيدٍ أوْ بحقّهِ عليك أن لَهُ مُلْكاً أوْ قدراً أوْ جَاهاً لا أن المراد منه ضدّ الْبَاطل والمراد من نسبة هذا الحَقّ إليهم عند ربّهم وعند جميع خلقه بيان استحقاقهم.

أمّا من جهة الله سبحانه فلأنّه أجْرَى حكمتَهُ أنّه يعطى كُلَّ ذي حقٍّ حقّه أي يعطي كلّ شيءٍ ما تَقْتَضيه قابليّتهُ وهو استحقاقُ قابليته من تفضّل الحكيم سبحانه إذ لا يستحقُّ شيءٌ شيئاً إلاّ بفضله ومَنِّه وكرمه، وجعل ما لا يستحقه استحقاقاً له تفضّل ثانٍ فإذا اقتضَتْ قابليّة الشيء مدداً جعله الله بتفضّله حقّاً له

وقد اقتضت قابليّتهم صلى الله عليهم أجمعين أنه تعالى يخلقهم له وحده لا شريك له حتّى من أنفسهم كما مرّ مكرّراً، وقد اقتضَتْ قابليّتهم عليهم السلام مدداً من فضلِه لا يتناهى بالتّدريج على قدر احتمالها، وهذا المدد حقّهم عليه بمعنى الملك من جهة ابتداء التّفضّل والحتم التّكرمي، وهذا المدد هو اسمه الأكبر وهو مجمع صفاته ومعانيه وأسمائه وجميع شؤونه فهو أحبّ الأشياء إليه وأوجبها حقا عليه وألزمها إكراما وتعظيماً عليه وأقربها إليه، وقد أوجب على جميع ما خلق من حيوان ونبات وجمادٍ جوهرٍ وعرضٍ من غيبٍ وشهادةٍ طاعة ذلك والانقياد له طوعاً وكرهاً لا يخالف شيء منها محبّته لأنه سبحانه قد عرّفَ جميع الأشياء جلالة شأنه وعِظم خَطرِه وحاجتها في وجودِها وبقائها إليه وقِوامها به وهذا المدد المشار إليه هو حقيقتهم منه سبحانه وتعالى القائمةُ بفعله تعالى أبداً قيام تحقّقٍ كقيام الانكسار بالكسر فافهم، وهذا هو جاهُهُمْ عند الله وحقّهم عليه ومعنى هذا العِند أنّه لا يخرج عنه إلى غيره أي ليس له اعتبار في غير ما للهِ أوْ أنّه لم يُخلِّه من يده، ومعنى عليه ما أوجب على نفسه من إعطاء كلّ ذي حقٍّ حَقَهُ والجَاهُ الوجه أي التوجّهُ والإقبال، فإنّ التوجّه والإقبال منه تعالى فإنما هو إليهم خاصةً لا إلى سواهم إلاّ بالعرض والتبعيّة لهم لأنّ ما سواهم خُلِقَ لهم ومنهم عليهم السلام فإنّما هو إليه تعالى لا إلى سواه إلاّ بالعرض والتبعيّة لامتثال أمْرِهِ فوجهُهم إليه وجهه إليهم فلا يكون شيء أعظم ولا أعزّ من جاههم عنده تعالى.

وفي العياشي عنه عليه السلام قال (إن عبدا مكث في النار سبعين خريفا والخريف سبعون سنة قال ثم إنه سأل الله عز وجل بحق محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته لما رحمتني قال فأوحى الله جل جلاله إلى جبرئيل عليه السلام أن اهبط إلى عبدي فأخرجه قال يا رب

وكيف لي بالهبوط في النار قال إني قد أمرتها أن تكون عليك بردا وسلاما قال يا رب فما علمي بموضعه قال إنه في جب من سجين قال فهبط في النار فوجده وهو معقول على وجهه فأخرجه فقال عز وجل يا عبدي كم لبثت تناشدني في النار قال ما أحصي يا رب قال أما وعزتي لو لا ما سألتني به لأطلت هوانك في النار ولكنه حتم على نفسي أن لا يسألني عبد بحق محمد ﷺ وأهل بيته إلا غفرت له ما كان بيني وبينه وقد غفرت لك اليوم).

فإذا احتجبَ المؤمن من شيعتهم بهذا الحقّ الذي لهم على الله تعالى والجاه الذي لهم عند الله أمِنَ من جميع محذورات الدنيا والآخرة.

وأمّا من جهة سائر الحقّ فلما سمعتَ من أنّهم إنّما خُلِقوا لهم وقد تقدّم في تفسير أعْضادٌ وأشهادٌ وَمُناة وأذواد وحفظةٌ وروّاد من دعاء شهر رجب أنهم عليهم السلام أعضادٌ لأنّ الله سبحانَهُ اتّخذَهم أعضاداً لخلقِه كما أشار إليه بالمفهوم في قوله تعالى (وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) أي إنّما أتّخِذُ الهادين أعْضاداً، وقد علمتَ أنّه عز وجل غني مطلق فلا حاجة به إلى شيء وإنّما المحتاج خلقه فاتّخذهم أعضاداً لخلقه كما اتّخذ النجّار الخشبَ عَضُداً لعَملِ السرير وقد تقدّم أنّ الله سبحانه بعد أن خلقهم لما أراد خلق الخلق قبض من فاضل أشِعَّةِ أنوارهم فخلق منها وجودات الخلائق وموادهم وخلق صور أهل الخير وطيّبي الأصل من ذي روح وغيره جوهر وعرض من هيئاتِ أشعّةِ أنوارهم فالخلائق صورهم وأمثالهم، وخلق صور أهل الشر وخبيثي الأصل من ذي روح وغيره جوهر وعرض من عكوس هيئات أشِعَّة أنوارهم، ولا ريب أنّ الشيء إنّما يتقوّم بمادّته وصورته.

فهم بهذا المعنى أعضاد الخلق وعلله وأسْبابه وبهم قِوَامُه وهم حقائق حقائِق

الخلائق وذواتُ ذواتِهِمْ وأنفسُ أنفسِهم كما قال تعالى (لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُم) وقول علي عليه السلام (أنا ذاتُ الذَّواتِ والذاتُ في الذوات للذّاتِ) هـ.

فحقّهم على الخَلْق ما به قِوامُ الخلق وهو الوَجْهُ الباقي بعْدَ فناء الخلق المشار إليه في قوله (كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ) فكل شيء خُلِقَ من وجهه منهم وبه قوامه وإليه عوده وهو نور اللهِ في المؤمن المتفرّس، لأنّه إنما ينظر به فإذا احتجب من المكاره والمحذورات في الدنيا والآخرة بهذا الحقّ الذي هو ذمّة حجج اللهِ وعهدهم إليه وهو الفطرة التي لا تبديل لها والخلق الإلهي الّذي لا يغيّر وهو صبغة الله الحسَنةُ وهو صبغةُ الرحمة المكتوبة وهو هيئة الولاية التي هي أخت النبوّة، وهو حدودُ الإيمان وهو بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمِناً وهو كتاب الله المبينُ الذي بأحرُفه يظهر المضمر كان آمناً من عقوبات الدنيا والآخرة.

وينبغي أنْ تعلم أنّ ما كان من جهة الله تعالى فهو حَد حقّهم وجاههم الأعْلى وهو مسُّ النَّار وفَوّارةُ الأسرار والأنوار من سماء الاقتدار وما كان من جهتهم فهو حده الأسفل وهو الزيتُ الذي يكاد يُضيءُ ولو لم تَمْسَسهُ نار وإنّ ما كان من جهة الخلق فهو بديعُ ما نَطقَتْ به إرادةُ اللهِ بهم عليهم السلام من الدعوة الحسنى التي أرادها الله من المكلّفين من إقامة الولاية التي بها صُنِعوا وعلى هيئتها صوّروا ولها خُلِقُوا أوّلها التوصيف وأوسطها التكليف وآخرُها التعريف وجميعها التشريف فافهم.

وقوله عليه السلام (معترف بكم) الاعتراف بهم الاعتراف بإمامتهم وولايتهم وكونهم خلفاءُ اللهِ في أرضه وحججهُ على بَرِيّتِه وبفرض طاعتهم وبكونهم أولى بالمخلوقين من أنفسهم وأولى بالله تعالى لأنهم هم الذين له وهم الذين عنده وأوْلى برسوله صلى الله عليه وآله وسلم لأنهم خلفاؤه وأُمناؤهُ على رعيّته وحُفّاظُ شريعتِه وأنصار

دينه، وأنّهم معصومون مطهرون مُسَدَّدون وأنّ الله سبحانه رفع رتبتهم ومقامهم على سائر خلقه وأشهدهم خلْقَ ما خلَقَ وأنهى إليهم العلم بهم وجعلهم أولياء على جميع ما خلق وأخذ على كلّ شيء وجوبَ طاعتهم وفوّضَ إليهم أمرهم بالمعنى الصحيح من التفويض، وإن إياب الخلق إليهم وحساب الخلق عليهم وأنّهم ملوكُ الدّنيا والآخرة وأنّهم أبواب الله في الدنيا والآخرة ومفاتح غيوبه وحملة كتابه وخزائنه التي لا تفنى وأمثاله العليا وأسماؤه الحسنى ونعمه الّتي لا تحصى والاعتراف بما يجري لهم مما ذكر من صفات المراتب الثلاث الأولى والثانيّة والثّالثة، وقد تقدّم ذكر كثير من ذلك وليس المراد الاعتراف بأسمائهم بل الاعتراف بما أنكره منهم الناصبون وأعداؤهم الظالمون من مقامهم ومراتبهم الّتي رتّبَهُمُ اللهُ فيها وفضائلهم الّتي أثنى اللهُ عليهم بها على جميع ألْسِنَةِ خلقه والاعتراف بالشيء انفعال العارف بمعرفته عن بصيرة حتّى كانَتْ مَعْرِفتهُ صورةً لحقيقة العَارِفِ به لأنّ الاعتراف مطاوع عرف وعرف يستعمل في أصل اللّغة ضدّ الإنكار كما قال تعالى (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) وقال (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله ثُمَّ يُنكِرُونَهَا).

وقد يستعمل في معنى العلم فيقال ما عرفته أي ما علمته وأكثر استعماله في القرآن وأحاديث أهل العصمة عليهم السلام بالمعنى الأوّل فيقال ما عرفتُه أي أنكرته ولا تستعمل غالباً في العلم بحقيقة الشيء عن بصيرة، ولهذا لا يقابله غالبا إلاّ الإنكار، وإذا استعمل في معنى العلم قابله الجهل وهو عدم الصورة كالعلم.

فقوله (معترف بكم) يراد به أنّ معرفتي بكم على نحو المعرفة المشار إليها من كون المراد منها معرفة صفاتهم وما ينسب إليهم بنسبة احتمالِ العارف ممازجة

لشعري وبشري ودمي ولحمي وعظمي ومخّي وقواي كلّها الظاهرة والباطنة، فإنّ أعلى مشاعره الفؤاد الذي يستعمل غالباً في المعرفة المقابلة بالإنكار وهو نور الله للمتوسّم المتفرّس منفعل بهذه المعرفة وما دونه من المشاعر كالعقل والقلب الذي هو محلّ اليقين وما دونه كالصدر الذي هو محلّ العلم وما دونه من الوهم والخيال والفكر والحسّ المشترك والمشاعر الظاهرة التي هي الحواس الخمس ومحالّها وسائر الجسم منفعلاتٌ بها بالطريق الأولى وصدق الانفعال في جميعها العمل بمقتضاها لأنّ العلم لا يثبت ولا يتحقّق ولا يقبل إلاّ بالعمل بمقتضاه كما أنّ العمل بغير علم لا ينفع.

فعن الحسن بن زياد الصيقل سمعتُ أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول (لا يَقْبَلُ اللهُ عز وجل عَمَلا إلا بِمَعْرِفَةٍ وَلا مَعْرِفَةَ إلا بعَمَلٍ فَمَن عَرَفَ دَلَّتْهُ الْمَعْرِفَةُ عَلَى الْعَمَلِ وَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ فَلا مَعْرِفَةَ لَهُ أَلا إِنَّ الإِيمَانَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ).

وعن الثمالي عن علي بن الحسين عليه السلام (لا حَسَبَ لِقُرَشِيٍّ وَلا لِعَرَبِيٍّ إلا بتَوَاضُعٍ وَلا كَرَمَ إلا بِتَقْوَى وَلا عَمَلَ إلا بِالنِّيَّةِ وَلا عِبادَةَ إلا بالتَّفَقُّهِ أَلا وَإِنَّ أَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى اللهِ عز وجل مَنْ يَقْتَدِي بِسُنَّةِ إِمَامٍ وَلا يَقْتَدِي بِأَعْمَالِهِ).

وعنهم عليهم السلام (إن العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل عنه) هـ. فإذا عمل بمقتضاه تصادقَتْ هذه الفقرة مع ما كان قبلها.

قال عليه السلام مؤمن بإيابكم مصدّق برجعتكم منتظر لأمركم مرْتقب لدولتكم

قال الشارح المجلسي رحمه الله مؤمن بإيابكم مصدق برجعتكم تفسيره إني أعتقد أنكم ترجعون إلى الحياة في الدنيا في الرجعة الصغرى كما قال تعالى (وَيَوْمَ نَحْشُرُ

مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا)ولا ريب في أن القيامة يبعث جميع الناس لا فوج منهم وقد وردت الأخبار المتواترة عن النبي وأهل البيت صلوات الله عليهم في الرجعة وأنّهم صلوات الله عليهم يرجعون إلى الدنيا في زمان المهدي عليه السلام ويرجع جماعة من خلّص المؤمنين وجماعةَ من أعدائهم سيما قاتلي الحسين عليه السلام صلوات الله عليه وصنّف كثير من العلماء كتباً كثيرةً في ذلك يظهر من فهرست الشيخ والنجاشي، وأطبق العامّة تعصُّباً على خلافهم فمن ذلك ذكر مسلم في صحيحه أنه لا يعمل بأخبار جابر بن يزيد الجعفي مع أنه ذكر أنه روى سبعين ألف حديث عن محمد بن علي بن الحسين عليه السلام لأنه كان يقول بالرجعة مع أنه ذكر الله تعالى رجعة عُزَيّر وأصحاب الكهف والملأ من بني إسرائيل بقوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ الله مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ)، ورووا أنه (يَكُونُ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مَا كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَحَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ).

منتظر لأمركم إي غلبتكم على الأعادي في زمان المهدي أو ظهور إمامتكم ، مرتقب لدولتكم وغلبتكم.انتهى.

وقال السيّد نعمت الله الجزائري رحمه الله في شرح التهذيب (مؤمن بإيابكم) فيه دلالة على أنّ الأئمة عليهم السلام كلهم يرجعون في الرجعة وكذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأخبار مستفيضةٌ في الدلالة عليه وقد وفّقني الله سبحانه وله الحمد على الوقوفِ على ستّمائة حديثٍ وعشرين حديثاً دالّة على هذا المطلوب انتهى.

أقول: قد تقدّمَ ما أشرنا إليه من معنى الإيمان وأنّه التّصديق أو مع القول باللسان والعمل بالأركان كما هو المعروف في الأخبار وهذا الإيمان يراد منه ما

يراد من الإيمان حيث يطلق في كلّ موضع، فإذا اعتبرنا فيه التركيب كان المراد بالقول باللّسان الرواية لرجعتهم والإخبار بها والدعاء بالفرج وما أشبه ذلك والمراد بالعمل بالأركان إصلاح العمل وكتمان الأمر والانتظار وإعداد السلاح للنُّصْرَةِ والاستعداد لِلّقاءِ وما أشبه ذلك.

والإياب بكسر الهمزة الرجوع يعني أني مصدّق برجعتكم فيكون معنى مصدّق برجعتكم مؤمن بإيابكم فعلى الظاهر يكون مصدّق أخصَّ من مؤمن إن اعتبرنا في الإيمان القول باللسان والعمل بالأركان وعلى الباطن في مصدّق بمعنى أنّ التصديق حقيقة لا يتحقّق إلاّ بالاعتقاد بالجنان والقول باللّسان والعمل بالأركان يكون مساوياً للإيمان مع الاعتبار، وعلى الظاهر في الإياب يكون أعمّ من الرجعة المذكورة لأنّ المراد به ظاهراً مطلق الرجوع وعلى المعنى المقصود مساوٍ للرجعة لأن المراد به الإياب المخصوص وهو رجعتهم إلى الدنيا وملكهم في تلك المدّة الّتي قدرها على ما يظهر من بعض الأخبار ثمانون ألفَ سنةٍ أو خمسون ألف سنة، ويأتي بعض الكلام في ذلك، فيكون المعنى في الفقرتَيْن واحداً وتغيير اللّفظ للتّحسين والفائدة في التكرير التّأكيد أوْ ما أشرنا إليه من العموم والخصوص والمساواة في مؤمن ومصدّق وفي إيابكم ورجعَتِكم أو الترّقّي على فرض عموم الإياب.

واعلم أنّ الرجعة إذا أطلقت على جهة الحقيقة يراد بها رجوع مَنْ مات من الأئمة عليهم السلام مع من يحشر معهم وأوّلها على هذا خروج الحسين عليه السلام فروى حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال (إن أول من يرجع لجاركم الحسين عليه السلام فيملك حتى يقع حاجباه على عينيه من الكبر).

وعن محمد بن مسلم قال سمعتُ حمران بن أعين وأبا الخطّاب يحدثان جميعاً قبل أنْ يحْدِثَ ما أحْدَثَ أنّهما سَمِعَا أبا عبدالله عليه السلام (أول من تنشق الأرض عنه ويرجع إلى الدنيا الحسين بن علي عليه السلام وإن الرجعة ليست بعامة وهي خاصة لا يرجع إلا من محض الإيمان محضا أو محض الشرك محضا)

وعن المعلّى بن خنيس وزيد الشحام عن أبي عبدالله عليه السلام قالا سمعناه يقول (إن أول من يكر في الرجعة الحسين بن علي عليه السلام ويمكث في الأرض أربعين ألف سنة حتى يسقط حاجباه على عينيه)

وفي تفسير العيّاشبي عن رفاعة بن موسى قال قال أبو عبدالله عليه السلام (إن أول من يكر إلى الدنيا الحسين بن علي عليه السلام وأصحابه ويزيد بن معاوية لعنهما الله وأصحابه لعنهم الله فيقتلهم حذو القذة بالقذة ثم قال أبو عبد الله عليه السلام(ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً).

وآخر من يرجع على ما ظهر لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وباقي الأئمة عليهم السلام ما بين ذلك وترتيب خروجهم لم أعثر على جميعه من الأخبار ولم أسمع من أحد شيئا من ذلك ، والذي وقفت عليه وفهمته من الأخبار أن أول من يظهر القائم عليه السلام ويملك سبع سنين أو تسع سنين على اختلاف الروايات كل سنة قدر عشر سنين .

وفي تفسير القمي (عسق عدد سني القائم عليه السلام وقاف جبل محيط بالدنيا من زمرد أخضر فخضرة السماء من ذلك الجبل وعلم علي كله في عسق).

وفي غيبة الطوسي عن أبي الجارود (قال قال أبو جعفر عليه السلام إن القائم يملك ثلاثمائة وتسع سنين كما لبث أهل الكهف في كهفهم)الحديث.

وفيها عن جابر بن يزيد الجعفي قال سمعتُ أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام (والله

ليمكنن رجلا منا أهل البيت رجل بعد موته ثلاثمائة سنة يزداد تسعا قال فقلت له متى يكون ذلك قال بعد موت القائم عليه السلام قلت له وكم يقوم القائم عليه السلام في عالمه حتى يموت قال تسع عشرة سنة من يوم قيامه إلى يوم موته).

وفي غيبة الطوسي عن عبد الكريم بن عمر الخثعمي قال قلتُ لأبي عبدالله عليه السلام (كم يملك القائم عليه السلام قال يكون سبعين سنة من سنيكم هذه)

وفي غيبة النعماني عنه عليه السلام (أن ملك القائم عليه السلام تسع عشرة سنة وأشهرا).

وقد نقل عن صاحب البحار أنّه يعتمد عليها وأنها مشهورة بَيْنَ الفَريقَيْنِ وفي إرشاد المفيد عن الخثعمي قال قلتُ لأبي عبدالله عليه السلام (روى عبد الكريم الخثعمي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام كم يملك القائم عليه السلام قال سبع سنين تطول له الأيام والليالي حتى تكون السنة من سنيه مقدار عشر سنين من سنيكم فيكون سنو ملكه سبعين سنة من سنيكم).

قال المفيد في الإرشاد (وهذا أمر مغيّب عنا وإنّما ألقي إلينا منه ما يفعله الله تعالى يشرط يعلمه من المصالح المعلومة له جلّ اسمه فلسنا نقطع على أحدِ الأمرين وإن كانت الرواية بذكر سبع سنين أظهر وأكثر) هـ.

وقال في البحار وتلميذه الشيخ عبدالله بن نور الله البحراني في كتابه العوالم أعلم أن (الأخبار المختلفة الواردة في أيّام ملكه عليه السلام بعضها محمول على جميع مدّة ملكه وبعضُها على زمان استقرار دولته وبعضُها على حساب ما عندنا من السنين والشهور وبعضها على سنيه وشهوره الطويلة والله يعلم بحقائق الأمور).

أقول: أما السبع أو التسع فظاهرة الرجحان وإن كان السَّبْع أرْجح لكثرةِ روايتها مِن الفريقَيْن وأمّا المقادير الباقية فالظّاهر أنّها مدّة لغير القائم عليه السلام بدليل

رواية جابر المتقدمة حين قال (متى يكون ذلك قال بعد موت القائم عليه السلام وما ذكر فيها باسمه فيراد به غيره لأن كلا منهم قائم بالحق على أنه لو سلمنا أنه مراد فيجوز أن يكون المراد من الزيادة على السبعين بعضاً قليلاً منهم يقوم مقام كثير، بمعنى أنّ ما أقامَ في خمس مخصوصةٍ مثلاً لا يقام إلاّ في خمسين إمّا لكثرته أو لعِظَمِه أو لعظم خَطَرِه أوْ لِعظَمِ بركتها أو بإضافة ما اختُرِمَ من عمره عليه السلام لأنّه يقتل والظّاهر أنّ المقتول يُقتل قبل أجله بحيث لو لم يقتَل لعاش واختلف في الباقي من عمر المقتول، والّذي فهمتُ من بعض الأخبار أنه سنتان ونصف هذا في غير الإمام عليه السلام وأمّا الإمام عليه السلام فيحتمل مُساواته لغيره وأنه أكثر لأنه عليه السلام لم تجر عليه المصيبة لأجل ذنْبِ الكون هادِماً لبعضِ عمره وإنّما ذلك لمحبّة الله للقائه ومحبّته للقاء الله ولعلّ ذلك ممّا يزيد في العمر وإن كان موجباً للموت، ويحتمل ما ذكره في البحار ويحتمل غير ذلك وما في غيبة الطوسي عن المفضل بن عمر قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول (إن قائمنا إذا قام أشرقت الأرض بنور ربها و استغنى الناس هن ضوء الشمس و يعمر الرجل في ملكه حتى يولد له ألف ذكر لا يولد فيهم أنثى ويبنى في ظهر الكوفة مسجد له ألف باب وتتصل بيوت الكوفة بنهر كربلاء وبالحيرة حتى يخرج الرجل يوم الجمعة على بغلة سفواء يريد الجمعة فلا يدركها).

فالظاهر أنّ المراد بالقائم من قام منهم أي أن الإمام القائم عليه السلام منا إذا قام أشرقت الأرض ... الخ، أو يراد به رجوع القائم عليه السلام بعد أن يقوم ويرجع الحسين عليه السلام ويقتل ويقوم الحسين عليه السلام بعده وذلك عند رجوع علي عليه السلام آخر رجعة ونزول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه عليه السلام حين أذن يطول عمره فلا يرفع إلا مع آبائه

ﷺ لأنه قال ويعمّر الرجل في ملكه حتى يولد له ألف ذكر، وفي رواية منتخب بصائر سعد عن الخثعمي عن الصادق ﷺ (ألف ولد من صلبه ذكر كل سنة ذكر) الحديث .

ويأتي بتمامه إن شاء الله تعالى وفيه أن إبليس يقتل فيها وهي آخر كرّة يَكُرُّها أمير المؤمنين ﷺ يقتله رسول الله ﷺ في هذا الحديث المشار إليه بيان أكثر ما أشرنا إليه من المحامل والترتيب والمدد فتدّبره إذا وقفتَ عليه إن شاء الله تعالى.

وعلى فرض ما رجّحناه من السبع التي هي سبعون سنةً إذا مضى منها قدر تسع وخمسين سنة خرج الحسين ﷺ وهو صامت إلى أن تمضي إحدى عشرة سنة تمام ملّة ملكِ الحجة ﷺ فيُقتل تقتلُه امرأة من تميم لها لحية كلحية الرجل يقال لها سعيدة لعنها الله وذلك أنّه يتجاوز في الطريق وهي على سطحها وتضربه بجاون صخرٍ على أُمّ رأسه ﷺ فتقتله ويتولّى أمْرَ تجهيزه الحسين ﷺ، ويقوم بالأمر بعده إلى أن تمضي ثماني سنين فيخرج علي أمير المؤمنين ﷺ لنصرة ابنه فيكون بين خروجه وبين خروج الحسين ﷺ تسع عشرة سنة، ولعل ما روي مما تقدم من ثلاثمائة وستين سنة وما يدانيها أنها مدة بقاء علي ﷺ مع ابنه الحسين ﷺ، ثم يقتل علي ﷺ ولا أعلمُ كيفيّة قتله ولا مَن يقتله، ولكن سمعتُ مشافهة أنّه يضرب على مفرق رأسه في موضع ضربة ابن ملجم لعنه الله ويمكن الاستدلال على هذا بما روي عن علي ﷺ أنه سأله ابن الكوّاء (ما ذو القرنين أ ملك أم نبي فقال ليس بملك ولا نبي لكن كان عبدا صالحا ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله وسمي ذا القرنين وفيكم مثله)، يعني ﷺ نفسه الشريفة وكونه ﷺ مثله يقتضي أنه في قتلته الثانية يضرب على قرنه.

ثم إنّه عليه السلام يكرّ مرّةً ثانيةً مع جميع شيعته ممّن محض الإيمان محضاً هذا والحسين عليه السلام باقٍ وهو قوله عليه السلام (أنا الّذي أقتل مرّتَيْن وأحيَى مرّتَيْن ولي الكرّة بعد الكرّة والرجعة بعد الرجعة) كما روي عن أبي عبدالله عليه السلام (أنّ لعليّ في الأرض كرّةً مع الحسين عليه السلام) إلى أن قال (ثم كرّة مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) ويأتي تمامه وهذا شيء اختصَّ به صلوات الله عليه دون سائر الأئمة عليهم السلام، وباقي الأئمة والقائم عليهم السلام كلهم يرجعون بعد قتل عليّ وفاطمة أيضاً معهم، ولا أعلم ترتيب رجوعهم وهل هو دفعة أم كلّ بانفراده وإن كان قلبي يحدّثني أنّهم يرجعون متفرّقين ويمكن الاستدلال على تفرقهم بقول الصادق عليه السلام في حديث المفضل في حق أعدائهم قال(ويجازون بأفعالهم منذ وقت ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ظهور المهدي مع إمام إمام ووقت وقت).

وينزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آخرهم وهم مجتمعون، وذلك تأويل قول الحسين عليه السلام يوم كربلاء لأنصاره (لن تشذّ عن رسول لحمته وهي مجموعة له في حظيرة القدس تقرّ بهم عينه صلى الله عليه وآله وسلم).

ويأتي إبليس لعنه الله وشيعته ممن كان موجوداً في ذلك الزمان ومن كان مات وقد محض الشرك محضاً فيقتتلون بالروحا ثم ينزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلم من السماء في ظلل من الغمام فيقتل إبليس وهو قوله تعالى (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ) رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وروى القمي في قوله تعالى (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ) عن أبي عبدالله عليه السلام قال (الغمام أمير المؤمنين عليه السلام).

وقال الصادق عليه السلام في نزول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (فعند ذلك يهبط الجبار عز وجل

فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ رسول الله ﷺ أمامه بيده حربة من نور)الحديث.

فأمرُ الله هبط في عليّ الذي هو الغمام أمامه رسول الله ﷺ وروي إن عمر الدنيا مائة ألف سنة لآل محمد صلى الله عليه وعليهم ثمانون ألف سنة وليس لهم إلاّ مدّة رجعتهم وأوّلها خروج القائم عليه السلام ومدته قد سمعتَ الكلام فيها.

وقد قلنا إنّ الرجعة تطلق على رجوع من مات منهم عليهم السلام وقد تطلق على مطلق دولتهم فيدخل فيها ملك القائم عليه السلام والأخبار بهذا ناطقة في كثير منها إلاّ أنّ الذي يظهر لي من الأخبار أن قيام القائم عليه السلام ليس من الرجعة وإن كان يطلق على ذلك هذا الاسم باعتبار من يبعثُ معه من الأموات أوْ أنّه يذكر مع الرجعة فيسمى تغليباً، أوْ أنّ وقته لمّا كان على عكس وقت الدنيا في السعة والطول والعدل والرخاء وحمل الأشجار كل سنة مرّتين وإخراج الأرض كنوزها واجتماع الملائكة مع الإنس والجنّ ظاهرين وكمال الدين ورفع التقية بالكليّة حتّى لا يستخفي بشيء من الحقّ مخافة أحدٍ من الخلق وأمثال ذلك سمّي رجوعاً ورجعةً، أوْ أنه عليه السلام لما كان غائباً كان خارجاً من الدنيا، وعند ظهوره يرجع إلى الدنيا ولكن على كل تقدير فقيام القائم عليه السلام غير الرجعة وإن ذكر في الرجعة فلعلّ المراد به رجوعه في الدنيا بعد القتل مع جده أمير المؤمنين عليه السلام في الكرّة الثانية ويدلّ على أنه مغاير للرجعة، ما روي في تفسير قوله تعالى (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله)في الخصال عن الباقر عليه السلام (أيام الله عز وجل ثلاثة يوم يقوم القائم ويوم الكرة ويوم القيامة).

وعلى أيّ وجهٍ فكون ملك آل محمد ﷺ ثمانين ألف سنة لا يتوجّه إلاّ على بعض ما أشرنا إليه سابقاً أو يكون منها بقاؤهم في الدنيا، وإن لم يكونوا متمكّنين كمال

التمكّن إلاّ أنَّ لهمْ دولة خافية بها حَفِظَ الله الدين إلى قيام قائمهم ﵇ مع كثرة مَن يتصدى لمحوِ دينهم (ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نوره) لأنّه روي في الاختصاص عن أبي عبدالله ﵇ أنه قال حين سئل عن اليوم الذي ذكر الله مقداره في القرآن (فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) وهي كرة رسول الله ﷺ فيكون ملكه في كرته خمسين ألف سنة و يملك أمير المؤمنين في كرته أربعة وأربعين ألف سنة) وروي أن مدة ملك الحسين ﵇ خمسون ألف سنة وقد تقدم في رواية المعلى والشحام أربعين ألف سنة وروي غير ذلك ، ولم نقف على خبر مفصل لهذه الأمور المبهمة ولا جامع لهذه الأعداد المختلفة ، والذي فهمته منها على اختلافها أن مدة ملك الحسين ﵇ وغيره من الأئمة ﵍ هي بعينها مدة ملك رسول الله ﷺ لأن الملة ملته والدين دينه والدعوة دعوته وهم عماله في سلطنته وحفظة شريعته فما نسب إليهم فهو منسوب إليه على الحقيقة ، والحسين ﵇ خرج على أول الدولة لم يمض منها عنه إلا مدة تسع وخمسين سنة اختص بها القائم ﵇ قبل خروجه ﵇ وهي أيضا للحسين ﵇ لأن القائم ﵇ طالب بثار الحسين ﵇ فالمدة تنسب إليه وهو قتل يوم عاشوراء وليس له إلا ميتة وهي رفعه مع آبائه وأبنائه الطاهرين صلى الله عليهم أجمعين وليس بعد رفعهم إلى أن ينفخ إسرافيل ﵇ في الصور نفخة الصعق إلا أربعون يوما ، فنسبت الخمسون إلى رسول الله ﷺ لأنها مدة سلطنته وهؤلاء عماله وإن تأخر رجوعه عنهم وتقدموا عليه لأنهم عماله كما في رواية جابر بن يزيد عن أبي عبدالله ﵇ وظاهرها أن الضمير في (عماله) يعود إلى علي ﵇ ويحتمل أنه يعود إلى رسول الله ﷺ لأنه قال (ثم كرة أخرى مع رسول الله ﷺ حتى يكون خليفة في الأرض ، ويكون الأئمة ﵍ عماله) وبعد هذا اللفظ يدل

على أنه رسول الله ص قال (وحتى يبعثه الله علانية في الأرض فتكون عبادته في الأرض كما عبد الله سرا في الأرض ، ثم قال إي والله وأضعاف ذلك - ثم عقد بيده أضعافا - يعطي الله نبيه ﷺ جميع ملك أهل الدنيا منذ خلق الله الدنيا إلى يوم يفنيها حتى ينجز له موعده في كتابه كما قال (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)، وهو ظاهر بأنه يعود إلى الرسول ﷺ .

وأما أن مدة ملك علي عليه السلام أربعة وأربعون ألف سنة أو ستة وأربعون ألفا أو أربعون ألفا فالذي أفهمه أيضا أنه يخرج بعد قيام الحسين عليه السلام وموت القائم عليه السلام بثماني سنين كما تقدم ، ويبقى في نصرته وطلب ثاره ما شاء الله ،وربما هي ما حملنا عليه أحاديث مدة ملك القائم عليه السلام على روايات ثلاثمائة وستين سنة أو يشابه ذلك بزيادة أو نقيصة ، ثم يقتل لعن الله قاتله ويلي أمره وتجهيزه الحسين عليه السلام إن لم يكن أخوه الحسَنُ عليه السلام قد ظهر لأنّا لا نعلم ترتيب خروجهم ولا متى يخرج الراجع منهم إلاّ ما ذكرناه من أنه يخرج القائم عليه السلام أوّلاً ثم الحسين عليه السلام ثم عليّ عليه السلام في كرّته الأولى ثم يكرّ الثانية أخيراً ثم ينزل السيد الأكبر رسول الله ﷺ ، وأمّا باقي الأئمة وفاطمة عليها السلام فيخرجون ما بين خروج عليّ أوّلاً وخروجه آخراً ولا نعلم الترتيب ولا الكيفيّة والله سبحانه أعلم، وما بين قتله إلى كرّته الثانية لا نقطع بقدرها والّذي فهمتُ ممّا أشرنا لك من أنّ مدّة ملكه أربعة وأربعون ألف سنة، وأنّ مدة ملك الحسين عليه السلام ورسول الله ﷺ خمسون ألف سنة وأنّ عليّاً عليه السلام قتل وبين قتله وخروجه ثانياً مدة البتّة، وأنّهم يرفعون من هذا العالم إلى السماء في وقتٍ واحدٍ وإنّ مدة ما بين قتله وخروجه ثانياً أربعة آلاف سنة أو ستّة آلاف سنة على اختلاف الروايتين أو عشرة آلاف على رواية الأربعين ألف سنة أنها مدة

ملكه وأنّ نزول رسول الله ﷺ بعد خروج عليّ عليه السلام الثاني وأنّ هذا النزول أوّل خروجه ﷺ وفيه يقتل إبليس لعنه الله ، وأمّا ما ذكرناه من مدة ملك الحسين عليه السلام من أنّها خمسون ألفاً مع ما ورد من أنها أربعون ألفاً وترجيحنا للخمسين الألف فمن جهة أنه خرج قبل عليّ عليه السلام ويرفعان في وقتٍ واحدٍ وأنّ عليّاً عليه السلام يقتل والحسين عليه السلام حيّ فإنه يلزم من هذا أن المراد هو الخمسون، والأربعون تحمل على أحد المعاني السّابقة في حمل اختلاف المدد الواردة.

وإنّما قلتُ إنّ رفعهم عليهم السلام من الأرض إلى السّماء في وقتٍ واحدٍ مع أني لم أجد تصريحاً في ذلك لما وجدتُ تلويحاً من النّقل الذي اطمئنّ إلى إشارته القلب، وذلك ما روى أيّوب بن الحرّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال قلنا له(الأئمة بعضهم أعلم من بعض قال نعم و علمهم بالحلال و الحرام و تفسير القرآن واحد).

فإنّه قد لوّح بتساويهم عليهم السلام في غير العلم الذاتي الرتبي الذي هو التلقّي وباختلافهم عليهم السلام فيه وبهذا يجمع بين الأحاديث الدالّة على التساوي والدالّة على التفاضل وهي كثيرة في الحكمين معاً، ووجه اطمئنان القلب به سكونه إلى ما ثبت عنهم من معنى أن كلّ واحد منهم عليهم السلام علّة تامّة لوجود العالم في صدوره وفي بقائه فهو بالله علّة فاعلية وهم بأمره يعملون ،وشعاعهم بمشية الله علة مادية (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ) ، وظل هياكلهم بإرادة الله علة صورية، وأحوالهم بقدر الله علة غائية ، ولا ينافي ما قلنا ما في منتخب بصائر سعد عن أبي عبدالله عليه السلام في الحديث القدسي إلى أن قال تعالى (يا محمد علي أول من آخذ ميثاقه من الأئمة عليهم السلام يا محمد على آخر من اقبض روحه من الأئمة عليهم السلام) الحديث،لأنه لا يلزم من تأخره عنهم طول مدة بقائه بعده مع أني لم أرد برفعهم

في وقت واحد أن رفعهم دفعة وإنما مرادي ألا يكون بينهم تفاوت يعد بالآلاف كما عدت مدة كل واحد منهم .

فإذا عرفت هذا ظهر لك أن حاجة جميع الخلق إلى واحد منهم كحاجة الجميع إلى الآخر وإلى الكل وإلى البعض وإلا لما صلح أن يكون الواحد منهم إماما في زمانه وقطبا للعالم ومحلا لنظر الله من العالم وغوثا لكل شيء وبابا لجميع فيوضات الله سبحانه على خلقه وواسطة بينهم وبينه في أكوانهم وأعيانهم وآجالهم وجميع شئون الخلق إلى الله وتلقياتهم منه فواحدهم بالنسبة إلى الخلق ككلهم وكلهم كواحد منهم فيكون المتضي لرفع واحد عن ذاتيات الخلق متقضيا لرفع الجميع وليس هذا جاريا في الدنيا، لأن رفعه في الدنيا ليس رفعا عن ذاتيات المكلفين لأنه إذا أراد الله رفعه إليه استناب مكانه مثله حافظا لذاتياتهم وبعد الرجعة لا يستنيب، فدل ما قلناه أنهم يرفعون في وقت واحد.

قال في العوالم (والرجعة عندنا تختص بمن محض الإيمان ومحض الكفر دون من سوى هذين الفريقين ، فإذا أراد الله تعالى على ما ذكرناه أوهم الشياطين أعداء الله عز وجل أنهم إنما ردوا إلى الدنيا لطغيانهم على الله فيزدادوا عتوا فينتقم الله منهم أوليائه المؤمنين ويجعل لهم الكرة عليهم فلا يبقى منهم إلا من هو مغموم بالعذاب والنقمة والعقاب وتصفو الأرض من الطغاة ويكون الدين لله ، والرجعة إنما هي من ممحضي الإيمان من أهل الملة وممحضي النفاق منهم دون من سلف من الأمم الخالية).انتهى.

أقول : إما أن الرجعة تختص بمن محض الإيمان محضا ومحض الكفر محضا فلا إشكال فيه والأخبار منصبة عليه لا تعارض فيها ولا اختلاف لا يستثنى من

ذلك إلا من أهلك بالعذاب في الدنيا فإنه لا كرة له قال تعالى (وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُون) إلا أن يكون عليه قصاص ، نعم من كان له قصاص بعث مع قاتله ليقتص منه فإذا اقتص منه بقي ثلاثين شهرا وهي ما اخترمه القاتل من عمره المكتوب له فإنه لا بد أن يناله كما قال سبحانه (أُوْلَـئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَاب) ولهذا يموتون كلهم في ليلة واحدة لأنهم كلهم مقتولون وقد بقي لهم من آجالهم هذا القدر وهو سنتان ونصف ولم يكونوا من أهل الجنة ليعيشوا بالضعف من أعمارهم رواه في منتخب البصائر عن أبي إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام قال (لترجعن نفوس ذهبت و ليقتصن يوم يقوم ومن عذب يقتص بعذابه ومن أغيظ أغاظ بغيظه ومن قتل اقتص بقتله ويرد لهم أعداؤهم معهم حتى يأخذوا بثأرهم ثم يعمرون بعدهم ثلاثين شهرا ثم يموتون في ليلة واحدة قد أدركوا ثأرهم و شفوا أنفسهم ويصير عدوهم إلى أشد النار عذابا ثم يوقفون بين يدي الجبار عز وجل فيؤخذ لهم بحقوقهم)هـ.

وأما قوله دون من سلف من الأمم الخالية فليس بصحيح لأن الرجعة المنزل الأوّل من منازل الآخرة أعني البرزخ ولهذا يجتمع الناس والملائكة والجن وذلك لكشف الغطاء، ولم تكن مختصّة بهذه الأمّة لأنّ الجنّة التي تأوي إليها أرواح المؤمنين من جنان الدنيا ولم تكن مختصّة بهذه الأمّة وهي جنّة المقرّبين بعد الموت وهي الجنّتان المدهامّتان، فإنّ الله سبحانه قال (وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ) إلى آخر الآيات وهي للمقرّبين ثم قال عز وجل: (وَمِنْ دُونِهِما جَنَّتانِ) والمراد بهذا الدُّونِ معنيان.

أحدهما: القرب لأنه تعالى لمّا وعدهم يوم القيامة بالجنّتين العظيمتين وعدهم

بأنّ لهم جنّتيْنِ أقرب من الأوّليّتيْن يعني في البرزخ بعد الموت.

وثانيهما: القِلّة والضعف بمعنى أنّ نعيم جنّتي الدنيا في البرزخ أنزل وأقلّ وأضعف من نعيم جنّتي الآخرة وعدم دوامهم فيها بخلاف الآخرة، لأنّ النعيم يختلف شدّةً وضعفاً بحسب اختلاف المتنعِّمين في اللّطافة والبقاء وعدمهما، وفي لطافة الزمان والمكان وعدمها وإن كانت الجنّتان المدهامّتان في الحقيقة هي جنّة الخلد فإنّ المؤمنين إذا ماتوا راحت أرواحهم إلى جنّة الدنيا التي هي المدهامّتان فإذا كانت القيامة صُفِّيَتْ وكانت هي جنّة الخلد وراحوا إليها كما أنّ هذه الأجساد والأجسام في الدنيا هي أجسام الدنيا وأجسادها، فإذا رحلوا إلى البرزخ كانت بعينها هي أجساد البرزخ وأجسامه فإذا كان يوم القيامة كانت بعينها هي أجساد الآخرة وأجسامها فقال تعالى (وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ) في الآخرة وله من دونهما أي في البرزخ جنّتان مدهامّتان، وقد ذكر الله سبحانه ذلك بأن الجنّتين في الدنيا هما الجنّتانِ في الآخرة فقال تعالى (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا) (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا) فقوله (بُكْرَةً وَعَشِيًّا) صريح بإرادة جنّة الدنيا في البرزخ وقوله (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا) صريح بإرادة جنّة الآخرة فقال في جنّة الدنيا تلك جنّة الآخرة فافهم ، ونظيره في النار فإنّ النار في الدنيا نار البرزخ هي نار الآخرة قال تعالى (وحاق بآل فرعون سوء العذاب النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ) ويوم تقوم الساعة فأخبر أنّهم يعرضون عليها في الدنيا بقوله (غُدُوًّا وَعَشِيًّا) فإنهما لا يكونان في الآخرة ويعرضون عليها يوم تقوم الساعة

يعني في الآخرة مع اتّفاق المفسرّين على أنّ أدخلوا آل فرعون كلام مستأنف واتّفاق القرّاء على الوقف على الساعة والابتداء بأدخلوا حتى أنّهم يرسمون عليها (قف) وذلك لبيان كونها معمولاً ليعرضون.

فجنّة الدنيا بعد التصفية هي جنّة الآخرة ونار الدنيا بعد التصفية هي نار الآخرة، وأجسام الدنيا بعد التصفية هي أجسام الآخرة.

فإذا عرفتَ هذا عرفتَ أنه لا اختصاص لهذه الأمّة بجنّة الدنيا بل كلّ من محض الإيمان محضاً من الأمم الخالية، ومن هذه الأمة سُئِل في قبره وراحت روحه إلى جنّة الدنيا تتنعّم فيها وتأوي وادي السلام بظهر الكوفة في الجُمَع والأعياد أو كلّ يوم كما في بعض أفراد المؤمنين وعليه تحمل روايته ويزورون مواضع حفرهم وأهاليهم إلى رجعة آل محمد ﷺ فتظهر الجنتّان المدهامّتان عند مسجد الكوفة، ولا ريب أنّ الأرواح باقية حينئذٍ لا تبطل إلاّ بين النفختين، وذلك بعد الرجعة وأرواح جميع المؤمنين الماحضين للإيمان يأوون إليها وهذه الجنّتان المدهامّتان تظهران في الرجعة كما يأتي إن شاء الله تعالى في رواية منتخب البصائر قال الصادق عليه السلام (وعند ذلك تظهر الجنتان المدهامتان عند مسجد الكوفة وما حوله بما شاء الله)هـ.

وأيضاً قد دلّت الآثار على رجوع الأنبياء عليهم السلام في الرجعة كما في قصّة أصحاب الرسّ العجمي وأنّهم رسّوا نبيّهم إسماعيل بن حزقيل عليه السلام وهو الذي ذكره الله في كتابه (إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ) الآية وإن الله سبحانه أوحى إليه إن شئت أخرجتُك ونصرتك عليهم حتى تنتقم منهم فقال يا ربّ أحب أن أرجع مع الحسين عليه السلام وأنتقم منهم ، نقلته بالمعنى مختصراً وفيه أيضاً ما هذا لفظه (فإذا كان

يوم الوقت المعلوم ظهر إبليس لعنه الله في جميع أشياعه منذ خلق الله آدم إلى يوم الوقت المعلوم) وفيه أيضاً بعدُ (فإذا كان يوم الوقت المعلوم كَرَّ أمير المؤمنين عليه السلام في أصحابه و جاء إبليس في أصحابه) انتهى.

ويفهم منه أنّ علياً يكرّ في جميع أصحابه كما كان لإبليس إذ لا تخصيص لإبليس وأصحابه ولا قائل بالفرق وهو نصّ في ما نقوله من العموم ومثل ما روي في منتخب البصائر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام إلى أن قال (وأخذ ميثاق الأنبياء بالإيمان والنصرة لنا وذلك قوله عز وجل (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ) يعني لتؤمنن بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولتنصرن وصيه وسينصرونه جميعا وإن الله أخذ ميثاقي مع ميثاق محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالنصرة بعضنا لبعض فقد نصرت محمدا وجاهدت بين يديه وقتلت عدوه ووفيت لله بما أخذ علي من الميثاق والعهد والنصرة لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينصرني أحد من أنبياء الله ورسله و ذلك لما قبضهم الله إليه وسوف ينصرونني و يكون لي ما بين مشرقها إلى مغربها و ليبعثهم الله أحياء من آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله وسلم كل نبي مرسل يضربون بين يدي بالسيف هام الأموات والأحياء و الثقلين جميعا فيا عجبا وكيف لا أعجب من أموات يبعثهم الله أحياء يلبون زمرة زمرة بالتلبية لبيّك لبيّك يا داعي الله قد تخللوا بسكك الكوفة قد شهروا سيوفهم على عواتقهم ليضربون بها هام الكفرة وجبابرتهم وأتباعهم من جبارة الأولين والآخرين حتى ينجز الله ما وعدهم في قوله عز وجل وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ الآية).

وأمثال هذا من الأخبار المتكثّرة وليس هذا خاصاً بالنّبيّين فمن تدبّر ما أشرنا

إليه من التعليل قطع بأن الرجعة تشمل كل من محض الإيمان مَحْضاً ومحض الكفر محضا مِن جميع الأمم للاشتراك في العِلّة.

واعلم أن القول بالرجعة مطلقاً مذهب الأكثر من الخاصّة والعامّة أمّا قيام القائم عليه السلام فقد انعقد عليه الإجماع من الفريقين والروايات من الفريقين مستفيضةٌ والمنكر له لا يكاد يتحقّق إلاّ من غير المعتبرين والمعاندين، وأمّا القول ببعث الأموات معه فهو مذهب الأكثر من الشيعة وبعضهم أنكر ذلك قال السيد المرتضى رحمه الله في الردّ على من أنكر ذلك قال (فأما من تأول الرجعة في أصحابنا على أن معناها رجوع الدولة والأمر والنهي ، من دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات ، فإن قوما من الشيعة لما عجزوا عن نصرة الرجعة وبيان جوازها وأنها تنافي التكليف ، عولوا على هذا التأويل للأخبار الواردة بالرجعة . وهذا منهم غير صحيح ، لأن الرجعة لم تثبت بظواهر الأخبار المنقولة ، فيطرق التأويلات عليها ، فكيف يثبت ما هو مقطوع على صحته بأخبار الآحاد التي لا توجب العلم ؟ وإنما المعول في إثبات الرجعة على إجماع الإمامية على معناها ، بأن الله تعالى يحيي أمواتا عند قيام القائم عليه السلام من أوليائه وأعدائه على ما بيناه ، فكيف يطرق التأويل على ما هو معلوم ، فالمعنى غير محتمل) . انتهى

ومرادهم بأنّ الرجعة تنافي التكليف أنّ من مات ارتفع التكليف عنه فإذا بعث لم يثبت أنه مكلّف إلاّ مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة بثبوت الوحي وقد انقطع بموت النبي ﷺ وهذا منهم كلام باطل لأن الرجعة إنما تكون مع خليفة النبي ﷺ الحافظ لدينه الذي قد نص ﷺ عليه بأن قوله وحكمه قول الله ورسوله وحكمهما، والرادّ عليه رادّ على الله ورسوله ﷺ وهو آتٍ بمعجزات

مثل معجزات النبي ﷺ تصدّقه وتشهد له كما فعل الحجة عليه السلام للحسني لمّا غرزَ له هراوة رسول الله ﷺ غرسها في الحجر الصلد فتورق.

وقال السيد رحمه الله بعد كلام طويل ونقل لروايات العامة مستدلاً بها على رجعة أقوام عند قيام القائم عليه السلام بما جرى في الأمم السالفة مثل (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ هُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ الله مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ) وأمثالها بأحاديث(لتركبن سنن من كان قبلكم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة)و(لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر و ذراعا بذراع) إلى أن قال رحمه الله (ورأيتُ في أخبارهم زيادة على ما تقوله الشيعة من الإشارة إلى أنّ مولانا عليّاً عليه السلام يعود إلى الدنيا بعد ضرب ابن ملجم وبعد وفاته كما رجع ذو القرنَيْن، ونقل عن الزمخشري في الكشاف في حديث ذي القرنين قد ذكرنا بعضه فيما تقدم من سؤال ابن الكوّا وذكر الطبرسي رحمه الله في تفسير قوله تعالى (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ) نحو ما ذكر السيد رحمه الله في المعنى إلى أنْ قال على أنّ جماعة من العلماء تأوّلوا ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة والأمر والنهي دون رجوع الأشخاص لما ظنّوا أنّ الرجعة تنافي التكليف وليس كذلك لأنّه ليس فيها ما يلجئ إلى فعل الواجب والامتناع من القبيح والتكليف يصحّ معهما كما يصح مع ظهور المعجزات الباهرة والآيات القاهرة كفلق البحر وقلب العصا وما أشبه ذلك وإن كانت الأخبار تعضده وتؤيّده انتهى ،قال الشيخ عبد الله بن نور الله البحراني في كتابه العوالم بعد نقل الأقوال بتمامها كما سمعتَ ممّا اختصرنا من بعضها.

قال وإذا عرفتَ هذا فاعلم يا أخي أني لا أظنّك ترتاب بعد ما مهّدتُ

وأوضحتُ لك في القول بالرجعة التي أجمعت الشيعة عليها في جميع الأعصار واشتهرت بينهم كالشمس في رابعة النهار حتى نظموها في أشعارهم واحتجّوا بها على المخالفين في جميع أعصارهم وشنّع المخالفون عليهم في ذلك وأثبتُوه في كتبهم وأسفارهم.

أقول: ويأتي باقي كلامه وأنت إذا تدبّرتَ كلامهم وجدتَ أنه دائر مدار إثبات مطلق الرجعة وهي قيام القائم عليه السلام وبعث بعض الأموات معه ومَنْ أنكر ذلك فقد سمعتَ ردّهم عليه.

وأمّا القول بالرجعة الخاصّة كما ذكرنا الإشارة إليها غير قيام القائم عليه السلام بل رجوع جميع الأئمة والقائم معهم ثانياً بعد أن يقتل ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلم، وفاطمة عليها السلام أوّل راجع هو الحسين عليه السلام وآخر راجع هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما هو صريح الروايات المتكثّرة المتواترة معنى وسنذكر بعضاً منها قليلاً لأنها أكثر من أن يحصيها شرح مسألة، فظاهر عبارة السيّد والمفيد والعلاّمة كما في خلاصته في ترجمة ميسر بن عبد العزيز وقال العقيقي أثنى عليه آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو ممن يجاهد في الرجعة. انتهى، أنّهم إنّما يعنون قيام القائم عليه السلام خاصّة، وعبارة السيّد المرتضى المتقدمة وهي (ورأيتُ في أخبارهم) يعني العامّة (زيادة على ما تقوله الشيعة من الإشارة إلى أنّ مولانا عليّاً يعود إلى الدنيا بعد ضرب ابن ملجم وبعد وفاته كما رجع ذو القرنين) انتهى صريحةٌ في أنّ مراده بدعوى الرجعة والإنكار على منكرها هو قيام القائم عليه السلام حتى أنّه ما رأى ما ورد في ذلك خصوصاً ممّا لا يكاد يحصى كثرةً إلاّ من كلام الزمخشري في الكشاف، كما سمعتَ ممّا ذكرنا وجعل هذا زيادة على ما تقوله الشيعة والشيخ عبدالله بن نور الله البحراني جعل كلامهم

الذي نقله في كتابه مما قد سمعتَ مختصر بعضه حجّة على ثبوت الرجعة الخاصّة التي ندّعيها مع أنه استقصى الروايات الواردة في ذلك في مجلّد الرابع والعشرين من كتابه العوالم في أحوال القائم عليه السلام، ولا أدري ما أقول مع أن القائل بهذا الذي نشير إليه كثير وليس بعجيبٍ لكثرة النصوص الواردة في ذلك وعدم وجود شيء من المعارض والقرآن ناطق بذلك في قوله (وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ) ، إذا قرأت كما أنزلت من تأخيرها عن آية (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً) الآية ليرتبط الكلام، لعن الله من قدّم ما أخّره الله وأخر ما قدّمه الله والنظم الحق بين الآيات هكذا (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتَّى إِذا جاؤُ قالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآياتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِها عِلْماً أَمَّا ذا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ، وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِما ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنْطِقُونَ)(وَإِذا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كانُوا بِآياتِنا لا يُوقِنُونَ) فذكر الله الحشر الخاصّ وبعث بعضاً ممّن يكذّب بآيات الله عليه السلام وإذا وقعت عليهم الحجة وانقطعوا عن الجواب أخرج الله لهم دابّة الأرض، وقد انعقد الإجماع من المسلمين أنّ خروج الدابّة قبل يوم القيامة وبعد انغلاق باب التوبة، وانغلاق باب التوبة عند الشيعة بعد قيام القائم عليه السلام لأنه يستتيب أقواماً واليهود والنصارى وسائر الملل ولا يقتل أحداً إلاّ بعد أن يعرض عليهم التّوبة والأحاديث، فإذا ثبت أن غلق باب التوبة بعد القائم عليه السلام قبل خروج دابة الأرض وخروجها قل يوم القبامة وقد ثبت أن دابة الأرض عند الشيعة علي بن أبي طالب عليه السلام وأحاديثهم متواردة بذلك ثبت ما ندعيه عند من يعيه وهذا ليس بعجيب كما قلنا انما العجيب إنكار رجعتهم وأحاديثهم

وأدعيتهم ناطقة بذلك كما ورد من الناحية المقدسة إلى القاسم بن العلى الهمذاني وكيل أبي محمد العسكري عليه السلام في دعاء اليوم الثالث من شعبان يوم مولد الحسين عليه السلام (اللهم أني أسألك بحق المولد في هذا اليوم الموعود بشهادته قبل استهلاله وولادته بكته السماء من فيها والأرض ومن عليها ولم يطئ لابتيها قتيل العبرة وسيد الأسرة الممدود بالنصرة يوم الكرة المعوض من قتله أن الأئمة من نسله و الشفاء في تربته و الفوز معه في أوبته و الأوصياء من عترته بعد قائمهم و غيبته حتى يدركوا الأوتار و يثأروا الثأر و يرضوا الجبار و يكونوا خير أنصار صلى الله عليهم مع اختلاف الليل و النهار) وفي آخره(فنحن عائذون بقبره من بعده نشهد تربته وننتظر أوبته آمين رب العالمين).

أقول متى هذه الأوبة التي يدركون فيها الأوتار ويثأر الثأر وما معنى الممدود بالنصرة يوم الكره وأمثال ذلك والزيارة التي نحن بصدد شرحها مشحونة بذلك والأدعية والأخبار تزيد على ستمائة كما ذكره السيد نعمت الله فيما ذكرنا سابقاً وكل هذا ما وصل إلى من أنكر ذلك وقد نقل عن المفيد رحمه الله في شرح إعتقاد بن بابويه أنه أنكر الرجعة وجعل القول بها من خرافات الجهال ووقفت على قوله كما نقل إلا أني الآن لم يحضرني وإلا لأوردته وعبارته في آخر ارشاده تشعر بذلك وهي قوله وليس بعد دولة القائم عليه السلام لأحد دولة لإلا ما جاءت به الرواية من قيام ولد إنشاء الله ذلك (إن ثبت ذلك) ولم ترد به على القطع والثبات وأكثر الروايات أنه لن يمضي مهدي هذه الأمة إلا قبل القيامة أربعون يوماً يكون فيها الهرج وعلامة خروج الأموات وقيام الساعة للحساب والجزاء والله أعلم بما يكون أقول إن كان هذا الأمر دائراً مدار مجيء الروايات فلا

يكون حكم من أحكام الشرع ورد فيه مثل ما ورد في هذه المسألة وهي نصوص مستفيضة متكررة في الكتب المعتبرة بلا لا يكاد يوجد كتاب من كتب الشيعة وكتب الأخبار خالياً عن شيء منها ومن تتبع آثار أهل العصمة عليهم السلام حصل له القطع بأن هذا مذهب الأئمة عليهم السلام والذي دعاهم إلى أن يقولوا إنَّ دَوْلة القائم عليه السلام آخِرُ الدُّوَل وليس بعد دولته دولةٌ وإنّ بين دَوْلتِه ونفخة الصُّورِ أرْبَعين يوماً ما فهموه من بعض الروايات.

وفيه أنّ الأئمة عليهم السلام يطلقون القائم على كلّ قائم منهم فيتوهم بعض الناظرين أنهم أرادوا به محمد بن الحسن العسكري عليهما السلام مع أنّهم يقولون أنّ كلّ واحدٍ منا قائمٌ بالحق، وورد أنّ إبليس لعنه الله يقتله القائم عليه السلام وورد أنّ الذي يقتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في آخر الرجعات وهو المطابق للأخبار الموافق للاعتبار ويصدق على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلم أنه القائم بالحقّ بل هو بهذه الصفة أحقّ من جميعهم.

وفيه أيضاً أن أحاديثهمْ مصرّحة بأنّ كل مؤمن له ميتة وقتلة، أنّ مَن ماتَ يبعثُ حتّى يقتل ومَن قتل يبعث حتى يموت والقائم المنتظر عجل الله فرجه إلى قيامه لم يمت ولم يقتل ولا بدّ له منهما.

وروي أنّه إذا خرج وانتهت مدة ملكه يقتل، تقتله سعيدة التميميّة لعنها الله ولا بدّ أن يبعث حتى يموت وَموته مع آبائه الطاهرين عليهم السلام رفعه معهم من الأرض إلى السماء وقد تقدّم أنّه في وقتٍ واحدٍ.

وإذا اجتمعوا عليهم السلام كان الملك والسلطان السيد الأكبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسلم والأئمة عليهم السلام وزراؤه حكّام مالكون متصرّفون بأمره صلى الله عليه وآله وسلم وسلم في أقطار الأرض فيجوز أن يقال ليس بعد دولته دولةٌ لأحدٍ وليس بينها وبين النفخة الأولى إلاّ

أربعين يوماً ويراد بها دولته الثانية، وهذا ظاهر إن شاء الله، وربّما جعل من أنكر ذلك الأخبار الواردة فيما أشرنا إليه أخبار آحاد لا توجب علماً كما تقدم في كلام السيد المرتضى رحمه الله حيث جعل العمدة في إثبات ما ثبت الإجماع ولنا أن نقول أنّ الإجماع وإن لم يثبت في ذلك الزمان إلاّ على ما خصّصه من خروج الصاحب عليه السلام جاز أن يثبت فيما بعده لأنّ كثرة المخالف في ذلك الزمان تغطّي كثيراً من الإمارات وربّما غرست الشبهة في القلوب بإيراد الاحتمالات، وفي هذا الزمان حين زالت تلك الغواشي ولم يوجد من ذكرها في مواضع المجادلة والمعارضة شيء وإنّما تذكر في الأحاديث والأدعية ومجالس الذكر وطلب الفرج ظهرت الإمارات وتراكمت حتى اطمأنّتِ النفوس وسكنت الأفكار حين اضمحلّت المعارضات والموانع سهل إثبات الإجماع على هذا المدّعَى مع ما ورد فيه من النصوص الكثيرة منها ما تقدّم ذكره عن السيد نعمت الله الجزائري أنه قال وقفت على ستمائة وعشرين حديثاً في هذا الباب والشيخ عبدالله بن نور الله البحراني الذي تقدّم ذكره وبعض كلامه وقلنا يأتي تمامه، قال وكيف يشكّ مؤمن بحقيّة الأئمة الأطهار عليهم السلام فيما تواتر عنهم في قريب من مائتي حديث صريح رواها نيف وأربعون من الثقات العظام والعلماء الأعلام في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم كثقة الإسلام الكليني والصدوق محمد بن بابويه والشيخ أبي جعفر الطوسي والمرتضى والنجاشي والكشّي والعياشي وعلي بن إبراهيم وسليم الهلالي والشيخ المفيد والكراجكي والنعماني والصفّار وسعد بن عبدالله وابن قولويه وعلي بن عبد الحميد والسيد علي بن طاوس وولده صاحب كتاب زوائد الفرائد، ومحمد بن علي بن إبراهيم وفرات بن إبراهيم ومؤلف كتاب التنزيل والتحريف

وأبي الفضل الطبرسي وأبي طالب الطبرسي وإبراهيم بن محمد الثقفي، ومحمد بن العباس بن مروان والبرقي وابن شهر آشوب والحسن بن سليمان والقطب الراوندي والعلاّمة الحلّي والسيد بهاء الدين علي بن عبد الكريم وأحمد بن داود بن سعيد والحسن بن علي بن أبي حمزة، والفضل بن شاذان والشيخ الشهيد محمد بن مكي والحسين بن حمدان والحسن بن محمد بن جمهور القمّي مؤلف كتاب الواحدة والحسن بن محبوب وجعفر بن محمد بن مالك الكوفي وطهر بن عبدالله، وشاذان بن جبرائيل وصاحب كتاب الفضائل ومؤلف الكتاب العتيق ومؤلف كتاب الخطب وغيرهم من مؤلفي الكتب التي عندنا ولم نعرف مؤلّفه على التعيين ولذا لم ننسب الأخبار إليهم وإن كان موجوداً فيها وإذا لم يكن مثل هذا متواتراً ففي أيّ شيء يمكن دعوى التواتر مع ما روته كافة الشيعة خلفاً عن سلفٍ ، وظني أنّ من يشكّ في أمثالها فهو شاكّ في أئمة الدين ولا يمكنه إظهار ذلك من بين المؤمنين فيحتال في تخريب الملّة القويمة بإلقاء ما يتسارع إليه عقول المستضعفين من استبعاد المتفلسفين وتشكيكات الملحدين ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ﴾.

أقول : لا يذهب وهمك أنه يعرّض بذلك للشيعة المأوّلين لتلك الأخبار بل للمنكرين من العامة كما يدل عليه كلامه قبل هذا ثم قال ولنذكر لمزيد التشييد والتأكيد أسماء بعض من تعرّض لتأسيس هذا المدّعى وصنّف فيه أو احتجّ على المنكرين أو خاصم المخالفين سوى ما ظهر مما قدّمناه في ضمن الأخبار والله الموفق.

فمنهم أحمد بن داود بن سعيد الجرجاني قال الشيخ في الفهرست كتاب المتعة والرجعة ومنهم الحسن بن علي بن أبي حمزة البطائني وعدّ النجاشي من جملة كتبه

كتاب الرجعة، ومنهم الفضل بن شاذان النيسابوري ذكر الشيخ في الفهرست والنجاشي أنّ له كتاباً في إثبات الرجعة ومنهم الصدوق محمد بن علي بن بابويه فإنه عدّ النجاشي من كتبه كتاب الرجعة ومنهم محمد بن مسعود العياشي ذكر النجاشي والشيخ في الفهرست كتابه في الرجعة ومنهم الحسن بن سليمان على ما روينا عنه الأخبار.

وأما سائر الأصحاب فإنهم ذكروها في ما صنفوا في الغيبة ولم يفردوا لها رسالة وأكثر أصحاب الكتب من أصحابنا أفردوا كتاباً في الغيبة، وقد عرفتَ سابقاً من روى ذلك من عظماء الأصحاب وأكابر المحدّثين الذين ليس في جلالتهم شك ولا ارتياب وقال العلاّمة رحمه الله في خلاصة الرجال في ترجمة ميسّر بن عبد العزيز فقال العقيقي أثنى عليه آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو ممّن يجاهد في الرجعة انتهى.

أقول: إذا نظرتَ في الأخبار وفي كلام العلماء فيها وما ألّفوا فيها من الكتب وكثرة الجدال فيها بينهم وبين مخالفيهم ظهر لك أنّ هذه حال ما هو متواتر بين الفرقة لا حال أخبار الآحاد هذا وقد قال الشيخ في العدة أن خبر الواحد إذا كان وارِداً من طريق أصحابنا القائلين بالإمامة وكان ذلك مرويّاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسلم أو عن وَاحدٍ من الأئمة عليهم السلام وكان ممّن لا يطعن في روايته ويكون سديداً في نقله ولم تكن هناك قرينةٌ تدلّ على صحة ما تضمّنه الخبر لأنه إن كان هناك قرينةٌ تدلّ على صحّة ذلِك كان الاعتبار بالقرينة وكان ذلك موجباً للعلم، ونحنُ نذكر القرائن فيما بعد جاز العمل به والّذي يدلّ على ذلك إجماع الفرقة المُحِقّة فإنّي وجدتُها مجتمِعةً على العمل بهذه الأخبار التي رووها في تصانيفهم ودونُوَها في أصُولهم لا يتناكرون ذلك ولا يتدافعونه حتى أنّ واحداً منهم إذا أفتى بشيء

لا يعرفونه سألوه من أين قلتَ هذا، فإذا أحالهم على كتاب معروفٍ أوْ أصل مشهور وكان راويه ثقةً لا ينكر حديثه سكتُوا وسلّموا الأمر في ذلك وقبلوا قوله هذه عادتهم وسجيتُهُم من عهد النبي ﷺ وسلم ومن بعده من الأئمة عليهم السلام ومن زمن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام الذي انتشر العلم عنه وكثرت الروايات من جهتِه فلولا أنّ هذه الأخبار كان جائزاً لما أجمعوا على ذلك ولأنكروهُ لأنّ إجماعهم فيه معصوم لا يجوز عليه الغلَطُ والسهو إلى آخره.

فإذا كان خبر واحد يقبلونه ويعملون به إذا كان صحيحاً فكم من خبر صحيح في هذه المسألة موجب على هذه القاعِدة للعمل بمقتضاه والمقام ليس محلاً للإطناب وإنّما ذكرت هذه الكلمات تنبيهاً على إثبات ما أثْبتَهُ الله وأثبته أولياؤه عليهم السلام وإنما دعا المنكر له إلى الإنكار عدم احتماله وهو حقّ لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان.

كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته التي تسمى بالمخزون قال فيما نحن فيه (إن أمرنا صعب مستصعب لا يحتمله إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد امتحن الله قلبه للإيمان لا يعي حديثنا إلا حصون حصينة أو صدور أمينة أو أحلام رزينة يا عجبا كل العجب بين جمادى ورجب، فقال رجل من شرطة الخميس ما هذا العجب يا أمير المؤمنين قال ومالي لا أعجب وسبق القضاء فيكم وما تفقهون الحديث ، ألا صوتات بينهن موتات حصد نبات ونشر أموات... إلخ).

وفي معاني الأخبار بسنده إلى الشعبي قال (قال ابن الكوّا لعليّ صلى الله عليه يا أمير المؤمنين أرأيت قولك العجب كل العجب بين جمادى ورجب قال وَيْحك يا أعور هو جمع أشتات ونشر أمواتٍ وحصد نبات وهنات بعد هناتٍ مهلكات مبيرات لستُ أنا ولا أنت هناك).

ومنه بسنده عن عباية الأسدي (قال سمعتُ أمير المؤمنين صلوات الله عليه وهو متّكىء وأنا قائم عليه لابنِيَنَّ بمصر منبراً ولأنَقُضَنَّ دمشق حجراً حجراً ولأُخْرِجنّ اليهود والنصارى من كل كور العرب ولأسوقن العرب بعصاي هذه قال قلتُ له يا أمير المؤمنين كأنّك تخبر أنّك تحيى بعدما تموت فقال هيهات يا عباية ذهبتَ في غير مذهب يفعله رجل منّي قال الصدوق رحمه الله (إن أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليهً اتّقى عباية الأسدي في هذا الحديث واتقى ابن الكوّا في الحديث الأوّل لأنهما كانا غير محتمليْن لأسرار آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا صريح في هذه الدعوى وأمثاله أصرح وأصح والحمد لله ربِّ العالمين.

خاتمة

ولنورد بعضاً من آثارهم عليهم السلام ممّا يدلّ على ذلك وعلى بعض كيفيته ووقته ففي الاختصاص بسنده عن أبي عبدالله عليه السلام (سئل عن الرجعة أحق هي قال نعم فقيل له من أول من يخرج قال الحسين عليه السلام يخرج على أثر القائم عليه السلام، قلت ومعه الناس كلهم قال لا بل كما ذكر الله تعالى في كتابه يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً قوم بعد قوم).

أقُول: المسؤول عنه الرجعة الخاصة لا قيام القائم عليه السلام ولهذا قال أوّل من يخرج الحسين عليه السلام يخرج على أثر القائم عليه السلام يعني أن أول من يخرج في الرجعة وذلك بعد قيام القائم عليه السلام.

وعنه عليه السلام (ويقبل الحسين عليه السلام في أصحابه الذين قتلوا معه ومعه سبعون نبيا كما بعثوا مع موسى بن عمران عليه السلام فيدفع إليه القائم عليه السلام الخاتم فيكون الحسين عليه السلام هو الذي يلي غسله وكفنه وحنوطه ويواريه في حفرته).

أقول فيه دلالة على أنّ الرجعة لا تختصّ بهذه الأمّة كما توهّمه بعضهم لأن هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ليسوا من هذه الأمة.

وفي الاختصاص عن جابر الجعفي قال سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول إلى أن قال عليه السلام (ثم يخرج المنتصر إلى الدنيا وهو الحسين عليه السلام فيطلب بدمه و دم أصحابه فيقتل ويسبى حتى يخرج السفاح وهو أمير المؤمنين عليه السلام).

وفي الخرائج والجرائح بسنده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال (قال الحسين بن علي عليه السلام لأصحابه قبل أن يقتل إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يا بني إنك ستساق إلى العراق وهي أرض قد التقى بها النبيون وأوصياء النبيين وهي أرض تدعى عمورا وإنك تستشهد بها ويستشهد معك جماعة من أصحابك لا يجدون ألم مس الحديد وتلا قُلْنا يا نارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلى إِبْراهِيمَ تكون الحرب عليك وعليهم بردا وسلاما فأبشروا فو الله لئن قتلونا فإنا نرد على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ثم أمكث ما شاء الله فأكون أول من تنشق عنه الأرض فأخرج خرجة يوافق ذلك خرجة أمير المؤمنين عليه السلام و قيام قائمنا وحياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم لينزلن عليَّ وفد من السماء من عند الله لم ينزلوا إلى الأرض قط ولينزلن إلي جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وجنود من الملائكة ولينزلن محمد وعلي وأنا وأخي وجميع من من الله عليه في حمولات من حمولات الرب خيل بلق من نور لم يركبها مخلوق ثم ليهزن محمد صلى الله عليه وآله وسلم لواءه وليدفعنه إلى قائمنا مع سيفه ثم إنا نمكث من بعد ذلك ما شاء الله ثم إن الله يخرج من مسجد الكوفة عينا من دهن وعينا من لبن وعينا من ماء ثم إن أمير المؤمنين عليه السلام يدفع إلي سيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيبعثني إلى الشرق والغرب ولا آتي على عدو لله إلا أهرقت دمه ولا أدع صنما إلا أحرقته حتى أقع إلى الهند فأفتحها وإن دانيال

ويوشع يخرجان إلى أمير المؤمنين عليه السلام يقولان صدق الله ورسوله ويبعث معهما إلى البصرة سبعين رجلا فيقتلون مقاتلتهم ويبعث بعثا إلى الروم فيفتح الله لهم ثم لأقتلن كل دابة حرم الله لحمها حتى لا يكون على وجه الأرض إلا الطيب وأعرض على اليهود والنصارى وسائر الملل ولأخيرنهم بين الإسلام والسيف فمن أسلم مننت عليه ومن كره الإسلام أهرق الله دمه ولا يبقى رجل من شيعتنا إلا أنزل الله إليه ملكا يمسح عن وجهه التراب ويعرفه أزواجه ومنازله في الجنة ولا يبقى على وجه الأرض أعمى ولا مقعد ولا مبتلى إلا كشف الله عنه بلاءه بنا أهل البيت ولتنزلن البركة من السماء إلى الأرض حتى أن الشجرة لتقصف بما يريد الله فيها من الثمر وليأكلن ثمرة الشتاء في الصيف وثمرة الصيف في الشتاء وذلك قول الله تعالى وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَلكِنْ كَذَّبُوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ثم إن الله ليهب لشيعتنا كرامة لا يخفى عليهم شيء في الأرض وما كان فيها حتى أن الرجل منهم يريد أن يعلم علم أهل بيته فيخبرهم بعلم ما يعلمون).

أقول: قوله عليه السلام (وليدفعنّه إلى قائمنا) يعني أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدفع لواءه إلى القائم عليه السلام والظاهر أنّ هذا في رجعة القائم عليه السلام بعد قتله ورجوعه لأنّ هذه الحالة أوّل خروجه إلى الدنيا وقد دلّت الأخبار أنّ أوّل من يخرج الحسين عليه السلام وهو بعد القائم عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم آخر من يرجع فلا يراد به قيامه الأول، لأنّ قيام الأوّل قبل خروج الحسين عليه السلام الذي أوّل من يرجع فافهم.

وفيه أيضاً إشارة أنّ ترتيب الأخرى كترتيب الأولى فإنّ القائم عليه السلام أوّل من يخرج ويقوم بالأمر ثم من بعده الحسين عليه السلام يقوم ويلي الأمر فكذلك إذا رجع

القائم عليه السلام والحسين عليه السلام حيٌّ ورسول الله صلى الله عليه وآله بعد أنْ نَزلَ من السَّماءِ في ظلل من الغمام والملائكة وقُضيَ الأمر يبعث ثم يبعث الحسين عليه السلام، وليس ذلك لأنه أفضل من الحسين عليه السلام لأن الحسين عليه السلام أفضل منه ولكنّها مراتب جرت بها الحكمة الإلهية.

وقوله عليه السلام قبل (فأخرج خرجة يوافق ذلك خرجة أمير المؤمنين وقيام قائمنا وحياة رسول الله صلى الله عليه وآله) يريد به والله ورسوله صلى الله عليه وآله وأوْصياؤه أعلم أنّ خروجه مستمر من قيام الحجة عليه السلام أوّل مرّة إلى خرجة أمير المؤمنين عليه السلام الأولى إلى خروجه ثانياً الذي ينزل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله فهو موافق باستمراره لهم.

وقوله عليه السلام (وأعرض على اليهود والنصارى وسائر الملل الخ) فيه دلالة على قبول التوبة إلى ذلك الوقت الذي هو خروج علي عليه السلام الثاني الذي ينزل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبعد استقرار الملك يغلق باب التوبة فتسم دابّة الأرض عليّ عليه السلام المؤمن بخاتم سليمان بن داود عليه السلام في جبينه فيبيضّ بها وجهه وَيَسِمُ الكافر بعصا موسى عليه السلام على خرطومه فيسودّ بها وجهه فقوله تعالى (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)ورد فيه أنّها في حقّ القائم عليه السلام في قيامه وورد في رجوعه ورجوع آبائه عليهم السلام.

والثاني لتأويل آخرها وهو قوله تعالى وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ الخ، أوْلى جمعاً بين الأدلّة لأنّ الظاهر من آخرها معنى لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنت من قبلُ لأن غلق باب التوبة لا يكون قبل ذلك كيف وهو في الرجعة الأخرى يعرض على اليهود والنّصارى وسائر أهل الملل قبل استقرار دولتهم فمن قبل الإسلام قَبلَ توبته.

وأقول أيضاً قوله (وليدفعنّه إلى قائمنا) يعني أنّ رسول الله ﷺ يدفع لواءه إلى القائم عليه السلام أنّه في قيام القائم عليه السلام أوّل ظهوره بعد غيبته قبل خروج الحسين عليه السلام وذلك لأنّ كلّ قائم منهم لا يقوم إلاّ بإذنٍ من الله تعالى ومن رسوله ﷺ ومن وليّه أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام فلا يقوم حتى يحضروه، ولا يغيب حتى يحضروه ولا يموت حتى يحضروه كما حضروا الحسين عليه السلام يوم كربلاء وقالوا له عجل إلينا فإنا مشتاقون إليك فعند خروج القائم عليه السلام لا بدّ أن يحضروه وليس حضورهم هذا هو قيامهم في ذلك الوقت بل إذا هيّئوه وتهيَّأ غابوا، وإذا قاموا لم يغيبوا فإذا هيّأهُ رسول الله وعليّ صلى الله عليهما وآلهما وقضى ما أمر به وقُتِل ورجع بعد موته هيّأه كما هيّأه أوّل مرّة فالحديث المذكور ظاهر في التَّهيئةِ في رجوعه.

وحديث الأنوار المضيئة في رواية أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام في قيامه فإذا قلنا إنّ علياً عليه السلام يخرج بعد قيام الحسين عليه السلام والحسين عليه السلام يخرج بعد قيام القائم عليه السلام ورسول الله ﷺ يخرج أخيراً نريد به قيامه لنفسه فيما هو مكلّف به وحديث الأنوار المضيئة المشار إليه إلى أن قال أبو جعفر عليه السلام (يقول القائم عليه السلام لأصحابه يا قوم إن أهل مكة لا يريدونني ولكني مرسل إليهم لأحتج عليهم بما ينبغي لمثلي أن يحتج عليهم فيدعو رجلا من أصحابه فيقول له امض إلى أهل مكة فقل يا أهل مكة أنا رسول فلان إليكم وهو يقول لكم إنا أهل بيت الرحمة ومعدن الرسالة والخلافة و نحن ذرية محمد ﷺ وسلالة النبيين وإنا قد ظلمنا واضطهدنا وقهرنا وابتز منا حقنا منذ قبض نبينا إلى يومنا هذا فنحن نستنصركم فانصرونا فإذا تكلم هذا الفتى بهذا الكلام أتوا إليه فذبحوه بين الركن والمقام

وهي النفس الزكية فإذا بلغ ذلك الإمام عليه السلام قال لأصحابه ألا أخبرتكم أن أهل مكة لا يريدوننا فلا يدعونه حتى يخرج فيهبط من عقبة طوى في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا عدة أهل بدر حتى يأتي المسجد الحرام فيصلي فيه عند مقام إبراهيم أربع ركعات ويسند ظهره إلى الحجر الأسود ثم يحمد الله ويثني عليه ويذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويصلى عليه ويتكلم بكلام لم يتكلم به أحد من الناس فيكون أول من يضرب على يده ويبايعه جبرئيل وميكائيل ويقوم معهما رسول الله وأمير المؤمنين فيدفعان إليه كتابا جديدا هو على العرب شديد بخاتم رطب فيقولون له أعمل بما فيه ويبايعه الثلاثمائة وقليل من أهل مكة ثم يخرج من مكة حتى يكون في مثل الحلقة قلت وما الحلقة قال عشرة آلاف رجل جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله ثم يهز الراية الجلية وينشرها وهي راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السحابة ودرع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم السابغة ويتقلد بسيف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذي الفقار)هـ.

وفي خبر آخر (ما من بلدة إلاّ يخرج منهم طائفة إلاّ أهل البصرة فإنه لا يخرج منها أحد) هـ.

أقول: الظاهر أنّ المراد من هذا الخبر الأخير إن كل بلدة يتبع القائم عليه السلام منها أحد هو من يتبعه من العشرة الآلاف أو ممّا زاد عليها لا أنّ المراد به من الثلاثمائة والثلاثة عشر لأنّ أولئك مخصوصون وليسوا من كلّ بلدة ولم أجد لذلك حديث معيّن إلاّ ما في خطبة البيان وهي كما ترى، نعم وجدنا بعض النقل عن بعض تلامذة المجلسي رحمه الله بخطّه هكذا سمعتُ من أستاذي علاّمة العلماء والمجتهدين مولانا محمد باقر المجلسي رحمه الله إن أهل الخلاف نقلوا خطبة البيان هـ.

أقول: وهي وإن لم تكن أغرب من كثير من الخطب المنسوبة إليه إلاّ أنّا ما

وجدنا نسختين متفقتين أوْ متقاربتين وكان هذا هو الباعث على ردّ بعض العلماء لها أوْ إنكارها والحاصل نحن لسنا بصدد هذا على أنّ عدّتهم مما لا يختلف فيه اثنان من القائلين بقيام الحجة عليه السلام وربّما تكون المصلحة في عدم التعيين.

وأمّا غير هذه الخطبة ففي كثير من الخطب والأخبار ذكر بعضهم من بعض البلدان والله أعلم.

وفي منتخب بصائر سعد بن عبدالله للحسن بن سليمان الحلّي بسنده إلى عبد الكريم بن عمرو الخثعمي قال (سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول إن إبليس قال أَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فأبى الله ذلك عليه قالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ فإذا كان يوم الوقت المعلوم ظهر إبليس لعنه الله في جميع أشياعه منذ خلق الله آدم إلى يوم الوقت المعلوم وهي آخر كرة يكرها أمير المؤمنين عليه السلام فقلت وإنها لكرات قال نعم إنها لكرات وكرات ما من إمام في قرن إلا ويكر معه البر والفاجر في دهره حتى يديل الله المؤمن من الكافر فإذا كان يوم الوقت المعلوم كر أمير المؤمنين عليه السلام في أصحابه وجاء إبليس في أصحابه ويكون ميقاتهم في أرض من أراضي الفرات يقال له الروحا قريب من كوفتكم فيقتتلون قتالا لم يقتتل مثله منذ خلق الله عز وجل العالمين فكأني أنظر إلى أصحاب على أمير المؤمنين عليه السلام قد رجعوا إلى خلفهم القهقرى مائة قدم وكأني أنظر إليهم و قد وقعت بعض أرجلهم في الفرات فعند ذلك يهبط الجبار عز وجل فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمامه بيده حربة من نور فإذا نظر إليه إبليس رجع القهقرى ناكصا على عقبيه فيقولون له أصحابه أين تريد وقد ظفرت فيقول إِنِّي أَرى ما لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخافُ الله رَبَّ الْعالَمِينَ فيلحقه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيطعنه طعنة بين

كتفيه فيكون هلاكه وهلاك جميع أشياعه فعند ذلك يعبد الله عز وجل ولا يشرك به شيئا ويملك أمير المؤمنين عليه السلام أربعا وأربعين ألف سنة حتى يلد الرجل من شيعة علي عليه السلام ألف ولد من صلبه ذكرا في كل سنة ذكر وعند ذلك تظهر الجنتان المدهامتان عند مسجد الكوفة و ما حوله بما شاء الله)انتهى.

أقول: اعلم أنّ الأخبار التي لها تعلّق بذكر قيام القائم ورجعه آبائه ورجعته عليهم السلام كثيرة لا يمكن إيرادا في هذا الشرح مع أنها مختلفة اختلافاً كثيرا متبايناً لا يمكن الجمع بينها إلاّ بتكلّفاتٍ بعيدة أكثر الناظرين إليها ينكرونها، ومع هذا ولا يمكن بتطويل ممل ولكني أحببتُ أن أذكر بعضَ معاني ذلك على سبيل الاقتصار وأحيله على الأخبار فمن طلب المأخذ ووجد في كلام واحد فحسن وإلاّ فهو مجموع من أشياء متفرقة لأنّي استفدتُ شيئاً منها وأنا أذكر ما استفدته والله سبحانه المسدّد للصواب وإليه المرجع والمآب.

فأقول إنّ الله سبحانه قال ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ).

وفي القرآن كثير من هذا وقال أمير المؤمنين عليه السلام (لَتُبَلْبَلُنَّ بَلْبَلَةً وَلَتُغَرْبَلُنَّ غَرْبَلَةً وَلَتُسَاطُنَّ سَوْطَ الْقِدْرِ حَتَّى يَعُودَ أَسْفَلُكُمْ أَعْلاكُمْ وَأَعْلاكُمْ أَسْفَلَكُمْ وَلَيَسْبِقَنَّ سَابِقُونَ كَانُوا قَصَّرُوا وَلَيُقَصِّرَنَّ سَبَّاقُونَ كَانُوا سَبَقُوا) انتهى.

وغيبة الحجة عليه السلام من أعظم الابتلاء لطول المدة وعدم التوقيت مع شدّة الحاجة وهي السّاعة التي قال الله تعالى (يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْساها قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً) الآية، وقال عليه السلام كذب الموقتون يكرّرها ثلاثاً إلاّ أنّ لظهوره

علامات منها خروج الدجّال من أصفهان والسفياني عثمان بن عنبسة من دمشق وهو من ذريّة يزيد بن معاوية لعنهم الله في يوم واحد لعشر مضين من جمادى الأولى، في السنة التي يخرج فيها القائم عليه السلام عجل الله فرجه بين خروجهما وخروجه عليه السلام ثمانية أشهر لا تزيد ولا تنقص وهما من المحتوم ويكون قبله غلاء وقحط شديد وقلّة الأمطار سبع سنين كسنين يوسف عليه السلام وليس من المحتوم وهي سبع شداد وبعدها قيام القائم عليه السلام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون يمطر الناس أربعين يوماً متوالية أو أربعين مطرة أو أربعاً وعشرين مطرةً على اختلاف الرّوايات أول المطر لعشرين مضين من جمادى الأولى وجمادى الثاني إلى أول شهر رجب أو أوّل جمادى الثانية وعشرة من شهر رجب على اختلاف الروايتين حتى تقع أكثر البيوت وبه تنبت لحوم الأموات الذين يرجعون إلى الدنيا فينشرون من القبور حتى يرجعوا إلى الدنيا فيتعارفون فيها ويتزاوَرُونَ ثم يختم كل ذلك بأربع وعشرين مطرة تتّصل فتحيى بها الأرض من بعد موتها وتعرف بركتها وتزول بعد ذلك كل عاهةٍ من معتقدي الحق من شيعة المهدي عليه السلام فيعرفون عند ذلك ظهوره بمكة، فيتوجّهون لنصرته وهو قول علي عليه السلام يا عجباً كل العجب بين جمادى ورجب وقد تقدّم وخروج وجه علي عليه السلام وصدره في عين الشمس في شهر رجب، وكسوف الشمس في نصف شهر رمضان وخسوف القمر في آخره أوْ في الخامس منه على اختلاف الرّوايتين وعند ذلك يبطل حساب المنجّمين ويصبح كل رجل من أنصاره الثلاثمائة وثلاثة عشر يوم الثالث والعشرين من شهر رمضان هذا وعند رأسه رقعة مكتوب فيها طاعة معروفة، وفي هذا اليوم يصيح جبرائيل عليه السلام أول النهار من السماء ألاّ أنّ الحق في عليّ وشيعته، ويصيح

إبليس لعنه الله في ذلك اليوم في الأرض ألاّ أنّ الحق في السّفياني وشيعته فيرتاب عند ذلك المبطلون والصيحة من المحتوم وقتل النفس الزكيّة بين الركن والمقام وهو رجل هاشمي اسمه محمد بن الحسن في الرابع والعشرين من ذي الحجة وهو من المحتوم وليس بينه وبين قيام القائم عليه السلام إلاّ خمس عشرة ليلة، وفي رواية أبي بصير قال (قال أبو عبدالله عليه السلام ينادى باسم القائم في ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان ويقوم في يوم عاشوراء وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي عليه السلام لكأني به في يوم السبت العاشر من المحرم قائما بين الركن والمقام وجبرائيل عليه السلام عن يمينه ينادي البيعة لله فيصير إليه شيعته من أطراف الأرض تطوى لهم الأرض حتى يبايعوه فيملأ الله به الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما).

كل هذه في سنة واحدة وهي السنة التي يقوم فيها ولا يخرج إلاّ في وتر من السنين سنة إحدى أو سنة ثلاث أو خمس أو سبع أو تسع، ويكون ذلك اليوم العاشر من المحرم يوم النوروز وهو يوم الجمعة.

وما روي كما سمعت أنه يوم السبت فالذي فهمت أنه عليه السلام يخرج يوم الجمعة كما روي (يدخل مكة وعليه بردة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلى رأسه عمامة صفراء وفي رجليه نعلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المخصوفة وفي يده هراوته صلى الله عليه وآله وسلم يسوق بين يديه عنازا عجافا حتى يصل بها نحو البيت) ليس ثمَ أحد يعرفه ويظهر وهو شابٌّ.

أقول: ونقل إنه يدخل البيت والخطيب على المنبر فيقتله ثم يغيب ويظهر عشيّة ذلك اليوم وهي ليلة السبت عشية الجمعة أن الجمع بينهما أحد وجهين الأوّل أن تكون الجمعة تاسوعاء والسبت عاشوراء وظهوره في الجمعة غير معروف، ويتعرف للناس يوم السبت.

الثاني أنّ عاشوراء الجمعة وعشيتها ليلة السبت التي يدعو فيها أنصاره وهي ليلة أحد عشر وهو يوم السبت وإنّما قيل فيه العاشر لأنّ حكم ظهوره عليه السلام في العاشر إنما هو فيه والأول أقرب قال عليه السلام (يظهر كيف شاء وبأي صورة شاء، قال المفضل يا سيدي فمن أين يظهر وكيف يظهر قال عليه السلام يا مفضل يظهر وحده ويأتي البيت وحده ويلج الكعبة وحده ويجن عليه الليل وحده فإذا نامت العيون وغسق الليل نزل إليه جبرائيل وميكائيل عليهما السلام والملائكة صفوفا فيقول له جبرائيل يا سيدي قولك مقبول وأمرك جائز فيمسح عليه السلام يده على وجهه ويقول الْحَمْدُ لله الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ ويقف بين الركن والمقام فيصرخ صرخة فيقول يا معاشر نقبائي وأهل خاصتي ومن ذخرهم الله لنصرتي قبل ظهوري على وجه الأرض ائتوني طائعين فترد صيحته عليه السلام عليهم وهم على محاريبهم وعلى فرشهم في شرق الأرض وغربها فيسمعونه في صيحة واحدة في أذن كل رجل فيجيئون نحوها ولا يمضي لهم إلا كلمحة بصر حتى يكون كلهم بين يديه عليه السلام بين الركن والمقام فيأمر الله عز وجل النور فيصير عمودا من الأرض إلى السماء فيستضيء به كل مؤمن على وجه الأرض ويدخل عليه نور من جوف بيته فتفرح نفوس المؤمنين بذلك النور وهم لا يعلمون بظهور قائمنا أهل البيت عليهم السلام ثم يصبحون وقوفا بين يديه وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا بعدة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم بدر).

أقول وفي حديث عن المفضل ابن عمر عن الصادق عليه السلام غير الحديث

الأوّل قال عليه السلام (لقد نزلت هذه الآية في المفتقدين من أصحاب القائم عليه السلام قوله عز وجل أَيْنَ ما تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ الله جَمِيعاً إنهم ليفتقدون عن فرشهم ليلا

فيصبحون بمكة فبعضهم تطوى له الأرض و بعضهم يسير في السحاب يعرف باسمه واسم أبيه وحليته ونسبه قال قلت جعلت فداك أيهم أعظم إيمانا قال الذي يسير في السحاب نهارا).

وعنه قال قال أبو عبدالله عليه السلام (كأني أنظر إلى القائم على منبر الكوفة وحوله أصحابه ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلا عدة أهل بدر وهم أصحاب الألوية وهم حكام الله في أرضه على خلقه حتى يستخرج من قبائه كتابا مختوما بخاتم من ذهب عهد معهود من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيجفلون عنه إجفال الغنم فلا يبقى منهم إلا الوزير وأحد عشر نقيبا كما بقوا مع موسى بن عمران عليه السلام فيجولون في الأرض فلا يجدون عنه مذهبا فيرجعون إليه والله إني لأعرف الكلام الذي يقول لهم فيكفرون به.

يا مفضل يسند القائم عليه السلام ظهره إلى الحرم ويمد يده فترى بيضاء من غير سوء ويقول هذه يد الله (ويمين الله) وعن الله وبأمر الله ثم يتلو هذه الآية إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ الله يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً فيكون أول من يقبل يده جبرئيل عليه السلام ثم يبايعه وتبايعه الملائكة ونجباء الجن ثم النقباء ويصبح الناس بمكة فيقولون من هذا الرجل الذي بجانب الكعبة .

وما هذا الخلق الذين معه وما هذه الآية التي رأيناها الليلة ولم تر مثلها فيقول بعضهم لبعض هذا الرجل هو صاحب العنيزات فيقول بعضهم لبعض انظروا هل تعرفون أحدا ممن معه فيقولون لا نعرف أحدا منهم إلا أربعة من أهل مكة وأربعة من أهل المدينة وهم فلان وفلان ويعدونهم بأسمائهم ويكون هذا

أول طلوع الشمس في ذلك اليوم فإذا طلعت الشمس وأضاءت صاح صائح بالخلائق من عين الشمس بلسان عربي مبين يسمع من في السماوات والأرضين يا معشر الخلائق هذا مهدي آل محمد ويسميه باسم جده رسول الله ﷺ ويكنيه وينسبه إلى أبيه الحسن الحادي عشر إلى الحسين بن علي ﷺ بايعوه تهتدوا ولا تخالفوا أمره فتضلوا فأول من يقبل يده الملائكة ثم الجن ثم النقباء ويقولون سمعنا وأطعنا ولا يبقى ذو أذن من الخلائق إلا سمع ذلك النداء وتقبل الخلائق من البدو والحضر والبر والبحر يحدث بعضهم بعضا ويستفهم بعضهم بعضا ما سمعوا بآذانهم فإذا دنت الشمس للغروب صرخ صارخ من مغربها يا معشر الخلائق قد ظهر ربكم بوادي اليابس من أرض فلسطين وهو عثمان بن عنبسة الأموي من ولد يزيد بن معاوية لعنهم الله فبايعوه تهتدوا ولا تخالفوا عليه فتضلوا فيرد عليه الملائكة والجن والنقباء قوله ويكذبونه ويقولون له سمعنا وعصينا ولا يبقى ذو شك ولا مرتاب ولا منافق ولا كافر إلا ضل بالنداء الأخير وسيدنا القائم عليه السلام مسند ظهره إلى الكعبة ويقول يا معشر الخلائق ألا ومن أراد أن ينظر إلى آدم وشيث فها أنا ذا آدم وشيث ألا ومن أراد أن ينظر إلى نوح وولده سام فها أنا ذا نوح وسام ألا ومن أراد أن ينظر إلى إبراهيم وإسماعيل فها أنا ذا إبراهيم وإسماعيل ألا ومن أراد أن ينظر إلى موسى ويوشع فها أنا ذا موسى ويوشع ألا ومن أراد أن ينظر إلى عيسى وشمعون فها أنا ذا عيسى وشمعون ألا ومن أراد أن ينظر إلى محمد وأمير المؤمنين صلوات الله عليهما فها أنا ذا محمد ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام ألا ومن أراد أن ينظر إلى الحسن والحسين عليه السلام فها أنا ذا الحسن والحسين عليهما السلام ألا و من أراد أن ينظر إلى الأئمة من ولد الحسين عليه السلام فها أنا ذا الأئمة عليهم السلام (ويعد

واحدا بعد واحد إلى الحسين عليه السلام) أجيبوا إلى مسألتي فإني أنبئكم بما نبئتم به وما لم تنبئوا به ألا ومن كان يقرأ الكتب والصحف فليسمع مني ثم يبتدئ بالصحف التي أنزلها الله على آدم وشيث عليه السلام ويقول أمة آدم وشيث هبة الله هذه والله هي الصحف حقا ولقد أرانا ما لم نكن نعلمه فيها وما كان خفي علينا وما كان أسقط منها وبدل وحرف ثم يقرأ صحف نوح عليه السلام وصحف إبراهيم عليه السلام والتوراة والإنجيل والزبور فيقول أهل التوراة والإنجيل والزبور هذه والله صحف نوح عليه السلام وإبراهيم عليه السلام حقا وما أسقط منها وبدل حرف منها هذه والله التوراة الجامعة والزبور التام والإنجيل الكامل وإنها أضعاف ما قرأنا منها ثم يتلو القرآن فيقول المسلمون هذا والله القرآن حقا الذي أنزله الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وما أسقط منه وحرف وبدل ثم تظهر الدابة بين الركن والمقام فتكتب في وجه المؤمن مؤمن وفي وجه الكافر كافر).

وقد تقدم أن الدابة هو أمير المؤمنين عليه السلام وأنه يخرج مرتين الأولى بعد قيام الحسين عليه السلام بثمان سنين يطلب بدم ابنه الحسين عليه السلام وينتقم من قاتليه ويقتل ويمكث ما شاء الله وقد تقدم احتمال مدة المكث ثم يخرج الخرجة الثانية التي ينزل فيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويجتمع معه جميع شيعته وفي هذه الخرجة يقتل إبليس لعنه الله وفيها يغلق باب التوبة وفيها يكتب في جبين المؤمنين بخاتم سليمان بن داوود عليه السلام ويسم على خرطوم الكافر بعصى موسى عليه السلام وفي رواية بالعكس وفي الخرجة الأولى لا يكتب وإذا كتب غلق باب التوبة وباب التوبة مفتوح إلى يوم الوقت المعلوم الذي يقتل فيه إبليس لعنه الله فيحمل هذا الكلام على الخرجة الثانية وإن ذكر في سياق الخرجة الأولى بل ذكر قبل خروج الحسين عليه السلام في ظاهر

هذا الكلام بل قبل مسير القائم عليه السلام من مكة ولو أريد به الأولى أمكن أن يراد بالكتب في وجه المؤمن والكافر الكتب على من قتل منها حين إذن لأن من قتل حين إذن حقت عليه الكلمة) قال عليه السلام (ثم يقبل على القائم عليه السلام رجل وجهه إلى قفاه وقفاه إلى صدره ويقف بين يديه فيقول يا سيدي أنا بشير أمرني ملك من الملائكة أن الحق بك وأبشرك بهلاك جيش السفياني بالبيداء فيقول له القائم عليه السلام بين قصتك وقصة أخيك فيقول الرجل كنت وأخي في جيش السفياني وخربنا الدنيا من دمشق إلى الزوراء وتركناها جماء وخربنا الكوفة وخربنا المدينة وكسرنا المنبر وراثت بغالنا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخرجنا منها وعددنا ثلاثمائة ألف رجل نريد إخراب البيت وقتل أهله فلما صرنا في البيداء عرسنا فيها فصاح بنا صائح يا بيداء أبيدي القوم الظالمين فانفجرت الأرض وابتلعت كل الجيش فو الله ما بقي على وجه الأرض عقال ناقة فما سواه غيري وغير أخي فإذا نحن بملك قد ضرب وجوهنا فصارت إلى ورائنا كما ترى فقال لأخي ويلك يا نذير امض إلى الملعون السفياني بدمشق فأنذره بظهور المهدي من آل محمد عليه السلام وعرفه أن الله قد أهلك جيشه بالبيداء وقال لي يا بشير الحق بالمهدي بمكة وبشره بهلاك الظالمين وتب على يده فإنه يقبل توبتك فيمر القائم عليه السلام يده على وجهه فيرده سويا كما كان ويبايعه ويكون معه قال المفضل يا سيدي وتظهر الملائكة والجن للناس قال إي والله يا مفضل ويخاطبونهم كما يكون الرجل مع حاشيته وأهله قلت يا سيدي ويسيرون معه قال إي والله يا مفضل ولينزلن أرض الهجرة ما بين الكوفة والنجف وعدد أصحابه عليه السلام حينئذ ستة وأربعون ألفا من الملائكة وستة آلاف من الجن وفي رواية أخرى ومثلها من الجن بهم ينصره الله ويفتح على يديه قال

المفضل فما يصنع بأهل مكة قال يدعوهم بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ فيطيعونه ويستخلف فيهم رجلا من أهل بيته ويخرج يريد المدينة قال المفضل يا سيدي فما يصنع بالبيت قال ينقضه فلا يدع منه إلا القواعد التي هي أول بيت وضع للناس ببكة في عهد آدم عليه السلام والذي رفعه إبراهيم وإسماعيل عليه السلام منها وإن الذي بني بعدهما لم يبنه نبي ولا وصي ثم يبنيه كما يشاء الله وليعفين آثار الظالمين بمكة والمدينة والعراق وسائر الأقاليم وليهدمن مسجد الكوفة وليبنيه على بنيانه الأول وليهدمن القصر العتيق ملعون ملعون من بناه قال المفضل يا سيدي يقيم بمكة قال لا يا مفضل بل يستخلف منها رجلا من أهله فإذا سار منها وثبوا عليه فيقتلونه فيرجع إليهم فيأتونه مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ يبكون ويتضرعون ويقولون يا مهدي آل محمد التوبة التوبة فيعظهم وينذرهم ويحذرهم ويستخلف عليهم منهم خليفة ويسير فيثبون عليه بعده فيقتلونه فيرد إليهم أنصاره من الجن والنقباء ويقول لهم ارجعوا فلا تبقوا منهم بشرا إلا من آمن فلو لا أن رحمة ربكم وسعت كل شيء وأنا تلك الرحمة لرجعت إليهم معكم فقد قطعوا الأعذار بينهم وبين الله وبيني وبينهم فيرجعون إليهم فو الله لا يسلم من المائة منهم واحد لا والله ولا من ألف واحد قال المفضل قلت يا سيدي فأين تكون دار المهدي ومجتمع المؤمني قال دار ملكه الكوفة ومجلس حكمه جامعها وبيت ماله ومقسم غنائم المسلمين مسجد السهلة وموضع خلواته الذكوات البيض من الغريين قال المفضل يا مولاي كل المؤمنين يكونون بالكوفة قال إي والله لا يبقى مؤمن إلا كان بها أو حواليها وليبلغن مجالة فرس منها ألفي درهم وليودن أكثر الناس أنه اشترى شبرا من أرض السبع بشبر من ذهب والسبع بحاخطة من خطط همدان

وليصيرن الكوفة أربعة وخمسين ميلا وليجاورن قصورها كربلاء وليصيرن الله كربلاء معقلا ومقاما تختلف فيه الملائكة والمؤمنون وليكونن لها شأن من الشأن وليكونن فيها من البركات ما لو وقف مؤمن و دعا ربه بدعوة لأعطاه الله بدعوته الواحدة مثل ملك الدنيا ألف مرة ثم تنفس أبو عبد الله عليه السلام وقال يا مفضل إن بقاع الأرض تفاخرت ففخرت كعبة البيت الحرام على بقعة كربلاء فأوحى الله إليها أن اسكتي كعبة البيت الحرام ولا تفتخري على كربلاء فإنها البقعة المباركة التي نودي موسى منها من الشجرة وإنها الربوة التي أوت إليها مريم والمسيح وإنها الدالية التي غسل فيها رأس الحسين عليه السلام وفيها غسلت مريم عيسى عليه السلام واغتسلت من ولادتها وإنها خير بقعة عرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها وقت غيبته وليكونن لشيعتنا فيها خيرة إلى ظهور قائمنا عليه السلام قال المفضل يا سيدي ثم يسير المهدي إلى أين قال عليه السلام إلى مدينة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا وردها كان له فيها مقام عجيب يظهر فيه سرور المؤمنين وخزي الكافرين قال المفضل يا سيدي ما هو ذاك قال يرد إلى قبر جده صلى الله عليه وآله وسلم فيقول يا معاشر الخلائق هذا قبر جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقولون نعم يا مهدي آل محمد فيقول ومن معه في القبر فيقولون صاحباه وضجيعاه أبو بكر وعمر فيقول وهو أعلم بهما والخلائق كلهم جميعا يسمعون من أبو بكر وعمر وكيف دفنا من بين الخلق مع جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعسى المدفون غيرهما فيقول الناس يا مهدي آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ما هاهنا غيرهما إنهما دفنا معه لأنهما خليفتا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبوا زوجتيه فيقول للخلق بعد ثلاث أخرجوهما من قبريهما فيخرجان غضين طريين لم يتغير خلقهما ولم يشحب لونهما فيقول هل فيكم من يعرفهما فيقولون نعرفهما بالصفة وليس ضجيعا جدك غيرهما فيقول

هل فيكم أحد يقول غير هذا أو يشك فيهما فيقولون لا فيؤخر إخراجهما ثلاثة أيام ثم ينتشر الخبر في الناس ويحضر المهدي ويكشف الجدران عن القبرين ويقول للنقباء ابحثوا عنهما وانبشوهما فيبحثون بأيديهم حتى يصلون إليهما فيخرجان غضين طريين كصورتهما فيكشف عنهما أكفانهما ويأمر برفعهما على دوحة يابسة نخرة فيصلبهما عليها فتحيا الشجرة وتورق ويطول فرعها فيقول المرتابون من أهل ولايتهما هذا والله الشرف حقا ولقد فزنا بمحبتهما وولايتهما ويخبر من أخفى نفسه ممن في نفسه مقياس حبة من محبتهما وولايتهما فيحضرونهما ويرونهما ويفتنون بهما وينادي منادي المهدي عليه السلام كل من أحب صاحبي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وضجيعيه فلينفرد جانبا فتتجزأ الخلق جزءين أحدهما موال والآخر متبرئ منهما فيعرض المهدي عليه السلام على أوليائهما البراءة منهما فيقولون يا مهدي آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحن لم نتبرأ منهما ولسنا نعلم أن لهما عند الله وعندك هذه المنزلة وهذا الذي بدا لنا من فضلهما أ نتبرأ الساعة منهما وقد رأينا منهما ما رأينا في هذا الوقت من نضارتهما وغضاضتهما وحياة الشجرة بهما بل والله نتبرأ منك وممن آمن بك ومن لا يؤمن بهما ومن صلبهما وأخرجهما وفعل بهما ما فعل فيأمر المهدي عليه السلام ريحا سوداء فتهب عليهم فتجعلهم كأعجاز نخل خاوية ثم يأمر بإنزالهما فينزلان إليه فيحييهما بإذن الله تعالى ويأمر الخلائق بالاجتماع ثم يقص عليهم قصص فعالهما في كل كور ودور حتى يقص عليهم قتل هابيل بن آدم عليه السلام وجمع النار لإبراهيم عليه السلام وطرح يوسف عليه السلام في الجب وحبس يونس عليه السلام في الحوت وقتل يحيى عليه السلام وصلب عيسى عليه السلام وعذاب جرجيس ودانيال عليه السلام وضرب سلمان الفارسي وإشعال النار على باب أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين عليه السلام

لإحراقهم بها وضرب يد الصديقة الكبرى فاطمة بالسوط ورفس بطنها وإسقاطها محسنا وسم الحسن عليه السلام وقتل الحسين عليه السلام وذبح أطفاله وبني عمه وأنصاره وسبي ذراري رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإراقة دماء آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وكل دم سفك وكل فرج نكح حراما وكل رين وخبث وفاحشة وإثم وظلم وجور وغشم منذ عهد آدم عليه السلام إلى وقت قيام قائمنا عليه السلام كل ذلك يعدده عليه السلام عليهما ويلزمهما إياه فيعترفان به ثم يأمر بهما فيقتص منهما في ذلك الوقت بمظالم من حضر ثم يصلبهما على الشجرة ويأمر نارا تخرج من الأرض فتحرقهما والشجرة ثم يأمر ريحا فتنسفهما فِي الْيَمِّ نَسْفاً قال المفضل يا سيدي ذلك آخر عذابهما قال هيهات يا مفضل والله ليردن وليحضرن السيد الأكبر محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والصديق الأكبر أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام وكل من محض الإيمان محضا أو محض الكفر محضا وليقتصن منهما لجميعهم حتى إنهما ليقتلان في كل يوم وليلة ألف قتلة ويردان إلى ما شاء ربهما ثم يسير المهدي عليه السلام إلى الكوفة وينزل ما بين الكوفة والنجف وعنده أصحابه في ذلك اليوم ستة وأربعون ألفا من الملائكة وستة آلاف من الجن والنقباء ثلاثمائة وثلاثة عشر نفسا قال المفضل يا سيدي كيف تكون دار الفاسقين في ذلك الوقت قال في لعنة الله وسخطه تخربها الفتن وتتركها جماء فالويل ولمن بها كل الويل من الرايات الصفر ورايات المغرب ومن يجلب الجزيرة ومن الرايات التي تسير إليها من كل قريب أو بعيد والله لينزلن بها من صنوف العذاب ما نزل بسائر الأمم المتمردة من أول الدهر إلى آخره ولينزلن بها من العذاب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت بمثله ولا يكون طوفان أهلها إلا بالسيف فالويل لمن اتخذ بها مسكنا فإن المقيم بها يبقى لشقائه والخارج منها برحمة

الله والله ليبقى من أهلها في الدنيا حتى يقال إنها هي الدنيا وإن دورها وقصورها هي الجنة وإن بناتها هن الحور العين وإن ولدانها هم الولدان وليظنن أن الله لم يقسم رزق العباد إلا بها وليظهرن فيها من الأمراء على الله وعلى رسوله ﷺ والحكم بغير كتابه ومن شهادات الزور وشرب الخمور وإتيان الفجور وأكل السحت وسفك الدماء ما لا يكون في الدنيا كلها إلا دونه ثم ليخربها الله بتلك الفتن وتلك الرايات حتى ليمر عليها المار فيقول هاهنا كانت الزوراء ثم يخرج الحسني الفتى الصبيح الذي نحو الديلم يصيح بصوت له فصيح يا آل أحمد أجيبوا الملهوف والمنادي من حول الضريح فتجيبه كنوز الله بالطالقان كنوز وأي كنوز ليست من فضة ولا ذهب بل هي رجال كزبر الحديد على البراذين الشهب بأيديهم الحراب ولم يزل يقتل الظلمة حتى يرد الكوفة وقد صفا أكثر الأرض فيجعلها له معقلا فيتصل به وبأصحابه خبر المهدي عليه السلام ويقولون يا ابن رسول الله من هذا الذي قد نزل بساحتنا فيقول اخرجوا بنا إليه حتى ننظر من هو وما يريد وهو والله يعلم أنه المهدي وإنه ليعرفه ولم يرد بذلك الأمر إلا ليعرف أصحابه من هو فيخرج الحسني فيقول إن كنت مهدي آل محمد فأين هراوة جدك رسول الله ﷺ وخاتمه وبردته ودرعه الفاضل وعمامته السحاب وفرسه اليربوع وناقته العضباء وبغلته الدلدل وحماره اليعفور ونجيبه البراق ومصحف أمير المؤمنين عليه السلام فيخرج له ذلك ثم يأخذ الهراوة فيغرسها في الحجر الصلد وتورق ولم يرد ذلك إلا أن يري أصحابه فضل المهدي عليه السلام حتى يبايعوه فيقول الحسني الله أكبر مد يدك يا ابن رسول الله حتى نبايعك فيمد يده فيبايعه ويبايعه سائر العسكر الذي مع الحسني إلا أربعين ألفا أصحاب المصاحف المعروفون

بالزيدية فإنهم يقولون ما هذا إلا سحر عظيم فيختلط العسكران فيقبل المهدي عليه السلام على الطائفة المنحرفة فيعظهم ويدعوهم ثلاثة أيام فلا يزدادون إلا طغيانا وكفرا فيأمر بقتلهم فيقتلون جميعا ثم يقول لأصحابه لا تأخذوا المصاحف ودعوها تكون عليهم حسرة كما بدلوها وغيروها وحرفوها ولم يعملوا بما فيها قال المفضل يا مولاي ثم ما ذا يصنع المهدي قال يثور سرايا على السفياني إلى دمشق فيأخذونه ويذبحونه على الصخرة ثم يظهر الحسين عليه السلام في اثني عشر ألف صديق واثنين وسبعين رجلا أصحابه يوم كربلاء فيا لك عندها من كرة زهراء بيضاء ثم يخرج الصديق الأكبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وينصب له القبة بالنجف ويقام أركانها ركن بالنجف وركن بهجر وركن بصنعاء وركن بأرض طيبة لكأني أنظر إلى مصابيحه تشرق في السماء والأرض كأضواء من الشمس والقمر فعندها تُبْلَى السَّرائِرُ وتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ إلى آخر الآية ثم يخرج السيد الأكبر محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أنصاره والمهاجرين ومن آمن به وصدقه واستشهد معه ويحضر مكذبوه والشاكون فيه والرادون عليه والقائلون فيه إنه ساحر وكاهن ومجنون وناطق عن الهوى ومن حاربه وقاتله حتى يقتص منهم بالحق ويجازون بأفعالهم منذ وقت ظهر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى ظهور المهدي مع إمام إمام ووقت وقت ويحق تأويل هذه الآية وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ قال المفضل يا سيدي ومن فرعون وهامان قال أبو بكر وعمر قال المفضل قلت يا سيدي ورسول الله و أمير المؤمنين صلى الله عليهما وآلهما وسلم يكونان معه فقال لا بد أن يطأ الأرض إي

والله حتى ما وراء الخاف إي والله وما في الظلمات وما في قعر البحار حتى لا يبقى موضع قدم إلا وطئا وأقاما فيه الدين الواجب لله تعالى ثم لكأني أنظر يا مفضل إلينا معاشر الأئمة بين يدي رسول الله ﷺ نشكو إليه ما نزل بنا من الأمة بعده وما نالنا من التكذيب والرد علينا وسبينا ولعننا وتخويفنا بالقتل وقصد طواغيتهم الولاة لأمورهم من دون الأمة بترحيلنا عن الحرمة إلى دار ملكهم وقتلهم إيانا بالسم والحبس فيبكي رسول الله ﷺ ويقول يا بني ما نزل بكم إلا ما نزل بجدكم قبلكم ثم تبتدئ فاطمة عليها السلام وتشكو ما نالها من أبي بكر وعمر وأخذ فدك منها ومشيها إليه في مجمع من المهاجرين والأنصار وخطابها له في أمر فدك وما رد عليها من قوله إن الأنبياء لا تورث واحتجاجها بقول زكريا ويحيى عليهما السلام وقصة داود وسليمان عليهما السلام وقول عمر هاتي صحيفتك التي ذكرت أن أباك كتبها لك وإخراجها الصحيفة وأخذه إياها منها ونشره لها على رءوس الأشهاد من قريش والمهاجرين والأنصار وسائر العرب وتفله فيها وتمزيقه إياها وبكائها ورجوعها إلى قبر أبيها رسول الله ﷺ باكية حزينة تمشي على الرمضاء قد أقلقتها واستغاثتها بالله وبأبيها رسول الله ﷺ وتمثلها بقول رقيقة بنت صيفي قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدها لم يكبر الخطب إنا فقدناك فقد الأرض وابلها واختل أهلك فاشهدهم فقد لعبوا أبدت رجال لنا فحوى صدورهم لما نأيت وحالت دونك الحجب لكل قوم لهم قرب ومنزلة عند الإله على الأدنين مقترب يا ليت قبلك كان الموت حل بنا أملوا أنفقازوا بالذي طلبوا وتقص عليه قصة أبي بكر وإنفاذه خالد بن الوليد وقنفذا وعمر بن الخطاب وجمعه الناس لإخراج أمير المؤمنين عليه السلام من بيته إلى البيعة في سقيفة بني ساعدة واشتغال أمير المؤمنين عليه السلام

بعد وفاة رسول الله ﷺ بضم أزواجه وقبره وتعزيتهم وجمع القرآن وقضاء دينه وإنجاز عداته وهي ثمانون ألف درهم باع فيها تليده وطارفه وقضاها عن رسول الله ﷺ وقول عمر اخرج يا علي إلى ما أجمع عليه المسلمون وإلا قتلناك وقول فضة جارية فاطمة إن أمير المؤمنين عليه السلام مشغول والحق له إن أنصفتم من أنفسكم وأنصفتموه وجمعهم الجزل والحطب على الباب لإحراق بيت أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وزينب وأم كلثوم وفضة وإضرامهم النار على الباب وخروج فاطمة إليهم وخطابها لهم من وراء الباب وقولها ويحك يا عمر ما هذه الجرأة على الله وعلى رسوله تريد أن تقطع نسله من الدنيا وتفنيه وتطفئ نور الله وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وانتهاره لها وقوله كفي يا فاطمة فليس محمد حاضرا ولا الملائكة آتية بالأمر والنهي والزجر من عند الله وما علي إلا كأحد المسلمين فاختاري إن شئت خروجه لبيعة أبي بكر أو إحراقكم جميعا.

فقالت وهي باكية اللهم إليك نشكو فقد نبيك ورسولك وصفيك وارتداد أمته علينا ومنعهم إيانا حقنا الذي جعلته لنا في كتابك المنزل على نبيك المرسل فقال لها عمر دعي عنك يا فاطمة حمقات النساء فلم يكن الله ليجمع لكم النبوة والخلافة وأخذت النار في خشب الباب وإدخال قنفذ يده لعنه الله يروم فتح الباب وضرب عمر لها بالسوط على عضدها حتى صار كالدملج الأسود وركل الباب برجله حتى أصاب بطنها وهي حاملة بالمحسن لستة أشهر وإسقاطها إياه وهجوم عمر وقنفذ وخالد بن الوليد وصفقه خدها حتى بدا قرطاها تحت خمارها وهي تجهر بالبكاء وتقول وا أبتاه وا رسول الله ابنتك فاطمة تكذب وتضرب ويقتل جنين في بطنها وخروج أمير المؤمنين عليه السلام من داخل الدار محمر

العين حاسرا حتى ألقى ملاءته عليها وضمها إلى صدره وقوله لها يا بنت رسول الله قد علمتي أن أباك بعثه الله رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ فالله الله أن تكشفي خمارك وترفعي ناصيتك فو الله يا فاطمة لئن فعلت ذلك لا أبقى الله على الأرض من يشهد أن محمدا رسول الله ولا موسى ولا عيسى ولا إبراهيم ولا نوح ولا آدم ولا دابة تمشي على الأرض ولا طائرا في السماء إلا أهلكه الله.

ثم قال يا ابن الخطاب لك الويل من يومك هذا وما بعده وما يليه اخرج قبل أن أشهر سيفي فأفني غابر الأمة فخرج عمر وخالد بن الوليد وقنفذ وعبد الرحمن بن أبي بكر فصاروا من خارج الدار وصاح أمير المؤمنين بفضة يا فضة مولاتك فاقبلي منها ما تقبله النساء فقد جاءها المخاض من الرفسة ورد الباب فأسقطت محسنا فقال أمير المؤمنين عليه السلام فإنه لاحق بجده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيشكو إليه وحمل أمير المؤمنين لها في سواد الليل والحسن والحسين وزينب وأم كلثوم إلى دور المهاجرين والأنصار يذكرهم بالله ورسوله وعهده الذي بايعوا الله ورسوله وبايعوه عليه في أربعة مواطن في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتسليمهم عليه بإمرة المؤمنين في جميعها فكل يعده بالنصر في يومه المقبل فإذا أصبح قعد جميعهم عنه ثم يشكو إليه أمير المؤمنين عليه السلام المحن العظيمة التي امتحن بها بعده وقوله لقد كانت قصتي مثل قصة هارون مع بني إسرائيل وقولي كقوله لموسى يا ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَلا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ فصبرت محتسبا وسلمت راضيا وكانت الحجة عليهم في خلافي ونقضهم عهدي الذي عاهدتهم عليه يا رسول الله واحتملت يا رسول الله ما لم يحتمل وصي نبي من سائر الأوصياء من سائر الأمم حتى قتلوني بضربة عبد

الرحمن بن ملجم وكان الله الرقيب عليهم في نقضهم بيعتي وخروج طلحة والزبير بعائشة إلى مكة يظهران الحج والعمرة وسيرهم بها إلى البصرة وخروجي إليهم وتذكيري لهم الله وإياك وما جئت به يا رسول الله فلم يرجعا حتى نصرني الله عليهما حتى أهرقت دماء عشرين ألف من المسلمين وقطعت سبعون كفا على زمام الجمل فما لقيت في غزواتك يا رسول الله وبعدك أصعب يوما منه أبدا لقد كان من أصعب الحروب التي لقيتها وأهولها وأعظمها فصبرت كما أدبني الله بما أدبك به يا رسول الله في قوله عز وجل فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وقوله وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وحق والله يا رسول الله تأويل الآيَة التي أنزلها الله في الأمة من بعدك في قوله وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ يا مفضل و يقوم الحسن عليه السلام إلى جده صلى الله عليه وآله وسلم فيقول يا جداه كنت مع أمير المؤمنين في دار هجرته بالكوفة حتى استشهد بضربة عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله فوصاني بما وصيته يا جداه وبلغ اللعين معاوية قتل أبي فأنفذ الدعي اللعين زيادا إلى الكوفة في مائة ألف وخمسين ألف مقاتل فأمر بالقبض علي وعلى أخي الحسين وسائر إخواني وأهل بيتي وشيعتنا وموالينا وأن يأخذ علينا البيعة لمعاوية فمن يأبى منا ضرب عنقه وسير إلى معاوية رأسه فلما علمت ذلك من فعل معاوية خرجت من داري فدخلت جامع الكوفة للصلاة ورقات المنبر واجتمع الناس فحمدت الله وأثنيت عليه وقلت معشر الناس عفت الديار ومحيت الآثار وقل الاصطبار فلا قرار على همزات الشياطين وحكم الخائنين الساعة والله صحت البراهين وفصلت الآيات وبانت المشكلات ولقد كنا نتوقع

تمام هذه الآية تأويلها قال الله عز وجل وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ فلقد مات والله جدي رسول الله ﷺ وقتل أبي عليه السلام وصاح الوسواس الخناس في قلوب الناس ونعق ناعق الفتنة وخالفتم السنة فيا لها من فتنة صماء عمياء لا يسمع لداعيها ولا يجاب مناديها ولا يخالف واليها ظهرت كلمة النفاق وسيرت رايات أهل الشقاق وتكالبت جيوش أهل المراق من الشام والعراق هلموا رحمكم الله إلى الافتتاح والنور الوضاح والعلم الجحجاح والنور الذي لا يطفى والحق الذي لا يخفى أيها الناس تيقظوا من رقدة الغفلة ومن تكاثف الظلمة فو الذي فلق الحبة وبرأ النسمة وتردى بالعظمة لئن قام إلي منكم عصبة بقلوب صافية ونيات مخلصة لا يكون فيها شوب نفاق ولا نية افتراق لأجاهدن بالسيف قدما قدما ولأضيقن من السيوف جوانبها ومن الرماح أطرافها ومن الخيل سنابكها فتكلموا رحمكم الله فكأنما ألجموا بلجام الصمت عن إجابة الدعوة إلا عشرون رجلا فإنهم قاموا إلي فقالوا يا ابن رسول الله ما نملك إلا أنفسنا وسيوفنا فها نحن بين يديك لأمرك طائعون وعن رأيك صادرون فمرنا بما شئت فنظرت يمنة ويسرة فلم أر أحدا غيرهم فقلت لي أسوة بجدي رسول الله حين عبد الله سرا وهو يومئذ في تسعة وثلاثين رجلا فلما أكمل الله له الأربعين صار في عدة وأظهر أمر الله فلو كان معي عدتهم جاهدت في الله حق جهاده ثم رفعت رأسي نحو السماء فقلت اللهم إني قد دعوت وأنذرت وأمرت ونهيت وكانوا عن إجابة الداعي غافلين وعن نصرته قاعدين وعن طاعته مقصرين ولأعدائه ناصرين اللهم فأنزل عليهم رجزك وبأسك وعذابك الذي لا

يرد عن القوم الظالمين ونزلت ثم خرجت من الكوفة راحلا إلى المدينة فجاءوني يقولون إن معاوية أسرى سراياه إلى الأنبار والكوفة وشن غاراته على المسلمين وقتل من لم يقاتله وقتل النساء والأطفال فأعلمتهم أنه لا وفاء لهم فأنفذت معهم رجالا وجيوشا وعرفتهم أنهم يستجيبون لمعاوية وينقضون عهدي وبيعتي فلم يكن إلا ما قلت لهم وأخبرتهم ثم يقوم الحسين عليه السلام مخضبا بدمه هو وجميع من قتل معه فإذا رآه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكى وبكى أهل السماوات والأرض لبكائه وتصرخ فاطمة عليها السلام فتزلزل الأرض ومن عليها ويقف أمير المؤمنين عليه السلام والحسن عليه السلام عن يمينه وفاطمة عليها السلام عن شماله ويقبل الحسين عليه السلام فيضمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى صدره ويقول يا حسين فديتك قرت عيناك وعيناي فيك وعن يمين الحسين حمزة أسد الله في أرضه وعن شماله جعفر بن أبي طالب الطيار ويأتي محسن تحمله خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت أسد أم أمير المؤمنين عليه السلام وهن صارخات وأمه فاطمة تقول هذا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اليوم تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً قال فبكى الصادق عليه السلام حتى أخضلت لحيته بالدموع ثم قال لا قرت عين لا تبكي عند هذا الذكر قال وبكى المفضل بكاء طويلا ثم قال يا مولاي ما في الدموع يا مولاي فقال ما لا يحصى إذا كان من محق ثم قال المفضل يا مولاي ما تقول في قوله تعالى وَإِذَا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ قال يا مفضل والموؤدة والله محسن لأنه منا لا غير فمن قال غير هذا فكذبوه قال المفضل يا مولاي ثم ما ذا قال الصادق عليه السلام تقوم فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتقول اللهم أنجز وعدك وموعدك لي فيمن ظلمني وغصبني وضربني وجزعني بكل أولادي فتبكيها ملائكة السماوات السبع

وحملة العرش وسكان الهواء ومن في الدنيا ومن تحت أطباق الثرى صائحين صارخين إلى الله تعالى فلا يبقى أحد ممن قاتلنا وظلمنا ورضي بما جرى علينا إلا قتل في ذلك اليوم ألف قتلة دون من قتل في سبيل الله فإنه لا يذوق الموت وهو كما قال الله عز وجل وَلا (تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِما آتاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) قال المفضل يا مولاي إن من شيعتكم من لا يقول برجعتكم فقال عليه السلام إنما سمعوا قول جدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن سائر الأئمة نقول (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ) قال الصادق عليه السلام العذاب الأدنى عذاب الرجعة والعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة الذي(تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لله الْواحِدِ الْقَهَّارِ) قال المفضل يا مولاي نحن نعلم أنكم اختيار الله في قوله تعالى (نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ)وقوله (الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ).

وقوله إِنَّ شيعتنا تقول معنى الرجعة أن يرد الله إلينا ملك الدنيا وأن يجعله للمهدي ويحهم متى سلبنا الملك حتى يرد علينا قال المفضل لا والله وما سلبتموه ولا تسلبونه لأنه ملك النبوة والرسالة والوصية والإمامة قال الصادق عليه السلام يا مفضل لو تدبر القرآن شيعتنا لما شكوا في فضلنا أما سمعوا قوله عز وجل(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهامانَ وَجُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ) والله يا مفضل إن تنزيل هذه الآية في بني إسرائيل وتأويلها فينا وإن فرعون وهامان تيم وعدي).

أقول: ثم استطرد المفضل الكلام والسؤال في النكاح الدائم والتمتع وذكر كثير من أحكامها إلى أن قال الصادق عليه السلام (ثم يقوم جدي علي بن الحسين وأبي الباقر عليه السلام فيشكوان إلى جدهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما فعل بهما ثم أقوم أنا فأشكو إلى جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما فعل المنصور بي ثم يقوم ابني موسى فيشكو إلى جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما فعل به الرشيد ثم يقوم علي بن موسى فيشكو إلى جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما فعل به المأمون ثم يقوم محمد بن علي فيشكو إلى جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما فعل به المأمون ثم يقوم علي بن محمد فيشكو إلى جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما فعل به المتوكل ثم يقوم الحسن بن علي فيشكو إلى جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما فعل به المعتز ثم يقوم المهدي سمي جدي رسول الله وعليه قميص رسول الله مضرجا بدم رسول الله يوم شج جبينه وكسرت رباعيته والملائكة تحفه حتى يقف بين يدي جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول يا جداه وصفتني ودللت علي ونسبتني وسميتني وكنيتني فجحدتني الأمة وتمردت وقالت ما ولد ولا كان وأين هو ومتى كان وأين يكون وقد مات ولم يعقب ولو كان صحيحا ما أخره الله تعالى إلى هذا الوقت المعلوم فصبرت محتسبا وقد أذن الله لي فيها بإذنه يا جداه فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الْحَمْدُ للهِ الَّذِي صَدَقَنا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ ويقول جاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ وحق قول الله سبحانه وتعالى هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ويقرأ إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً فقال المفضل يا مولاي أي ذنب كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال الصادق عليه السلام يا مفضل إن رسول الله

ﷺ قال اللهم حملني ذنوب شيعة أخي وأولادي الأوصياء ما تقدم منها وما تأخر إلى يوم القيامة ولا تفضحني بين النبيين والمرسلين من شيعتنا فحمله الله إياها وغفر جميعها قال المفضل فبكيت بكاء طويلا وقلت يا سيدي هذا بفضل الله علينا فيكم قال الصادق عليه السلام يا مفضل ما هو إلا أنت وأمثالك بلى يا مفضل لا تحدث بهذا الحديث أصحاب الرخص من شيعتنا فيتكلون على هذا الفضل ويتركون العمل فلا يغني عنهم من الله شيئا لأنا كما قال الله تبارك وتعالى فينا لا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ قال المفضل يا مولاي فقوله لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ما كان رسول الله ﷺ ظهر على الدين كله قال يا مفضل لو كان رسول الله ﷺ ظهر على الدين كله ما كانت مجوسية ولا يهودية ولا صابئية ولا نصرانية ولا فرقة ولا خلاف ولا شك ولا شرك ولا عبدة أصنام ولا أوثان ولا اللات والعزى ولا عبدة الشمس والقمر ولا النجوم ولا النار ولا الحجارة وإنما قوله لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ في هذا اليوم وهذا المهدي وهذه الرجعة وهو قوله وَقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فقال المفضل أشهد أنكم من علم الله علمتم و بسلطانه وبقدرته قدرتم وبحكمه نطقتم وبأمره تعملون ثم قال الصادق عليه السلام ثم يعود المهدي عليه السلام إلى الكوفة وتمطر السماء بها جرادا من ذهب كما أمطره الله في بني إسرائيل على أيوب ويقسم على أصحابه كنوز الأرض من تبرها ولجينها وجوهرها قال المفضل يا مولاي من مات من شيعتكم وعليه دين لإخوانه ولأضداده كيف يكون قال الصادق عليه السلام أول ما يبتدئ المهدي عليه السلام أن ينادي في جميع العالم ألا من له عند أحد من شيعتنا دين فليذكره حتى يرد الثومة والخردلة فضلا عن الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ والأملاك فيوفيه إياه

قال المفضل يا مولاي ثم ما ذا يكون قال يأتي القائم ﵇ بعد أن يطأ شرق الأرض وغربها الكوفة ومسجدها ويهدم المسجد الذي بناه يزيد بن معاوية لعنه الله لما قتل الحسين بن علي ﵇ وهو مسجد ليس لله ملعون ملعون من بناه قال المفضل يا مولاي فكم تكون مدة ملكه ﵇ فقال قال الله عز وجل فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ والمجذوذ المقطوع أي عطاء غير مقطوع عنهم بل هو دائم أبدا وملك لا ينفد وحكم لا ينقطع وأمر لا يبطل إلا باختيار الله ومشيته وإرادته التي لا يعلمها إلا هو ثم القيامة وما وصفه الله عز وجل في كتابه وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعالَمِينَ وصلى الله على خير خلقه محمد النبي و آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا).

أقول: لا ينافي هذا ما قدّمناه لأن ذكره ﵇ هذا في جواب سؤال المفضل عن مدة ملكه ﵇ يراد منه ملكه الثاني بعد رجعته لأن الأوّل قد تقدم بعض الأحاديث بأنه سبع أو تسع أو تسع عشرة سنة أو غير ذلك كما تقدم فراجع وإنما قلنا هذا لما ثبت عنهم ﵈ إن لكل مؤمن ميتة وقتلة وهو ﵇ إذا ظهر ملك سبع سنين كل سنة بقدر عشر سنين ثم يقتل ويمكث ما شاء الله ثم يرجع ويكون ملكه هذا إلى ما قبل نفخ الصور نفخة الصعق أربعين يوماً كما ذكرنا سابقاً، وإنما وصف ملكه بالدوام المؤبد مع أنه في الظاهر إذا رفعهم الله قبل نفخة الصعق انقضت مدة ملكهم في الدنيا وبعد أربعين يوماً ينفخ إسرافيل نفخة الصعق وتفنى الخلائق بقدر ما كانوا من المدد ثم يمكث الكون راكداً أربعمائة سنة ثم

يبعث الله إسرافيل وينفخ في الصور نفخة النشور يوم القيامة لأن ملكه وملك آبائه عليهم السلام في الحقيقة باقٍ أبد الآبدين لا يخرج عنهم أبداً لأنّهم موجودون لا يجري عليهم ما يجري على من سواهم وإنما يرفعهم الله إليه ويكسر هذا الوجود لهم ويصفّيه لهم ويصوغه لهم فهم مالكون لما ملّكهم ربّهم في حال وجود الملك مصوغاً صيغة تحتمل الفساد كما في دار التكليف في حال كسره وتصفيته لهم فهم المالكون كما في البرزخ وفي حال صوغه الصيغة التي لا تحتمل الفساد وبقائه لهم كما في الآخرة فلا يكونون بالله تعالى فاقدين لما وجدوا بالله أبداً فافهم.

واعلم أنه يكون قبل خروج الحجة عليه السلام علامات منها محتوم ومنها غير محتوم وما ذكرناه سابقاً علامات تقع في سنة قيامه عليه السلام وأنا أذكر بعضاً منها ليكون هذا الشرح مشتملاً على كثير من أحوال ما يتعلّق بقيامه عليه السلام وأحوال رجعتهم عليهم السلام وهي كثيرة لا تكاد تحصى والمصرّح به في أحاديثهم أنه من العلامات أقلّ ممّا أشاروا إليه أنه من العلامات ولكن أشير لك إلى ما أشارُوا إليه مجملاً.

اعلم أنّ قيامهم ورجعتهم صلّى الله عليهم هي الساعة وهي القيامة الصغرى قال الله تعالى (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) الآيات، هذا من علامات القيامة الصغرى المشار إليها وقوله تعالى (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ) هذه هي القيامة الكبرى المعروفة عند العوامّ فكل واقعة جرت كليّة أو جزئيّة وكلّ حادثة وملحمة مما كان ومما يحدث فهو من علامات قيامهم ورجعتهم عليهم السلام، وقد أشرتُ إلى شيء من ذلك في قصيدة رثيتُ بها الحسين عليه السلام قلتُ في آخرها في خطاب لبني أمية وما فعلوا به عليه السلام وبأهله وبأصحابه قلتُ:

إن نلـتُم منهُمُ ما لا يَحِلُّ لكـــم
فَذَا إليهم بحكم الله معـدُولُ
وكان ذلك من أشراط ملكهِم
وقطـع دابرِكمْ ما فيه تعذيـــلُ

وأما ما ذكروه عليهم السلام في أحاديثهم صريحاً فكثير منه ما ذكرنا سابقاً ومنه اختلاف بني العباس في ملك الدنيا وخسْف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف قرية بالشام تسمى بالجاميّة وخسف بالبيداء كما ذكر في حديث المفضّل وركود الشمس من عند الزوال إلى أوسط أوقات العصر وطلوعها من المغرب وقتل نفس زكية بظهر الكوفة في سبعين من الصالحين وهدم حائط المسجد (سور الكوفة) وإقبال رايات سود من ناحية خراسان وخروج اليماني وظهور المغربي بمصر وتملكه الشامات ونزول الترك الجزيرة ونزول الروم الرملة وطلوع نجم بالمشرق يضيء كما يضيء القمر وينعطف حتى يكاد يلتقي طرفاه، وحمرة تظهر في السماء وتنتشر في آفاقها ونار تظهر بالمشرق طولاً وتبقى في الجوّ ثلاثة أيّام أو سبعة أيّام وخلع العرب أعنتّها وتملّكها البلاد وخروجها على سلطان العجم وقتل أهل مصر أميرهم وخراب الشام واختلاف ثلاث رايات فيه ودخول رايات قيس والعرب إلى مصر ورايات كندة إلى خراسان وورودُ خيل من قبل المغرب حتى تربط بفناء الحيرة، وإقبال رايات سود من المشرق نحوها وتنشق الفرات حتّى يدخل الماء أزقّة الكوفة وخروج ستّين كذّاباً كلّهم يدّعي النبوّة وخروج اثني عشر من آل أبي طالبٍ كلّهم يدّعي الإمامة لنفسه وإحراق رجل عظيم القدر من شيعة بني العبّاس بين جلوجاء وخانقين، وعقد الجسر مما يلي

الكرخ بمدينة بغداد وارتفاع ريح سوداء بها في أوّل النهار وزلزلة حتى ينخسف كثير منها وخوف يشمل أهل العراق وموت ذريع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وجراد يظهر في أوانه وفي غير أوانه حتى يأتي على الزرع والغلاّت وقلّة ريع لما تزرعه الناس واختلاف صنفين من العجم وسفك دماء كثيرة فيما بينهم وخروج العبيد عن طاعة ساداتهم وقتل مواليهم (ومسخ قوم) من أهل البدع حتى يصيروا قردة وخنازير وغلبة العبيد على بلاد السادات وموت أحمر بالسيف وموت أبيض بالطاعون.

وعن أبي بصير ومحمد بن مسلم قالا سمعنا أبا عبدالله عليه السلام يقول (لا يكون هذا الأمر حتى يذهب ثُلثا الناس فقلنا له فإذا ذهب ثلثا الناس فما يبقى قال عليه السلام أما ترضون أن تكونوا الثلث الباقي).

أقول: قد وردت أخبار عنهم عليهم السلام بالموت الأحمر والموت الأبيض حتى يهلك أكثر الناس والمراد بهذا الهلاك الموت المعلوم وهذا الحديث يحتمل أن المراد بذهاب الناس فيه من الموت، الموت المعلوم فيكون قوله (أما ترضون أن تكونوا الثلث الباقي) يحتمل أنه تسلية لشيعته أو أنهم حيث كانوا من محض الإيمان محضاً يرجعون أو حيث إنّهم مستقيمون على الطريقة يجتنبون الفتن ويلزمون بيوتهم فيسلمون أوْ أنّ الله سبحانه يدفع عنهم لنصرة الحجة عليه السلام أو أنّه يريد به أناساً مخصوصين أو على حذف حرف الجر، أي من الثلث الباقي وما أشبه ذلك وهذه الوجوه وإن كانت بعيدة من ظاهر الحديث لكنّها ليست بعيدة من أحد السبعين الوجه كما هو شأنهم عليهم السلام في إراداتهم من كلامهم، ويحتمل هذا الحديث أن يراد بذهاب الناس هلاك دينهم وفسادهم في معتقداتهم ولا يراد منه ما يراد من

الأخبار الأُخر، وشيعته لا يضرّهم ما يجري في ذلك الزمان من الفتن والامتحان والابتلاء فهم الثلث الباقي على الحق وصحة الاعتقاد في انتظار الفرج، وهذا أظهر وأقرب من ظاهر الحديث.

وفي غيبة النعماني عن جابر الجعفي قال (سألت أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام عن قول الله تعالى (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ) فقال يا جابر ذلك خاص وعام فأمّا الخاص من الجوع فبالكوفة يخص الله به أَعداء آل محمد فيهلكهم وأمّا العام فبالشام يصيبهم خوف وجوع ما أصابهم به قطّ وأمّا الجوع فقبل قيام القائم عليه السلام وأما الخوف فبعد قيام القائم صلوات الله عليه).

واعلم أن العلامات المذكورة في الروايات كثيرة جدا ونحن نقتصر على ما ذكرنا، وهاهنا خبر روي في جامع الأخبار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مشكلات الأخبار فيحمل على حكم البداء ، أو أن العدد يراد به معنى غير ما يعرف كجعل الآحاد عشرات أو أقل أو على عدد الزبر والبينات مربعا أو مكعبا أو على حكم التضارب كعد العشرة مائة والعشرين أربعمائة والثلاثين تسع مائة أو غير ذلك من هذا النوع، أو أن ابتداء العدد من وقت معلوم عندهم عليهم السلام كأن يريد بالست مائة بعد الألف أو بعد الألفين أو بعد الثلاثة آلاف وما أشبه ذلك، أو يكون توقيتا لحكم الاقتضاء وذلك لا ينافيه تغيره بحكم الوضع كحصول حوادث وملاحم ودعوات وغيرها من الأسباب السفلية أو العلوية كالأوضاع الفلكية من نحو اقتران العلويات وتسبيحات المدبرات وما أشبه ذلك، والله سبحانه ونبيه وأوصياؤه عليه وعليهم السلام أعلم، وهو أنه روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم (أن في العشر بعد ستمائة الجرح والقتل و تمتلئ الأرض ظلما وجورا وفي العشرين بعدها يقع

موت العلماء ولا يبقى الرجل بعد الرجل وفي الثلاثين ينقص النيل والفرات حتى تزرع الناس شطهما وفي الأربعين بعدها تمطر السماء الحجر كأمثال البيض فيهلك فيها البهائم وفي الخمسين بعدها يسلط عليهم السباع وفي الستين بعدها ينكسف الشمس فيموت نصف الجن والإنس وفي السبعين بعدها لا يولد المؤمن من المؤمن وفي الثمانين بعدها تصير النساء كالبهم وفي التسعين بعدها تخرج دابة الأرض ومعها عصا آدم وخاتم سليمان وفي السبعمائة تطلع الشمس سوداء مظلمة ولا تسألون عما وراءها وفي خبر آخر سنة ثمانين وستمائة تظهر امرأة يقال لها سعيدة مع لحية وسبال مثل الرجال تأتي من الصعيد في مائتي ألف عنان وتسير إلى العراق (وهذه القصة طويلة عظيمة ما ذكرتها) وفي سنة سبع وثمانين وستمائة يظهر من الروم رجل يقال له المريد في سبعمائة قنطارية (وهي علم) على كل (علم) قنطارية صليب تحت كل صليب ألف فارس أفرنجي ونصراني وهذه قصة عظيمة طويلة وفي زمانه يخرج إليهم رجل من مكة يقال له سفيان بن حرب وفي خبر آخر من وقت خروجه إلى ظهور قائم آل محمد ﷺ ثمان أشهر لا يكون زيادة يوم ولا نقصان يوم).

أقول: وهذا الحديث مقطوع مرسل وكتاب جامع الأخبار الذي نقلت منه هذه الأخبار قد استثناه الشيخ محمد بن الحسن الحر رحمه الله مع ما استثنى من الكتب فلم ينقل في الوسائل منها شيئاً وقال هذه كتب غير معتمد عليها لعدم ثبوت أسانيدها وعدم العلم بثبوت مؤلّفيها... إلخ كلامه، وعلى تقدير صحّتها فقائله أعلم بما قال لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى صلى الله على محمد وآله ويحمل على نحو ما ذكرنا أو بعضها أو غير ذلك، وحيث ثبت بما سمعت

وما لم تسمع قيامهم ورجوعهم إلى الدنيا وثبتَ بما تقدم وغيره من عدم الاطّلاع على وقت القيام والرجوع لغير الملك الْعَلاّم، وإنّما لذلك الوقت علامات ودلائل حتّى قال أمير المؤمنين عليه السلام حين سئل عن ذلك (ما المسؤول بأعلم من السائل وإنّما هي علامات ودلائل) والحجّةُ عليه السلام لا يعلم متى يقوم وإنّما يعرف ذلك إذا جاء الوقت انْسلَّ ذو الفقار من غمِدِه ونظر في الأصلاب فلم يرى في صلب كافرٍ مؤمناً فإذا كان كذلك ظهر، وعن الصادق عليه السلام أنه سُئِل (ألم يكن عليّ قويّا في بدنه قويّا في أمر الله فقال بلى قيل فما منعه أن يدفع أو يمتنع قال قد سألت فافهم الجواب منع عليّا من ذلك آية من كتاب الله عز وجل فقال وأيّ آية قال فقرأ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً، إنّه كان لله ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين ومنافقين، فلم يكن عليّ صلوات الله عليه ليقتل الآباء حتّى تخرج الودائع، فلما خرجت ظهر على من ظهر وقتله، وكذلك قائمنا أهل البيت لن يظهر أبدا حتّى تخرج ودائع الله فإذا خرجت يظهر على من يظهر فيقتله)هـ.

فإن قلت: إنّ الإمام عليه السلام يعلم فيما وصل إليه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وفي ليالي القدر وفي الوقت بعد الوقت وما تضمنت ألواح الموجودات وما اشتمل عليه القرآن الذي فيه تفصيل كل شيء ما كتب في الألواح من آجال هذه الودائع وآجال نزولها في الأصلاب وخروجها منها وهو قوله تعالى (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ).

قلنا: قد ذكرنا مراراً في مواضع متعددة من هذا الشرح وغيره من أنّهم عليهم السلام لا يعلمون الغيب بمعنى أنّ كلّ ما اطّلعوا عليه فبتعليم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى وتوقيفه على كل جزئي جزئي ، وأن معنى أن عندهم علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة هو ما ذكرنا سابقا على التفصيل المتقدم فراجعه وأن المراد بما كان ما

وجد وبما يكون مما حتم كونه ولم يكن مشروطا وآجال هذه الودائع من المشروط وأحكامه دائما تتجدد بتجدد المقتضيات الموجبة للمحو والإثبات فلا يعلمون المحتوم منها قبل أن يحتم ويصل إليهم فإذا وصل إليهم بتنصيص الحتم علموه وإن وصل إليهم لا بالتنصيص فقد يكون ما وصل إليهم علمه محتوما في عالم الغيب لأنه الموجب للإخبار به موقوفا في عالم الشهادة لجواز الموانع كالصدقة والدعاء والبر والأعمال الصالحة وكالزنا والذنوب التي تهدم العمر وتقرب البعيد من الأجل فقد تقع الموانع فلا يقع وقد لا تقع فيقع فهم حينئذ يقفون ولا يقولون لأنهم لا يعلمون، وفي هذا ومثله ترد ليالي القدر والنقر في القلوب والوقر في الأسماع ونطق ما في الألواح وما يرد في الوقت بعد الوقت وفي آجال هذه الودائع مقتضيات من الآباء والأمهات من المطاعم والمشارب والأوقات والأمكنة والمربيات من الأرواح والروحانيات وآلاتها ومحال تصرفاتها مما يطول ببيانه الكلام.

فإذا فهمت ما لوحنا لك فيه عرفت أنهم عليهم السلام يقولون كما قالت الملائكة (سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) ، وهو سبحانه يطلعهم على ما يشاء من غيبه ، فحيث ثبت هذا كان أفضل الأعمال الإيمان به والتسليم في كل ما يرد عنهم وانتظار فرجهم ومَدُّ عَيْنِ الرجاء إلى قيامهم والاستعداد لنصرتهم فإنه هو الجهاد معهم في غيبتهم فعن الباقر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل العبادة انتظار الفرج).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله ذات يوم وعنده جماعة من أصحابه اللهم لقني إخواني مرتين فقال من حوله من أصحابه

أما نحن إخوانك يا رسول الله ﷺ فقال لا إنكم أصحابي وإخواني قوم من آخر الزمان آمنوا بي ولم يروني لقد عرفنيهم الله بأسمائهم وأسماء آبائهم من قبل أن يخرجهم من أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم لأحدهم أشد بقية على دينه من خرط القتاد في الليلة الظلماء أو كالقابض على جمر الغضا أولئك مصابيح الدجى ينجيهم الله من كل فتنة غبراء مظلمة).

وفي المحاسن عن عبدالحميد الواسطي قال (قلت لأبي جعفر عليه السلام أصلحك الله والله لقد تركنا أسواقنا انتظارا لهذا الأمر حتى أوشك الرجل منا يسأل في يديه فقال يا عبد الحميد أترى من حبس نفسه على الله لا يجعل الله له مخرجا قلت بلى والله ليجعلن الله له مخرجا ، رحم الله عبدا حبس نفسه علينا رحم الله عبدا أحيى أمرنا قال فقلت فان مت قبل أن أدرك القائم فقال القائل منكم « إن أدركت القائم من آل محمد نصرته « كالمقارع معه بسيفه ، والشهيد معه له شهادتان).

ومن غيبة النعماني عن جابر بن يزيد عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال (اسكنوا ما سكنت السماوات والأرض أي لا تخرجوا على أحد فإن أمركم ليس به خفاء ألا إنها آية من الله عز وجل ليست من الناس ألا إنها أضوأ من الشمس لا تخفى على برٍّ ولا فاجر أتعرفون الصبح فإنها كالصبح ليس به خفاء).

ومن غيبة النعماني عن محمد بن مسلم قال سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقوله (اتقوا الله واستعينوا على ما أنتم عليه بالورع والاجتهاد في طاعة الله فإن أشد ما يكون أحدكم اغتباطا بما هو فيه من الدين لو قد صار في حد الآخرة وانقطعت الدنيا عنه فإذا صار في ذلك الحد عرف أنه قد استقبل النعيم والكرامة من الله والبشرى بالجنة وأمن مما كان يخاف وأيقن أن الذي كان عليه هو الحق وأن من خاف دينه

على باطل وأنه هالك فأبشروا ثم أبشروا بالذي تريدون ألستم ترون أعداءكم يقتتلون في معاصي الله ويقتل بعضهم بعضا على الدنيا دونكم وأنتم في بيوتكم آمنون في عزلة عنهم وكفى بالسفياني نقمة لكم من عدوكم وهو من العلامات لكم مع أن الفاسق لو خرج لمكثتم شهرا أو شهرين بعد خروجه لم يكن عليكم منه بأس حتى يقتل خلقا كثيرا دونكم فقال له بعض أصحابه فكيف نصنع بالعيال قال إذا كان ذلك قال يتغيب الرجال منكم فإن حنقه وشرهه إنما هي على شيعتنا وأما النساء فليس عليهن بأس إن شاء الله تعالى قيل فإلى أين يخرج الرجال ويهربون منه فقال من أراد أن يخرج منهم إلى المدينة أو إلى مكة أو إلى بعض البلدان ثم قال ما تصنعون بالمدينة وإنما يقصد جيش الفاسق إليها ولكن عليكم بمكة فإنها مجمعكم و إنما فتنته حمل امرأة تسعة أشهر ولا يجوزها إن شاء الله) هـ.

واعلم أنا قد خرجنا بالإطالة بذكر بعض ما يتعلّق بهذا اليوم العظيم الذي كان عند ربك مقداره خمسين ألف سنة عن نمط ما نحن بصددِه من الشرح ولكن لما كان فيها أشياء مجملة وأشياء مجهولة احتجنا إلى بعض التبيين والتنبيه، لأنّ الشيء إذا كلّف الشارع به المكلّف على أن يعتقده أو يتهيّأ للعمل به فلا بدّ من تبيينه للمكلّف ليكون ذلك منه موافقاً لمراد الشارع سواء كان ذلك المكلّف به من أركان الإسلام أو الإيمان أم من مكمّلاتهما وأخبار الرجعة ليس فيها تصريح ولا ترتيب ، وأكثر ما ورد فيها مختلف متنافٍ لا يمكن الجمع بينه إلاّ باحتمالات بعيدة أكثر من يقف عليها لا يقبلها، نعم تدلّ بكلّها على أمرٍ حقٍّ لا شك فيه مجمل لا تمكن معرفته إلاّ على جهة الإجمال فهي في دلالتها على هذا الأمر المجمل متواترة معنى، ولمّا كان بعض التكاليف فيها إجمال نبّه عليه بقوله عليه السلام (أبهموا ما

أبهمه الله)فالإيمان بالرجعة شرط في كمال الإيمان وباب يوصل المؤمن إلى اليقين والاطمئنان فمن شكّ في شيء من ذلك لم يكمل إيمانه ولم تلجه روح اليقين ومن شكّ في ذلك كله لم يكن مؤمناً قطعاً، وإنّما الشك في إسلامه لأن من جملة ذلك قيام القائم عليه السلام ولا يكاد ينكره أحد من المسلمين إلاّ شذاذ دعاهم إلى ذلك العناد لبعض الشيعة ومكابرة لأن النصوص من الطرفين مع كثرتها كلّها مقبولة من الفريقين، وإنّما يتكلمون ويؤّلون لبعضها لِمَا يظهر لهم من منافاة بعض منها لبعض في خصوص جزئيّاتٍ منها، والإيمان بكل ما ورد فيها فما ظهر له عرفه وما أمكنه الجمع بين المتنافيين أَلِفَهُ وما تعذّر عليه أوقفه هو في الحقيقة التسليم والإخبات وشرح الصدر للإسلام، وذلك علامات الخصيصين من أصحاب أمير المؤمنين والأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

وفي الحديث (من لم يقل برجعتنا فليس منا)

أي ليس من شيعتِنا الخصيصين وقد يكون من الشيعة الخاصّين، وهذا الحديث صريح بأنّ المراد فيه الرجعة الخاصّة التي يرجعون هم عليهم السلام فيها بأنفسهم ولو أريد العموم كان المعنى ليس من شيعتِنا أصلاً بل هو من أعدائنا وأرشدك أنهم صلى الله عليهم إنّما خالفوا بين أحاديثهم تقيّة من أعدائهم ومن كثير ممّن يحبّهم ويقول بإمامتهم ويتبرأ من أعدائهم فإذا فتحت على نفسك باب التسليم في كل ما يرد عنهم وبنيتَ أمرك على قبول ذلك واستقمت على ذلك بحيث لا يعترض لقلبك خلافه، ولا تلتفِت أبداً ومضيتَ حيث تؤمر في قوله تعالى (وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) زال التنافي عنها بالكليّة عندك وظهر لك أنّها قول واحدٌ من قائل واحدٍ في وقتٍ واحدٍ (وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو

حَظٍّ عَظِيمٍ) وكلّ شيء من التكاليف الشرعية والوجود من هذا القبيل ولا سيما ما نحنُ بصدده.

وقوله عليه السلام (منتظر لأمركم).أي منتظر لما كنتُ مؤمناً به من إيابكم ومصدّقاً به من رجعتكم وهذا الانتظار توقّع الفرج من الله ومَد عَين الرجاء إلى جهة كرم الوهّاب بتعجيل فرجِهِمْ.

وقوله عليه السلام (مرتقب لدولتكم) معناه مثل معنى منتظر لأمركم إذا أريد بالأمر هنا الدّولة أو أريد بالدولةِ الولايةُ فإنّ أمرهم كما يراد به الولاية يراد به الدولة وكذلك الدولة والانتظار والارتقاب واحد إلاّ أنّ الانتظار مشتق من النظر، لأنّ المنتظِر بكسر الظاء لا يزال مادّاً بَصَرَهُ والارتقاب مشتق من الرقيب بمعنى الحافظ أو بمعنى الحارس لأنّ المرتقب يحارس ما يرتقبه ويتوجّه إليه لا يشتغل عنه بشيء غيره ويحفظه لا يهمل ملاحظته ويكون هذا الانتظار والارتقاب بالقلب وباللسان وبالأركان على نحو ما مَر في أول الكلام.

قال عليه السلام آخِذ بقولكم عامل بأمركم

اعتراف منّي بأنّي لا ائتَمُ بغيرِكم إذا قال القائلون وحكم الحاكمون وتشرّع المتشرّعون ولا أخذُ بقول أحدٍ سواكم أي لا أدين الله في جميع ما أرادَ منّي من التَكاليف الّتي تقتضيها الرُّبوبيّة من العبوديّة من أمْرِ التّوحيد فما دونه إلى أرش الخدش فما فوقه، فاعتقادي لما أثبتّم ومعرفتي بما عرّفتم وعلمي بما علّمتم وقولي عن قولكم وعملي على ما عملتم ودللتم، فإذا وقع منّي ما وافق ما عنكم حمدتُ الله بالثّناء عليكم وأثنيتُ عليه بالصلاة عليكم وإذا وقع منّي ما لا يطابق ما

عنكم استغفرتُ الله وأشهدتُه وأشهدتكم على ذنوبي وتقصيري لما أَجدُ في سرّي وعلانيتي وقولي وفعلي أنّ الحق والصلاح والسعادة والنجح بكلّ ما هو خير ومحبوب عند الله لكم وبكم ومنكم ومعكم وفيكم وعنكم، ولما أجد في سرّي وعلانيتي وقولي وفعلي أنّ هذا الذي أشهدت الله وأشهدتكم عليه هو حقيقة الأخذ بقولكم ولِما أجدُ في نفسي في سري وعلانيتي وقولي وفعلي أنّ ما خالفَ هذَا الذي أشهدتُ الله وأشهدتكم عليه مخالف للأخذ بقولكم فأنا فيما يجري عليّ بِه القضاء من التوفيق والخذلان آخذ بقولكم لأني عاملٌ بأمركم معترف فيه بأن المنّة لله والفضل لله ثم لكم في التوفيق للمتابعة وبالتقصير وللانقطاع والالتجاء في المخالفة.

قال عليه السلام (عامل بأمركم) مثل معنى قوله: آخذ بقولكم إذا جعلنا الأمر بمعنى القول وبمعنى ما دعونا إليه ونَدَبُونا إليه من أحكام الدين والإسلام وإذا جعلناه بمعنى الولاية قدّرنا مضافاً محذوفاً أي عامل بمقتضى ولايتكم وهو ما تقتضيه الربوبيَّة من العبودية، فيكون المراد من الْعِبَارتَيْن واحداً وذكر بعض أحكام الولاية فيهما يرجع إلى ما تقدّم فقد ذكرنا كثيراً منه مكرّراً فلا فائدة في ذكره.

قال عليه السلام مستجير بكم زائر لكم عائذ بكم لائذ بقبوركم

أقول: المستجير الطالب للحفظ ممّا هَرَب منه والعارف بهم المحب لهم يستجير بهم أي يميل إليهم ليجيروه من مكاره الدّارَيْن وليبلّغوه ما تقرّ به العين، والمِيل إليهم بنحو ما تقدم بأن يعتقد أنهم حجج الله على خلقه ومعانيه لدُعاتِه، وظاهره للمستجيبين له وأن يحبّهم بحقيقة قلبه وحقّ فؤاده ونُطق لسانه وأعمال أركانه،

وهذه الثلاثة إنّما تكون محبّة لهم ومحبوبةً لهم إذا كانت عنهم وبهم ولهم مشفوعة بالتّسليم لهم والاغتباط بذلك والرضى بالمطلوب والاغتنام بالخير المرغوب فإذا عرف فؤاده بهم وتيقّنَ قلبه عنهم وشرح صدرَهُ بالعمل بالأخذ عنهم والتسليم لهم والرد إليهم والرضى بما رضوه ورأوه مغنماً وغبطة وتشبّه بهم في كل ما يقدر عليه وتبرّأ من أعدائهم ومن كل وليجةٍ دونهم في معرفة فؤاده ويقين قلبه وعلم صدره، ونطق لسانه وأعمال أركانه يعني على نحو ما يتولى به أوْليائه ممّا أشرنا إليه في الاعتقادات والأقوال والأعمال يتبرّأ به من أعدائهم في الاعتقادات والأقوال والأعمال فإذا استجار بهم عليهم السلام بهذه الاستجارة الحقيقية التي هي الاعتصام بذمام الله فهو جارهم حقيقة فإذا قال مستجير بكم فقد طابق ظاهره باطنَهُ وقوله فِعلَهُ.

وقوله عليه السلام (زائر لكم) أي قاصدٌ إليكم والقصد على أنحاءً شتّى منها أنه يقصدهم عليهم السلام في حال ظهورهم عليهم السلام ليأخذ عنهم ما يحتاج إليه من أمور دينه من الاعتقادات والأعمال الشرعيّة والتأدّبات الإلهية التي تتم بها الصورة الإنسانية وتكمل بها الهيئة الملكيّه وتصدق بها حقيقة العبوديّة وهذه هي اللباس الذي يواري سوءة المكلّف عن الملكين الحافظَيْن وهي الريش الّذي يتزيّن به للقائهم وللقاءِ ربّهم ورَبّه وهي لباس التقوى الذي هو زينة للمؤمن وخير عند الله في الدنيا والآخرة.

ومنها أنه يقصدهم بالإئتمام بهم والتسليم لهم والردّ إليهم والمجانبة لمخالفيهم مجانبةً تَنْطَبِقُ على الائتمام بهم عليهم السلام والتسليم لهم والردّ إليهم انطباقَ موافقةٍ وتدلّ على صدق ولايتهم، وصحّةِ محبّتهم عليهم السلام دلالة مطابقةٍ كما هو حكم الأضدادِ في

الأفْعال والاستعداد.

ومنها أنه يقصدهم بامتثال ما قرّروا من أوامر الله واجتناب ما حدّدوا من نواهي الله وذلك لأنهم صلى الله عليهم لمّا كانوا وجه الله الذي يتوجّه إليه الأولياء وباب الله الذي تظهر منه أحكام القضاء وأسرار البداء وكانوا إنّما يأمرون بأمر الله وينهون بنهي الله ولا يريدون شيئاً لأنفسهم ولا لمخلوق، إلاّ مراد الله لأنهم محالِّ مشيئة الله وألسنةُ إرادتِه (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)، وقد جعلهم سبحانه لجميع ما خلق في سبيله إليهم في جميع الإمدادات من التكاليف والإيجادات وسبيلهم إليه تعالى في الامتثالات والاستعدادات كان القصد إليهم لا يكون في حالٍ من الأحوال إلاّ بامتثال أوامر الله في الواجبات والمتممات كالنوافل مثلاً للصلوات اليومية في بعض الأحوال على بعض الاعتبارات، والمكمّلات كالنوافل مثلاً للصلوات اليوميّة على البعض الآخر وكالآداب الشرعية والأخلاق الإلهيّة وإن لم يكن القصد كما قلنا كان إمّا بخلاف ذلك وهو قصدٌ لأعدائهم أوْ ليس لواحدٍ منهما وهو قصدٌ لصُورتهم ومثالهم عنده وهذا حالُ من يميل ما مالَتْ به الريح وهم فريقان في مآل أمرهم اتباع لغيرهم الذين قال تعالى فيهم (فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ).

وقوله عليه السلام (عائذ بكم) أي لاجٍ ومستجيرٌ بكم ومعنى ذلك ما تقدم مكرراً من أنه لا يتحقّق ذلك إلاّ بولايتهم ولاً تتحقّق ولايتهم إلاّ بمحبّتهم ولا تتحقق محبتهم إلاّ بمتابعتهم في الأقوال والأفعال والأعمال ظاهراً وباطناً كالاعتقادات، ولا تتحقق متابعتهم إلاّ بمعرفتهم ولا تتحقّق معرفتهم إلا بتصديقهم ولا يتحقّق تصديقهم إلاّ بالتّسليم لهم كما مرّ، وإليه الإشارة بقول الصادق عليه السلام (إِنَّكُمْ لا تَكُونُونَ صَالِحِينَ

حَتَّى تَعْرِفُوا وَلا تَعْرِفُونَ حَتَّى تُصَدِّقُوا وَلا تُصَدِّقُونَ حَتَّى تُسَلِّمُوا أَبْوَاباً أَرْبَعَةً لا يَصْلُحُ أَوَّلُهَا إلا بِآخِرِهَا ضَلَّ أَصْحَابُ الثَّلاثَةِ وَتَاهُوا تَيْهاً بَعِيداً إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يَقْبَلُ إِلا الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَلا يَتَقَبَّلُ اللهُ إِلا بِالْوَفَاءِ بِالشُّرُوطِ وَالْعُهُودِ وَمَنْ وَفَى اللهَ بِشُرُوطِهِ وَاسْتَكْمَلَ مَا وَصَفَ فِي عَهْدِهِ نَالَ مَا عِنْدَهُ).

أقول: يريد (وَاسْتَكْمَلَ مَا وَصَفَ فِي عَهْدِهِ) ما أراد سبحانه بقوله تعالى (أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى) فقولُه بلى هو ما وصف في عهدِه الذي هو من الله أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ومنه بلى واستكمالُه بالموافاة والقيام بالشروط والعهود وهي ما ذكرناه وهو التسليم الحقيقي وهو الإسلام الذي هو الدين عند الله وهو الإيمان الكامل وهو امتثال جميع الأوامر واجتناب جميع النواهي وهو قوله عليه السلام (وقال الله تعالى إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ فَمَنِ اتَّقَى اللهَ فِيمَا أَمَرَهُ لَقِيَ اللهَ مُؤْمِناً بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم) الحديث وقد تقدم.

قوله عليه السلام (لائذ بقبوركم) أي ملتجىء فهو بمعنى عائذ أوْ أحد مَعْنَيه فعلى الأول يراد أن الالتجاء والاستجارة إنما هي بهم صلى الله عليهم والالتجاء إليهم نفس الالتجاء إلى الله تعالى، والاستجارة بهمْ نفس الاستجارة بالله سبحانه وهو سبحانه يجير ولا يجار عليه ولا ملتجأ منه إلاّ إليه، وإنّما اتّحد الالتجاء بهم والالتجاء بالله لأنّه لا يوجد سبحانه إلاّ حيث وُجِدوا ولا يظهر إلاّ حيث ظهروا وذلك لأنه عز وجل إنّما وَجدهُ مَن عَرَفهُ بهم وإنما ظهر بهم وإنما عُرِف بهم لأنهم عليهم السلام كما مر مكرّراً معانيه وأبوابه وظاهره في خلقه وأركانُ مقاماتِه وعلاماتِه وصفاتُهُ وأسماؤهُ، وذلك لأن جهة الالتجاء إليه إذا طلبها العارفُ بهم لم يجدها إلاّ إيّاهم وذلك لتقدس ذاته السبحانية عن النسب والانتسابات وجهاتُ الخلقِ

في الخَلْقِ وهو قول علي عليه السلام الحقّ (انتهى المخلوق إلى مثله) أي مخلوقٍ مثله، فتنـزّهَ الحَقّ سبحانه عمّا سِوَاهُ وقرنَ المخلوق بما ساواه فتكون المغايرة بين عائذ ولائذٍ للتحسين وإنما ذكرت القبور مع أنّ الالتجاء إنما هو إليهم، لأنّهم الآن لم يوجِدوا لنا وإنما توجد قبورهم، والالتجاء إلى قبورهم إنما هو لأجل أنّها أبواب غيبتهم كما أن الغائب في بيته إنّما ينتظر وَيرتَقَبُ عند الباب.

وعلى الثاني يراد أنّ الالتجاء والاستجارة اللّذين هما طلب الأمْن من مكاره الدارين إنما هما الدخول للبيت الذي جعله عز وجل أمْناً لداخليه حيث يقول (وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً) وهم عليهم السلام البيتُ المشار إليه لا هذه الأبنية المشرّفة الظّاهرة فكم من داخل فيه لم يأمن على نفسه فقد قتل ابن الزبير فيه ودخل القرامطة لعنهم الله إلى مكة المشرّفة أيام الموسم في سنةِ عشرٍ وثلاثمائة من الهجرة وأخذوا الحجر الأسود وقتلوا خلقاً كثيراً من الطائفين وغيرهم وممّن قتلوه علي بن بابوَيه وكان يطوف فَأُقطع طوافه فضربوه بالسيف فوقع على الأرض فأنشد:

ترى المحبّين صرعى في ديارهم

كفِتيَةِ الكهف لا يدرون كم لبِثوا

ونقلوا الحجر إلى القطيف وبقي عندهم عشرين سنة وردّ إلى مكة في سنة ثلاثين وثلاثمائة وقيل بقي تسع عشرة سنة.

وفي أمالي الصدوق قال تعالى للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في حق عليّ عليه السلام (وجعلته العَلَم الهادي من الضلالة وبابي الذي أوتى منه وبيتي الذي من دخله كان آمنا من ناري).

فهم عليهم السلام ذلك البيت وولايتهم ذلك البيت ومعرفتهم ذلك البيت فالالتجاء إليهم دخول هذا البيت.

وأمّا الالتجاء إلى قبورهم فلأنّها مدافنهم وتُرَبُهُمْ فهو التجاء إلى قبورهم، وكونُ الالتجاء إلى قبورهم التجاء إليهم لأنهم فيها أو لأنّها حفرهم لأنهم ليسوا فيها بل رفعهم الله إليه احتمالان والأحاديث عنهم عليهم السلام أكثرُهَا يدلّ على الثاني، فإنّ الأخبار منها ما يدل على أنهم لا يبقون في قبورهم إلاّ ساعة ومنها لا يبقون إلاّ ثلاثة أيّام ومنها أنهم أوّل الأمر يبقون ثم يرفعون كما في رواية كامل الزيارة وغيره (لمّا سئل الصادق عليه السلام عن الحسين عليه السلام لو نُبش وُجد في قبره قال ما معناه أمّا في الأوّل فنعم وأمّا الآن فلا لأنّه الآن متعلّق بالعرش وهو دائماً ينظر إلى زُوّاره وإنّما يُزَار موضع حفرته).

وأمّا ما يدلّ على أنّهم في حفرهم فكثير مثل ما يروى أنك تأتي الحسين عليه السلام مثلاً وتزورُه في قبره وتشير إلى قبره وتخاطبه وتقول (أشهد أنّك ترى مقامي وتسمع كلامي وتردّ عليّ سلامي) واحتمال المجاز تعارضه أصليّة استعمال الحقيقة والذي أعرف وأعتقد أن مدلولي النوعين من الأخبار صحيحان على ظاهرهما وإنّما الإشكال والصعوبة في الجمع بينهما مع تنافيهما ظاهراً وذلك لغموض معنى رفعهما على الأفهام قبل التنبيه عليه وإنّا إن شاء الله تعالى آتيناك إيّاه فخذه وكن لله من الشاكرين.

اعلم أن أجسادهم وأجسامهم عليهم السلام في غاية اللطافة بحيث لا تدركها الأبصار بل ولا البصائر فقد روي عنهم عليهم السلام (إنّ الله خلق قلوب شيعتهم من فاضل أجسامهم).

وفي رواية إن الله خلق أرواح شيعتهم من فاضل طينتهم أو أجسامهم وخلق أرواحهم من فوق ذلك وخلق أرواح شيعتهم من دون ذلك، وقد تقدّم الإشارة

إلى ذلك مراراً وإنما ظهروا للناس بما لبسوا من الصورة البشريّة التي هي محلّ التغيير والتبديل وهي صورة كثيفة من العناصر الأربعة التي تحت فلك القمر وإنّما لَبِسُوها ليتمّ ما أراد الله من انتفاع المكلّفين بهم ولولاها لما قدر أحدٌ من الخلق أن يراهم أو يدركهم أو ينتفع بهم من قوله تعالى (وَلَوْ جَعَلْناهُ مَلَكاً لَجَعَلْناهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنا عَلَيْهِمْ ما يَلْبِسُونَ)، وكانت الصورة البشريّة وإن كانت لهم عارضيّةً لأنها ليست منهم وإنما هي من آثار آثارهم فلمّا انتهت الحاجة إليها وانقضت ولم يكن لها فائدة ولا مصلحة ألقَوْها في أصولها الأربعة كلّ في أصله فلمّا ألقوها كُشِف منهم ما أخفته البشريّة بكثافتها ظاهراً فكانوا كما كانوا في أعالي عالم الأنوار معلّقين في أوائل عللهم من الأمر الذي قام به كلّ شيء، ومثال ظهورهم بالبشريّة وما بعده مما أشرنا إليه الصورة التي ظهرَتْ منك في المرآة فإنّ جرم الشيشة الصقيل للصورة بمنزلةِ الصورة البشريّة لهم أي لظهورهم عليهم السلام إذ لولا جرم الشيشة وصقالته لما ظهرت الصورة مع أنها موجودة في ظلّك وإنما توقّف ظهورها على الصورة البشريّة التي هي الشيء الصقيل كالمرآة والماء وما أشبههما، فالصورة شبَحُك معلّق بك مستقرّ في ظلّك عارض لك لا ذاتي لأنه نورك وشعاعُكَ فإذا ذهبت المِرآةُ خفي الشبَحُ لعدم شرط ظهوره فكان كما كان في أعالي عالم ظهورك الذي هو عالم أنوارك أي أنوار أفعالك معلّقاً في أوائل علله من الأمر الذي من فعلك أي ظهورك الذي قام به كل شيء من آثار ذلك الفعل فافهم، هذا بيان الجوابِ على كشف جميع الأسباب ورفع الحجاب.

وأمّا قشر الجواب فاعلم أنّهم أنوار لا كثافة في أجسامهم بوجهٍ بحيث لا تدركها الأبصار بل أكثر البصائر وهي حينئذٍ في رتبة لطافة العرش، فإذا

زالت الكثافة البشرية التي هي علّة الإدراك قلنا أنّهم معلّقون بالعرش وهم في حفرهم كما قد تقرّر عند علماء الفَنّ أنّ الصورة التي تراها في المِرآة من عالم المثال وهو يعني عالم المثال في الإقليم الثامن أسفله على أعلى محدّد الجهات، يعني أن الصورة المرئيّة إذا نسبت في الرتبة واللطافة تكون فوق محدَّب محدّد الجهات لأنّه ألطف الأجسام والصورة أي عالم المثال فوقه في الرتبة لا الجهة إذ ليس وراء محدّب محدّد الجهات شيء محدَث فقول الحكماء الأوّلين المستمدّين من مشكاة الوحي والنبوة ليس وراءه خلاء ولا ملاء يريدون أنه لم يخلق الله سبحانه شيئاً من الأشياء خارجاً بالمكان والشيئيّة عن المحدد فلا وراء له لا أنه له وراء خال أو لا خالٍ ولا ممتلٍ كما توهّم بعضهم أن وراءه المجردات وهي لا توصف بالخلاء والملاء بل المراد أنه ليس له وراء وإذا أردت أن ترى آيته ومثاله فانظر إلى نفسك فترى أنه ليس وراءك شيء منك، فإذا قلت أن الروح وراء هذه الجسد لا تريد به إلاّ أنها غيب فيه بلا تحيّز لا أنها خارجة عنه ليكون وراء جسمك شيء منك لك، فافهم التمثيل.

فأجسادهم عليهم السلام في قبورهم في رتبة الأجساد من اللطافة وهو معنى تعلّقها بالعرش أي في الرتبة واللّطافة فلو وجدت الصورة البشرية الآن وجدتهم في قبورهم فلمّا خلعُوها في أصولها لم يجدهم في قبورهم أحد إلاّ أن يكون واحداً منهم عليه السلام فإنه يدرك ذلك لكونه من هنالك ولا يمنعه ما فيه من الصورة البشريّة التي بها نجدُه لأنها إذا نسبت إلى نوريّته كانت كالذّرة في هذا العالم، ولهذا صعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج بجسْمه الشريف مع ما فيه من البشرية الكثيفة وبثيابه التي عليه ولم يمنعه ذلك عن اختراق السماوات والحجب حجب الأنوار لقلّة

ما فيه من الكثافة ألا تراه يقف في الشمس ولا يكون له ظلّ مع أن ثيابه عليه لاضمحلالها في عظيم نوريّته، وكذلك حكم أهل بيته الثلاثة عشر المعصوم صلى الله عليهم أجمعين، ومثال ذلك أنك لو وضعتَ مثقالاً من التّراب في مثقال من الماء أو أقل أو أكثر بقليل كان الماء كَدِراً لكدورة كثافة التراب ولو وضعت مثقال التراب المذكور في البحر المحيط لم يظهر لمثقال التّراب أثر بل يكون وضعه وعدمه بالنسبة إلى البحر المحيط سواء، نعم لو نظرت إلى مثقال التراب في قدره من البحر المحيط قبل تموّجه واستهلاكه أدركته، كذلك هم عليهم السلام حال تعلّق البشريّة تدرِك منهم ما تلّبست به الكثافة البشريّة حال إرادتهم التلبّس، والآن لم يريدوا التلبّس وخلعوها في أصولها فأجسادهم في قبورهم معلّقون بالعرش وعبارة أخرى أجسادهم في السماء وفي قبورهم وحفرهم المعلومة التي تأتي إليها زوّار شيعتهم المؤمنين اللهم ارزقنا زيارتهم وأدخلنا بِرحمتك في شيعتهم يا أرحم الراحمين.

فالنّاس حيث لم يدركوهم ولو نبشوا قبورهم لم يروهم يزورون مواضع آثارهم، ولعمري إنهم صلى الله عليهم فيها في السماء أو معلقون بالعرش وفي كامل الزيارة لجعفر بن محمد بن جعفر بن قولويه بإسناده عن عبد الله بن بكر الأرْجاني في حديث طويل عن الصادق عليه السلام وفيه (قلت جعلتُ فداك أخبرني عن الحسين عليه السلام لو نبش كانوا يجدون في قبره شيئاً قال يا ابن بكر ما أعظم مسائلك الحسين عليه السلام مع أبيه وأمه والحسن في منزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُحيون ويرزقون فلو نُبش في أيّامه لوجد فأمّا اليوم فهو حيّ عند ربّه ينظر إلى معسكره وينظر إلى العرش متى يُؤمَر أن يحملَهُ وإنه لعلى يمين العرش معلّق يقول يا ربّ أنجز لي ما وعدتني وأنه لينظر إلى زوّاره وهو أعرف بهم وبأسمائهم وبأسماء

آبائهم وبدرجاتهم ومنزلتهم عند الله من أحدكم بوُلدِه وما في رحلهم، وأنه ليرى من يبكيه فيستغفر له رحمة له ويسأل إياه الاستغفار له ويقول لو تعلم أيّها الباكي ما أُعِدَّ لك لَفرِحْتَ أكثر ممّا جَزِعتَ ويستغفر له كل من سمع بكاءه من الملائكة في السماء وفي الحائر وينقلبُ وما عليه من ذنبٍ).

وفيه عن زياد بن أبي الحلال عن أبي عبد الله عليه السلام قال (مَا مِنْ نَبِيٍّ وَلا وَصِيِّ نَبِيٍّ يَبْقَى فِي الأَرْضِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ حَتَّى تُرْفَعَ رُوحُهُ وَعَظْمُهُ وَلَحْمُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَإِنَّمَا تُؤْتَى مَوَاضِعُ آثَارِهِمْ وَيُبَلِّغُونَهُمْ مِنْ بَعِيدِ السَّلامَ وَيَسْمَعُونَهُمْ فِي مَوَاضِعِ آثَارِهِمْ مِنْ قَرِيبٍ).

قوله عليه السلام (وَيُبَلِّغُونَهُمْ مِنْ بَعِيدٍ السَّلامَ) يعني به أنّ الزوّار يبلّغون الأئمة عليهم السلام من بعيدٍ السلام فضمير الجمع الفاعل للزوار والمفعول للأئمة عليهم السلام وإنما كان التبليغ من بعيد لبُعدهم عن الإدراك وعن وجدانهم لأنّهم في السماء أي الخلوص والصفاء الذي لا يدركونه، وهم عليهم السلام يسمعون زوّارهم وهم في قبورهم من قريب، لأنهم حاضرون في قبورهم فضمير الفاعل في يسمعون لهم عليهم السلام والمفعول لشيعتهم وزوّارهم فقوله عليه السلام (لائذ بقبوركم) المراد منه أنّي لائذ بقبوركم لأنكم فيها ترون مقامي وتسمعون كلامي وتردّون عليَّ سلامي فأنا لائذ بكم فيصير بمعنى عائذ بكم لائذ بكم، فيختلف المعنى في العبارتين فيكون إني عائذ بكم أي معتصم بكم لائذ أي مستجير بكم فإذا جمعت بين الخبرين فرّقت بين المتعلّقين وإذا جمعت بين المتعلّقيْن فرّقت بين الخبرين لئلا يصير في الكلام تكرار والتأسيس خير من التأكيد.

قال ﷺ مستشفع إلى الله عز وجلّ بكم ومتقرّب بكم إليه ومقدّمكم أمام طلبتي وحوائجي وإرادتي في كل أحوالي وأموري

قال الشارح المجلسي ﷺ (مستشفع إلى الله عز وجلّ بكم) أي أجعلكم شفعائي إلى الله تعالى وأسأله بحقكم في قضاء حوائجي، (ومتقرّب بكم إليه) أي أجعلكم وسائل قربى إليه أو أتقرّب إليكم حتى أتقرّب إليه تعالى فإن قربكم قرب الله تعالى، (ومقدّمكم أمام طلبتي) أي اسألهُ بحقّكم أو أصلي عليكم قبل الدعوات حتى تصير مستجابة كما ورد في الأخبار المتواترة أن الدعاء لا يقبل بدون الصلاة على محمد وأهل بيته ﷺ انتهى.

أقول: يراد بالاستشفاع بهم أنْ يتوجّه إلى الله تعالى بإحضار صورهم أمام قلبه المتوجّه إلى الله وهم أمام توجُّهِه متوجّهون إلى الله تعالى له فيدعو الله بتوجّههم إلى الله في استجابة دعائه وقبول توبته، وأن يقبلَهُ على ما هو عليه من تقصيره ويدخِلَهُ في عباده الصالحين فهم المستشفعون له أو هو المستشفع بهم بأن يدعو الله عز وجل ويقسم عليه تعالى بحرمتهم وبحقّهم وبجاههم عنده أن يستجيب دعاءهُ فيما يطلب من مالك الدنيا والآخرة، فالسين في مستشفع للطَّلَب منهم أن يطلبوا من الله له مطالبه فإنه تعالى لا يردّهم أو للطّلب من الله تعالى بحقّهم وبجاههم فهو على الحالين مقدِّم لهم أمام توجهه إليه تعالى.

فعلى الأوّل هم الشافعون له وعلى الثاني هو المستشفع من الله بهم وحرمَتُهم المقسم بها على الله هي ما أقامهم منه تعالى لعباده بأن جعلهم أركان توحيده وآياته ومقاماته الّتي ظاهرُها أنهم ﷺ ظاهرُه في خلقه وبأن جعلهم معانيه أي معاني أسماء أفعاله من علمه وقدرته وسمعه وبصره وإرادته ومحبّته وأمره وكتابه

وسرّه ومفاتح غيبه وألْسنة إرادته ومحالَّ مشيته وعيبة علمه وخزائن جميع آثار أفعاله، من عرفهم فقد عرف الله ومن أنكرهم فقد أنكر الله ومن أحبّهم فقد أحبَّ الله ومن أبغضهم فقد أبغض الله .

فهم أقطاب جهات مطالب الخلق من الله سبحانه كيف يحب الله من يبغض جهة محبته من الله، أو قطبها الذي عليه دارَتْ أوْ سببها الذي به كانت وكيف يعرف الله من ينكر جهةَ مَعْرِفتِه لله وحقهم على الله أن الله سبحانه خلقهم لَهُ كما هم له فخلصوا له فحقّهم عليه خلقُه إيّاهم له كما هم له فكان بهذا الحق أنْ كان لهم كلّ ما كان له وكل ما يكون له وذلك جميع ما كوّنَ في ملكه وما يُكوّن فلا يكون له من ذلك ما ليس لهم ولا يكون لهم من ذلك ما ليس له لأنه في الحالَيْن إنّما كان له ليكون لهم فحقهم عليه حقّه عليهم (لا فرق بينك وبينها إلاّ أنهم عبادك وخلقُك) الدعاء.

وجاههم عنده هو جاهُه عندهم لأنّهم أمْثالُه العليا فلمّا أراد أن يُعْرَف سبحانه تعرّف لهم بأنفسهم فعرفوه بما وصف به نفسه من أنفسهم فذلك هو الجاه قال الله سبحانه (كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرام) وقال تعالى (فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إِنَّ الله واسِعٌ عَلِيمٌ) وهو الجهة أيضاً كما في الدّعاء عنهم عليهم السلام (وجهُك خير الوجوه وجاهُك خَيْر الجاهِ وجهتُك أكرم الجهات) الدعاء.

قوله عليه السلام (ومتقربٌ بكم إليه) التقرّب إليه سبحانه القيام بأوامره واجتناب نواهيه والتأدُّب بآدابه والتخلّق بأخلاق الروحانيين عل النحو الذي دعا إليه ودلّ عليه وهو أن يأخذ الأوامر الإلهيّة والمناهي الجبّاريّة عنهم عليهم السلام، ويمتثل بالأوامر ويجتنب المناهي على سنن تعليمهم وعملهم ويأخذ التأدّبات والتّخلّق

بأخلاق المجرّدات عن كدورات البشريّة عنهم عليهم السلام ويستعمل أعمال علومه بذلك على نحو استعمالهم لذلك مقدِّماً لهم أمام علومه وأعماله واستعماله ليقتفي بهم لأنّهم الهادون ويستدل بهم وبدلالتهم.

لأنهم الأدلاّء الراشدون معتقداً أن هذا النحو هو مراد الله من عباده ولذلك خلقهم وأسكَنهم في بلاده لا يقبل منها إلاّ ما وافق رضاهم ولا يوافق إلاّ ما أخذ عنْهم على جهة الانقياد والتسليم المحض الذي يكون فيه المطيع كالميت وكالجماد لا يعتبر من شؤون نفسه في وجدانه إلاّ ما اعتبروه له لطاعة الله، فإذا كان هكذا طَهُرَ ظاهره وباطنه وتوافقا وصدق مع ربّه خلف ساداته في جميع المواطن وزكا، وزكّاه الله سبحانه وطَهّره بها وفّقه له من اتّباعهم حتى كان قريباً منه فشابه وجهه في كتاب الله المحفوظ وهو قول علي عليه السلام (وخلق الإنسان ذا نفس ناطقة إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت جواهر أوائل عللها).

يعني أنه يكون مثل عقله الذي هو رأسٌ من العقل الكلي الذي هو العقل الكل في التقدّس وعدم التلوّث بشيء من شائبة الأجسام والجسمانيات لا ملابسة ولا مقارنة، فيكون كالعقل شهوده ووجوده ورؤيته ودعوته وقوله وعمله وجميع أحواله داعيةً إلى عبادة الرحمن كاسبةً مُكّسِبَةً للجنان وهو القريب إلى الله تعالى وحقيقة تقرُّبِه إنّما هو بهم عليهم السلام كما سمعتَ.

والدليل على هذا أن الأخبار المتكثرة من الفريقين حتى أنه يمكن دعوى تواترها معنىً أنه لو عمل هذا العمل وأعظم منه من لم يتولّ بهم ما كانت أعماله إلاّ هباءً منثوراً، وعن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن الحسين عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله يا علي أنت أمير المؤمنين وإمام

المتقين يا علي أنت سيد الوصيين و وارث علم النبيين وخير الصديقين وأفضل السابقين يا علي أنت زوج سيدة نساء العالمين وخليفة خير المرسلين يا علي أنت مولى المؤمنين يا علي أنت الحجة بعدي على الناس أجمعين استوجب الجنة من تولاك واستوجب دخول النار من عاداك يا علي والذي بعثني بالنبوة واصطفاني على جميع البرية لو أن عبدا عبد الله ألف عام ما قبل ذلك منه إلا بولايتك وولاية الأئمة من ولدك وإن ولايتك لا تقبل إلا بالبراءة من أعدائك وأعداء الأئمة من ولدك بذلك أخبرني جبرئيل عليه السلام فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ).

أقول: وتقدم بعض هذا الحديث وبعض غيره أقول ومعنى القرب أنه لمّا فعل ما أمر به كما أمر به طهرت جملته ظاهراً وباطناً فكان بعظيم تزكيّته وطاهِريّته من نوع الروحانيين ومن شكل جواهر العلل فكان بطهارته وصفائه قريب المكانة من المبدأ الفيّاض لشدّة قابليّته وعظيم استمداده وتلقّيه .

فإنّ القريب من المنير أشدّ استنارة من البعيد ومرادنا بالقريب شديد الصقالة والصّفاء لا قريبْ المكان من المنير فإنّ المِرآة أشدّ استنارة من الجدار بنور السراج وإن كان الجدار أقرب إلى المنير من المرآة وليس إلاّ لصفائها فهو إذا تقرّب بهم نال القرب من الله بهم لأنّ مَنْ تولاّهم وتبرأ من أعدائهم على نحو ما ذكرنا مراراً كان تابعاً لهم وقابلاً لوصلهم فيتمّمون له ما نقص من قابليّته ومقبوليّته عن نيل درجات المقرّبين بفاضل حَسَناتهم وأعمالهم وفاضل أنوارهم فبذلك منهم يلحق بالمقرّبين.

وقوله عليه السلام (ومقدّمكم أمام طلبتي وحوائجي وإرادتي في كل أحوالي وأموري) يراد من التقديم معنى الاستشفاع والتقرب بهم كما ذكرنا سابقاً، ومعنى آخر سنذكره بعد، لا أنه يتخيّل عند العبادة صورهم وتمثيلهم كما يفعلونه أهل

التصوّف الذين يأمرون مريديهم به يقول الشيخ منهم لمريده (إذا أردتَ أن تصلي فرض الظهر تتصوّر صورتي أمام نيّتك وتمثّل هيئتي عند قصدك لأنك قاصدٌ إلى معبود بينك وبينه مسافة طويلة وأنت لم تقطعها وأنا قد قطعتها ووصلتُ إليه وأنت تابع لي وسالك مسلكي لا تصل إلاّ باتّباعي، فإذا تخيّلت صورتي أمام قصدِك وصورتي في خيالك هي حقيقة ظاهري الذي تشاهده ببصرك لأن الخيال هو أصل الوجود والظاهر من آثاره قائم به وحقيقتي قد اتّصلت بمعبودك وأنت بخيالك إذا اتّصلتَ بحقيقتي وصلتَ إلى معبودك بدلالتي وهدايتي).

وكذب لعنه الله لأنّ مريده إذا تخيّل صورته أمام قصده كانت الصورة المحدودة بالأبعاد هي معبوده المقصود بعبادته أو وجه معبوده فإن قيل إنه يدّعي أنها ليست مقصودة بالعبادة.

قلنا إذا لم تكن مقصودة بالعبادة فهي إمّا دليل على المقصود بالعبادة أوْ لا فإن كانت دليلاً فهي إنما تدلّ بهيئتها فيلزمه أن يكون مدلولها على تلك الهيئة من التحديد والتخطيط وإن لم يكن مدلولها كذلك فبأي شيء تدلّ عليه إذا لم تدلّ بهيئتها وإن لم تكن دليلاً ولا مدلولاً فهي صورة شيطانية تشغله عن التوجّه إلى معبوده الذي ليس كمثله شيء بملاحظتها.

وإنّما المراد بتقديمهم عليهم السلام أمامه في كل أحواله لأنّ المعبود الحق جل وعلا هو المقصود بالعبادة وحده والمطلوب منه كل خير وحده لا شريك له ولمّا كان سبحانه لا يشبههُ شيء ولا يعرف كيف هو في سرّ وعلانية إلا بما دلّ على نفسه ولا يدلّ على نفسه بغيره لأن ذلك يضلّ المدلول، فإنك لو دللتَ على الطويل بالقصر لضلّ المدلول وإنّما يدلّ على نفسه بما يهدي المدلول وذلك لا يكون إلا بأسمائه وصفاته وهم صلى الله عليهم أسماؤه وصفاته.

والذات لا يمكن القصد إليها والإرادة لها إلاّ بأسمائها وصفاتها ومع هذا فلا يجوز أن تتصوّر صورة النبي ﷺ أو علي عليه السلام أو الأئمة عليهم السلام عند توجهّك إلى الله تعالى لأن هذا شرك وكفر لأن ما تتصوّر لا يدلّ عليه وما يدلّ عليه تعالى لا يمكن تصوّره إذ لا صورة له، وإلاّ لعُرِف تعالى بصورة فليس معنى التقديم لهم أمام كل شيء لله تعالى من عبادة ودعاء وذكر وغيرها إلاّ أن تدعوه وحده بأسمائه وهم عليهم السلام تلك الأسماء.

ألا ترى أنّك إذا أردت أن تخاطب زيداً وتقصده وهو متعيّن قاعد عندك لم تقدر على ذلك إلاّ بأسمائه وصفاته فتقولُ يا زيد ولا تريد الاسم ولا تتصوّره وإنّما تعني المعنى المدعو ولكن لا تقدر أن تتوصل إلى جهة توجّهه وإقباله إليك إلاّ باسمه أو صفته فتقول يا قاعد ولست تريد القعود ولا تلاحظه ولا تتصوّره إلاّ أن مقصودك هذا المعنى المعلوم عندك بصفة القعود أوْ بالإشارة إليه فتقول هذا غير ناظرٍ إلى الإشارة.

فإذا دلّك الاسم والصفة والإشارة على زيدٍ في حالٍ منك قد خلى وجدانك منها وملاحظتُك ونظرك فهي أسماؤه وصفاته وآياته الدّالة عليه ولا يدلّ شيء منها عليه حين وجدانه لأنه حينئذٍ حجاب جلالٍ لِوجْدانك أَنيّتَه كما أمر به الصوفي من تصوّر صورته أمام توجُّهه ولكن لما كان علم التّصوّف عندهم شرطه أن يكون جارياً على مذهب السّنّة والجماعة كما صَرَّحَ به عبد الكريم الجيلاني في أول كتابه الإنسان الكامل ونظرهم بهذا العلم الخبيث علم الضلالة والكفر ومقصدهم المعارضة والمباهاة لأئمة الهدى صلى الله عليهم، ليصرفوا وُجوهَ الناس إليهم (وَلِتَصْغى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآْخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ

وَلِيَقْتَرِفُوا ما هُمْ مُقْتَرِفُونَ)والله سبحانه بلطيف تدبيره يضلّ به كثيراً ممّن مال إليهم واتّبعهم واقتدى بهم ويهدي به كثيراً ممّن ردّ عليهم وأنكرهم وتبرّأ منهم ومن (وَما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِ) يعني الميثاق الذي أخذ عليهم ألاّ يقولوا على الله إلاّ الحق ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل وهو ما أمرَ به من اتّباع أهل البيت عليهم السلام والردّ إليهم والتسليم لهم في قوله تعالى (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)(وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ) لأنهم قد ضلّوا باعتقاداتهم الفاسدة كما أشرنا إلى بعضها سابقاً وأضلّوا كثيراً ممن أصغى إليهم وضلّوا عن سواء السبيل أي عن وسط الحق في قوله تعالى (وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً) فافهم.

فلما كان علمهم مبنياً على غير الصراط المستقيم أضلّهم الشيطان عن طريق الحق (لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ) وزيّن لهم أن هذا التصور هو الدليل إلى الله كما أن ذا الصورة هو الذي يدلّك بعلمه عليه وبنَفسه وأخلاقه كذلك صورته تدلّ خيالك على الله فزيّن لهم الشيطان أن يتصوّروا صنماً يحدثونه بأوهامهم يتوجهون إليه في عبادتهم مع أنه مكنوف بالحدود والمقادير فلمّا تنبّه بعضهم إلى هذه الحدود نطق له الشيطان على ألْسِنةِ مشائخهم وكبرائهم بأنّ الوجود واحد يتكثّر وهو واحد في كثرته ويتحدّد وهو غير متعيّن في تعيّنه وتشخصه فقال شعراً:

كلّ شيء فيه معنى كلّ شيء
فتفطّن واصرفِ الذّهنَ إليّ
كثرة لا تتناهى عَدَداً
قد طوتها وحدة الواحد طي

والحاصل لا حاجة إلى التطويل في بيان مخازيهم وقبيح معتقداتهم ونحن مرادُنا بتقديم أئمّتِنا عليهم السلام أمام عبادتنا وذكرنا ودعائنا أنّا نعبد الله على نحو عبادتهم وبما عبدوه ونعرفه بما عرّفوه ونصفه بما وصفوه وندعوه سبحانه بأسمائه وصفاته ومعانيه، كما مثّلنا سابقاً ومعنى ذلك أنا مثلاً إذا قلنا (يا رحيم) فإنّا ندعو معبوداً وصف نفسه برحمةٍ حادثة خلقها واشتقّها من لطفه وهم عليهم السلام تلك الرحمة الحادثة ولا نريد بها الرحمة التي هي ذاته، لأن تلك لا عبارة لها ولا كيف لأنها هي هو بلا اعتبار تعدّد ولا كثرة ولا مغايرة فلا تقع عليه العبارة ولا تعيّنه الإشارة ولا تميّزه الصفات ولا تكتنفه الأوقات وإنّما الرحمة التي هي معنى من معاني أسمائه أحدثها وتعبّد بها خلقه قال تعالى (وَلله الأَسْماءُ الْحُسْنى) أي ملكه وخلقه (فَادْعُوهُ بِها) فتقول (يا رحيم يا كريم يا جواد يا غفور) وهكذا إلى سائر أسمائه وهي هم عليهم السلام.

ففي تفسير العياشي عنه عليه السلام قال (إِذَا نَزَلَتْ بِكُمْ شِدَّةٌ فَاسْتَعِينُوا بِنَا عَلَى الله وَهُوَ قَوْلُ الله وَلله الأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها قَالَ قَالَ أَبُو عَبْدِ الله عليه السلام نَحْنُ وَالله الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى الَّذِي لا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ إِلا بِمَعْرِفَتِنَا قَالَ فَادْعُوهُ بِها).

وفي التوحيد عن أبي عبدالله عليه السلام (قال الله غاية من غيّاه والمغيّا غير الغاية توحد بالربوبية ووصف نفسه بغير محدودية فالذاكر الله غير الله والله غير أسمائه وكل شيء وقع عليه اسم شيء سواه فهو مخلوق ألا ترى إلى قوله العزة لله تعالى العظمة لله وقال وَلله الأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بها وقال قُلِ ادْعُوا الله أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْماءُ الْحُسْنى فالأسماء مضافة إليه وهو التوحيد الخالص).

أقول: قوله عليه السلام فالأسماء مضافة إليه هو ما ذكرتُ، لك أي منسوبة إليه لأنها

ملكه وأسماؤه وخلقُهُ وقوله عليه السلام أوّلاً وكلّ شيء وقع عليه اسم شيء سواه فهو مخلوق هو ما ذكرنا سابقاً فإنّا ندعو معبوداً وصف نفسه برحمة حادثةٍ خلقها واشتقّها من لطفه واشتقّ هذا اللطف من رأفته واشتقّ هذه الرأفة من قدرته أي من اقتداره، وليس المراد من هذه القدرة عين ذاته فإنّ ذاته لا يشتَقّ منها شيء وليس المراد من قوله عليه السلام (سواه) في قوله عليه السلام وكل شيء وقع عليه اسم شيء سواه استثناء من الموقوع عليه اسم شيء ليكون المعنى أنه تعالى وقع عليه اسم شيء وما سواه وقع عليه اسم شيء إلاّ أنه مخلوق، بل المراد من سواه البيان للموقوع عليه والمعنى وكلّ شيء وقع عليه اسم شيء ممّا سواه فافهم.

لأنه تعالى لا يقع عليه شيء ولا يقع على شيء إذ ليس بينه وبين ما سواه نسبة وليس بين ما سواه وبينه نسبة إلاّ نسبة الاحتياج إلى صنعه ومدده وفيضه في كلِّ ما ينسب له فقولي في قوله تعالى (وَللهِ الأَسْماءُ الْحُسْنى) أنهم هم الأسماء الحسنى وقولي في قوله (فَادْعُوهُ بِها) فتقول يا رحيم يا كريم يا جواد يا غفور وهكذا الخ، أريد به أنهم عليهم السلام تلك الرحمة المحدثة التي هي ركن رحيم والكرم المحدَث الذي هو ركن كريم والجود المحدَثُ الذي هو ركن جواد والمغفرة المحدثة التي هي ركن الغفور وهذه الأسماء تقوّمت بهذه المعاني المحدثة، لأن هذه الأسماء أسماء أفعال الذاتِ العليّة وهي التي أمرنا أن ندعوه بها فكريم اسم فاعل الكرم فهو اسم فعل والكرم ركنه الذي تقوّم به وهم عليهم السلام ذلك الكرم الذي هو ركن اسم كريم ومتقوّم به وإنما كان كريم اسماً لتقومه بالكرم وكريم هو دليلنا على المعبود والمدعوّ سبحانه والمقصود بالعبادة وبالسؤال والدعاء هو مدلول كريم ومسمّاه على وجهٍ تضمحلّ فيه هذه الأسماء الدالّة والمطالب والطالبون عن الوجدانِ بلا

إشارة ولا كيف، وهكذا في جميع أسمائه سبحانه وإلى هذه الرتبة وهي رتبتهم في المعاني الإشارة بقولهم ﷻ حيث يقولون ﷻ (نحنُ معانيه) يعني معاني أفعاله لأنه تعالى لم يعرف إلاّ بما عرّف به نفسه ولم يتعرّف لأحدٍ من خلقه إلاّ بصفات أفعاله وصفات أفعاله آثارها الدالّة عليها، كما تدلّ آثار أفعال النار من الحرارة والإحراق على أفعالها وأفعالُهَا تدلّ بها تقومت به على نفس النار من جهة القصد إليها والمعرفة لها ولا نريد أن تلك الأسماء أي أسماء أفعالها كالـمحرق والمسخّن والمحرِّر بكسر الراء الأُولى تدلّ عليها أي على كنهها دلالة تكشِفُ عن حقيقتها، وإنما نريد أنها تدل عليها من جهة ما ظهرت به لنا من أفعالها أي تعرّفَتْ لنا به لأنّها لم تظهر لنا بذاتها وإنّما ظهرت بأفعالها فافهم.

فإنّ هذا آيةُ ما أشرنا إليه من معنى أنهم هم الأسماء الحسنى التي أمرنا أن ندعو الله بها مثل يا كريم يا رحيم كما مر وهو حقيقة معنى ومقدِّمُكم أمام طلبتي وحوائجي ...إلخ.

واعلم أنّ التوحيد الخالص له مراتب وليس وراء هذه المرتبة التي هي رتبة المعاني مرتبةً أعلى منها على ما وصل إليّ في أسرار أهل العصمة ﷻ إلاّ مرتبة المقامات وهذا فيما أعرف وأعتقد بالنسبة إلى ما دون العصمة.

وأما أهل العصمة ﷻ فلهم مراتب لا يصل إليها أحد سواهم بكل وجهٍ، فلا ندّعيها ولا نريدها باطلاقات عباراتنا لأنّا لا نعرفها نعم قد تصلح عباراتنا لها عند من يعرفها ويصل إليها ولهذا تراهم ﷻ يعبّرون بهذه العبارات الّتي نعِبّر نحنُ بها عن مقاصدنا.

أمّا أنا فآخذ من عباراتهم ﷻ إذا حضرتني إذا أمكنني الأداء بها عن مطلبي

والله سبحانه وليّ التوفيق، واعلم أنّي في كل موضع من هذا الشرح وغيره إذا اقتضى المقام ذكر هذا المعنى ذكرته وبيّنته كلّ ذلك لعلمّي بصعوبة معرفته وإنّ الأكثر لا يعرفون شيئاً من هذا وإنّما الناس يحومون حول القول بالغلوّ أو عدم معرفة مقام أهل البيت عليهم السلام من الله تعالى، فإذا نظرتَ في أكثر الخلق لم تكَدْ تجدُ إلاّ غالياً أوْ قالِياً فلهذا كثيراً ما أُكرّرُ ذِكرَهُ لعلّ الله سبحانه أن يُفَهِّمَ مَنْ ينظر في هذا الشرح طالباً للاعتقاد الحق ويهديه سواء السبيل وكأني بأقوام يقولون إنْ حَسَّنُوا القَوْلَ:

وكـل يدّعـــي وصـلاً بـِليْـلى
وليـلى لا تُــقـرُ لـهـم بذاكـــا

فأقول لهم:

إذا انبـــجست دموعٌ في خـــدودٍ
تبيّـن مـن بـــكى ممّـن تَبـاكا

وأقول لهم أيضاً:

فهَبْ أنّي أقول الصبـــح ليـــل
أيـعمى الناظرون عـــن الضياءِ

واعلم أنّ الأفهام والمعارف قسمَها عدل حكيم عليم بين خلقه كما قسم بينهم أرزاقهم وآجالَهُمْ وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ) الآية.

لكنّه سبحانه جعل المقسوم من جميع ذلك على قسمين قسم لا ينال إلاّ بالسعي والطلب من الجهة المجعولة لذلك، وقسم لا ينال بالسعي وإنما ينال بالعناية الإلهيّة وهو سبحانه أعلم حيث يضع إحسانه.

وأمّا القسم الأول فينال بالطلب وأقرب الطرق إلى تحصيله وأصحها وأنجحها إصلاح النية والعمل والصدق مع الله في جميع المواطن وبنسبة ما تحسن تدرك.

وأمّا القسم الثاني (وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ).

وقوله عليه السلام (وحوائجي وإرادتي في كل أحوالي وأموري) يريد به أني مقدّمكم على النحو الذي ذكرنا أي بكلّ تقديم من استشفاع وتوجه واستهداءٍ وانتهاءً إليكم في كل نحو من أنحاء وُجوداتي وَوِجْدَانَاتي في حوائجي وإرادتي بمعنى أني أطلبها بكم من الله سبحانه أو منكم بالله أي بالله تفعلون وبأمره تعملون أو عنكم أي أتوصّل إلى إدراكها عنكم أي أنتم بالله توصلونني إلى نيلها أوْ لكم، لأنّي لكم لأن أعمال شيعتهم زيادة في جاههم كما تحصل زيادة الثواب في الصلاة باللباس الأبيض وبالطيب فإن الزيادة عرضيّة قال صلى الله عليه وآله (تناكحوا تناسلوا فأنّي مباهٍ بكم الأمم الماضية والقرون السالفة يوم القيامة ولو بالسقط) الحديث.

وقوله عليه السلام (أَعِينُونَا بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ) الحديث.

وهذا كلّه في جميع ما أُرِيدُ ويُرَادُ منّي مما يتعلّق بالأركان واللسان من جميع الأعمال للدنيا والدين من جميع حوائجي ومما يتعلّق بالجنان من جميع الاعتقادات والمعارف والعلوم للدنيا والدّين من جميع إرادتي وهو قوله عليه السلام (في كلّ أحوالي وأموري) لأنه عليه السلام جمع فيه كلّما أشرنا إلى تفصيله.

قال عليه السلام مؤمن بسرّكم وعلانيتكم وشاهدكم وغائبكم وأوّلكم وآخركم

قال الشارح المجلسي تغمّده الله برحمته مؤمن بسرّكم وعلانيتكم أي

باعتقاداتكم وأعمالكم أنّها لله حقاً أو بأسراركم مجملاً وشاهدكم من الأئمة الأحد عشر وغائبكم من المهدي عليه السلام وأوّلكم أنه علي بن أبي طالب عليه السلام وآخركم بأنه المهدي عليه السلام لا كما تقوله العامّة والواقفية وغيرهما أو الحياة الأولى والرجعة انتهى.

أقول قد تقدّم معنى الإيمان وأنّه اعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وقول باللسان ويصدُقُ على أحدِهَا كما هو المتعارف في اصطلاح المتكلّمين أنّه التصديق بالله وبالرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبجميع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مما علم ضرورة مجيّه صلى الله عليه وآله وسلم به وعلى الأوّل كافّة المعتزلة وجماعة من الإماميّة وأكثر المتقدّمين منّا والأخبار منصبّة عليه ومبنى كلامِنا في هذا الشرح عليه سواء قيل بأن ذلك هو الإيمان أو الكامل منه والسرّ قال في النهاية في صوموا الشهر وسِرَّه أي أوّلَهُ وقيل مستهَلَّه وقيل وسطه ومن كل شيء جوفه فكأنه أراد الأيام البيض.

وفي مجمع البحرين والسرّ الذي يكتم ومنه هذا من سر آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أي من مكتوم آل محمد ص الذي لا يظهر لكلّ أحدٍ قال بعض شرّاح الحديث اعلم أنّ سر آل محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم صعبٌ مستصعبٌ ، فمنه ما تعلمه الملائكة والنبيّون وهو ما وصل إليهم بالوحي ومنه ما يعلمه هم عليهم السلام ولم يجر على لسان مخلوقٍ غيرِهِمْ وهو ما وصل إليهم بغير واسطةٍ وهو السرّ الذي ظهرت به آثار الربوبيّة عنهم فارتاب لذلكَ المبطلون وفاز العارفون فكفر به فيهم من أنكر وفرَّط وغلا فيهم من تجاوز وأفرط وفاز من أبصر وتبع النَّمطَ الأوسط انتهى.

فعلى معنى كلام النهاية يكون المعنى أنّي مؤمن بأوّلكم أي أول كونكم وعلى هذا لا يراد مطلق السرّ لأنه قد يطلق ويراد به ما يقابل العلانية ويصدق على كلّ مرتبةٍ لهم من المقامات والمعاني والأبواب وكذلك مرتبة الأشباح، فإذا فسرّنا السرّ

بالأوّل لم نعرف لهم أوّلاً أعلى من المقامات التي أشار إليها الحجّة عليه السلام في دعاء كل يوم من شهر رجب في قوله (فجعلتَهُم معادنَ لكلماتك وأركاناً لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكانٍ يعرفُكَ بها من عرفك لا فرقَ بينكَ وبينها إلاّ أنهم عبادُك وخلقُك فتقها ورتقها بيدِك بدؤُهَا منكَ وعودها إليكَ أعضاد وأشهاد ومُناة وأذوادٌ وحفظةٌ ورُوّاد فبهمْ مَلأْتَ سماءك وأرضك حتى ظهر ألاّ إله إلاّ أنت) الدعاء.

فقوله عليه السلام (ومقاماتك) يراد منه أوّل كونهم في الوجود الراجح المعبّر عنه بالوجود المطلق وبرزخ البرازخ وهذا هو السرّ المقنّع بالسرّ في قول الصادق عليه السلام: على ما رواه في البصائر قال عليه السلام (إنّ أمرنا هو الحق وحق الحق وهو الظاهر وباطن الظاهر وباطن الباطن وهو السرّ وسرّ السّرّ وسرّ المستسر وسرّ مقنعّ بالسرّ) هـ.

وقد تقدّم ومعنى كونه مقنعّ بالسرّ ما قلنا إنّ السرّ يُرَاد منه في الإطلاق ما يقابل العلانية فيكون المرتبة العليا منه التي هي المقامات مقنّعةً بالسرّ الذي هو مرتبة المعاني لهم عليهم السلام وهي مقنّعة بالسرّ الذي هو مرتبة الأبواب لهم كل عليهم السلام وهي مقنعة بالسر الذي هو مرتبة الأشباح لهم عليهم السلام والأظلّة المعلّقة بالعرش أي الصافّون الحافّون حول العرش المسبّحون .

وعن الصادق عليه السلام (كنا أنواراً صفوفاً حول العرش نسبّح فيسبح أهل السماء بتسبيحنا إلى أن هبطنا إلى الأرض فسبّحنا فسّح أهل الأرض بتسبيحنا وإنّا لنحن الصافّون وإنا لنحن المسبحون) الحديث.

وإنّما حفّت الملائكة بعرش ربّهم ائتماماً عليهم السلام حيث رأوهم قد حفّوا بعرش ربّهم وصفّت كما صفّوا وسبّحت كما سبّحوا وهذه المقامات المشار إليها المذكورة

في الدعاء هي الصفة المنسوب إليها جميع أحكام الأفاعيل والموجودات وإليها تنتهي جميع الآثار والمكوّنات والفيوضات وهي اسم للفاعل الذي أبدع بها كلّ شيء وتعرّف بها لكل شيء والفاعل هو المسمّى بها سمّى نفسَهُ بها حين أحدث بها مَنْ أحدث لمن أحدث ليدعوه بها وبتلك الصفة التي هي المقامات التي هي اسم الفاعل ظهر الفاعل للخلق بهم، لأن الفاعل ظهر باسمه لكلّ مبتدع به ولذلك قال عليه السلام في الدعاء (لا فرق بينك وبينها) أي في جميع الفيوضات والصدورات والآثار والوجوداتِ إذْ بها فَعَلَ ما فعل وعنها أظهر ما أظهر كما قال أمير المؤمنين صلوات الله عليه (وألقى في هويّتها مثاله فأظهر عنها أفعاله) والمراد بالمثال هنا اسمه كقائم اسم فاعل القيام فإنه في القيام كالصورة في المرآة وفي الظاهر جعل طاعتهم طاعته ومعصيتهم معصيته ورضاهم رضاه وسخطهم سخطه وقوله عليه السلام (إلاّ أنهم عبادُك وخلقك) يعني أنّ تلك الصفة التي هي المقامات واسم الفاعل الذي أحدث ما أحدث وتعرّف لمن تعرّف خلقه وصنعه يعني أحدثه بنفسه وأقامه بنفسه وصنع به ما صنع فهو سبحانه هو الفاعل وحده لا شريك له وهو بحكمته يفعل ما يشاء بما يشاء كما يشاء لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم كما زرع سبحانه الحنطة بزيد الحارث من بذرها بالماء والأرض في الفصل الصالح للزرع وهو سبحانه يقول (أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ) وفي قرب الإسناد للحميري بإسناده عن أبي الحسن الرضا عليه السلام إلى أن قال عليه السلام قال أبو جعفر عليه السلام في النطفة قال(فإذا تمّت الأربعة الأشهر بعث الله تبارك وتعالى إليها ملكَيْن خلاّقَيْنِ يصوّرانه ويكتبان رزقه وأجله وشقياً وسعيداً) الحديث.

وفي الكافي في صحيح زرارة عن أبي جعفر عليه السلام إلى أن قال (ثم يبعث الله

ملكَيْنْ خلاّقَيْنْ يخلقان في الأرحام ما يشاء الله يقتحمان في بطن المرأة من فم المرأة فيصلان إلى الرحم وفيها الروح القديمة المنقولة في أصلاب الرجال وأرحام النساء فينفخان فيها روح الحياة والبقاء ويشقّان له السمع والبصر وجميع الجوارح وجميع ما في البطن بإذن الله تعالى ثم أوحى الله إلى الملكَيْنْ اكتبا عليه قضائي وقدري ونافذ أمري واشترطا لي البداء فيقولان يا ربّ ما نكتب قال فيوحي الله عز وجلّ إليهما أن ارفعا رؤوسكما إلى رأس أمّه فيرفعان رؤوسهما فإذا اللوح يقرع جبهة أمّه فينظرانِ فيه فيجدانِ في اللوح صورته وزينته وأجله وميثاقه شقيّاً أو سعيداً وجميع شأنه قال فيملى أحدهما على صاحبه فيكتبان جميع ما في اللوح ويشترطان البداء فيما يكتبان ثم يختمان الكتاب ويجعلانه بين عينيه ثم يقيمانه قائماً في بطن أمّه قال فربّما عتَا فانقلب ولا يكون ذلك إلاّ في كل عات أو مارد)الحديث.

وغير ذلك من الأخبار الدالّة على أنه سبحانه يخلق ما يشاء بما يشاء كيف يشاء وإذا اشتبه عليك ما أشرنا إليه فانظر إلى ما في هذا العالم من الأشياء التي يعلمها العامِلون والله سبحانه هو الفاعل لها كما مثّلنا لك بالزّرع واعلم أن كلّ ما هنا فهو آية ما هنالك ودليله أما تسمع قول الله سبحانه (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ).

وقول الرضا عليه السلام (قد علم أولو الألباب أنّ الاستدلال على ما هناك لا يُعْلم إلاّ بما هاهُنا) هـ.

ولولا خوف الإطالة لشرحتُ كلمات هذا الدعاء الشريف وإن مدّ الله ومكّن لشرحتُ الدعاء كلّه وبيّنتُ ما فيه من الأسرار التي لا يحتملها إلاّ ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبه للإيمان وإياك أن تنسب إليهم عليهم السلام أو

إلى أحدٍ من الخلق من ملك أو نبي أو غيرهما شيئاً من أفعاله تعالى بعدما بيّن لك سبحانه فقال تعالى(أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ) وقال (قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) كما أنّك لا تقول إنّ الأرض والماء هما اللذان يزرعان الزرع وإنّما المعنى أنه سبحانه ما أمرك بأمرٍ ولا نهاك عن شيء من جميع ما كلّفك به إلاّ على لسان محمدٍ وآله ﷺ وقد أخبروك وأنت تعلم أنه سبحانه هو الآمر وهو الناهي وحده لا شريك له في شيء من ذلك، وإن كانوا هم الحاملين لأمره ونهيه والمُبَلِّغين عنه (لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) فكذلك في جميع ما تسمع مما ننسب إليهم من أفعاله هو الفاعل على أيدي من يشاء من خلقه من الأنبياء والملائكة والحيوانات والنباتات والطبائع والعناصر فمن شاء من خلقه جعلهم تراجمة لفعله لمن شاء من خلقه وذلك حكمه وقضاؤُه في صنعه وفي وحيه وأمره ونهيه على حد سواء فافهم ولا تتوهّم غير هذا فتكون من الكافرين والله يحفظك في هذه الغمرات.

والحاصل السرّ الأوّل الاسم الذي استقر في ظلّ الله أي في نفس ذلك الاسم فلا يخرج (منه) إلى (غيره) والضمير في منه وغيره ويعود إلى الله تعالى بمعنى أنّ الله سبحانه خلقه له فلا يكون لغيره كما ذكرنا سابقاً مراراً كثيرة، وهذا أحد معاني جَعْلِ الضميرين يعودانِ إلى الظلّ الذي هو ذلك الاسم نفسه أو معنى جَعْلِ الضميرين يعودانِ إلى الظل أحد معاني أنّه خلقه له وحده لا شريك له فإذا قال المعصوم عليه السلام وخصيص شيعته مؤمن بسرّكم جاز أن يريد هذا السرّ، وأمّا مَن سواهم وسوى خصيص شيعتهم فلا يمكن أن يريدَهُ وإن سمع وصفه وسلّم فإنه لا يمكن أن يريده لأنه لو كشف له ما يراد منه أنكره فكيف يمكن أن

يؤمن به أو يكون تسليمه إيماناً به.

أما سمعت قول الصادق عليه السلام (في حق أنصار القائم عليه السلام الثلاثمائة والثلاثة عشر الّذين اختارهم الله من أهل الأرض لنصرته وهم أصحاب الألوية وحُكّام اللهِ في أرضه على خلقِه وذلك لمّا دعاهم أوّل ما يخرج ليلة عاشوراء وهم في مشرق الأرض، ومغربها أجابوه فأتوه كلمح البصر منهم من تنطوي له الأرض ومنهم من تحمله السحاب فلما اجتمعوا حوله قال عليه السلام يستخرج من قبائه كتاباً مختوماً بخاتم من ذهب عهد معهود من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيجفلون عنه إجفال الغنم فلم يبق منهم إلاّ الوزير واحد عشر نقيباً كما بقوا مع موسى بن عمران عليه السلام فيجولون في الأرض فلا يجدون عنه مذهباً فيرجعون إليه فو اللهِ إنّي لأعرف الكلام الذي يقوله لهم فيكفرون به) هـ.

انظر كيف كفروا بذلك المقام الذي ظهر به لهم وهم من عرفتَ فكيف يحتمله إلاّ أهله كالوزير عيسى ابن مريم عليه السلام واحد عشر نقيباً الذين امتحن الله قلوبهم للإيمان وعند من عرف هذا السر الذي هو سرّ مقنّع بالسرّ إذا كمل إيمانه به نوع من الإيمان به لو علم أبو ذرّ ما في قلب سلمان لقتله أو لكفّره وهو تأويل قوله تعالى (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَن يُؤْمِنُوا بِالله الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ).

وهذا جوهر علم لو أبوح به لقيل لي أنت ممّن يعبد الوثَنَا

ولاستحلّ رجال مسلمون دمي

يـرون أقبح ما يأتُــونَهُ حَسَنَــا

والحاصل الإيمان بهذا السرّ لا يكون إلاّ بالاعتقاد بالجنان والعمل بالأركان والقول باللسان ولو تكلّفنا أن نستعمل الإيمان الذي هو التصديق كما تقدم ذكره

في هذا السّرّ الخاص فارق المعرفة واليقين والعلم وفارق الإيمان الحق الذي هو شرط الشفاعة وعبارة مجمع البحرين التي نقلها ابن طريح رحمه الله عن بعض شُرّاح حديث أن سرّ آل محمد صعب مستصعب وهو قوله (ومنه ما يعلمه هم ولم يجر على لسان مخلوقٍ غيرهِم وهو ما وصل إليهم بغير واسطةٍ وهو السرّ الذي ظهرت به آثار الربوبيّة عنهم فارتاب لذلك المبطلون وفاز العارفون فكفر به فيهم من أنكر وفرّط) إلى آخر ما تقدّم تصلح لهذا السر الذي نعنيه ولا نعلم ما في ضمير صاحبها فلعلّه عرف ولعلّه ما عرف وإنما هو كما قال الشاعر:

قد يُطْرِبُ القمريُّ أسماعنا
ونحن لا نفهمُ ألْحانَهُ

هذا إذا أريد به السرّ الأول وإن أريد به الوسط والجوف فكذلك لأنا لا نريد بالوسط والجوف إلاّ الأوّل في البَدْء ولا نريد بالأوّل إلاّ الوسط والجوف الذي هو قلب الشي ولُبُّهُ وإن أريد به ما يقابل العلانية كما مثّلنا به بأنه كونهم معانيه وأبوابَهُ وعبادَه المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون فالإيمان الكامل على نحو ما مرّ.

وأمّا هذا السرّ فقد قلنا أوّلاً أنه كونهم معانيه سبحانه أي معاني أسمائه وأفعاله كما تقدّم وكونهم أبوابه تعالى التي منها يؤتي ومنها يمنع ويعطي ويفقر ويغني ويُضحِك ويُبكي ويقبض ويبسط ويميت ويحيي ويأمر وينهي إلى غير ذلك من أفاعيله وكونهم أشباحاً وهي أبدانٌ نُورانيّة لا أرْوَاحَ فيها، كما رُوِي عنهم عليهم السلام والشّبَح ظلّ النّور وقد مضى تفسير هذه والكلام في الإيمان بهذه الأسرار كما مرّ وأنّ الإيمان الحقيقي لا يتحقّق من غير أهل العصمة عليهم السلام وشيعتهم الخصيصين كما مرّ.

وأمّا الخاصون من شيعتهم فمنهم من قد يتمكّن من الإيمان ببعضٍ من مراتب بعض هذه الأسرار وأكثرهم لا يتمكّنون من ذلك.

وأمّا الخصيصون فربّما عرفوا تلك الأسرار مجملةً ولكن الإشكال في الإتيان بالإيمان الكامل بها وأما أكثر المقصّرين في ذلك أو بعضه لأنّ الإيمان بالقلب وبالجوارح وباللّسَان بأن يصرفها فيما خلقت له أمرٌ صعب قد عثر في مواضع من ذلك كثير من الأنبياء عليهم السلام مع عصمتهم حتى أنه ورد عن أهل البيت عليهم السلام ما معناه أنّ على الصّراط لعقباتٍ كؤُداً لا يقطعها بسهولةٍ إلاّ محمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم.

وأمّا إذا اقتصرنا على ما تعرفه العوام أو على ما يظهر من الكلام صدق لغة على المصَدِّق بمفهوم لفظ السّرّ لا كما ذكره الشارح تغمّده الله برحمته في تفسيره السرّ بالاعتقاد قال مؤمن بسرّكم وعلانيتكم أي باعتقاداتكم وأعمالكم أنّها لله حقّاً ففسّر السرّ بالاعتقادات والعلانية بالأعمال يعني أني معتقد أنّ اعتقاداتكم حقّة وأعمالكم صحيحة، وأنت إذا عرفتَ أخبارهم ظهر لك أنّ هذا المفهوم لا يكون مصداقاً للسّرّ لأن المفهوم إن كان هو المصداق في نفس الأمر كان حقّاً وإلاّ فهو إما دليل المصداق وآيته أوْ هو موهوم ولا يكون دليلاً وآيةً فهو موهوم بل يعتقد أنّ عندهم علوماً واعتقاداتٍ صحيحة مطابقة لما عند الله وفي نفس الأمرِ لا يعرفها غيرهم ولا يطّلع عليها أحد سواهم وإنّ الله سبحانه أظهر عليهم من آثار الربوبيّة كالاطّلاع على الضمائر وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك أسراراً لم يظهرها على غيرهم فيصدّق بهذه وأمثالِها مجملةً فيصدق مفهوم السرّ على ذلك ظاهراً وينال حظّه من ثواب ذلك الإيمان بنسبته.

وقوله عليه السلام (وعلانيتكم) يراد منه ظاهرهم عليهم السلام وهو كونهم أئمة هدىً

مفترضي الطاعة وخلفاء الله في أرضه وحججه على عباده وأُمنائهُ في بلاده وهو قول علي عليه السلام ظاهري إمامة وباطني غيبٌ لا يدرك ولوازم هذه العلانية ما ذكرناه سابقاً من وجوب الردّ إليهم والأخذ عنهم ووجوب متابعتهم والتسليم لهم في كل ما يرد عنهم وهذه العلانية هي ظاهر الإمامة والولاية والخلافة أي أنّي عاهدتُ الله حين قال لي (أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ) بقولي بلى على الإيمان بظاهرِكم وباطنِكم بالإيمان الذي ذكرناه.

وقوله عليه السلام (وشاهدكم وغائبكم) أي مؤمن بشاهدكم أي الأئمة الأحد عشر وغائبكم الحجّة عليه السلام أو شاهدكم أي الناطق منكم يعني قطب الوقت ومحلّ نظر الله من العالم المسمّى بالغوث على اصطلاح أهل التصوف ويسمّيه أفلاطون مدبّر العالم وأرسطو إنسان المدينة وهو الفارِقْليطا أي مظهر الولاية أو الموجود المقابل لمن مضى ولمن يأتي أو الحاضر أو الشاهد على المكلفين أو لأعمالهم أو العالم بالشهادة أو المدبر إلى الخلق أو بالملَكِ المُحدِّثِ المُدَبِّرِ لهم أو عنهم على الاحتمالَيْن أو القائم على كلّ نفسٍ بما كسبت إلى غير ذلك.

وغائبكم أي الإمام الصّامت ولا بُدّ لكلّ زمانٍ من ناطق وصامت والصّامت موقوف على الإذن من الناطق، فغيبوبته بغيبوبة الأذن فهو ناطق بالناطق وحاضر شاهدٌ به أي بإذْنِ الناطق ويتوقف الإذن على وجود الناطق إلاّ في الحسن والحسين عليهما السلام فإنّ الحسين عليه السلام ناطق مع وجود الحسن عليه السلام وإنّما هو صامت مع حضوره ومشاهدته فيتوقّف الأذن على حضوره خاصة في حق الحسين عليه السلام أو الغائب غير الموجود ممن مضى منهم عليهم السلام وممّن سيأْتي أوْ مَن غاب عن مشاهدة المؤمن به أوْ مَن هو في حال المراقبة منهم، فإنه حينئذٍ غائب عن الخلق كلهم وعن

نفسه فلا يكون حينئذٍ شاهداً على أحدٍ من المكلّفين ولا مشاهداً لأعمالهم ولا عالماً بالشهادة بل ولا الغيب من الخلق أو المراد بالغائب المدبر إلى الخلق أو عنهم على الاحتمالين على حكم العكس في الشاهد المقبل أو غير القائم على كل نفسٍ بما كسبت، وذلك إذا تجلّى لهم بلا واسطة وفي إكمال الدين وإتمام النعمة سئل الصادق عَليهم السلام عن (الغشية التي كانت تأخذ النبي ﷺ أكانت تكون عند هبوط جبرئيل عليه السلام فقال لا إن جبرئيل كان إذا أتى النبي ﷺ لم يدخل عليه حتى يستأذنه وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد وإنما ذلك عند مخاطبة الله عز وجل إياه بغير ترجمان وواسطة) هـ.

أخبر عليه السلام أن تلك الغشية إنما تكون لمحمد ﷺ عند مخاطبة الله إيّاه بغير ترجمان ولا واسطة وإنّما الترجمان له نفسه يترجم الوحي حين إلقائه عليه لَهُ به.

وقوله عليه السلام (وأوّلكم وآخركم) يراد منه أنّي مؤمن بأوّلكم الذي هو سرّكم كما مرّ وآخركم الّذي هو علانيتكم التي هي ظاهركم في الأكوان الوجوديّة وفي التكوينات الشرعيّة أوْ أوّلكم علي بن أبي طالب عليه السلام قال تعالى (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ) أي وضع بمكة وهو موضع البيت الظاهر شرّفه الله ووضع فيه البيت الباطن عليه السلام أو رسول الله صلى الله عليه و آله وعنهم عليهم السلام أوّلنا محمّد وأوسطُنا محمّد وآخرنا محمد أو القائم عليه السلام، لأنه أوّل من يظهر منهم ويقوم بالحق أو الحسين عليه السلام لأنه أوّل من يرجع وينشق التراب عن رأسه وآخركم القائم عليه السلام أو الحسن العسكري عليه السلام إذا جعَلْنَا القائم عليه السلام أفضل التسعة أو فاطمة عليها السلام لأنّها على قولٍ آخرهم في الرتبة والفضل وهو الذي يظهر لي أو علي بن أبي طالب عليه السلام لأنّه آخر

من يرجع في كرّته الأخيرة أو رسول الله ﷺ لأنّه آخر من ينزل من السماء في الرجعة، أو المراد أوّلكم في الدنيا أي يومكم الأوّل في الدنيا وآخركم في الرجعة أي يومكم الآخر أوْ أوّلكم عليّ بن أبي طالب عليه السلام لأنّه أوّل من آمن بالله ورسوله ﷺ وآخركم عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام لأنّه آخِر من فارق رسول الله ﷺ عند موته أوْ أوّلكم علي عليه السلام لأنه القائد وآخركم هو لأنه هو السائق أوْ أوّلكم أي أوّليّتكم في كلّ خير وآخركم أي أخريّتكم كذلك أوْ أوّلكم أي بكم فتح الله وآخركم أي بكم يختم أوْ أوّلكم أي أول مَن وُجد وآخركم أي آخر من يبقى أوْ أولكم أي النشأة الأولى وآخركم أي النشأة الأخرى أوْ على معنى لكم الأولى ولكم الأخرى إلى غير ذلك.

قال عليه السلام ومفوِّض في ذلك كله إليكم ومسلِّم فيه معكم

قال الشارح المجلسي رحمه الله ومفوِّض في ذلك كله إليكم أي أعتقد الجميع من قولكم أوْ أسلّم جميع أموري إليكم حتّى تصلحوا خللَها حيّاً وميتاً ومسلِّم فيه معكم أي كما سلّمتم لله تعالى أوامره عارفين إيّاها فأنا أيضاً مسلِّم وإن لم يصل عقلي إليها أوْ كالسابق تأكيداً ، انتهى.

وقال السيد نعمت الله الجزائري في شرح التهذيب ومفوّض في ذلك كله إليكم يعني أن ما طلبتُ منكم من الشفاعة واللجاء إليكم مفوّضة إليكم إن شئتم فافعلوه أوْ أني مفوّض أموري إليكم بسبب ذلك التصديق لتصلِحُوها ومسلِّم فيه معكم مسلّم بالتشديد أي مفوّض أموري إلى الله تعالى مع أموركم التي سلّمتموها إليه انتهى.

أقول: قال في النهاية في الدعاء فوّضتُ أمري إليك أي رددتُه يقال فوّض الأمر إليه تفويضاً إذا ردّه إليه وجعله الحاكم فيه انتهى.

أقول: معنى التفويض في اللغة كما سمعتَ وعلى هذا يكون المعنى انتهاء بعد التّصديق أو مبالغةً فيه أو تفريعاً عليه أنّي في استشفاعي إلى الله عز وجلّ بكم وتقرّبي بكم إليه وتقديمي لكم أمام طلبتي وحوائجي وإراداتي في كلّ أحوالي وأموري، وكذا في ما ذكر قبل ذلك مفوّض ورادّ في ذلك كلّه إليكم أي أني رضيتُ بكم حاكمين في كلّ أحوالي وأموري وبحكمكم في جميع ذلك كلّه لأنّي مؤمن بسرّكم وعلانيتكم وشاهدكم وغائبكم وأوّلكم وآخركم أو أني بسبب إيماني هذا أوْ أنّ مقتضى إيماني هذا واستقامتي عليه لا أشكّ ولا أرتاب في تفويض جميع أموري وجميع أحوالي مما قضى لي وعليّ، وممّا يراد مني ومما خُلِقْتُ له إليكم مسلِّم جميع ذلك إليكم ولكم تسليماً.

واعلم أنّ التفويض عرفاً له معنيان.

أحدُهما القول بنسبة الأفعال أو بعضها ولو فعلاً واحداً إلى أحدٍ من الخلق على جهة الاستقلال والمفوّضة من قال بذلك أوْ من يؤول قوله إلى ذلك سواء المنسوب إلى فعل العبد على الاستقلال من الذوات أو الصفات أو الأفعال فمنهم من قال إنّ الله تعالى خلق محمّداً ﷺ وفوّض إليه خلق الدنيا فهو الخلاّق لما فيها.

وقال بعضهم فوّض ذلك إلى علي عليه السلام ومنهم المخمِّسة قالوا إن الله فوّض الأمر إلى سلمان وأبي ذر والمقداد وعمار وعمرو بن أُميّة الضمري فهم المدّبرون للدنيا.

وممّن قال بالتفويض المعتزلة قالوا إن الله فوّضَ أفعال العباد إليهم وفي مجمع البحرين (ومن القدريّة المعتزلة لأنهم شهروا أنفسهم بإنكار ركن عظيم من الدين وهو كونُ الحوادث بقدرة الله تعالى وقضائه وزعموا أنّ العبد قبل أن يقع منه الفعل مستطيع تامّ يعني لا يتوقف فعله على تجدّد فعل من أفعاله تعالى وهذا معنى التفويض يعني أن الله تعالى فوّض إليهم أفعالهم) انتهى.

وقال في قدر وفي الحديث (ذكر القدريّة وهم المنسوبون إلى القدر يزعمون أنّ كل عبدٍ خالقٌ فعلَهُ ولا يرون المعاصي والكفر بتقدير الله ومشيّته فنُسِبوا إلى القدر لأنه بدعتهم وضلالهم وفي شرح المواقف قيل القدريّة هم المعتزلة لإسنادِ أفعالهم إلى قدرتهم وفي الحديث لا يدخل الجنّة قدري وهو الذي يقول لا يكون ما شاء الله ويكون ما شاء إبليس) انتهى.

وقال الشيخ محمد بن أبي جمهور الاحسائي في كتابه كشف البراهين في شرح زاد المسافرين للعلاّمة أدام الله إكرامه ومذهب المعتزلة يسمّى بالتفويض بمعنى أن العبد مفوّض في أفعاله مختارٌ فيها وأن الله تعالى فوضه في اختيار الطاعة والمعصية وجعل زمام الاختيار بيده، وقالت الأشاعرة مذهب المعتزلة يسمّى بالقدر لأنّهم يقولون إنّ فعل العبد مستند إلى قدرته وجعلوا للعبد قدرة فهم القدريّة وهو غلط لأن القدرية هم الذين يقولون إن أفعال العبد بتقدير الله وقضائه وهم الأشاعرة لا المعتزلة ولهذا أنه روي عن النبي ﷺ أن قائلاً قال له إنّ قوماً من الذين يرتكبون القبائح والمعاصي ويقولون ذلك بتقدير الله عز وجلّ فقال عليه السلام القدريّة مجوس هذه الأمّة فشابه بين القدريّة وبين المجوس من وجوهٍ ثلاثة.

الأول: أن المجوس اعتقدوا اعتقادات سخيفة وقالوا بمقالات فاسدة لزمهم منها محالات كثيرة والقدريّة كذلك.

الثاني: أن المجوس نكحوا أمّهاتهم وبناتهم وإخواتهم ونسبوا ذلك إلى أنه في شرعهم منزّل من الله تعالى فنسبوا إليه ما ليس من فعله والقدريّة نسبوا أفعالهم القبيحة إلى الله تعالى فشابهوهم.

الثالث: أن اعتقاد المجوس مثل اعتقاد القدريّة في نسبة الأفعال القبيحة إلى آلة الشر والأفعال الحسنة إلى آلةِ الخير وأنه لا فعل لهم كذلك القدريّة فشابهوهم انتهى.

أقول: أمّا المفوّضة فمعلوم أنهم المعتزلة ومن قال بمثل مقالتهم وأمّا الجبريّة فمعلوم أنهم الأشاعرة وأما القدرية فقد يطلق هذا اللفظ في الأخبار على المفوّضة مرة وعلى الأشاعرة أخرى إلاّ أنّ أكثر الاطلاقات يراد منه المفوضة كما قال عليه السلام (لا جَبْرَ وَلا قَدَرَ وَلَكِنْ مَنْزِلَةٌ بَيْنَهُمَا) الحديث.

وعنهما عليهما السلام فسئلا عليهما السلام (هَلْ بَيْنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ مَنْزِلَةٌ ثَالِثَةٌ قَالا نَعَمْ أَوْسَعُ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) هـ.

أمّا على معنى نسبتهم أفعالهم إلى قدرتهم على الاستقلال أو على معنى تركهم القدر سمّوا بالقدريّة كما قال أبو المظّفر من علماء العامّة ما معناه إنّ العرب ربّما يسمّون الشيء بخلاف ما عرف به كما سمّوا الغُرَاب أعور لشدّة إبصاره وقوّته، وكان رجل في الْعَرب لا يحبّ الخبز فسمّوه آكِلَ الخُبْز وسمّوا القدريّة بهذا لتركهم القول بالقدرِ ونخاف إنّما لسُمّينَا السُّنّة لتركِنا السُّنَّة انتهى معنى كلامه.

وهذا متعارف ويجوز الإطلاق على المجبرة لقولهم بالقدر لكن الأكثر في الإطلاق على المفوِّضةَ والأحاديث دالّة على أن القول بالتفويض كفر وشرك لأنّهم إذا أسندوا فعل إلى شيء على الاستقلال فقد جعلوُه شريكاً لله في سلطانه

وإثبات الشريك إنكار وجحود للواجب الحق تعالى لأن التشريك إنما يكون بين الحوادث متشابهة وفي التوحيد عن الصادق عليه السلام قال (إن الناس في القدر على ثلاثة أوجه رجل يزعم أن الله عز وجل أجبر الناس على المعاصي فهذا قد ظلم الله في حكمه فهو كافر ورجل يزعم أن الأمر مفوض إليهم فهذا قد أوهن الله في سلطانه فهو كافر ورجل يزعم أن الله كلف العباد ما يطيقون ولم يكلفهم ما لا يطيقون وإذا أحسن حمد الله وإذا أساء استغفر الله فهذا مسلم بالغ) هـ.

فجعل حكم المجبر والمفوض واحدا وقال عليه السلام (من قال بالتشبيه والجبر فهو كافر مشرك) فيحكم على المفوض بالشرك كالمجبر بالطريق الأولى .

وفي عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام إلى أن قال عليه السلام (والقائل بالجبر كافر والقائل بالتفويض مشرك) والحاصل المآل واحد.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال (إن أرواح القدرية يعرضون على النار غدوا وعشيا حتى تقوم الساعة فإذا قامت الساعة عذبوا مع أهل النار بألوان العذاب فيقولون يا ربنا عذبتنا خاصة وتعذبنا عامة فيرد عليهم (ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) عن أبي عبد الله عليه السلام قال (ما أنزل الله هذه الآيات إلا في القدرية) (إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ).

أقول: والآيات ظاهرة في أن القدرية هم المفوضة لأن المجبرة من أقوى أدلتهم عندهم بأن كل شيء مخلوق لله وحده بقدره وقضائه والآية يتوهم منها كل من لم يقتد بمحمد وأهل بيته صلى الله عليه وأهل بيته أنها صريحة في مطلوب المجبرة وأما من اقتدى بهداهم عليهم السلام عرف أنها رد على المفوضة ومن سلك مسلكهم

خاصة ،وقول صاحب مجمع البحرين المتقدم في القدرية المعتزلة وزعموا أن العبد قبل أن يقع منه الفعل مستطيع تام يعني لا يتوقف فعله على تجدد فعل من أفعاله تعالى غير منقح ولا يمكن تقرير الحال وتبيينه إلا ببيان حقيقة المسألة وهي المنزلة بين المنزلتين ولسنا بصددها ولكن الأمر أن التكليف لا يتوجه إلا إلى من كان مستطيعا للفعل على الوجه المأمور به لكن الاستطاعة قسمان .

الاستطاعة الإمكانية وهي شرط صحة توجه الخطاب إليه بالتكليف وهي كما قال الرضا عليه السلام في الكافي حين سأله علي بن أسباط عن الاستطاعة فقال (يَسْتَطِيعُ الْعَبْدُ بَعْدَ أَرْبَعِ خِصَالٍ أَنْ يَكُونَ مُخَلَّى السَّرْبِ صَحِيحَ الْجِسْمِ سَلِيمَ الْجَوَارِحِ لَهُ سَبَبٌ وَارِدٌ مِنَ اللهِ).

أقول: هذا السبب الوارد منه تعالى هو القدر في فعل العبد وهو مدد الطاعة بالمعونة والنور الذي هو مادتها وايجادها من تلك المادة ومن صورة فعل العبد، ومدد المعصية بالتخلية والخذلان الذي هو مادة المعصية وإيجادها من هذه المادة ومن صورة فعل العبد، قال يعني علي بن أسباط (جُعِلْتُ فِدَاكَ فَسِّرْ لِي هَذَا قَالَ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُخَلَّى السَّرْبِ صَحِيحَ الْجِسْمِ سَلِيمَ الْجَوَارِحِ يُرِيدُ أَنْ يَزْنِيَ فَلَا يَجِدُ امْرَأَةً ثُمَّ يَجِدُهَا فَإِمَّا أَنْ يَعْصِمَ نَفْسَهُ فَيَمْتَنِعَ كَمَا امْتَنَعَ يُوسُفُ عليه السلام أَوْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُ وَ بَيْنَ إِرَادَتِهِ فَيَزْنِيَ فَيُسَمَّى زَانِياً وَلَمْ يُطِعِ اللهَ بِإِكْرَاهٍ وَلَمْ يَعْصِهِ بِغَلَبَةٍ).

والقسم الثاني الاستطاعة الفعلية وهو قول أبي عبدالله الصادق عليه السلام عن الاستطاعة (تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْمَلَ مَا لَمْ يُكَوَّنْ قَالَ لا قَالَ فَتَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْتَهِيَ عَمَّا قَدْ كُوِّنَ قَالَ لا قَالَ فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِاللهِ عليه السلام فَمَتَى أَنْتَ مُسْتَطِيعٌ قَالَ لا أَدْرِي قَالَ فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِاللهِ عليه السلام إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقاً فَجَعَلَ فِيهِمْ آلَةَ الاسْتِطَاعَةِ ثُمَّ لَمْ

يُفَوِّضْ إِلَيْهِمْ فَهُمْ مُسْتَطِيعُونَ لِلْفِعْلِ وَقْتَ الْفِعْلِ مَعَ الْفِعْلِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ الْفِعْلَ فَإِذَا لَمْ يَفْعَلُوهُ فِي مُلْكِهِ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَطِيعِينَ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلاً لَمْ يَفْعَلُوهُ لأَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يُضَادَّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ قَالَ الْبَصْرِيُّ فَالنَّاسُ مَجْبُورُونَ قَالَ لَوْ كَانُوا مَجْبُورِينَ كَانُوا مَعْذُورِينَ قَالَ فَفَوَّضَ إِلَيْهِمْ قَالَ لا قَالَ فَمَا هُمْ قَالَ عَلِمَ مِنْهُمْ فِعْلاً فَجَعَلَ فِيهِمْ آلَةَ الْفِعْلِ فَإِذَا فَعَلُوهُ كَانُوا مَعَ الْفِعْلِ مُسْتَطِيعِينَ قَالَ الْبَصْرِيُّ أَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَقُّ وَأَنَّكُمْ أَهْلُ بَيْتِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ) انتهى.

فإذا أراد صاحب مجمع البحرين بقوله مستطيع تام أن استطاعة العبد قبل الفعل إمكانية وأنّ تمامها الّذي أشار إليه بتجدّد فعل من أفعاله تعالى هو ما أشرنا إليه في ذكر الوارد من الله الذي به تتم الاستطاعة من معونة المطيع بالمدد ومعونة العاصي بالتخلية وإلاّ لم يكن متمكّناً من فعل المعصية، وإذا لم يتمكّن من فعلها لم يتمكّن من فعل الطاعة وإذا لم يتمكّن من فعل الطاعة لم يحسن تكليفه وإذا لم يحسن تكليفه قبح إيجاده ومن إيجاد الطاعة بفعل المطيع والمعصية بفعل العاصي فهو حسن وحق وإلاّ فهو باطل لأنه يلزم منه التشريك في الفعل بينه وبين الله -تعالى الله عما يقول الظالمون علوّاً كبيرا- وذلك لأن المنزلة الحق بين المنزلتين الباطلتين أحدّ من السيف وأدقّ من الشعر ولكنّها لمن علّمه الإمام عليه السلام إياها أوسع مما بين السماء والأرض وأثبت من الجبال الرواسي.

وفي الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام قال سُئِل عن الجبر والقدر فقال (لا جَبْرَ وَلا قَدَرَ وَلَكِنْ مَنْزِلَةٌ بَيْنَهُمَا فِيهَا الْحَقُّ الَّتِي بَيْنَهُمَا لا يَعْلَمُهَا إِلا الْعَالِمُ أَوْ مَنْ عَلَّمَهَا إِيَّاهُ الْعَالِمُ) هـ.

أقول وهذه المنزلة ليست كما يذهب إليه كثيرون فإنّ من وفّق لمعرفتها علم

بأنهم قائلون بالتفويض لأن إدراكها صعب وإن كان اللفظ عنها سهلاً ففي التوحيد عن مهزم قال قال أبو عبدالله عليه السلام (أخبرني عما اختلف فيه من خلفت من موالينا قال قلت في الجبر والتفويض قال فسلني قلت أجبر الله العباد على المعاصي قال الله أقهر لهم من ذلك قال قلت ففوض إليهم قال الله أقدر عليهم من ذلك قال قلت فأي شيء هذا أصلحك الله قال فقلب يده مرتين أو ثلاثا ثم قال لو أجبتُك فيه لكفرت) هـ.

فقوله عليه السلام لو أجبتُك فيه لكفرت صريح في أنّ المنزلة الحق ليست مجرّد لفظ لا جبر ولا قدر ولا معنى ذلك أنه تعالى أمرهم ونهاهم وقوله عليه السلام (لو فوّض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهي) إنّما هُو لبيان الدليل للسائل أنّ المفوّض إليه لم يؤمر ولم ينه بل يترك وهواه وللتنبيه على الاستدلال بأن المحدّد عليه في أفعاله لم يفوّض فيها ولا معنى ذلك أنه خلق لهم الآلة لأنه لو خلق لهم آلة الفعل وخلاّهم من يده لم يكونوا شيئاً لما قَدْ تقرّر بأنّ الموجود الباقي محتاج في بقائه إلى المدد.

والمعنى الثاني ما ذكر في أحاديث أهل العصمة عليهم السلام في حقّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام من أنّ الله تعالى خلقهم ثم خلق الخلق وأشهدهم خلق جميع خلقه وأنهى إليهم علومه وفوّض إليهم أمر خلقه على ما تسمع من الأخبار فمن ذلك ما في كشف الغمة عن مناقب الخوارزمي عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إن الله لّما خلق السموات والأرض دعاهن فأجبنه فعرض عليهنّ نبوّتي وولاية علي بن أبي طالب عليه السلام فقَبِلْنَاهُمَا، ثم خلق الخلق وفوَّض إلينا أمر الدّين فالسعيد من سعِد بنا والشقي مَن شقي بنا نحنُ المحِللّون لحلاله والمحرّمون لحرامه).

وفي بصائر الدرجات عن أبي جعفر عليه السلام قال (إن الله خلق محمدا صلى الله عليه وآله وسلم عبدا

فأدبه حتى إذا بلغ أربعين سنة أوحى إليه وفوض إليه الأشياء فقال ما آتاكُمُ لرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا).

ا ومنه عن أبي جعفر عليه السلام قال (وَضَعَ رَسُولُ الله ﷺ دِيَةَ الْعَيْنِ وَدِيَةَ النَّفْسِ وَحَرَّمَ النَّبِيذَ وَكُلَّ مُسْكِرٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ فوَضَعَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ جَاءَ فِيهِ شَيْءٌ قَالَ نَعَمْ لِيَعْلَمَ مَنْ يُطِيعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَعْصِي).

وفي تفسير العياشي عن جابر الجعفي قال قرأت عند أبي جعفر عليه السلام (قول الله لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ قال بلى والله إن له من الأمر شيئا وشيئا وشيئا وليس حيث ذهبت ولكني أخبرك أن الله تبارك وتعالى لما أمر نبيه ﷺ أن يظهر ولاية علي فكر في عداوة قومه له ومعرفته بهم وذلك الذي فضله الله به عليهم في جميع خصاله كان أول من آمن برسول الله ﷺ وبمن أرسله وكان أنصر الناس لله ولرسوله ﷺ وأقتلهم لعدوهما وأشدهم بغضا لمن خالفهما وفضل علمه الذي لم يساوه أحد ومناقبه التي لا تحصى شرفا فلما فكر النبي ﷺ في عداوة قومه له في هذه الخصال وحسدهم له عليها ضاق عن ذلك (صدره) فأخبر الله أنه ليس له من هذا الأمر شيء إنما الأمر فيه إلى الله أن يصير عليا عليه السلام وصيه وولي الأمر بعده فهذا عنى الله، وكيف لا يكون له من الأمر شيء وقد فوض الله إليه أن جعل ما أحل فهو حلال وما حرم فهو حرام قوله ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا).

ومن الاختصاص للمفيد رحمه الله (عن جابر بن يزيد قال تلوت على أبي جعفر عليه السلام هذه الآية من قول الله تعالى لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ قال إن رسول الله ﷺ حرص أن يكون علي ولي الأمر من بعده وذلك الذي عنى الله لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ وكيف لا يكون له من الأمر شيء وقد فوض الله إليه فقال ما أحل النبي ﷺ فهو حلال وما حرم النبي ﷺ فهو حرام).

ومِنه من بصائر الدرجات عن الثمالي قال سمعتُ أبا جعفر عليه السلام يقول (من أحللنا له شيئا أصابه من أعمال الظالمين فهو له حلال لأن الأئمة منا مفوض إليهم فما أحلوا فهو حلال وما حرموا فهو حرام).

ومن الاختصاص عن محمد بن سنان قال (كنت عند أبي جعفر عليه السلام فذكرت اختلاف الشيعة فقال إن الله لم يزل فردا متفردا في وحدانيته ثم خلق محمدا وعليا وفاطمة فمكثوا ألف دهر ثم خلق الأشياء وأشهدهم خلقها وأجرى عليها طاعتهم وجعل فيهم ما شاء وفوض أمر الأشياء إليهم في الحكم والتصرف والإرشاد والأمر والنهي في الخلق لأنهم الولاة فلهم الأمر والولاية والهداية فيهم أبوابه ونوابه وحجابه يحللون ما شاءوا ويحرمون ما شاءوا ولا يفعلون إلا ما شاء عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون فهذه الديانة التي من تقدمها غرق في بحر الإفراط ومن نقصهم عن هذه المراتب التي رتبهم الله فيها زهق في بر التفريط ولم يوفِّ آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم حقهم فيما يجب على المؤمن من معرفتهم ثم قال خذها يا محمد فإنها من مخزون العلم و مكنونه).

أقول: والأخبار الواردة بهذا المعنى كثيرة غير ما ذكر وقد كثرت فيها أقاويل العلماء بين رادٍّ لها وبين واقفٍ عنها غير باحثٍ فيها وأنّها من المتشابه لتواردها مع مخالفتها في العقل لمقتضى التوحيد وبين مُؤِّلٍ لها والحقّ أنها غير منافية للعقول السليمة المستنيرة بنور هداية أهل العصمة عليهم السلام ، وذلك أن التفويض المنافي للتوحيد هو كون المفوض إليه مستَقِلاً بما فوِّض فيه ونسِبَ إليه ولا شك أنّ هذا شرْكٌ بالله مُنَافٍ للتَّوْحيد ولم يرد عن أهل البيت عليهم السلام ما يَدُلّ على ذلك في حقهم ولا حقِّ مخلوقٍ غيرِهمْ بل ورد عنهم نفيه عنهم وعن كلّ أحدٍ من الخلق فمن

ذلك ما في نوادر محمد بن سِنان قال (قال أبو عبدالله عليه السلام لا وَالله مَا فَوَّضَ الله إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ إلا إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وَإِلَى الأَئِمَّةِ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ الله وَهِيَ جَارِيَةٌ فِي الأَوْصِيَاءِ عليهم السلام) وفي الاختصاص للمفيد رحمه الله عن عبدالله بن سنان مثله.

وفي عيون الأخبار عن يزيد بن عمير بن معاوية الشامي قال (دخلتُ على علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرو فقلتُ له يا ابن رسول الله وأخذ رُوِيَ لنا عن الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام أنه قال لا جبر ولا تفويض أمر بين أمرين فما معناه فقال من زعم أن الله عز وجل يفعل أفعالنا ثم يعذبنا عليها فقد قال بالجبر ومن زعم أن الله عز وجل فوض أمر الخلق والرزق إلى حججه عليهم السلام فقد قال بالتفويض والقائل بالجبر كافر والقائل بالتفويض مشرك).

وفيه عن ياسر الخادم قال قلتُ للرضا عليه السلام (ما تقول في التفويض فقال إن الله تبارك وتعالى فوض إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أمر دينه فقال ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا فأما الخلق والرزق فلا ثم قال عليه السلام إن الله عز وجل خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وهو يقول عز وجل الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ).

وفي غيبة الطوسي عن كامل بن إبراهيم المدني حين ووجهه قوم من المفوضة والمقصّرة إلى أبي محمّد يعني الحسن العسكري عليه السلام ليسأله عن مقالتهم إلى أن قال (فسلمت وجلست إلى باب عليه ستر مرخى فجاءت الريح فكشفت طرفه فإذا أنا بفتى كأنه فلقة قمر من أبناء أربع سنين أو مثلها فقال لي يا كامل بن إبراهيم فاقشعررت من ذلك وألهمت أن قلت لبيك يا سيدي فقال جئت إلى ولي الله

وحجته وبابه تسأله هل يدخل الجنة إلا من عرف معرفتك وقال بمقالتك فقلت إي والله قال إذن والله يقل داخلها والله إنه ليدخلها قوم يقال لهم الحقية قلت يا سيدي ومن هم قال قوم من حبهم لعلي يحلفون بحقه ولا يدرون ما حقه وفضله ثم سكت عليه السلام عني ساعة ثم قال وجئت تسأله عن مقاله المفوضة كذبوا بل قلوبنا أوعية لمشية الله فإذا شاء شئنا والله يقول وَما تَشاؤُنَ إِلا أَنْ يَشاءَ الله ثم رجع الستر إلى حالته فلم أستطع كشفه فنظر إلي أبو محمد عليه السلام متبسما فقال يا كامل ما جلوسك وقد أنبأك بحاجتك الحجة من بعدي فقمت وخرجت ولم أعاينه بعد ذلك) الحديث.

وفيه توقيع خرج من صاحب الأمر عليه السلام نسخته (إن الله تعالى هو الذي خلق الأجسام وقسم الأرزاق لأنه ليس بجسم ولا حال في جسم ليس كمثله شيء وهو السميع العليم وأما الأئمة عليهم السلام فإنهم يسألون الله تعالى فيخلق ويسألونه فيرزق إيجابا لمسألتهم وإعظاما لحقهم).

وروى زرارة أنه قال للصادق عليه السلام (إن رجلا من ولد عبد الله بن سبإ يقول بالتفويض فقال وما التفويض قلت إن الله تبارك وتعالى خلق محمدا وعليا صلوات الله عليهما ففوض إليهما فخلقا ورزقا وأماتا وأحييا فقال عليه السلام كذب عدو الله إذا انصرفت إليه فاتل عليه هذه الآية التي في سورة الرعد أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ الله خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ فانصرفت إلى الرجل فأخبرته فكأني ألقمته حجرا أو قال فكأنما خرس وقد فوض الله عز وجل إلى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أمر دينه فقال عز وجل وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وقد فوض ذلك إلى الأئمة عليهم السلام).

وغير ذلك من الأخبار الصّريحة الدالّة على نفي التفويض عنهم وعن جميع الخلق الناطقة بعدم وروده عنهم عليهم السلام في حق جميع الخلق فيكونُ التفويض المذكور في الأخبار السابقة يراد به غير هذا المعنى الباطل الّذي هو الشرك بالله وإنّما معناه هو التفويض الحقّ على معانٍ كلها صحيحه.

أحدها: أنه سبحانه أوْحى إليهم علوم ما يحتاج إليه الخلق وأحكامهم ممّا شاء جملة وتفصيلاً منها ليلة المعراج على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومنها ما ينزل في ليالي القدر، ومنها القذف في القلوب والنقر في الأسماع،ومنها علم ما كان وعلم ما يكون أي غابر ومزبور وهو قول موسى بن جعفر عليه السلام (مبلغ علمنا ثلاث وجوه ماض وغابر وحادث فأما الماضي فمفسر وأما الغابر فمزبور وأما الحادث فقذف في القلوب ونقر في الأسماع وهو أفضل علمنا) الحديث.

وأعلمهم جهات التحمّل والتبليغ فهم المؤدّون إلى من أُمِروا بالأداء لا غيرهم فقد فوّض إليهم تبليغ ما أمرهم بتبليغه كما حدّد لهم فهم بأمره يعملون وليس معنى كلامنا أنّه فوّض إليهم تبليغ ما أمرهم بتبليغه ورفع يده، لأنّ هذا من التفويض الباطل الذي هو الشّرك بالله لأنّ كلّ شيء سواه تعالى إنما هو شيء بكونه في قبضته إذ لا وجود لشيء ولا قوام إلاّ بأمره بل مرادُنَا به أنّه فوّضَ إليهم ذلك التبليغ أنّهم حملة أمره ونهيه بقدْرته وتراجمة وَحْيِهِ بقوّته ومشيته فافهم.

وإنّما سمّي هذا تفويضاً لأنه تعالى خصّهم به دون غيرهم، لأنّ غيرهم، لا يقدر على تحمّل ذلك وإليه الإشارة بقوله تعالى ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلبُ عبدي المؤمن أي لم تقدر الأرض والسماء على تحمّل أوامره ونواهيه وجهات تصرّفات نظام عالمه وإنما قدر على ذلك قلبُ عبده محمد صلى الله عليه وآله وسلم

وأهل بيته طمح!نه وذلك لقرب كونهم من محدّب كرة الوجود الراجح ولهذا خلقهم قبل الخلق بألف دهر كما تقدّم في رواية الاختصاص.

وثانيها: أنه تعالى خلقهم على هيئة مشيّته وهي صورة مقتضاها إذا لم يحصل لها قاصر عن مقتضاها أن تجري على طِبق مشيّته وإنّما خلقهم ليجروا على مشيّته فإذا أنهى إليهم علماً ليبلّغوه إلى مَنْ شاء كانت إرادتهم ترجمان إرادته، ولذلك خلقهم ومع هذا لم يرفع يده كما تقدّم في جميع أقوالهم وأعمالهم وحركاتهم وسكناتهم فهم بأمره يعملون لا بشيء من إرادتهم ولا ميل أنفسهم وهذا معنى حديث البصائر المتقدم في قوله (إن الله تعالى خلق محمّدا ﷺ عبداً فأدّبَهُ حتىَ إذا بلغ أربعين سنة) الحديث.

وكذلك قوله تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم) ، وأنا أضرب لك مثلاً لهذا المعنى إذا كان عندك ماء في الأرض فإذا أَردتَ أَن تُجريَهُ إلى جهة الشرق حفرتَ له في الأرض طريقاً منخفِضاً إلى الجهة التي تريد اجرائَهُ إليها على قدر إرادتك وصرفته إليها فيجري على حسبِ ما حفرتَ له فهو حين صرفته فجرى فإنّك لم تمنعه ممّا صرفته إليه فأنت قدْ فوّضتَ إليه جريانه فيما صرفته إليه ولكن هو بنفسه لم يجر، وإنما المُجري له أنت بما حفرتَ له فكذلك هم عليهم السلام خلقهم الله على صورة مشيّته فمقتضى بنيتهم وفطرتهم الجريان على مشيّته لأن الأثر لا يخالف في صفته صفة مؤثرة فلا يكون ظل الطويل قصيراً ولا العكس ولا المعوجّ مستقيماً ولا العكس وإنّما خلقهم على تلك الهيئة ليجروا عليها فهو أجراهم على ما يشاء كما أنّك أجريتَ الماء على ما تشاء بما صنعت له من هيئة جريانه فيما حفرتَ له مع أنه تعالى لم يخلّهم في جميع أحوالهم من قبضته، كما تقدّم وكيف يقال بأنّ هذا

تفويض أو استقلال وأنت لا يقال لك فيما صنعتَ بالماء حين قدّرتَ له جريانه أنّك فوّضتَ إليه الجريان مع أن الماء في جريانه ليس في قبضتِك بل هو قائم بنفسه وإنما حصرته على سبب الجريان وهو تعالى حصرهم على سبب الجريان على إرادته بما خلقهم عليه من هيئة إرادته ومع هذا لم يخلّهم من يده في جميع أحوالِهِمْ ووجودهم وإنّما قوامهم وقوام جميع الخلق بأمره تعالى كقوام الصورة في المرآة بظهور الشاخص ومقابلته فافهم.

وثالثها: أنه تعالى خلقهم له لا لسواه ولا لأنفسهم فجعلهم أَلْسِنَةَ إرادته ومحالّ مشيّته ففي الحقيقة ليس لهم مشيّة وإنّما مشيّتهم مشيّة اللهِ فإذا شاؤوا فإنّما شاء الله كما قال تعالى (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ الله رَمَى) وقال تعالى (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء الله) فهو تعالى يشاء بهم ما شاء ولا مشيّه لهم وليس لمشيّته محل غيرهم وجميع ما يجريه على خلقه من جميع الأشياء فإنّما هو بمشيّته تعالى وهم محل تلك المشيّة وهم أَلْسِنَةُ تلك الإرادة وهذا معنى قول الحجة عليه السلام في جوابه المتقدم لكامل بن إبراهيم المدني قال عليه السلام (بل قلوبُنا أوعية لمشيّة الله فإذا شاء شائنا والله يقول وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَن يَشَاء الله) هـ.

ورابعُها: أنّهم عليهم السلام أطاعوه في كل حال وصدقوا معه في كل موطن فأوجب على نفسه تعالى إجابتهم في كل ما سألوا وأرادوا (جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فمعنى فوّض إليهم الأمر أنّ كل ما أرادوا فعله لهم وأجراه على حسب إرادتهم والعلّة أنّهم باستقامة عقولهم واستواء فطرتهم لا يشاؤون إلاّ ما هو محبوب له تعالى مراد له عز وجل وذلك كما تقدم في التوقيع أنَّ الله تعالى خلقَ الأجسام وقسم الأرزاق لأنه ليس بجسم ولا حال في جسم (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) ،

فأمّا الأئمة عليهم السلام فإنهم يسألون الله تعالى فيخلق ويسألونه فيرزق إيجاباً لمسألتهم واعظاماً لحقّهم هـ.

وخامِسُهَا: المراد بالتَّفْويض الإذن فيما ولّيهم عليه وصرّفهم فيه ممّا حَدَّدَ لهم فإنّه أنزل عليهم الكتاب الذي فيه تفصيل كل شيء فقال تعالى (إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الله) وعناهم في هذا بقوله تعالى (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) وهو وقد يكون بعض الأشياء معلقةً على شروطٍ أو موقّتة بأوقاتٍ فيمنعون من فعل ذلك إلى أن يقع ما علّق عليه مثل أن (تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا الله مُبْدِيه).

أو ومَثل (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) ومثل (وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إلاَّ أَنْ يَشاءَ الله) فأذنَ له فيما لم يُعَلّق على شيء (هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ) ومُنِع ممّاَ هو معلّق أو موقت (وَ لا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضى إِلَيْك وَحْيُهُ) فجعل الإذن والرخصة في إمضاء ما أمر بتبليغه تفويضاً لأنه قبل الإذن كان محصوراً بالمنع من الإمضاء.

وسادسُها أن الأشياء لمّا كانت لهم مخلوقة وأحكامها التي بها صلاح نظامها في النشأتين عندهم لأنّهم عليهم السلام هم خزائن تلك الغيوب وهم الأولياء على الأشياء التي لم تخلق إلاّ لهم ولم يكونوا لذواتهم عالمين بوضع الأسباب لمسبّباتها والأجزاء في مواضعها المشخّصة لها إلاّ بتعليمه وهدايته أنهى إليهم ما يتوقف عليه التأدية إلى ما شاء تتميماً للنّعمة وإكمالا للتّفضل ليؤدّوا بقوته ومدده وتوقيفه لهم على ما خفي عنهم وذلك هو التفويض الحقّ بتسبيب الأسباب ورفع الموانع.

وسابعها إن الله سبحانه هو الوليّ (وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

قال تعالى(هُنالِكَ الْوَلايَةُ لله الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً)، ثم لمّا كان الحق جل وعلا كنهه تفريق بينه وبين خلقه متعالياً عن كل مجانسة ومناسبة لم يمكن للمخلوقات التلقّي عنه تعالى والقبول ولم يمكن أن يكون شيء مفعولاً بغير فعل فاحدث الفعل بنفسه أي بنفس الفعل والفعل لا يتقوّم إلاّ بمحلٍّ ومتعلّقٍ، ويجب في الحكمة أن يكون أوّل متعلّقٍ للفعل مناسباً له وقريباً منه وحاملاً له ومؤدياً عنه فإنه كان بخلاف ذلك كان الفعل والصنع على خلافِ ما ينبغي وخلافُ ما ينبغي خلافُ الكمال وخلافُ الكمال دليلُ الحاجة والعجز والجهل والواقع خلاف ذلك كله فوجب أن يكونوا عليهم السلام مناسبين للفعل لأنهم أول متعلّقٍ للفعل وبهم تقوَّم كما تقوّمَتْ استضاءة نور الشمس بالأرض لأنّها متعلّق الاستضاءة فوجب أن يكونوا الواسطة في كلّ شيء لكلّ شيء فللحكمة جعلهم أولياء على خلقة وتراجمة وحيه والولاية هي التفويض الحق الّذي سمعت فافهم.

وهذا الّذي ذكرنا إليه من أول الكلام إلى هاهنا إشارة إلى بيان التفويض العرفي منه الباطل المنفي في الأخبار الأخيرة ومنه الحقّ المثبت في الأخبار الأوّلة، وإنّما ذكرتُ هذا مع أن المحتاج إليه في شرح ومفوّض في ذلك كله إليكم إنّما هو التفويض اللّغوي وهو الردّ إليهم والتسليم لهم عليهم السلام على كلّ حالٍ لأجل الإشارة إلى تبيين التفويض الحقّ في الجملة تقوية لكثيرٍ ممّن يطرح الأخبار الصحيحة الصريحة لشبهة أن التفويض باطل، ويزعم أنها مخالفة للعقول وأنت إذا فهمت ما ذكرنا لك عرفت أنها موافقة للعقول وإن إنكارها تقصير وتفريط في حقّهم صلّى الله عليهم أجمعين.

وقوله عليه السلام (ومسلّم فيه معكم) يراد منه معنى التفويض إليهم والتسليم

هو الإخبات ولا يكمل إيمان المؤمن إلاّ بالتسليم فيما علم وفيما لا يعلم يقول الصادق عليه السلام فيما تقدم من حديث الكافي (إِنَّكُمْ لا تَكُونُونَ صَالِحِينَ حَتَّى تَعْرِفُوا وَلا تَعْرِفُونَ حَتَّى تُصَدِّقُوا وَلا تُصَدِّقُونَ حَتَّى تُسَلِّمُوا أَبْوَاباً أَرْبَعَةً لا يَصْلُحُ أَوَّلُهَا إِلا بِآخِرِهَا ضَلَّ أَصْحَابُ الثَّلاثَةِ وَتَاهُوا تَيْهاً بَعِيداً) الحديث.

أقول: الصلاح بدون المعرفة هو الكوكب الذي رآه إبراهيم الخليل عليه السلام حين أراه الله ملكوت السموات والأرض والمعرفة بدون التصديق هو القمر الذي رآه والتصديق بدون التسليم هو الشمس التي رآها فكان الصلاح والمعرفة والتصديق طرق ضلالة إذا لم ترتبط بالتّسليم.

وفي الكافي عن الكاهلي قال قال أبو عبْدِ الله عليه السلام(لَوْ أَنَّ قَوْماً عَبَدُوا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَحَجُّوا الْبَيْتَ وَصَامُوا شَهْرَ رَمَضَانَ ثُمَّ قَالُوا لِشَيْءٍ صَنَعَهُ الله أَوْ صَنَعَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أَلا صَنَعَ خِلَافَ الَّذِي صَنَعَ أَوْ وَجَدُوا ذَلِكَ فِي قُلُوبِهِمْ لَكَانُوا بِذَلِكَ مُشْرِكِينَ ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِالله عليه السلام عَلَيْكُمْ بِالتَّسْلِيم).

وفيه عن سدير قال قلتُ لأبي جعفر عليه السلام (إِنِّي تَرَكْتُ مَوَالِيَكَ مُخْتَلِفِينَ يَتَبَرَّأُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ قَالَ فَقَالَ وَمَا أَنْتَ وَذَاكَ إِنَّمَا كُلِّفَ النَّاسُ ثَلاثَةً مَعْرِفَةَ الأَئِمَّةِ وَالتَّسْلِيمَ لَهُمْ فِيمَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ وَالرَّدَّ إِلَيْهِمْ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيه).

وفيه عن الشحّام عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلتُ له (قُلْتُ لَهُ إِنَّ عِنْدَنَا رَجُلًا يُقَالُ لَهُ كُلَيْبٌ فَلا يَجِيءُ عَنْكُمْ شَيْءٌ إِلَّا قَالَ أَنَا أُسَلِّمُ فَسَمَّيْنَاهُ كُلَيْبَ تَسْلِيم قَالَ فَتَرَحَّمَ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ أَتَدْرُونَ مَا التَّسْلِيمُ فَسَكَتْنَا فَقَالَ هُوَ وَالله الإِخْبَاتُ قَوْلُ الله عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ).

وفيه (عَنْ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَكْمِلَ الْإِيمَانَ كُلَّهُ فَلْيَقُلِ الْقَوْلُ مِنِّي فِي جَمِيعِ الأَشْيَاءِ قَوْلُ آلِ مُحَمَّدٍ فِيمَا أَسَرُّوا وَمَا أَعْلَنُوا وَفِيمَا بَلَغَنِي عَنْهُمْ وَفِيمَا لَمْ يَبْلُغْنِي) هـ.

وفيه(عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ إِلَى آخِرِ الآيَةِ قَالَ هُمُ الْمُسَلِّمُونَ لآلِ مُحَمَّدٍ الَّذِينَ إِذَا سَمِعُوا الْحَدِيثَ لَمْ يَزِيدُوا فِيهِ وَلَمْ يَنْقُصُوا مِنْهُ جَاءُوا بِهِ كَمَا سَمِعُوهُ) هـ.

فقد ظهر لمن نظر في أحاديثهم واعتبر أنّ التسليم أعلى درجات الإيمان وبه كماله ولا تثبت الاستقامة إلاّ به لشلّ الابتلاء والاختبار إذ لا يبقى أحد من الخلق بعدهم عليهم السلام إلاّ ويرد عليه من الابتلاء الإلهي ما لا يسلم له دينه معه إلاّ بالتسليم حتى الأنبياء والمرسلون ولذلك ابتُلوا وأُصيبوا حتى يرجعوا إلى القبول والتسليم لمحمد وأهل بيته عليهم السلام وينيبُوا كما تقدّمت الإشارة في حقّ يونس عليه السلام وأنه إنّما التقمه الحوت لتردده في ولاية أمير المؤمنين عليه السلام وذلك لما أمر بالإيمان به فقال كيف أؤمن به ولم أره وأيّوب عليه السلام حين شكّ في ملكي وبكى عند سماع انبعاث المنطق وقال أمر عظيم وخطب جسيم، وقد تقدمّ ذكر ذلك فلمّا تابا ورجعا واعترفا قبلت توبتهما وكذلك سائر الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون فيما ابتلوا به عند التوقّف وقبلت توبتهم بالتسليم وكماله أن تكون في كل ما يرد عنهم عليهم السلام فانياً عن كلّ ما سواه وإليه الإشارة بتأويل قوله تعالى (وَلا يَلتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ)، اللهم بلّغنا ووفّقنا لذاك ولا تخلِنا طرفة عين من رضاك.

قال عليه السلام وقلبي لكم مُسَلّم ورأيي لكم تبع ونُصْرتي لكم معدّة

قال الشارح المجلسي رحمه الله وقلبي لكم مسلّم بالإسلام أو التسليم أي سلم

بمعناه أو بمعنى الصلح أي لا اعتراض لقلبي على أفعالكم ولا يخطر ببالي اعتراض لأني أعلم يقيناً أنكم لله ومن الله ورأي لكم تبع أي لا رأي لي مع رأيكم ونصرتي لكم معدة، أي أنتظر خروجكم والجهاد في خدمتكم مع أعدائكم أوْ أعددتُ نصرتي لإعلاء دينكم صورة ومعنىً بالبراهين والأدلة مع أعاديّ ما أمكن انتهى.

أقول: القلب يطلق ويراد به العقل والفؤاد أو هو العقل والفؤاد وقد يفرق بينها فالقلب هو وسط الشّيء وقد يطلق على الجسم الصّنوبري إلاّ إذا كان في مقام الإدراك فإنه حينئذ يراد به ما يتعلّق به تعلّق التّدبير ولا شَك أنّ الإنسان أي النفس النّاطقة المعبّر عنه بأنا إنّما هو المتعلق بالصنوبري لا بالدماغ، ألا ترى أنّك إذا أشرتَ إلى نفسك وقلتَ هذا شيء عندي أومأت إلى صدرك إلى جهة الصّنوبري ولم تومِ إلى رأسك والمفهوم من الأخبار أنّ القلب هُوَ العقل وهو خزانة المعاني المَجرّدة عن المادة العنصريّة والمدّة الزمانية والصورة النفسانيّة والمثاليّة وهو متعلق بالجسم الصنوبري بوسائط تعلّق التدبير فأقربها إلى الصنوبري العلقة الدم التي في تجاويفه إلى الجانب الأيسر أكثر وفوقها الدم الأصفر التي تقوّمت العلقة به وفوقه الأبخرة المتألّفة من عناصرك بإمداد عناصر العالم الكبير المعتدلة، بأن تكون جزء من الحرارة الناريّة ومن الهوائية جزء ومن المائيّة جزئين ومن الترابيّة جزء فنضجت نضجاً معتدلاً بكرّ الكواكبِ بأشعّتها والعناصر بدورها حتى شابهت الأفلاك فتحرّكت بتبعية حركتها لمساواتها لها واتّحادِها بها رتبةً وهي النفس الحيوانيّة الحسيّة وفوقها ما تنزلّ عليها من النفس الكليّة الذي هو مركب العقل المشار إليه وهو القلب في قوله تعالى (وَلكِن تَعْمَى

القُلُوبُ التِي فِي الصُّدُورِ) والصدر هو ما تنزل من النفس الكليّة وهو فيك بمنزلة اللوح المحفوظ في العالم الكبير وهذا هو مقرّ العلم الذي هو الصورة المجرّدة عن المادة العنصريّة والمدّة الزمانيّة.

والفؤاد هو النور الذي ينظر به المؤمن المتوسم في قوله عليه السلام (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) والمراد به الوجود وهو أعلى مشاعر الإنسان وهو يدرك الشيء لا في جهة ولا بهيئة ولا بإشارة ولا كيف، وهو مقر المعارف الإلهية ومقتضاه حب الله سبحانه وإيثاره على ما سواه ولهذا نسبه الإمام عليه السلام إلى نور الله ولم يقل وجود المؤمن مع أن الصادق عليه السلام فسره بالوجود في قوله (أي بنوره الذي خلق منه) ولكن لما كان هو العارف بالله والداعي إلى محبة الله وإلى إيثاره على ما سواه نسبه إليه تعالى فقال (ينظر بنور الله) ، ويقابله الماهية والإنية ومقتضاها الإنكار لأن المعرفة يقابلها الإنكار وهو ضدها العام قال تعالى (أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) وقال تعالى (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ الله ثُمَّ يُنكِرُونَهَا) ولا يقابله الجهل والشك إلا إذا أريد بالفؤاد القلبَ أو النَفس .

والقلب مقر اليقين وضده العام الشك ولا يقابله الجهل إلا إذا أريد به النفس، وأما الصدر فهو مقر العلم وضده العام الجهل ولا يقابله الشك إلا إذا أريد به القلب ، ولا الإنكار إلا إذا أريد به الفؤاد ، فالعلم في النفس المعبر عنها في الآية بالصدر وقد يطلق عليه الفلك الثامن أي باطنه ومثالها أي صفتها التي يقال لها في النحو اسم الفاعل كالقائم لزيد في الفلك السادس فلك المشتري أي نفسه وعيناها اللتان تبصر بهما في الفلك الثالث الذي هو فلك الزهرة فلك الخيال أي نفسه .

بقي بيان العقل وما اشتهر أنه في الدماغ وأن القلب في الصدر وقد قلنا أنهما

شيء واحد إلا أن المنسوب إلى الدماغ هو التعقل لا العقل فإنه هو القلب الذي في الصدر ، والقلب إنسان مثلك بجميع ما لك من الهيئات والطباع الظاهرة والباطنة فلو ظهر عقلك لكان كل من رآه عرف أن هذا هو أنت لا يفرق بينكما إلا أنك أنت تخبر عن نفسك وهو يخبر عنك ، وكذلك علمك وخيالك وفكرك ووجودك وجميع مالك ، ولهذا سمي الإنسان قرية كما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ وهذا الإنسان الشريف الذي هو القلب متعلقه وكرسيه هو الصدر منك ورأسه وتعقله في الدماغ منك ألا تحس أنك إذا أردت أن تتعقل معنى إنما تنظره بعينين في دماغك كما أن عينيك في رأسك كذلك قلبك عيناه في رأسه لأن الباطن طبق الظاهر.

ثم اعلم أنه في اللغة يطلق القلب على العقل واللّبّ والفؤاد وكذلك الفؤاد وكذلك الحقيقة العقلية والشرعية والتفرقة كما بيّنّا لك نعم نسبة الفؤاد إلى العقل كنسبة العقل إلى التعقل فإن الأصل الفؤاد والعقل وزيره وكرسيُّه وعيناه فيما دون مقامه، فإذا نظر بنفسه أدرك الشيء لا في جهة بلا كيف ولا إشارة ولا تعدّد فيما يدرك وإنما يدرك مثالاً لا يشبهه شيء نعم إذا نظر بالعقل أدرك ما أدركه العقل وبه وبالنفس أدرك ما أدركته النفس، وأما العقل فيدرك الشيء في جهة معنوية بكيف معنوي وإشارة معنوية ولهذا تعقل معنى السكنى من البيت في جهة غير الجهة التي فيها تدرك معنى الزينة من الخاتم بحيث تميّز هذا من هذا بكيف معنوي وإشارة معنويّة وجهة معنوية غير ما يميّز بها الآخر،وأما العلم فيدرك صورة المعلوم الخارجي ينتزعها منه وتكون هي معلومهُ يعلمها بها فإذا حضر الخارجي انطبقت تلك الصورة عليه لأنها صورته أخذها منه الخيال عارية

فإذا حضر كان هو أولى بها فإذا حضر الخارجي كان هو بعينه معلومهُ يعلمه به نفسه لا بصفة غيره وإليه الإشارة بقول علي عليه السلام (لا تحيط به الأوهام بل تجلّى لها بها وبها امتنع منها وإليها حاكمها) وقال الشاعر:

رأت قمر السماءِ فذكَّرتني
ليـالِيَ وصلِنا بالرقمَتــينِ
كِلانا ناظرٌ قمراً ولكِـــنْ
رأيتُ بعَيْنها ورَأتْ بعيني

والقلب هو العقل وهذا النور الشريف خير كله يسمى بالقلب إمّا لتقلّبه في المعاني أوْ أنّه دائماً يتقلّب في أحواله ولهذا أمر أهل العصمة عليهم السلام شيعتهم أنهم يقولون كل يوم (يا مقلّب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك ودين نبيّك صلى الله عليه وآله وسلم ولا تزغ قلبي بعد إذا هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب).

وأمّا لأنّ المعاني تقلب فيه أي تفرغ فيه ويسمّى بالعقل لأنه يعقل صاحبه إن عمل بمقتضاه ولم يكابره عن جميع معاصي الله أي يحبسه عنها ولهذا ورد عن الصادق عليه السلام أنّ العقل (ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان فقيل والذي في معاوية قال عليه السلام تلك النكراء تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل وليست بعقل).

وليس العقل شرعاً التمييز الذي هو مناط التكليف بل هو النور الحق المكتسب من العمل الحقّ ومن هنا قال جعفر بن محمد صلوات الله عليه (بالعقل يستخرج غورُ الحكمة وبالحكمة يستخرج غور العقل) والمراد بالحكمة العلم العملي أي المقرون بالعمل فإنه هو الّذي يزيد في العقل كما قال تعالى في الحديث القدسي (ما زال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببتُه كنتُ سمعه الذي يسمع به

وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وإن سكت ابتدأته) الحديث.

فقوله عليه السلام (وقلبي لكم مسلّم) يراد من القلب النور الحق المكتسب من العمل الحق سواء أردتَ به القلب والعقل إذ هما شيء واحد، أم العلم لأن العلم المقرون بالعمل هو ثمرة العقل المستنير كما قال تعالى (هَل يَسْتَوِي الذِينَ يَعْلَمُونَ وَالذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ)يعني ما يعلمون العلم الحق إلاّ أصحاب العقول، أم الفؤاد لأنه هنا أوّلاً قال تعالى (فَاجْعَل أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ)وذلك لأنّها هي الكنه الأصلي فإذا مالت وهوت دلّ ذلك على أَنّ صاحبها مخلوق ممّن مالت إليه وهوت فيكون تسليمُه لهم عليهم السلام عن علمٍ منه وكشفِ موانعَ غريبةٍ ليست من النّور لأنه صفة مالت إلى موصوفها وفرعٌ التَفت إلى أصله، فإذا مال ذلك القلبُ إليهم والتفَتَ إلى شيء من أحكامهم أوْ آدابهم أو اعتقاداتهم أو أعمالهم أو أفعالهم أوْ أقوالهم أوْ أحوالهم أو شيء منهم أو عنهم انضمّ إلى ملائمه ومطلوبه وباب مطلوبه فلا تحصل له نفرة في شيء هذا إن عرف، وإن لم يعرف استهلكَتْ طبيعتُه وجدانه في وجودهم عليهم السلام فيصدق على الفرضين صدق كون القلب مسلِّماً لهم على جهة الحقيقة لأنّه خلق من فاضل طينتهم فهو يحنّ إلى أصله ويميل إلى ما منه بدأ ويطمئنّ ويسكن في مقرّ كنهه، فإذاً قلبي لكم مسلّم مفوّض في كلّ شيءً مما يكون منكم ويرد عنكم لأنّ قلبي من فاضِل طينتكم خلق وإليها يعود، ولمّا كان بدء قلب المؤمن مخلوقاً من فاضل طينتهم عليهم السلام كما دلّت عليه الأخبار والمراد بالفاضل هو الشعاع وهو في اللطافة والشرف والنوريّة من طينتهم نسبته إليها نسبة الواحد إلى السبعين فطينتهم عليهم السلام

كالسراج مثلاً وقلوب شيعتهم كالأشعّة ونسبة الأشعة من السراج في النّورية والشرف والقوة نسبة الواحد من السبعين، فلمّا كانت قلوب شيعتهم كذلك قد وجب في الحكمة وهي إيجاد الشيء على ما هو عليه مما ينبغي له أن يكون الشعاع عند المنير لا يجد نفسه ولا شعور له إلا بما أعطاه المنير وكذا ما خلق من الشعاع بالطريق الأولى كانت قلوب شيعتهم إذا اتّصلت بجهتهم وتوجّهت إلى أحوالهم لا تجد أنفسها ولا تشعر بما لها من الأحوال وهذا معنى التسليم والتّفويض الحقّ المراد هنا فافهم وتحمّل الأسرار فقد كشفتُ لكَ الأستار.

وقوله عليه السلام (ورأيي لكم تبع) الرأي هو نظر القلب واختياره يقال هو على رأي زيد أي يقول بقوله ويذهب مذهبه يريد أن قلبي لا يرى اعتقاداً ولا مذهباً ولا عملاً إلا بما ترون من ذلك أي أنّه تابع لكم في كلّ شيء لا أنّه في رأيه موافقٌ لرأيهم، لأن ذلك دليل الاستقلال وعدم الاحتياج وهذا لا يكون ممّن خُلِق من شعاعهم وفاضل طينتهم بل يكون رأيه تبعاً لرأيهم لأنّه في الحقيقة ناشٍ عن رأيهم بل هم سلكوا به ما سلك كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في حديث أبي الطفيل عامر بن واثلة (قال قلتُ يا أمير المؤمنين أخبرني عن حوض النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا أم في الآخرة فقال بل في الدنيا قلت فمن الذايد عنه فقال أنا بيدى فليردنه أوليائي ولبصرفن عنه أعدائي) وفي روايةٍ (ولأوردنّه أوليائي ولأصرفنّ عنه أعدائي) الحديث.

والمراد به الدين الحق الذي مَنْ شرِبَ منه شربةً لم يظمأْ بعدها أبداً فلم يصدّق بالحقّ مصدق إلاّ من أوردوه حوض التّصديق ولم يعمل عامل عملاً صالحاً إلاّ مَنْ سددوه وأوردوه حوض الأعمال الحقّة وهو الإسلام والاستسلام، وفي

الحقيقة أعمال شيعتهم فاضل أعمالهم و (الحَمْدُ لله الذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لوْلا أَنْ هَدَانَا الله) وقد أشار إلى التبعيّة التي أشرنا إليها وهي التبعيّة الخاصّة بهم من أئمّتهم عليهم السلام العامة لكل شيء محمد بن علي الباقر عليه السلام في ما رواه في العلل عن أبي إسحاق الليثي قال قلتُ: لأبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام في حديث طويل إلى أن قال(أخبرني يا إبراهيم عن الشمس إذا طلعَتْ وبَدا شعاعها في البلدان أهو بائن من القرص قلت في حال طلوعه بائن ، قال أليس إذا غابت الشمسُ اتّصل ذلك يعود كل شيء إلى سنخه وجوهره وأصله).

وروى أبو الفتوح الرازي في كتاب أداء الحقوق في الإخوان سأل المفضل الصادق عليه السلام (ما كنتم قبل أن يخلق الله السموات والأرضين قال كنا أنواراً حول العرش نسبّح الله تعالى ونقدّسه حتى خلق الله سبحانه الملائكة فقال لهم سبّحوا فقالوا يا ربّنا لا علم لنا فقال لنا سبّحوا فسبّحنا فسبّحتِ الملائكة بتسبيحنا إلاّ أنا خلقنا من نور الله وخلق شيعتنا من دون ذلك النور، فإذا كان يوم القيامة التحقت السفلى بالعليا ثم قرن عليه السلام بين إصبعيه الوسطى والسّبّابة وقال كهاتَيْنِ ثم قال يا مفضّل أتدري لم سمّيت الشيعة شيعة يا مفضّل شيعتنا منا ونحن من شيعتنا أما ترى هذه الشمس أين تبدو قلتُ من مشرق قال وإلى أين تعود قلت مغرب قال عليه السلام هكذا شيعتنا مِنا بُدِؤوا وإلينا يعودون)هـ.

فقد ظهر لك ممّا ذكرنا وممّا استشهدنا به من الأخبار معنى تبعيّة الرأي على جهة الحقيقة فمن كان كذلك فهو صادق في دعواه ومن لم يكن كذلك فقد يكون مراده بالتبعيّة الموافقة بل لا يعرف سواها كما شاهدنا من أكثر الخلق من عالمٍ وجاهل، وإن كان يقول إنّ رأيي تبعٌ لرأيهم فليس كذلك كيف ونحن

نجده يصرف أكثر أحاديثهم إذا لم يفهمها إمّا لقصوره ولأجل قاعدةٍ عنده ربّما لا تنطبق إلاّ على مذهب غيرهم ولا يرضى بالوقوف عندما لا يعرفه من أحاديثهم مع أنّي وجدتُ كثيراً ممّا يردّها ويطّرحُها هو الحقّ الصريح وهو مذهب أئمته عليهم السلام فإن كان صادقاً في قوله ورأيي لكم تبع فلِمَ يردّ أخبارهم ويصرفها إلى قاعدته والواجب عليه إمّا الوقف وردّها إليهم والإقرار بعدم فهمها أو تصحيح قاعدته عليها لا تصحيحُها على قاعدته وفي نهج البلاغة أنّ رجلاً قال لأمير المؤمنين عليه السلام (صف لنا ربّك لنزداد له حبّاً وبه معرفةً فغضِب عليه السلام فخطب إلى أن قال فانظر أيّها السائل فما دلّك القرآن عليه من صفته فائتمَّ به واستضئ بنور هدايته وما كلّفك الشيطان علمه ممّا ليس في الكتاب عليك فرضه ولا في سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة الهدى عليهم السلام أثرُهُ فكِل علمَهُ إلى الله سبحانه فإنّ ذلك منتهى حقّ الله عليك واعلم أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبةِ دون الغيوب والإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمَّى تركهم التعمّق فيما لم يكلّفهم البحث عن كنهه رسُوخاً فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين) هـ.

فإن كان علي بن أبي طالب عليه السلام إمَاماً لك تأتمُّ به فاقبل قولهُ هذا وإلاّ فأنت ذاك الذي قلنا.

وقوله عليه السلام (ونصرتي لكم معدّة) اعلم أنّك قد عاهدتهم على أنْ تنصرهم في كل موطنٍ على عدوّهم وذلك حين أخذ الله عليك العهد بذلك في عالم النفوس فأحضركٍ في ذلك المشهد مع جميع الخلائق فأوْقف كُلا في رتبة كونه مع من كان

في رتبته فأخذ عليك العهد معهم هنالك على أن تنصروهم كلا بما يستطيع فقال (أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ) فعاهدتموه على النصرة لهم على عدوهم إذا دعوكم في كل كرّة فقلتم بلى وشَهِد عليكم جل وعلا وأشهدهم وأشهدَ ملائكته وأنبياءَه ورسله والمؤمنين وأنا على ذلكم من الشاهدين فأنزل صكَّ الشهادةِ بقوله تعالى (شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ) الآيات، فدعوكم عليهم السلام إلى النصرة في توحيده تعالى بأنّ من أراد الله بَدأ بهم ومن وحّده قبِل عنهم ومن قصده توجّه بهم، ومعنى الأول أنهم أبوابه والأدلاء عليه، ومعنى الثاني أنهم أركان توحيده والواصفون له أي لم يقبل من الوصف إلاّ ما وصفوه به، ومعنى الثالث أنهم معانيه وأسماؤه والشفعاء عنده لمن ارتضى دينه، ودعوكم إلى النصرة في أن تصفوه بما وصف به نفسه على ألسنتهم وتعرفوه بما تعرّفَ به على أيديهم وأن تؤمنوا به وبملائكته وكتبه ورسله وأنبيائه وأوليائه وبما جاءوا به من عند ربّهم من أحوال النّشأَتينِ، وأن تؤمنوا بعبده ورسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم وبخلفائه وأهل بيته عليهم السلام علي وفاطمة والحسن والحسين وعلي ومحمد وجعفر وموسى وعلي ومحمد وعلي والحسن والحجة عليهم السلام وأنّهم كما وصفهم رسول الله صلى الله عليه وعليهم عن الله بما هم أهله على نحو ما مرّ عليك مراراً، وأن تؤمنوا بالمَوْت وما بعده من أحوال البرزخ وأن تؤمنوا باليوم الآخر وما أخبروا به من أحواله وبالجنّة والنار، وأن تؤمنوا بما بين ذلك من قيام قائمهم ومن رجعتهم إلى دار الدنيا وإقامتهم الحق وإظهارهم على الدّينِ كله حتى يملئوا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً وحتى لا يُسْتَخْفى بشيء من الحق مخافة أحدٍ من الخلق وأن تؤمنوا بجميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم من عنده من أمور الاعتقادات والتكاليف

في الأعمال والأقوال من جميع ما يتعلّق بأحوال الدنيا والآخرة، وأنْ تؤمنوا بأن الحق لهم ومعهم ومنهم وفيهم وبهم وإن طاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله ورضاهم رضى الله وسخطهم سخط الله ووليّهم وليّ الله وعدوهم عدوّ الله بالجنان والأركان واللسان.

ودعوكم إلى أن تنصروهم بالجَنان بأنْ تعتقدوا ما اعتقدوا وتروا ما رأوا وتوالوا من والوا وتجانبوا من جانبوا، على معنى ما تقدّم في (ورأيي لكم تبع) وبالأركان بأن تقتدوا بهم في أعمالهم فتعملوا ما عملوا وتتركوا ما تركوا وتنصروهم بالسيف إذا دعوكم إلى ذلك وباللسان بأن تقولوا ما قالوا وتسكتوا عمّا سكتوا وتنصروهم بنشر فضائلهم وقبائح أعدائهم ما استطعتم، وبالاحتجاج لإقامة أقوالهم ودينهم ومذهبهم وإبطال أقوال مخالفيهم بحججهم عليهم السلام وتنصروهم بالولاية لهم ولأوليائهم وبالبراءة من أعدائهم، وأن تنصروا بالصلاة عليهم والدعاء لهم ولشيعتهم وبلعن أعدائهم وبالبراءة منهم ومن أتباعهم وفي تفسير الإمام عليه السلام (فقال رجل يا ابن رسول الله إني عاجز ببدني عن نصرتكم ولستُ أملك إلا البراءة من أعدائكم واللعن لهم فقال له الصادق عليه السلام حدثني أبي عن أبيه عنْ جدّه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه من ضعف عن نصرتنا أهل البيت فلعن في خَلواته أعداءنا بلغّ الله عز وجل صورته جميع الأملاك من الثرى إلى العرش فكلما لعن هذا الرجل أعداءنا لعناً ساعَدُوه ولعنوا مَنْ يلعنُه ثم ثنوا فقالوا اللهم صل على عبدك هذا الذي قد بذل ما في وسعه ولو قدر على أكثر منه لفعل فإذا النداء من قبل الله عز وجلّ قد أجبتُ دعاءكم وسمعتُ نداءَكم وصليتُ على روحه في الأرواح وجعلته عندي من المصطفَيْن الأخيار الأبرار) هـ.

أقول: هذا نصرهم بلعن أعدائهم فكلّ حق وكلّ ما يريده الله من خلقه من الواجبات والمندوبات والأخلاق الحسنة من أحواله الغيب كسائر الاعتقادات والمعارف والعلوم ومن أحوال الشهادة كسائر الأعمال والأقوال من أفعالٍ وتُرُوكٍ فهم الدّاعون إليه والمجاهدون في سبيله وقد دعوا جميع الخلق إلى نصرتهم في ذلك كله، فمن عمل بما أمروه به عن الله فقد نصرهم وجاهد معهم وإذا مات على ذلك فهو شهيد داخل في عناية الله سبحانه وإرادته بقوله تعالى (وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) ومَن ترك ذلك أو شيئاً منه فقد فرّ عن ومن فعل ذلك (إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ الله) فإذا ترك واجباً أو فعل محرّماً وهو مقرّ بالإساءة والتقصير فقد تحيّز إلى فئة ويرجى له الخير ومن ندم وعزم على الطاعة وعلى عدم العود في المعصية فهو متحرف لقتال وهو ناج أيضاً فالنصرة المعدة لهم يكون صاحبها عاملاً للطاعات تاركاً للمحرمات مُقِرّاً بالتقصيرات عازماً على ترك المعاصي وتدارك الطاعات فلا يفقد من مواضع الخير ومجالس الذكر وأماكن محبّة الله إمّا باطناً وظاهراً وإمّا باطناً فذلك الذي نصرته لهم معدّة، فإن كان ذلك ظاهراً وباطناً فهو المجاهد حقّا، وإن كان مرة كذلك ومرة باطناً لا غير فهذا مرابط.

والحاصل مَنْ بذل جهده في نصرتهم فيما يجاهدون فيه لله من جميع مراضيه فإنّ نصْرته لهم معدة وإذا قال ذلك فهو صادقٌ فيما ادّعاه وإلاّ فلا.

قال عليه السلام حتى يحيي الله دينه بكم ويردّكم في أيّامه ويظهركم لعدله ويمكّنكم في أرضه.

قال الشارح المجلسي رحمه الله حتى يحي الله دينه بكم في الرجعة مع المهدي عليه السلام

ويردّكم بالرجعة في أيامه أي أيّام ظهور دينه فإنه أيّام الله ويمكّنكم في أرضه بالدولة الباهرة كما قال تعالى (وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذِي ارْتَضَى لَهُمْ) انتهى.

أقول: حياة الدين الإتيان به على طبق ما أمر الله تعالى به وهذا ظاهر وإنّما الخفاء في تَبَيُّنه على جهة الحقيقة فنقول مطابقة العمل للأمر قد يتحقّق بصورة العمل بأن تكون صورته مطابقةً للأمر إذا أتى بها مقرونة بشرط الصحة فصلاة الظهر إذا أتى بها على الهيئة المعروفة إن كانت مقرونة بشروط الصحة كالطّهارة والسّتر والوقت والاستقبال مع التّمكّن، والظاهر عندي أنّ مع التمكّن قيداً للأربعة على بعض الأحوال ليدخل وجوب صلاة فاقد الطَّهُورَيْنِ في الوقت وإن وجب القضاء بعد التمكن يقال لها في الجملة أنّها حيّة إذا كانت مسقِطةً للقضاء وقد لا يقال لها حيّة باعتبار أنّها قد لا تقبل كما لو لم يقبل عليها بقلبه وقد تقبل باعتبار أنّها مجزئة لصدقِ الامتثال فيها فتكونُ حيَّة.

أما لو أتى بها مطابقة للأمر مقبِلاً عليها بقلبه فإنّها إن شاء الله تعالى حيّةٌ فالحياة الموجبة للقبول متحقّقة وغير الموجبة متحقّقة الأجزاء والمتحققة القبول أقوى من المتحقّقة الأجزاء ومنشأ الأولى من صحة الصورة وحصول الإقبال، ومنشأ الثانية من صحة الصورة خاصة والمراد من قوله عليه السلام (حتى يحيي الله دينَهُ بكم) من نوع الحياة الأولى إذ لو أريد من نوع الحياة الثانية لما حَسُن أن يقال حتّى يحيَي الله دينَهُ بكم، لأنّ هذا لا يقال إلاّ على فرض أنّ دينه الآن ميتٌ ولا يعتبر مطلق الحياة الموجودة الآن وإلاّ لما قال ذلك مع أنها الآن موجودة قطعاً فيكون مراده الحياة الكاملة لما دلّت عليه النصوص أنه إذا قام قائمهم عليه السلام ، وضع يده على رؤوس العباد فكَمُلتْ بذلك أحلامهم وإيمانهم ولا يكون قبل قيامه عليه السلام فإذا قام

عليه السلام أخذ إيمان المؤمنين في الاستكمال وينتهي في رجعتهم بعد ظهوره عليه السلام وهو بعد القتل راجع معهم كما تقدّم.

أو يراد بالحياة وجودهم وظهورهم بين الخلائق متمكّنين من التّصرف نافذي الأمر لأنّ الحياة إنما تكون بهم وفي قوله تعالى (أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ) روي في الكافي عن بريد قال سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول في هذه الآية (ميتاً لا يعرف شيئاً ونوراً يمشي به في الناس إماماً يؤتمّ به كمن مثله في الظلمات الذي لا يعرف الإمام).

وعنه قال (سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال الميت الذي لا يعرف هذا الشأن يعني هذا الأمر وجعلنا له نوراً إماماً يأتمّ به يعني علي بن أبي طالب عليه السلام كمن مثله في الظلمات قال بيده هكذا هذا الخلق الذين لا يعرفون شيئاً) هـ

فالميت الذي لا يعرف ولايتهم عليهم السلام وأحييناه عرّفناه ولايتهم عليهم السلام وأظهرنا له إماماً يأتم به يتديّن بين أديان الناس بهداه فيجوز أن يكون ذلك في الدنيا ولكن لا يكون كاملاً ويصدق عليه الموت في بعض الأحوال ولا تصدق عليه الحياة حقيقةً إلاّ إذا كان كاملاً في الولاية ولا يكون ذلك إلاّ إذا كانوا ظاهرين متمكّنين آمنين كما قال تعالى (وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا) فالوعد من الله سبحانه لهم بالتمكين لهم في الأرض حيث لا مانع ولا مدافع ولا منازع وليبدّلنهم من بعد خوفهم في هذه أمْناً، فإذا أراد أن يحيي الله تعالى دينَهُ كما يُحِب ردهم أي رجعهم في أيّامه أي الرجعة وخروج قائمهم عليهم السلام وأظهرهم لعدله

فيُظْهِر بهم عدله كما يحبّ حتى يملأها بهم قِسطاً وعدلا كما ملأت بأعدائهم جورا وظلما ومكنهم في أرضه في مشرقها ومغربها فقوله عليه السلام (حتّى يحيي الله دينه بكم) نهاية لصبرِ المؤمنِ وتسليم قلبه لهم فيما يرد عليه وعلى المؤمنين وعلى الدين من جَوْر الظالمين وتحريف المبطلين وتبديل المعاندين ممّا يُغَيِّرون به مقتضيات ولايتهم عليهم السلام وحدود دينهم مع علم المؤمن المُسَلِّم لهم بأنّهم لوْ سألُوا الله تعالى أن يُزيل ذلِكَ لفعل لهم ما طلبوا منه فرضي ذلك المؤمن بما صدر عنهم وبما أصابه وأصاب المؤمنين بمسمعٍ منهم وبمنظرٍ وبما حدث في الدين من المعاندين وقد كان بعين الله سبحانه وهم يعلمون والله قادر على إصلاح دينه وهم أيضا باللهِ قادرون فصبر ذلك المؤمن ورضي عن الله سبحانه وعن أوليائه وسلّم ولم يجد في نفسه حرجاً مما قضى الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم لما قلنا سابقا من اضمحلال وجدانه في وجودهم.

وقوله عليه السلام (ويردّكم في أيّامه) يراد منه أنكم بعد ما خرجتم من الدنيا أو من التمكين فيها واستيلاء أعدائكم الظالمين على سلطانكم يحلّلون ما حرم الله ويحرّمون ما حلّله الله ويقرّبون من بعّده الله ويبعّدون من قرّبه الله ويبدّلون كلام الله ويغيّرون أحكام الله يردّكم إلى أيّامه أي الدنيا أوْ إلى التمكين فيها حتى يرجع إليكم سلطانكم وأيّام الله ثلاثة الدنيا والرجعة أو قيام القائم عليه السلام والقيامة الكبرى،فأمّا القيامة والرجعة فظاهر،وأمّا الدنيا التي مضت ولا تعود مع أنها قد تكون كناية عن دولة الفاسقين ودولة الفاسقين لو عادَتْ لم يتمكّنوا عليهم السلام من العدل في الأرض فكيف تراد من الأيام هنا فلعلّ المراد بالردّ إلى الدنيا باعتبار مقابلة الآخرة لأنها هي الدنيا أي الأولى أو المراد بالرد إليها استدراك ما فاتهم

فيها من إصلاح رعيّتهم فإنهم يستدركون ذلك بأن يحيى من له مظلمة ويحيى معه ظالمه فيقتص منه أو قصاص فيقتص منه ويبعث من نقص إيمانه ليستكمله، ومن لم يحصل له ما طلبه من العلوم للهِ تعالى ليتعلّم ما أَحَبَّ وأَمْثال ذلك،أو المراد بالأيّام الأعم ونسبت إليه لظهور عدله وحياة دينه فيها أو المراد بالأيّام الأئمة عليهم السلام وفي الحديث (لا تعادوا الأيام فتعاديكم) والمراد بها هم عليهم السلام فالأحد أمير المؤمنين عليه السلام والاثنين الحسن والحسين عليهما السلام والثلاثاء علي بن الحسين عليه السلام والباقر والصادق عليهم السلام، والأربعاء الكاظم والرضا والجواد والهادي عليهم السلام، والخميس الحسن العسكري عليه السلام والجمعة هو القائم عليه السلام وإليه تجتمع الأمم، والسبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وردّهم في الأيام المراد به أنهم خرجوا إلى الدنيا مظلومين مضطهدين لم يخرجوا فيها على ما هم عليه لأنهم سلاطين الدنيا والآخرة وإليهم ترجع الأمور كلّها، فلما غُصِبُوا سلطانَهُمْ وأزيلوا عن مقامهم حتى غيّر أعداؤهم الدين وحرّفوا الكتاب المستبين وأراد الله إظهار دينه وإعلاء كلمته ردّهم في أيّامه أي ردّهم إلى الدنيا فيما هم عليه من ظهورهم برفع الموانع عنهم وإذلال أعدائهم الناصبين لهم الغاصبين لحقّهم وتمكينهم من مراتبهم التي خلقهم فيها وخلقها لهم فهم أيّام الله وردّهم في أيامه أي على ما هم عليه من كونهم ملوك الدنيا والآخرة ،أو المراد بالأيّام أوقات ظهور أفاعيله في خلقه من خلق ورزقٍ وحياة ومماتٍ كليّات أو جزئيات حيث كانوا أبوابه لجميع فيوضاته.

فإن قلت: على هذا لا معنى للرد لأنهم إذا كانوا أبواب فيوضاته لم يخرجوا عن تلك الأيام ليقال إنّه في الرجعة يردّهم فيها ولو كانوا خرجوا تعطّل الفيض.

قلتُ: إنّهم لم يخرجوا بالكليّة أصلاً وإلاّ لفسدت السموات والأرضين ومن

فيهن ولكنهم عليهم السلام لمّا لم يكونوا متمكنين من جهة إقامة الدين على ما ينبغي كان غاية وساطتهم في إصلاح الوجود الكوني بما فيه من الشرع الكوني وهو ظاهر التكوين فلا يكون الوجودُ الكوني مستقيماً على ما ينبغي بظاهر التكوين، وإنما يستقيم بباطنه وسرّه وباطن التكوين وسرّه هو الكون الشرعي ولم يكونوا في دولة الباطل متمكّنين من إقامته فإذا رجعوا ذهبت بظهورهم وتمكّنهم دَوْلَةُ الباطل واضمحلّت وأقاموا الكون الشرعي واستقامت الأشياء على كمال ما ينبغي واستدار الفلك كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض لأنّهم أقاموا العوج بأن أعطوا كلّ شيءً مدد معونته على ما يراد منه فهنالك صدق أن الله تعالى ردّهم في أيّامه أي أوقات ظهور أفاعيله من جميع الخلق والرزق والحياة والمَوْت.

وقوله (ويمكّنكم في أرضه) من قوله تعالى(وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا في الأَرْضِ وَنَجْعَلهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلهُمُ الوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ) وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال هم آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم يبعث الله مهديّهم بعد جهدهم فيعزهم ويذلّ أعداءهم).

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام (لتعطفن الدنيا علينا بعد شماسِها عطف الضروس على ولدِها وتلا عقيب ذلك (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ) الآية).

وفي معاني الأخبار عن الصادق عليه السلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نظر إلى علي والحسن والحسين عليهم السلام فبكى وقال أنتم المستضعفون بعدي فقيل للصادق عليه السلام ما معنى ذلك يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال معناه إنكم الأئمة بعدي إن الله تعالى يقول (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلهُمْ أَئِمَّةً) الآية).

فإذا كانت الفقرة مقتبسة من قوله تعالى (وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ) كان معناها أن الله تعالى يجعلهم أئمة يقتدى بهم وأنّه لا يكون بعد ملكهم ملكٌ لمخلوقٍ وإلاّ لما تَمَ التمكينُ إذا تمكّن بعدهم في الأرض غيرهم، لأنّ المعنى ظاهر في الآية حيث قال (وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً) يقتدى بهم أو أي لا يُقتدَى بغيرهم إلا عنهم (وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ) للأرض فلو تمكن بعدهم في الأرض أحد كان هو الوارث للأرض لأنه هو الأخير لا هم فلعلّ العطف في ونمكن لهم في الآية تفسيري.

قال عليه السلام فمعكم معكم لا مع عدوّكم آمنتُ بكم وتولّيتُ آخركم بما تولّيت به أوّلكم

قال الشارح المجلسي رحمه الله فمعكم معكم أي فأنا معكم بالقَلب واللّسانِ أو هُنا وفي الرجعة أو كرّر للتأْكيد وتولّيتُ أخركم بما توليت به أولكم أي أتولى كل واحد منكم بنحو ما توليت به أمير المؤمنين عليه السلام فإنّ كل واحدٍ آخِرٌ بالنسبة إلى سابقه أو أعتقد بوجود المهدي عليه السلام الآن لا كما تقوله العامّة أنه غير موجودٍ الآن بل يوجد ويخرج مع أنهم قائلون بوجود الخضر وإلياس وغيرهما وقائلون بأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (لا يزال أمر الدين قائماً ما وليه اثنا عشرٍ خليفةً كلهم من قريش) وبأنه قال صلى الله عليه وآله وسلم (من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة) فعلى قولهم لا دين لهم ويموتون كفاراً ونحن أيضاً قائلون بهذا القول انتهى.

أقول: قوله فمعكم معكم أي إذا جُبلت فطرتي واستقر رأيي وعملي واستقام اعتقادي واطمئنّ قلبي وسكنَتْ نفسي على ما تقدّم مما سمعتَ ونطق به لساني، وقد وجدتُ فيما انطوت عليه سريرتي وعقد عليه قلبي وكشف عن بيان حقيقته فؤادي إن مبدأ ذلك والمقتضى له والكاشف له والداعي إليه والمرشد إلى سبيله

المستقيم والمحبِّب إلى قبوله ليس مني ولا عني ولا من أحد من الخلق إلاّ بواسطتهم خاصّة عن الله غير ذلك وكان لابد إذ بدونهم لا يكون شيء من ذلك ولا حقّ في غيره ولا نجاة إلاّ به، ولم يرد الله غير ذلك وكان لا بدّ لكل من لم يكن مستقلاً من الانضمام إلى من يكون مستقلاً وبه الاستقلال وكان تعالى لم يجعل له باباً ولا واسطةً ولا دليلاً عليه ولا عضداً لجميع خلقه إلاّ إيّاهم عليهم السلام وجب أن يكون كلّ من سواهم منضمّاً إليهم طوعاً كأوليائهم ومحبيهم ولهم أجرهم، أو كرهاً كأعدائهم ومبغضيهم وعليهم وِزْرُهم وإليه الإشارة بقوله تعالى (بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ) لأوليائهم (وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ) لأعدائهم ولا قوام للمنضمّ إلا بالانضمام إليهم عبّر عنه بقوله (فمعكم معكم) على أن التأكيد للانقطاع والانتهاء (لا مع عدوّكم) لأنهم على العكس في جميع ما ذكر.

وأما ما ذكره من بعض المعاني لهذه الفقرة فهو صحيح فيجوز أن يراد بالآخر القائم عليه السلام على معنى أنّ ولايتي للقائم عليه السلام هي ولايتي لعلي بن أبي طالبِ عليه السلام أو كما أنّ ولايتي لعلي بن أبي طالب عليه السلام بعد وجوده وتحقّقه، كذلك ولاَيتي للحجة عليه السلام بعد وجوده وتحقّقه وهذا المعنى أي أنّي تولّيت من هو موجود أنسب من كون تولّيتُ بمعنى اعتقدتُ أوْ أنّ ولايتي لكلّ لاحقٍ منكم هي ولايتي لكلّ سابقٍ منكم أوْ أنّ كلّ واحد منهم عليهم السلام فله أوّل وآخر فأوّله من جهة حقيقته كالمقامات والمعاني والأبواب والأشباح فالمقامات أوّل حقيقي والمعاني والأبواب والأشباح أوّليتها إضافية، والإمام والحجة والمفترض الطاعة والخليفة آخرّ فقول المؤمن (تولّيْتُ آخركم) أي أوّلُ كلٍّ واحدٍ منكم أي آمنت وصدّقتُ وامتثلت وأثنَيْت وأطعتُ آخر كلٍّ واحدٍ منكم أي كونه عندي خليفة الله في أرضه وخليفة رَسُولِه

ووليَّ الله وإمام الخلق وحجّة الحقّ المفْترض على كلّ الخلق طاعته بما تولّيتُ به أوّلكم أي أوّل كلّ واحدٍ منكم يعني آمنتُ وصدّقْتُ وامتثلتُ وأثْنَيْتُ وأطعتُ أوّل كلّ واحدٍ منكم، أي كونه عندي اسم الله الأعظم وآيته الكبرى ومحلّ مشيته ولسان إرادته ومعاني أسماء أفعاله وحامل صفات أفعاله وترجمان وحيه ووجهه الذي إليه يتوجّه أولياؤه وبابه الّذي منه يؤتى وبَشَرُهُ المحتجبَ به عن الأشياء وحجابه الذي ظهر به للأسماء.

وقول الشارح ﵀ (لا كما تقوله العامّة إنّه غير موجود) يريد به بعض العامّة لا عامتهم لأنّ لهم في ذلك ثلاثة أقوال.

أحدُها: إنّ القائم الموعود بخروجه هو محمد بن الحسن العسكري ﵇ كما تقوله الشيعة وإنّ الله تعالى بقدرته وحكمته قد أطال عمره كما أطال عمر الخضر وإلياس وعلي بن عثمان بن أبي الدنيا، وأنّه في زمن علي ﵇ وإلى الآن هو موجود وأنه لا يموت إلاّ عند النفخ في الصور لأنه شرب من عين الحياة كما نقله الصدوق ﵀ في كتابه إكمال الدين وإتمام النعمة، وكإبليس مع نطق القرآن ببقائه إلى يوم يبعثون وإجماع المسلمين على ذلك وكالشياطين كما قيل بأنهم لا يموتون إلا بسبب بل قيل ذلك في الحيّة أيضاً وكالملائكة وقدرة الله في مثل ذلك لا تنكر إلاّ أنّ القائل بذلك منهم قليل نقله ابن حجر في الصواعق المحرقة له.

وثانيها: أن القائم هو عيسى بن مريم ﵇ ونقلوا عليه روايات وفسّروا قوله تعالى (وَإِن مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) وإن ضمير به وموته يعود إلى عيسى وأنه هو المنتظر ولأن الله تعالى قال (وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـكِن شُبِّهَ لَهُمْ) وقال تعالى (بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ).

وثالثها: أنّه المهدي العبّاسي من بني العبّاس وأنّه الآن لم يوجد ولا بدّ أنْ يوجد.

والحق ما دلّت عليه الروايات من الفريقين وإجماع أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم وهو أنه محمد بن الحسن العسكري عليه السلام عجّل الله فرجه فيجوز أن يكون تولّيت آخركم... الخ بمعنى آمنت بوجود آخركم عجّل الله فرَجَه وسَهَّل مَخْرَجَهُ أَوْ ببقائه وأنّه حيّ إلى أنْ يخرج طالت الأزمنة أوْ قصرت قبل الموت أوْ بظهوره قبل الموت حتى يملأَها قِسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً.

قال عليه السلام وبرئت إلى الله تعالى من أعدائكم ومن الجبت والطاغوت والشياطين وحزبهم الظالمين لكم والجاحدين لحقكم والمارقين من ولايتكم والغاصبين لإرثكم الشاكين فيكم المنحرفين عنكم ومن كل وليجة دونكم وكل مطاع سواكم ومن الأئمة الذين يدعون إلى النار.

قال الشارع المجلسي رحمه الله ومن الجبت أبو بكر ومن الطاغوت عمر والشياطين بني أمية وبني العباس وحزبهم وأتباعهم والغاصبين لإرثكم من الإمامة والفيء وفدك والخمس وغيرها الشاكين فيكم أي في إمامتكم كأنهم وإن لم يقولوا بإمامهم ولكن يحتملونها أو غيرهم من الشاكين ومن كل وليجة أي معتمد عليه كعلمائهم وفقهائهم كما قال الله تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلم الله الذِينَ جَاهَدُواْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ الله وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً) والمراد بالمؤمنين هُنا الأئمة عليهم السلام كما في الأخبار الكثيرة (ومن الأئمة الذين يدعون إلى النار) وهم أئمتهم لأنهم قائلون بأن أئمتنا داعون إلى الجنّة بلا خلاف بينهم انتهى.

أقول: برئ بمعنى امتنع وذلك بعد ذكر تولّيت أي انقدْتُ وأطعتُ بظاهري

وباطني وسرّ ي وعلانيتي وقولي وفعلي لكم ناسبَ ذكر ركن الدّين الأيسر وإن كان معلوماً عند ذكر الركن الأيمن من الدين الذي هو الولاية والطاعة المطلقة، لأنّ الإقبال يلزمه الإدبار عن ضده العام كما إذا قلتَ أنا غرّبتُ لزمك أنّك تركت جهة الشرق وامتنعتَ من التشريق لكن لمّا كان بعض العامّة يَدّعي أنّه متوالي بعلي وأهل بيته وبأصحاب رسول الله ﷺ وقد قامت الأدلّة عقلاً ونقلاً أن ذلك ممتنع بأن يتوجّه إلى الشيء في حال توجّهه إلى ضده العام ذكر البراءة لبيان توهّم من توهّم ذلك وللردّ عليه وعلى من يقول أحبّ الكل تحظ بالكلّ، ولأنّ النطق له تكليف خاصّ لا يسقط بقيام القلب بمعناه وليتعلّم من لا يعلم ويتنبّه من لم يتنبّه ولتشهد به الأرواح حين تسمعه ولينتقش في الألواح حين يقرعُها، فلما ذكر الموالاة ناسب ذكر ضدها العام لما قلنا فقال (وبرئتُ إلى الله عز وجلّ) أي امتنعْتُ ولم أُطِع ولم أنقَدْ بظاهري وباطني وسرّي وعلانيتي وقولي وفعلي من طاعة أعدائكم ومحبّتهم والميل إليهم والأخذ عنهم والتسليم لهم والردّ إليهم، والتجأْتُ في ذلك إلى الله عز وجل واستجرتُ به من ذلك الميل وأن يجري ذكره في قلبي وأسارير صدري وإلاّ يكلني إلى نفسي الأمّارة بالسُّوء فتميل إلى أبواها لأنّ كل إنسان له ستة آباء أبوا عقله محمد وعلي صلى الله عليهما وآلهما قال تعالى (وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا) من نور صفة محمد ﷺ مادّته وهي الأب ومن نور صفة علي عليه السلام الباطنة صورته وهي الأُم إذا كان ذلك الإنسان مؤمناً لأن الصورة صبغ الرحمة (بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ) وقال الصّادق عليه السلام (إن الله خلق المؤمنين من نوره وصبغهم في رحمتِه فالمؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمّه أبوه النور وأمّه الرحمة) الحديث.

وإن كان الإنسان كافراً أو منافقاً فمن ظل صفة علي عليه السلام الظاهرة (وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ) لأن علياً عليه السلام (شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَارًا).

وأبوا نفسه الأمّارة بالسوء الأوّل والثاني (وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا) فمادّتها من الأوّل سجّين وطين خبال وصورتها النكرى والشيطنة قال تعالى (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ) وهو الثاني والمنكر صفته (يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا) فمن الأوّل الأب ومن الثاني الأم. وأبوا الجسم الأبوان المعروفان (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا).

(وبرئت إلى الله عز وجل من أعدائكم) أي لذتُ إلى الله واعتصمتُ به من أن يميل قلبي أو يجري في فكري أو ينطق لساني بذلك.

وإنّما كانت الولاية الركن الأيمن من الدّين لأنها المقصود والمدد، وإنّما كانت البراءة الركن الأيسر من الدين لأنّها نفي المنافي بعد الثبوت، لأنه في عالم الكثرة لم تتحقّق الولاية الحق إلاّ بالبراءة لكون الولاية في حكم الجهل وما يصل إليه الجهل وما قد يلمّ به أعمّ من الولاية الحقّ لحضور الولاية الباطل عند الولاية الحقّ في مشهد الكثرة والجهل، فكانت البراءة هي الركن الأيسر للحوقها للولاية وإنّما كانت ركناً لاعتبار الملازمة بينهما وإنّما اعتبرت الملازمة لأنّ المكلّف لا ينفك عن الفعل أو الترك والولايتان متنافيتانِ تَنافياً كُلّيّاً، ففعلُ شيءٍ في إحدى الولايتَينِ تَرْكٌ له في الولاية الأخرى وتروك الولاية الحقّ واجبات ففعل هذه التروك محرمات فيها وهي أفعال الولاية الباطل، وأفعال الولاية الحق واجبات وتروكها محرمات فيها وهي تروك الولاية الباطل، فمن ترك واجباً من الله فقد فعل تركاً

معتبراً في الولاية الباطل ومَن فعل محرّماً عند الله فقد فعل فعلاً معتبراً في الولاية الباطل فلا يخلو المكلّف عن أحدهما أبداً، فالولاية الباطل ضدّ عام للولاية الحق، وكلّ فعل أو ترك فيها فهو ضدّ عام لنقيضه في الولاية الحق، فكانت الولاية الحق لا تتقوّم في مشهد الكثرة إلاّ بالبراءة من الولاية الباطل.

وقوله عليه السلام (ومن الجِبْت والطاغوت) عطف تفسيري أو خاص على عامّ، والجِبْت الصنم والكاهن والسّاحر والسِّحر والذي لا خير فيه وكلّ ما عُبِدَ مِن دون الله تعالى وفي حديث الباقر عليه السلام المراد به الأول وفي القاموس (الطاغوت اللاّت والعُزَّى والكاهن والشياطين وكل رأس ضلال والأصنام وكل ما عبد من دون الله ومردة أهل الكتاب) هـ.

والطاغوت فعلوت مقلوب طغى وهو تجاوز الحدّ ويجيء مفرداً كقوله تعالى (يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ) وجمعاً كقوله تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ) ويجمع مفرده على طواغيت وكذلك الجبت يجمع على جوابيت وفي الدعاء (اللهم العن الجوابيت والطواغيت وكلّ ندٍّ يدعي من دون الله) هـ.

وفي حديث الباقر عليه السلام المراد بالطّاغوت الثاني وفيما كتب الرضا عليه السلام للمأمون في الحديث الطويل الذي جمع فيه كثيراً من الأصول والفروع قال عليه السلام (ولا إيمانَ إلاّ بالبراءةِ من الجبت والطّاغوت اللذيْنِ ظَلما آل محمّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم حقّهم وأخذا ميراثهم وأخذا خمسهم وغصبا فدك من فاطمة صلّى الله عليها وهَمّا بإحراق البيت والصكّ عليها وغيّرا سنّة نبيّهم صلى الله عليه وآله وسلم)هـ، والصَّكُّ هُنا الباب.

وقوله عليه السلام (والشياطين وحزبهم الظّالمين لكم ... إلى آخره) يراد منه في الشياطين الخواصّ مثل ودٍّ وسُواع ويغوثَ ويعُوقَ ونسرٍ والحمار والسّامري

والأنصاب والأزلام أو مطلقاً ويدخل فيه المذكورون والسلسلة التي ذرعها سبعون ذراعاً بذراع إبليس وفي حديث الرضا عليه السلام الطويل المذكور قال عليه السلام والبراءة من الناكِثَيْن ودٍّ وسُواع وأراد بهما طلحة والزبير قال عليه السلام اللّذين هتكا حجاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونكثا بيعة إمامهم وأخرجا المَرْأةَ وحاربَا أمير المؤمنين عليه السلام وقتلا شيعة رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم المتقين والبراءة من يغوث نعثل الذي ضرب الأخيار ونفاهم وشرّدهم في البلدان وآوى الطُرداء واللعَنَاءَ، وجعل الأموال دُولةً بين الأغنياء منهم واستعمل السفهاء والبراءة من يعوقَ ونسرٍ معاوية لعنه الله وعمرو بن العاص وأتباعهم الّذين حاربوا أمير المؤمنين عليه السلام وقتلوا المهاجرين والأنصار وأهل الفضل والصلاح من التابعين والبراءة من الحمار الذي يحمل الأسفار أبي موسى الأشعري وأهل ولايته والبراعة من السّامري وأصحابه (الذِينَ ضَل سَعْيُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ★ أُولئِكَ الذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ) بولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولقائه أن يلقوا الله بغير وَلايته وَإمامته فحَبطَتَ أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً كلاب النار

أقول: في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهو يخطب في البصرة بعد رجوعه من وقعة الجمل وكان الحسن البصري مستتراً ويكتب كلماته عليه السلام لينسبها إليه فزجره وقال (مه ثم قال عليه السلام أما أن لكل أمّةٍ سامري وسامري هذه الأمّة هذا).

قال الرضا عليه السلام (والبراءة من الأنصاب والأزلام أئمة الضلالة وقادة الجور كلّهم أوّلهم وآخرهم والبراءة من الشقيّ المرادي نظير عاقر الناقة الذي كان أشقى الأولين والآخرين والبراءة من يزيد بن معاوية لعنهما الله وأصحابه الذين قتلوا الحسين بن علي عليهما السلام) الحديث.

أقول: إنه عليه السلام ذكر البراءة من هؤلاء بعد ذكر الإيمان فقال (والإيمان أداء الفرائض واجتناب المحارم وهو معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان إلى أن قال ونؤمن بعذاب القبر ومنكر ونكير والبعث بعد الموت والحساب والميزان والصراط ولا إيمان إلاّ بالبراءة من الجبت والطاغوت) إلى آخر ما تقدم، فدلّ على أن البراءة ركن للولاية العامّة الكلّية التي هي جميع ما يريد الله من المكلّفين في مقام التكليف الذي عبّرنا عنه سابقاً بمقام الكثرة والجهل كما أشرنا إليه وعلى تفسير الشارح للشياطين ببني أُمية وبني العبّاس الذين هم السلسلة التي ذرعها سبعون ذراعاً بذراع إبليس ثلاثون من بني أميّة ومَن ترأسَ لهُمْ من أتباعهم وأربعون خلفاء بني العبّاس.

وفي تفسير علي بن إبراهيم قال (معنى السلسلة السبعين ذراعاً في الباطن هم الجبابرة السبعون) هـ

يعني الثلاثين من بني أميّة والأربعين من بني العباس فعلى ذلك يكون ضمير في حزبهم يعود على السّبعين ومن ذكر قبلهم ممّن تقدّم عليهم ويجوز أن يراد بالشياطين من ذكره الرضا عليه السلام في الحديث السابق بخصوصهم فيكون الحزب شاملاً لبعض الثلاثين وكل الأربعين واتباع الجميع المشاركين لهم إلى يوم القيامة.

وفي تفسير القميّ عن الصادق عليه السلام (أَوْ كَظُلُمَاتٍ) فلان وفلان (فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ) يعنى نعثل (مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ) طلحة وزبير (ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ) معاوية ويزيد لعنهما الله وفتن بنى أمية لعنهم الله) الحديث

والبحر اللجّيّ هو الدنيا وفي الحديث (الدنيا بحر عميق قد غرق فيها عالم كثير) الحديث

وقد جعل الأول والثاني ظلمات ومن بعده ممن ذكر ظلمات وجعل بعضها فوق بعضٍ يشعر بأن الأربعين داخلون في الحزب.

والحاصل أنا إذا اعتبرنا في البراءة الضدّية العامّة للولاية ظاهر الحقّ العامّة دخل في المتبرئ منهم كل ظالم من الصامت والناطق حتّى نشترط في كمال الإيمان الولاية للأرض والماء العذبَيْنِ والبراءة من الأرض والماء المالحَيْن.

وقوله (والظالمين لكم) يشمل كلّ من ادّعى ما ليس له فإنّه ظلم لآل محمد ﷺ لأنهم عليهم السلام حقّهم الحقُّ في كل شيء، فمن تعدَّى حدّاً من الله فقد ظلمهم عليهم السلام .

وقوله (والجاحدين لحَقّكم) يدخل فيه كل من عرف أن حق آل محمد عليهم السلام الحق وتعدى حداً من حدود الله بعد العلم أي المعرفة الذوقية بذلك والجاهل بذلك ناقص الإيمان إلا أنه لا يدخل في ذلك فإن كان من أهل المحبّة لأهل البيت عليهم السلام فأولئك يبدّل سيّئاتهم حسنات، وإن لم يكن من أهل المحبّة والولاية فأمره مُرجى لأمر الله فإذا قامت قيامته حاسبه بعمله فإمّا إلى الجنَّةِ وإمّا إلى النَّار.

(والمارقين من ولايتكم) كالخوارج أوْ أعمّ.

(والغاصبين لأرثكم) كمن تقدّم أوّلاً ويدخل فيهم كلّ من اتّبعهم على ذلك والإرث كفدك والعوالي والخمس والجلوس للحكم والتولّي لأمور المسلمين والتسلّط عليهم وأمثال ذلك.

وأمّا ميراثهم الحقيقي الذي هو العلم وآثار الأنبياء ودلائل الإمامة فإن ذلك عندهم لا يمكن لأحد من الخلق على إزالته عن رتبته التي وضعه الله فيها.

(الشاكّين فيكم) يدخل في هذا كل من دخله شك أوْ ريب في إمامتهم وكونهم حجج الله المفترضين الطاعة على المكلّفين وفي شيء من فضائلهم الظاهرة المشهورة وفيما ورد في حقهم من بعد ما تبيّن له الهدى.

وأمّا من لم يعلم فحكمه الإرجاء لأمر الله يوم القيامة وكذلك حكم المنحرفين عنكم من بعد ما تبيّن له الهدى.

(ومن كل وليجةٍ دونكم) الوليجة البطانة والأصل من يتّخذه الرجل لسرّه ويعتمد عليه بخلاف ما يظهر للناسِ وكل من اتخذ وليجةً من دونهم عليهم السلام بعد البيان من الله فهو يعبد وليجتَهُ من دون الله من حيث لا يدري وإليه الإشارة بقوله تعالى (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلذِينَ أَشْرَكُواْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَالله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ★ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ).

ويقول الصادق عليه السلام في الحديث السابِق في الإيمان قال عليه السلام (هيهات فات قوم وماتوا قبل أن يهتدوا وظنّوا أنهم آمَنُوا وأشركوا من حيث لا يعلمون).

(وكل مطاع سواكم) أي كلّ مطاع سواكم فهو مطاعٌ في معصيةٍ من جميع الخلقِ، وكلّ مَنْ أُطيع من جميع الخلق في طاعةِ الله فهو طاعتهم وأُطيع لهم وليس هو إذْ ذاك سواهم سواء علِم المطيعُ أو المُطاعُ بذلك أم لا والأصل في هذا ما ذكرناه سابقاً إنّ ما كان لله فهو لهم وما كان لهم فهو لله وما لا يكون الله لا يكون لهم وما لا يكون لهم لا يكون لله إلاّ أنّا سابقاً بيّنّا دقيقةً يفرق بها بين الحقّ والباطل وهو أنّ ما يكون لهم لا بدّ وأن يكون صحيحاً وحقاً ولا يكون لهم شيء من الباطل، فأيما عمل أوْقعَ لهم خاصّة فليس لله وليس لهم لأنه عمل باطل وليس لله وليس لهم إلاّ الحق، وأيّما عَمل أوقِع لله خاصّة فهو لهم لأنه حقّ وصحيح فإذا أخلص العملُ لله كان صحيحاً وصحّ أنْ يكون لهم لأنّ الله سبحانه غنّي عن كلّ شيء وإنّما أمر بالأعمال لهم، وعلى الله سبحانه جزاء من أطاعَهُ في ذلك وإنّما أمر

بعبادته خاصّة لتصحّ العبادة ولو وقعَتْ لهم عليهم السلام كانت باطلةً ولا يصل إليهم منها شيء وإنّما كانت الأعمال لهم لأنها زرعهم وَمَنْ زَرَع حَصد وقد تقدّم بيان كون هذا زرعهم في خلال هذا الشرح في مواضع متفرقة فراجع.

(ومن الأئمة الذين يدعون إلى النار) وهم الذين اتخذوا إلههم هواهم لأنّهم يحكمون بما يوافق أغراضهم وشهوات أنفسهم وعلى مقتضى حوائجهم وقد ائتمّوا بهم والسُّفل ومن يريد الله إضلاله لم يقبل الحق من الله فيكله إلى نفسه فيأتمّ بأمثال هؤلاء الأئمة أئمة الضلال الذين حكى الله تعالى عن قولهم يوم القيامة لمن أضلّوهم (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ★ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ).

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام (إن الأئمة في كتاب الله عز وجل إمامان قال الله تبارك وتعالى (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا) لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم، وحكم الله قبل حكمهم، قال (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) يقدمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب الله عز وجل) هـ.

فإن قلت: كيف يمكن ممّن يتصف بالتمييز أنْ يفعل شيئاً يدخل به النار مع علمه بذلك ويقينه كما أخبره الله عن علمه بذلك وقصده إليه قال تعالى (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ) وقال تعالى (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ★ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ) فإنهم أخبروا في الآخرة عن حالهم في الدنيا أنّا لمّا حقّت عَلَيْنا كلمة ربّنا بتعذيبنا.

قلتُ: إنّ الكافر والمنافق لا بدّ وأن يكون عالماً بما دُعِي إليه أنّه حقّ بحيث لا يجهل شيئاً وإلاّ لما قامت الحجة عليه لأنّ الله تعالى بكرمه ولطفه وغناه عمّا سواه

إنما أمر عبادَهُ وكلّفهم لصلاحهم ونفعهم كما قال تعالى (يُرِيدُ الله بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ) ولا يكلّف الغَافل ولا الجاهل بما يؤمر به ولا يحمل على غير العالم بما يُؤمَرُ به فأبانَ على ألسِنَةِ أوْليائِه ليس على العباد أن يعلموا حتى يُعَلّمَهُم الله، الناس في سعةٍ ما لم يعلموا وقال تعالى (وَمَا كَانَ الله لِيُضِل قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ) َمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً) (وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُول مِن بَعْد مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى) وأمثال ذلك ولو كلّف الغافل لكان تكليفاً بما لا يطاق وهوَ قبيح عقلاً لا يفعله الغني المطلق ولو حمل على الجاهل لكان ظلماً وما رَبكَ بظلاّم للعبيد.

وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) فذلك جهل بين عِلمَيْنِ

ويقول [illegible] والعلّة في ذلك أن الله سبحانه خلقَ كل شيء على صفة ما تعرّفَ له به ومَا تعرّفَ لشيء إلا بالحق المبين لأنه سبحانه هو الحق المبين وحقيقة كل شيء ما تعرف له به ولم يكلّفه بشيء إلاّ بوصف ما تعرّف له به، لأنَّ جميعَ الأفعال صفات الفاعلين فكل فعلا فهو صفةُ فاعلِه فلمّا أبرز من كتم غيبِ الإمكان ما تعرّفَ به له الذي قلنا إنه حقيقته وجب أن تكون له إنية من نفسه، إذ لا يمكن ألاّ يكون هو إيّاه ويتميّز في حسه عند نفسه فذلك الفائض البارز هو وجوده ومادة كونه المقبولة وتلك الإنيّة اللازمة هي ماهيّته وصورته وقابليته للتكوين وهذا معنى قولهم كل شيء مكوّن فله اعتبار من ربه واعتبار من نفسه فالاعتبار الذي من ربّه هو نور الله وهو وجوده وهو مادّته وهو ما تعرّف له به والاعتبار الذي من نفسه هو ظلمة فقره وهو ماهيته وهو صورته وهو ما عرف به نفسه أنه هو فكلّما ترك اعتبار نفسه وعمل باعتبار ما من ربّه قوى نوره واستقامت فطرته واعتدل

مزاجه واستنار عقله وهكذا إلى أنْ يفارق الأضداد، وإلى مثل هذا المقام أشارَ تعالى بقوله (ما زال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أُحِبَّه فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده الذي يبطش بها إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وإن سكت ابتدأته) هـ.

وكلّما ترك اعتبار ما من ربه وعمل باعتبار نفسه قويت ظلمته وتغيّرت خِلقتُه وتبدّلت فطرته واعوجّ مزاجه وطبع على قلبه وهكذا إلى أن يرى الحقّ من جهة تغييره لخِلقته باطلاً والباطل حقّاً وليس هذا دائماً عليه لأنّ خِلقته التي من الله موجودة فيه فبإبصاره بعين فطرته يرى الحقّ حقاً، والباطل باطلاً وبإبصاره بعين الصورة المتغيّرة يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، ومثال هذا ما نقل بعض الثقاة أنه رأى مِرآةً أتى بها من عمل الإفرنج إذا نظر فيها الإنسان يرى وجهه وجه كلبٍ لأنّهم في صبّ زجاجتها عوّجوها فإذا نظر فيها انطبعت الصورة على حسب الزّجاجة، كما إذا رأيتَ وجهك في السيف المصقول فإنك تراه طويلاً متغيراً تغيّراً فاحشاً في الدّقةِ والطول إذا نظرت فيه بالطول وترى الوجه عريضاً عرضاً فاحشاً إذا نظرت فيه بالعرْض فمن جهة أصل فطرة الإنسان يرى وجهه في تلك المرآة الإفرنجية له عينان وأنف وجبهة وفم ولا يرى صورة جماد كصورة الجدار أو الشجرة، ومن جهة تغيّر الزجاجة التي هي القابلة لا يرى وجه إنسانٍ وإنّما يرى وجهه كلب وذلك لتغيّر الهيئة، كذلك الإنسان خلق في أحسن تقويم لأنه صفة ما تعرّفَ به الحق سبحانه له فإنّه إنّما تعرّف به له بالحقّ ثم ردّه بعمله السيئ أسفل سافلين، لأنّ هذا هو صورته حين غيّرَها عن فطرةِ الله التي فطره عليها وبدّلها، كان صفة هذا التغيير والتبديل أسفل سافلين كما كان صفة التغيير والتبديل في تلك المرآة صورة كلب فافهم.

فلمّا كان هؤلاء المغيّرون والمبدِّلون لخلق الله والمبتِّكون آذان الأنعام خلقوا على فطرة الحق الّتي هي صورة تعرُّفِ الله تعالى له وهي الصورة الإنسانية التي هي صفة الحقّ كما ذكرنا سابقاً بأنّ الصورة الإنسانية شكلها مركّب من حدود وهي علم وحلم وتقوى وزهد ويقين ومعرفة وصلاح وتصديق وتسليم ورضى ومروّة وشجاعة وكرم وعفو وتجاوز وصفح وصبر وغير ذلك، ومَن كانت هذه صفته يقبل الحق ويعتقده ويستقيم عليه فلمّا أُمِرَ هؤلاء بمقتضى ما فُطِروا عليه وذكروا به في الدعوة الإلهيّة عتوا وعصوا وخالفوا جميع ما أمروا به وهو تغيير خلق الله وتبّديله وتبتيك آذان الأنعام وهذه صورة إنكار ما تَعرَّفَ لهم به خالقهم وهي الصورة الحيوانية إن هم إلا كالأنعام.

والصّورة الشيطانية شياطين الإنس والجنّ وشكلها مركّب من حدود وهي جهل وخرق وتهتّك وطمع وشكّ وإنكار وطلاح وتكذيب واعتراض وسخط وشره وجبن وبُخْل ومناقشة ومقاصّة ومحاسبة وجزع وغير ذلك، ومن كانت هذه صفته يقبل الباطل ويعتقده ويستقيم عليه فلمّا كانت الحالتان موجودتين فيهما كان يعرف الحق بالفطرة الأصلية ويقبل الباطل بالصورة التبديلية فهو لا يستقر على حال يعرف الحق أنّه حقّ ويتركه بالصورة الثانية وينكر الباطل بالأولى ويقبله ويعمل به بالثانية وهكذا حاله (وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلهُ يَجْعَل صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء) فأخبر سبحانه عن معرفتهم بالحق وقبولهم للباطل فقال (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلمًا وَعُلُوًّا).

فإذا عرفت ما فصّلنا لك ظهر لك الجواب في كل ما ذكرتَ من السّؤال وعرفت الصواب فهم يعرفون حقّيّةَ كلّما كُلِّفوا به بالصورة الأولى ويجحدونه

ويعملون بخلافه بالثانية ويعلم أنّ عمله هذا موجب لدخول النار بالأولى وينكر وجود النار والبعث بالثانية فيدعوه إنكاره هذا لوجودِ البعث والجنّة والنّار إلى العمل بما يوجب دخول النّار، ويدعو أتباعه إلى ذلك فهؤلاء الأئمة يدعون إلى النار وهم يعلمون في حال وهم لا يعلمون في أُخْرى وهذه أحوال الأئمة والدعاة إلى النار وأكثر أتباعهم ممّن عرف ومن لم يعرف موقوف لأمر الله كما تقدم فافهم.

وقول الشارح ﵀ (لأنهم قائلون بأنّ أئمّتنا داعون إلى الجنّة بلا خلاف بينهم) فيه شيء لأن أتباعهم على ثلاثة أقسام.

قسم منهم تبيّن لهم الحقّ وعاندوا عليه بعد أن بيّن لهم الله الحق في أنفسهم فهؤلاء في دعواهم واعتقادهم في أئمّتهم مثل أئمّتهم فيما ذكرنا من الشك والتردد لأجل مقتضى الصورتين.

وقسم منهم تبيّن لهم الحق فكتموا أمرهم فهم يعملون بعمل أئمّتهم ويقولون بقولهم ظاهراً ولهم في أنفسهم أحوال متعددة منهم من يقرّ بخطأ أئمتهم ولكنه لملازمته لعملهم قد يختم له بالسّوء لأنّ العمل هو الذي يحدث الله به الصورة من إحدى الصورتين فإن كان يعمل بعملهم غير معتقدٍ له بل إذا تمكن من العمل الحق عمل به فهذا مؤمن، وإن كان لا يعتقده ولكن لا يعمل بالحق مع التمكن فهذا فاسق ينظر الله في يوم تقوم قيامته في حياته أو يوم القيامة، وإن كان يعتقده ولم يتبيّن له الهدى فهو مرجى لأمر الله وإن تبيّن له الهدى فهو منهم لأن الأعمال السيئة ترين على القلب وتخرجه من الحق إلى الباطل (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) وقال تعالى (وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ

يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً) أي إلاّ قليلاً ممّن كفر على جهل ولم يتبين له الحق، أوْ إلاّ قليلاً من أحوالهم يؤمنون ولا ينفعهم لأنّهم مقيمون على اعتقاد الكفر بعد البيان، ومن هذا القسم الثاني أبو بكر بن قريعة من علمائهم وقد سئل عن ما هم عليه في خلوة فقال للسائل:

يا من يسائلُ دائباً عن كل مسألة سخيفة
لا تكشِفنّ مغطّا فلربّما كشّفت جيفة
ولرُب مستورٍ بدا كالطبل من تحت القطيفة
لولا حدود صوارم أمضى مضاربها الخليفة
وسيوف أعداء بها هاماتُنا أبداً نقيفة
لكشفتُ من أسرار آل محمد جُملاً طريفة
تُغْنيكُم عمّا رواه مالكٌ وأبو حنيفة
وأرَيْتكم أنّ الحسين أُصيبَ في يوم السقيفة
ولأيّ شيءٍ أُلحِدَتْ بالليل فاطمةُ العفيفة
ولِما حَمَتْ شَيْخَيكُم عن وطىءِ حجرتها المنيفة
آه لبنتِ محمّدٍ ماتَتْ بُغصَّتها أسيفة
إنّ الجواب لحاضرٌ لكنّني أُخْفيه خيفة

وكلامه هذا كما ترى ظاهر الإنكار عليهم والله أعلم بما في قلبه.

وقسم منهم لم يتبيّن لهم الحق فهؤلاء لا حكم لإقرارهم ولا إنكارهم حتى يتبيّن لهم الهدى في الدنيا أو في الآخرة فيلحق بأحد الفريقين فريق في الجنّة وفريق في السّعير، وكثير من هؤلاء شاهدناهم إذا رضي عليهم أو غضِب علينا أثنى على

أئمّتِه وجعلهم الدعاة إلى الجنّة وإذا غضب عليهم أو رضي علينا طعن عليهم وربّما لعنهم، وإذا كانت أتباعهم على هذه الأقسام فلا يقال بقول مطلق أنهم قائِلون بأنّ أئمّتهم داعون إلى الجنّة بلا خلاف.

قال عليه السلام فثبتني الله أبداً ما حَييتُ على موالاتكم ومحبّتكم ودينكم

مقتبس من قوله تعالى (يُثَبِّتُ الله الذِينَ آمَنُواْ بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)

وفي الكافي عن سويد بن غفَلة عن أمير المؤمنين عليه السلام في صفة الحساب في القبر إلى أن قال فإذا ادخل قبره أتاه ملكا القبر يجران أشعارهما ويخدان الأرض بأقدامهما ، وأصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيقولان له من ربك وما دينك ومن نبيك ومن إمامك فيقول الله ربي وديني الإسلام ، ونبيي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام إمامي ، فيقولان له ثبتك الله فيما تحب وترضى ، وهو قول الله عز وجل (يُثَبِّتُ الله الذِينَ آمَنُواْ بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ)الحديث.

وفي الفقيه قال الصادق عليه السلام (إنّ الشيطان ليأتي الرجل من أوليائِنا عند موته عن يمينه وعن شماله ليضلّه عما هو عليه فيأبى الله عز وجلّ له ذلك وذلك قول الله عز وجل (يُثَبِّتُ الله الذِينَ آمَنُواْ بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ) وغير ذلك من الأحاديث.

ولما كانت القلوب قد تزيغ وتتقلّب أمر أهل العصمة عليهم السلام شيعتهم بأن يقولوا كل يوم (يا مقلِّب القلوب والأبصار ثبّت قلبي على دينك ودين نبيّك صلى الله عليه وآله وسلم ولا

تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب) لأنّ القلوب وسائر الممكنات إنّما تقوم بأمر الله ولا قوام لها من نفسها إلاّ أن الأشياء مختلفة في لزوم الصفات لموصوفاتها والتوابع لمتبوعاتها، لأنّ الوصف إن كان للصورة الأولى الأصليّة كان لزومها أشدّ وانفكاكها أبعد وإن كان يجوز عليها ذلك، ففي حديث التكليف الأوّل في عالم الذرّ في حكم قبض قبضةً بيمينه فقال للجنّة ولا أُبالي وقبض قبضةً بشماله فقال للنار ولا أبالي واشترط لنفسه البداء في أصحاب الشمال ولم يشترط ذلك في أصحاب اليمين، وذلك لأن الصفة اللازمة من أعمال أصحاب الشمال من الصورة الثانية التي هي الشجرة المجتثّة بخلاف الصفة اللازمة من أعمال أصحاب اليمين من الصورة الأولى التي هي الشجرة التي أصلُها ثابت وفرعها في السماء، فالملزوم في المجتثّة أصله عدم أي مستنِد إلى الافتقار والملزوم في الثابتة أصله وجود أي مستند إلى الاستغناء بمدد الغنى ولذا كان اللزوم في الخير أشدّ من اللزوم في الشر والانفكاك في الخير أبْعَد من الانفكاك في الشر.

ولمّا اسْتقَرّ اليقين على معنى ما ذكر ممّا وصفهم به ونسبه إليهم وأنّه سبيل الهدى وطريق النجاة من النار وغضب الجبّار وطريق النجاح والظفر بالجنان ورضى الرحمن اغتبطَ بما تفضّل به عليه مولاه المتفضّل المنان واستحقَر نفسه في مقام عظيم هذه النعمة الكبرى سأل ربّه الذي ابتدأه بهذا الفضل العظيم من غير استحقاق أنْ يُثبتَه عليه ما أبقاه يعني في الدنيا الّتي هي محلّ التبدّل والتغيّر لأنّه إن لم يعصمه المتفضل ابتداء غيّر ما بنفسه فيغيّر الله ما به من نعمة فإذا ثبته على ذلك إلى الموت استقرّ الفضل مقرّه ولم يخف عليه بمجرى عادة الفضل.

ولمّا كان سبحانه لا يسأل عمّا يفعل وهو على ما يشاء قدير فإن أبقاه فهو ملكه أدامَهُ على ملكه وإن شاء أن يغيّره فالملك له يتصرّف في ملكه كيف يشاء إذ لم يكن له شريك في الملك أمر بالدعاء بالتّثبيت في الدنيا التي هي محلّ التغيّر الكوني وفي الآخرة التي هي محلّ التغيّر الإمكاني، والخلق كله له وفي قبضته في الدنيا والآخرة ودعاء منكر ونكير كما مر في الحديث للمؤمن مع أنه خرج من دار التغيّر الكوني بالتثبيت في الدنيا والآخرة من ذلك القبيل لأن الآخرة والدنيا في التغيّر الإمكاني سواء (أَلاَ لهُ الخَلقُ وَالأَمْرُ) (وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ) (أَلا إِلَى الله تَصِيرُ الأُمُورُ)، وإنّما أمرَ بالدّعاء مع أنّ السببَ في التثبيت الأعمال الصالحة لأنّ الدعاء هو الركن الأعظم من السبب من جهة أنه من القدر بمنزلة الروح والعمل بمنزلة الجسد كما قاله علي بن الحسين عليه السلام لما سأله رجل فقال (جعلتُ فداك أبقدر يصيب الناس ما أصابهم أم بعمل فقال عليه السلام إن القدر والعمل بمنزلة الروح والجسد فالروح بغير جسد لا تحسّ والجسد بغير روح صورة لا حراك بها فإذا اجتمعا قوياً وصلحا كذلك العمل والقدر) الحديث رواه في التوحيد.

وفي كثير من النسخ ما بقيتُ مكان ما حييتُ والمراد من اللفظتين هو أنّ المراد بالحياة في دار الدّنيا وبالبقاء دار في الآخرة وإنما خصّ التّثبيت بالدنيا لما قلنا من أنّها هي دار التغيّر الكوني فإذا سلم في الدنيا إلى أن خرجت روحه سَلِمَ من التَّغيُّرِ والانقلاب غالِباً لمن محض الإيمان محضاً أوْ محض الكفر محضاً، أمّا من لم يمحض فحكمه موقوف على بلوغه مقام المحض سواء كان في الدّنيا أو في الآخرة.

وقوله عليه السلام (على موالاتكم) المرادُ به المُوالاةُ الصُّوريّةُ ولهذا عطف عليها المحبّة والدّين والعطف يقتضي المغايرة ولو أريد بها الولاية الحقيقيّة لما عطف

عليها المحبّة والدين إذ كلّ شيء مما يحبّ الله ويريده من أحدٍ من خلقه فهو من الولاية إلاّ أن يراد بالعطف عطف الخاصّ على العام كما قيل في قوله تعالى (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ) وعطفهما على فاكهة مع أنهما منها لزيادة مزيّة لأنّهما لم يخلصا للتفكّه لأن ثمرة النخل فاكهة وطعام والرمان فاكهة ودواء، كذلك المحبّة والدين فإن المحبّة ربّما تكفي عن ظاهر الولاية حتى أن الأخبار وردت من الفريقين بما ظاهره الاكتفاء بها في النجاة يوم القيامة مثل ما رووا من طرقٍ متعدّدة إنّما سمّيت فاطمة لأن الله فطم محبّها ومحبّ محبّها ومحبّ محب محبّها من النار في عدة أحاديث لم يكن عندي الكتاب الذي وجدتها فيه ولكن هذا محصّل معنى أكثرها، ومثل ما روي من طرقهم أيضاً كما رواه ابن شاذان عنهم وقد تقدم ومن طرقنا أيضاً ما معناه قال تعالى (أقسم بعزّتي وجلالي أني أدخل الجنّة من أحبّ علياً وإن عصاني، وأقسم بعزتي وجلالي إني أدخل النار من أبغض علياً وأن أطاعني) والأحاديث في أن حبّهم منج من النار لا تكاد تحصى، وكذلك الدين فإنه في الظّاهر غير الولاية، وفي الكافي قال أبو عبدالله عليه السلام (يسأل الميتُ في قبره عن خمس عن صلاته وزكاته وحجه وصيامه وولايته أيّانا أهل البيت فتقول الولاية من جانب القبر للأربع ما دخل فيكن من نقصٍ فعلي تمامه).

وفي رواية عن أحدهم عليه السلام ما معناه إذا دخل المؤمن في قبره دخل معه خمس صور صورة عن يمينه وصورة عن يساره وصورة من قِبَلِ رأسه وصورة من قِبَل رجليه وصورة ترفرف من فَوْقه فيأتيه العذاب عن يمينه فتدفعه الصورة التي عن يمينه ويأتيه من يساره فتدفعه الصورة التي عن يساره ويأتيه من قبلِ رأسه فتدفعه الصورة التي من قبل رأسِه ويأتيه من قبل رجليه فتدفعه الصورة التي من

قبل رجليه، فتقول الصورة التي تُرَفْرِف من فوقه لهن ما نقص منكن فعلي تمامُه وإن عجزتم فأنا أكفيكم إيّاه فقال السائل له عليه السلام ما هذه الصور فيقول عليه السلام أما التي عن يمينه فالصلاة وأمّا التي عن يساره فالزكاة وأمّا التي عند رأسه فالصيام وأما التي عند رجليه فالسعي إلى المساجد وأمّا الّتي تُرَفرف عليه فولايتنا).

وأمثال ذلك من الأخبار وهي تدلّ على أنّ الدّين والأعمال غير الولاية، والمراد بالولاية هنا ولايتهم وولاية مواليهم والبراءة من أعدائهم ومحبّتهم ومحبّة محبيّهم وبغض أعدائِهمْ وهي المرادة في هذا الكلام من الزيارة.

وأمّا الولاية المطلقة الّتي ما بقي أحدٌ من الخلق غيرهم لا نبي مرسل ولا ملك مقرّب ولا مؤمن ممتحن إلاّ وقع منه تقصير فيها في شيء من أحوالها فالمحبّة والدّين وجميع الأعْمال من التكاليف الشرعيّة والوجوديّة منها.

وقوله عليه السلام (ومحبّتكم) يُراد منه الدعاء بالتثبيت على محبّتهم وهي في الحقيقة منبعثة من الفؤاد لتفرّعها على المعرفة وإذا انبعثت عن غير الفؤاد لم تكن حقيقيّة بل يجوز أن تكون لِغَرضٍ لأن المحبة الذاتيّة الحقيقيّة هي الّتي تكون لمحض الذات مع قطع النظر عن الصفات الفعلية سواء وافقت إرادة المحب أم خالفت لأنها ليست ملحوظة كما قلتُ في بعض قصيدةٍ في الغزل:

فإن جفا وإنْ وَفَى وَإنْ صفى
فهو الحبيب أيَّ حالٍ ارْتضى
يتبعه قلبي لا أحواله
فلينق من أحواله بما يشا

وهذه قد تكون عن معرفةٍ وقد تكون عن جهل فإن كانت عن معرفةٍ بصفات المحبوب فلا تكون المحبّة حقيقيّة يعني غير معلّلةٍ إلاّ بأحد وجهين.

أحدهما: إن المحب وجد صفات المحبوب عين مطلوبه فتكون حينئذٍ المحبة حقيقيّة فإنه إذا أحبّ تلك الصفات كانت حقيقيّة غير معلّلةٍ بغير المحبوب فالمحبوب تلك الصفات المطلوبة لا الموصوف ومحبّة الموصوف ليست حقيقية لأنّها معلّلة بصفاته المطلوبة وإن وجدها غير المطلوبة أوْ وجد بعضها كذلك لم تتحقق الحقيقية إلاّ على الوجه الثاني الذي نذكره فالذات ليست مطلوبة والصفات كذلك فإذا أحبّ فهو لطمعٍ أو خوفٍ.

وثانيهما: أن يكون المطلوب للمحب هو ذات المحبوب بغير التفاتٍ إلى شيء من صفاته وهنا تكون المحبّة على الأصح حقيقيّة سواء وافقت صفاته أم خالفَتْ، وإنّما قلتُ على الأصح لأن العلماء قد اختلفوا مع ظاهرِ اتّفاقهِم على أن المحبّة إذا وقعت من شخص فإنّها راجعة إلى نفس المحبّ وشهوته وهوى نفسه وإنما اختلفوا في محبّة الله سبحانه هل يمكن أن تكون خالصةً لله تعالى أم تكون كمحبة غيره فإنه إنّما أحب الله تعالى ليدخله الجنّة أو ينجيه من النار أو ليقرّبه إليه أو ليعلّمه أو يرزقه، وأمثال ذلك فتكون محبّته راجعة إلى نفسه والأصح إمكان وقوعها لله خالصة بدون التفات نفسه لأن المفروض وقوع ذلك من العارف بالله تعالى والشخص لا يكون عارفاً بالله سبحانه على جهة الحقيقة بحيث يشاهد الجمال الحق إلاّ في حالة لا يجد نفسه ولا شيئاً من الخلق كما قال علي عليه السلام (كشف سبحات الجلال من غير إشارة) وقال الصادق عليه السلام (دنوّه من الخالق بلا إشارة ولا كيف) وهو معرفة النفس التي هي معرفة الربّ.

وإن كانت عن جهل فقد تحصل الحقيقية إذا كان المحبوب حقيقة المحب والمحب فرعه أي خلق من فاضل طينته أي من شعاع نوره كمثل الشيعي مع

أئمته عليهم السلام فإنّه ربّما يسمع ذكرهم أوْ شيئاً من فضائلهم فيبكي لميل فؤادِه وجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم وليس حين بكى عند ذكرهم رجاءً للثواب أو دفعاً للعقاب، ولكن بمجرّد الطبيعة وميل الفرع إلى الأصل فهذه محبّة حقيقيّة غير معلّلةٍ بالأغراض ولا تكون من غير الفرع للأصل مع الجهل فلا تحقق منه في محبّة الله تعالى لعدم كون المحب فرعاً عن الله تعالى، بمعنى أنه خلق من فاضل شعاعه ولا من فعله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- لأن المخلوق أصله من الإمكان والإمكان محل الفعل والفعل حدث بنفسه.

والحاصل قولي أوّلاً وهي في الحقيقة منبعثةٌ من الفؤاد لتفرّعها على المعرفة تعريف للحقيقية لأنّ ما لم تكن من الفؤاد تكون طلباً لشيء من الأشياء في مظانّ وجود ومحبّة أهل البيت عليهم السلام الحقيقية موجبة للنجاة من النار والدخول إلى الجنّة البتّة.

وأمّا المحبة المعللة فتقبل في الدنيا وأمّا في الآخرة فلا بد من الاختبار حيث الله يقول (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء) الآية فالمعلّلة لا تبقى وإنّما تبقى الأمور الحقيقية، وأما الأمور العارضة فهي فانية لا تبقى إلى الآخرة وإلى هذا أشار تعالى (الأَخِلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ).

فظهر لمن تدبر كلامي وفهم مرامي أنَّ المحبّة الجزئيّة ولايةٌ جزئيّة وهي المنبعثة من الفؤاد وهي أحد أفراد الولاية الكليّة والمحبّة الكلية هي بعينها الولاية الكليّة لأنّ الجزئيّة تَولّي الفؤاد لأنها فرع المعرفة، بقي تولّي القلب باليقين والتصديق والتسليم، وتَولّي النفس بالذكر الجميل والتخيّل الحسن، وتولّي اللّسان بالحديث الحسن والكلم الطيّب، وتولّي الأركان بالأعمال الصالحة التي أمر الله بها،

فمجموع الجميع هو الولاية الكليّة والمحبّة الحقيقيّة الكليّة، وهذه المذكورة في الزيارة هي الجزئية لعطفها على الولاية وعطف الدين عليها أو على الولاية والعطف مقتضٍ للمغايرة.

وقوله عليه السلام (ودينكم) يراد به الطّاعَة والجزاءِ بمعنى أسأل الله أنْ يُثَبّتني على طاعتِكم ولو أريد بعطف المحبّة والدين العطفَ التّفسيري جاز كما ذكرنا هناك في المحبّة الكليّة فيكون المراد بالدين ما فسّره به بعضهم بأنه وضعٌ إلهي لأولي الألباب يتناول الأصول والفروع قال الله تعالى(إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإِسْلاَمُ) والمراد بالإسلام هنا الإيمان الكامل كما يدل عليه قول أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله وسلم على ما في الكافي (لأنسبنّ الإسلام نسبةً لم ينسبه أحد قبلي ولا ينسبه أحد بعدي إلاّ بمثل ذلك إنّ الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار والإقرار هو العمل، والعمل هو الأداء إنّ المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ولكن أتاهُ من ربّه فأخذه أنّ المؤمن يُرى يقينه والكافر يرى إنكاره في عمله في عمله فوا الذي نفسي بيده ما عرفوا أَمْرَهُمْ فاعتبروا إنكار الكافرين والمنافقين بأعمالهم الخبيثة)هـ.

فهذا الإسلام هو الإيمان الكامل وله مراتب مختلفة غير متناهية وهي مراتبُ الولايةِ الكلّيّة وفي الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال(إن الله عز وجل وضع الإيمان على سبعة أسهم على البر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم ، ثم قسم ذلك بين الناس ، فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كامل ، محتمل وقسم لبعض الناس السهم ولبعض السهمين ولبعض الثلاثة حتى انتهوا إلى السبعة، ثم قال لا تحملوا على صاحب السهم سهمين ولا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهضوهم ثم قال كذلك حتى ينتهي إلى السبعة).

وفيه عن شهاب قال سمعتُ أبا عبدالله عليه السلام يقول(لو علم النّاس كيف خلق الله تعالى هذا الخلق لم يَلُمْ أحدٌ أحداً فقلتُ أصلحك الله وكيف ذاك قال إنّ الله تعالى خلق أجزاء بلغ بها تسعةً وأربعين جزءاً ثم جعل الأجزاء أعشاراً فجعل الجزء عشرة أجزاء ثم قسمه بين الخلق فجعل في رجل عُشْرَ جُزْءً وفي آخر عُشْرَي جُزْءً حتى بلغ به جزء تامّاً وفي آخر جُزءاً وعُشْرَ جُزْءً وآخر جُزْءاً وعُشْرَيْ جُزْءً وآخر جُزْءاً وثلاثة أعشار حتّى بلغ به جزأين تامّيْن ثم بحساب ذلك حتى بلغ بأرْفعِهم تسعة وأربعين جزءاً فمن لم يجعل فيه إلاّ عُشْرْ جُزءً لم يقدر على أن يكون مثل صاحبِ العُشْرَيْنِ، وكذلك صاحب العُشْرَيْنِ، لا يكون مثل صاحب الثلاثة الأعشار وكذلك من تَمَّ له جُزْءٌ لا يقدر على أن يكون مثل صاحب الجزأين ولو علم الناس أن الله تعالى خلق الخلق على هذا لم يَلُمْ أحدٌ أحداً) هـ.

فتأمّل في هذه المراتب التي هي الإيمان الّذي هو الإسلام الّذي هو الدين ومع هذا فكم فيه من خبايا في زوايا هي من الولاية الكليّة وفي الحب بالنظر إلى أعلى مراتبها كذلك لكن هذه الفقرات بناها عليه السلام على ما هو المُتَعارف الظَّاهِر.

قال عليه السلام ووفّقني لطاعتكم ورزقني شفاعتكم وجعلني من خيار مواليكم التّابعين لما دعوتم إليه

أقول: توفيق الله توجيه الأسباب نحو الخير المطلوب والأصل في ذلك أن الله تعالى جعل لكلّ شيء سبباً وهي من دواعي علّة بَدْئِه من جهة الفَيْض والتمكين ومن جهة القبول والتمكّن وقد جعل لكل شيء ضدّاً فجعل من جهة الضدّ من دواعي قبضه وتخليته مانعاً، والأسباب والموانع ناقصة الوجود والتأثير ولا تتم فيهما إلاّ بالتعلّق بالأشياء المقدّرة بها ولا يكون المانع أقوى من السّبب المقتضى

إلاّ إذا تساويا في الرتبة والوقت والمكان والكمّ والكيف والجهة فتبقى الأسباب المثبتة والموانع النافية شائعة في كليّاتها معلّقة في أُصولها غير متميّزةٍ في أنفسها، حتى ترد المشيّة بالإذن فيتوجّه السبب إلى المسبّب الإمكاني بالتمكين ويبقى المسبّب مغموساً في بحر الكمون حتى يتوجّه نور السبب إلى تقدير المسبّب بالقبول والتمكّن أو ترد الإرادة بالمنع فيتوجّه المانع إلى الشيء الإمكاني بالصّرف فإن وردا في مشهد المتممات السّتةِ انتفى الإيجاد لقوة المانع وكذا إن ورد المانع قبل وإنْ ورد السبب في مشهدِ المتمّمات الستة قبل المانع، وجب الإيجاد ولا حكم لورود المانِع إلاّ للمحوِ إنْ كان صالِحاً للكلِّ أوْ للبعض.

ثم اعلم أن الأسباب قد تكون بسيطةً بمعنى أنها لا تحتاج في تأثيرها إلى متمِّمات من جهة القوابل وهي ما سبق به الكتاب من العناية الأزليّة وقد تكون مُرَكّبةً بمعنى أنها تحتاج في تأثيرِها إلى متمّماتٍ من جهة القوابل إمّا لكونها قليلة في جانب المسبّب أو لوجود مانعٍ فيحتاج إلى مُرَجّحٍ للمقتضى عليه، ولمّا كان المؤمن خلق من فاضل طينتهم بدليل محبّته لهم وولايته والتسليم والردّ إليهم كما سمعتَ ثبت المقتضى وهذا لا شَكَّ فيه ولكن قد ثبت في العقل وفي النّقل أنّ كلّ شيء فهو مؤجّلُ الوجود بمعنى أنّ ظهوره في الكون موقّت مضبوط الأوّل والآخر والأشياء مختلفة فمنها ما وقته طويل يبقى إلى أنْ يدخل أهل الجنّة الجنّةَ وأهل النار النارَ، ومنها إلى البرزخ إلى أوله أوْ أوسطه أوْ آخره ومنها إلى الموت، ومنها ما ينتهي في الدنيا.

وهذه الأسباب المقتضية من ذلك فقد يكون الشخص مؤمناً خمس سنين ثم يتغيّر كالمُعارين نعوذ بالله من سخط الله، ومنهم من يتغيّر عند خروج نفسه، ومنهم

الثابت المستمرّ إلى أن يدخل الجنّة، ولمّا ثبت في العقل والنقل أنّ الله مالكُ الأمور وهي في قبضته ، هو المالك لما ملّكهم والقادر على ما أقدرهم عليه، إذ لا بقاء لشيء إلاّ بمدده الابتدائي في كل آنٍ أبداً وإلاّ لكان مستغنياً عن الله تعالى، ولهذا وجب على المطيعين أن يخافوا مكر الله وإلاّ كانُوا عاصين ووجب على العاصين الرجاء في الله وإلاّ كانوا كافرين وثبَتَ أنَّ غير المعصومين مزجت طينتهم بطينة العاصين فلهذا تقع منهم المعاصي وثَبتَ أنّ أعْظَمَ الأسْبَابِ المقتضية بل جلّها بَل كُلّهَا الأعمال الصَّالحة للخير والسيئة للشَرّ وثبت أنّ الدعاء والانقطاع من أشدِّ الأعمال تأثيراً حتَّى أنه جعله تعالى هو العبادة فقال تعالى (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لكُمْ
إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) وثبَت أنّ القلوب تزيغ وعن الكاظم عليه السلام في حديث هشام (يا هشام إن الله حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا (رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لنَا مِن لدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الوَهَّابُ) حين علموا أنَ القلوب تزيغُ وتعود إلى عماها ورداها) الحديث.

وفي العياشي عن الصادق عليه السلام (أكثِروا من أنْ تقولوا (ربّنا لا تُزغ قلُوبَنا بعد إذ هديتنا) ولا تأمنوا الزيغ).

وإنّما كانت تزيغ لأنّ ثباتها بيده تعالى وللطْخِ الخبيث المقتضي للأعمال الخبيثة التي شأنها الرّين على القلوب ثبت على كل مؤمنٍ أن يسأل الله أنْ يُثبّتَه على دينه ولمّا كان ما ذكره عليه السلام في كلمات هذه الزيارة الشريفة هو حقيقة الإيمان والولاية والمحبّة والدين وظاهرها وباطنها سأل الله أن يثبّتَهُ على ذلك.

ولمّا كان ذلك كله عبارةً عن طاعتهم سأل الله تعالى أن يوفّقَهُ لها ليكون الدعاء متمّماً لما نقصَ من مقتضى كونِه وتمكينه ومن مقتَضى قابليّته وتمكنّه.

وقوله عليه السلام (ورزقني شفاعتكم) الرزق ما ينتفع به ولمّا كان جميع ما خلق الله تعالى من الجواهر والأعراض من المعاني والأعيان من كل شيء إنّما خلقه بمشيئته وإرادته وذلك إمّا يحبه أو يكرهه وكلّ شيء أحبّه فقد دلّ عليه وأمر به وكلّ شيء كرهه فقد دلّ عليه ونهى عنه وكُلُّ ذلك لمصلحة عباده من فعل أو تركٍ فما أحبّه فقد أمر به وما أمر به فهو نافع للمأمور وتركه قد يكون مضرّاً به أو يكون مانعاً من الكمال غير مضر بالتمام، وما كرهَهُ فقد نهى عنه وما نَهَى عنه فَفِعْلُهُ ضارٌّ للمنهيّ عنه وقد يكون تركه نافعاً له في تمامه أو في كماله بعكس المأمور به فالرزق إذا أريد به ما ينتفع به فهو من المحبوب فلا يكون الحرام رزقاً وإن احتسب عليه من رزقه، فإنه يحاسب عليه، خلافاً للعامّة حيث جعلوا الحرام من الرّزق فإنّه ممّا ينتفع به وغلطُوا فإنه وإن استقام به البدن من جهة أنّ الله احتسبه عليه من رزقه ولكن القلب والصدر والدين لا تستقيم به بل يَرينُ على القَلب ويُضَيّق الصَّدر بتعارُضِ دواعي الحقّ من تأثير الفطرة الحق ودواعي الباطل من تأثير الغذاء الحرام، فسأله تعالى أن يرْزقه ما ينتفعُ به في تمامه وكماله.

والشفاعة مأخوذة من الشفع وهو غير الوتر وفي القاموس (الشفع خلاف الوتر ، وهو الزوج ، وقد شفعه ، كمنعه ، ويوم الأضحى ، وقيل في قوله تعالى (وَالشَّفْعِ وَالوَتْرِ) هو الخلق ، لقوله تعالى (وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلقْنَا زَوْجَيْنِ) ، أو هو الله عز وجل لقوله تعالى (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلا هُوَ رَابِعُهُمْ) انتهى.

أقول: مراد من نقل الفيروزآبادي عنه أنّ الله سبحانه أقسم بنفسه فقال (وَالشَّفْعِ وَالوَتْرِ) فإنه تعالى هو الشفع لأنّه ما يكون شيء من خلقه واحد أو أكثر إلاّ هو تعالى معه فقد شفع كلّ شيء من خلقه وهو تعالى وَتْرٌ ، أي على ما

هو عليه في عز وحدانيّته تعالى فمعنى الشفاعة أن ينضمّ إلى الشخص المشفوع له غيره في بلوغ مطلوبه أو دفع محذوره فسأل الله تعالى أن يرزقَهُ شفاعتهم عليهم السلام بأن يضمّهم الله تعالى إليه في نيل جميع مطالبه ودفع جميع ما يخاف ويحذر لأنّهم كما روي عنهم هم الشافعون، وفي الخصال عن الصادق عليه السلام عن علي عليه السلام قال (إن للجنة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيون والصديقون ، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا، فلا أزال واقفا على الصراط أدعو وأقول رب سلم شيعتي ومحبي و أنصاري ومن تولاني في دار الدنيا فإذا النداء من بطنان العرش قد اجيبت دعوتك وشفعت في شيعتك ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألف من جيرانه وأقربائه ، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن شهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت) هـ.

وإنّما قال (ورزقني شفاعتهم) لأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم يشفع لأهل بيته عليهم السلام ليؤذَن لهم بأن يشفعوا فيشفعون لشيعتهم بأن يشفعوا وشيعتهم بإذنهم عن أئمتهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الله تعالى يشفعون لمن شاءوا، وفي تفسير القمي عن الصادق عليه السلام (والله لنشفعنّ للمذنبين من شيعتِنا حتى يقول أعداؤنا إذا رأوا ذلك (فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ).

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام (وإنّ الشفاعة لمقبولة وما تُقْبَل في ناصب وإنّ المؤمن ليشفع لجاره وما له حسنة فيقول يا رب جاري كان يكفّ عنّي الأذى فيشفع فيه فيقول الله تعالى أنا ربُّك وأنا أحقّ مَنْ كافى عنك فيدخله الله الجنّة وما له من حسنة وإنّ أدنى المؤمنين شفاعةً ليشفع لثلاثين إنساناً)الحديث.

وفي المجمع عنه ﷺ (إنّ الرجل يقول في الجنّة ما فعل صديقي فلانٌ وصديقه في الجحيم فيقول الله تعالى أخرجوا له صديقه في الجنّة فيقول من في النار (فَمَا لنَا مِن شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) هـ.

فقوله (ورزقني شفاعتكم) ظاهره أن تشفعوا لي في ذنوبي، ويحتمل أن يراد منه أن تشفعوا لي لأكون شافعاً لأهلي وجيراني وأصدقائي، ويمكن أن قال أن العارف العالم هو من أهل الشفاعة كما قال تعالى (وَلا يَمْلِكُ الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلا مَن شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) كما دلّت عليه النصوص وشهدت به العقول لا يمنعه من ذلك إلاّ المعاصي فإذا شفعوا له في ذنوبه كان شافعاً بإذنهم وربّما يشفعون لمذنبٍ ويكون من أهل الجنّة ولا يكون شافعاً بإذنهم لأنّه لم يكن عالماً عن بصيرةٍ على أنّه لو كان كلّ واحد شافعاً لكان كثير شافعين مشفوعاً لهم فيلزم في كثيرٍ من المواضع الدّور لتوقّف كونه شافعاً على كونه مشفوعاً له.

ثم إذا علم أن أهل الشفاعة أي الذين يأْذنون لهم أئمتهم لا يكونون من جهّال شيعتهم فعلى ظاهر الحال أن القائل لهذه الفقرات الشريفة لا يكون جاهِلاً بحالها ومن لم يكن جاهلاً بحالها فهو ممّن يصلح للشفاعة البتّة فيترجّح بهذا اللّحاظ إرادة أن يشفَعُوا له لكي يكون شافعاً.

وقوله عليه السلام (وجعلني من خيار مواليكم التابعين لما دعوتم إليه) ، أقول: يراد من خيار الموالي قسمان.

الأوّل: الأَبدال، سمّوا بذلك لأنهم على ما قيل لا يخلو العالم من أربعين منهم لبقاء النظام وإن كان في بعض الأوقات قد يزيدون لأنهم قالوا لا بد لبقاء النظام من قطبٍ وهو الغوث وهو محلّ نظر الله من العالم، ومن أركانٍ أربعة تتلقّى عنه ما يتلقّى من الوحي والإلهام فيما يتعلّق بتدبير العالم من خلق ورزق وحياة وممات

وتكليف على نحو ما أشرنا إليه سابقاً من أنّ القطب هو خزانة المالك عز وجلّ بمعنى أنّ ما أراد إبرازه وإيجاده وحياته ومماته ورزقه وتكليفه وغير ذلك من متعلّق الإرادة فقد أنهى علم ذلك كله إلى قطب العالم عليه السلام، والأركان الأربعة تتلقّى منه وتؤدي أحكام ذلك على ما حدّدَ الله لوليّه عليه السلام، ولا بدّ من أربعين بدلاً وإن كانوا قد يزيدون لكنّهم لا ينقصون فإن مات واحدٌ من الأربعين تفضّل الله على واحدٍ من النجباء فعلّى درجته حتّى يكون بدلاً من الذي مات فهو على هيئتِهِ وعبادته حتى يكون مثله ولهذا يسمّى بَدَلاً، ولا بدّ من نجباء سبعين لا أقل من ذلك، ولا بد من ثلاثمائة وستين صالحاً، ولم أجد هذا التفصيْل من طرقنا وإن نقله بعض علمائنا وظنّي أنّه من طرق العامة لأنّ المتصوفة منهم ذكروه في كتبهم.

وإنّما وجدنا من طرقِنا ما رواه صاحب كتاب أنيس السمراء وسمير الجلساء بإسناده إلى جابر بن يزيد الجعفي عن علي بن الحسين عليهما السلام في حديث طويل إلى أن قال (يا جابر أو تدري ما المعرفة المعرفةُ إثبات التوحيد أولاً ثم معرفة المعاني ثانياً ثم معرفة الأبواب ثالِثاً ثم معرفة الإمام رَابِعاً ثم معرفة الأركان خامساً ثم معرفة النقباء سادساً ثم معرفة النجباء سابعاً) الحديث.

والمراد بالإمام هو القطب، وبالأركان الأربعة الأركان المذكورة، وبالنقباء الأبدال الذين قالوا أنهم أربعون ولم نجد في كتبنا مما فهمتُ ووقفتُ عليه ما يُشير إلى الأربعين وإنما تشير إلى أنهم ثلاثون في قوله عليه السلام (ونعم المنزل طيبة وما بثلاثين من وحشةٍ) كما رواه في الكافي.

والحاصل أن القسم الأول من خيار الشيعة الأبدال وهم النقباء في حديث علي بن الحسين عليه السلام.

والقسم الثاني: النجباء وفي بعض أحاديثنا سَمّوا عليهم السلام الأوّل بالخصيصين

والثاني بالخواصّ وسماهم علي بن الحسين عليه السلام بالنّقباء والنّجبَاءِ وقد تقدَّمت الإشارة إلى أنّ الخواصّ قد لا يعرفون مقام الإمام عليه السلام في رتبة المقاماتِ والمعاني والأبواب، وقد يعرفون ذلك لا على سبيل الحقيقة بل على جهة المجاز والإجمال وفي الحقيقة ما معرفتهم إلا محض التسليم لما يدرك من مفاهيمها وما أدرك من مفاهيمها لا يطابق المصداق الحقيقي ، ولهذا ورد (لوْ عَلِمَ أَبُو ذَرٍّ مَا فِي قَلبِ سَلمَانَ لقَتَلهُ) أو (لكفره).لأن سلمان من الخصيصين وأبو ذر من الخواص، والخصيص يحتمل معرفة المقامات والمعاني والأبواب.

وقوله عليه السلام (وجعلني من خيار مواليكم) يعني بأن يوفقني لطاعتكم بحيث لا أعصيكم في شيء فإني إذا كنت كذلك فإن فتح الله لي باب ما غلقته عني حجب الغيوب كنت من الخصيصين وإلا كنت من الخواص، وفي الغالب إن المؤمن إذا لازم طاعتهم انفتح له أبواب الغيوب ونال المطلوب وفي حديث الأسرار قال تعالى (يا أحمد إن العبد إذا جاع بطنه وحفظ لسانه علمته الحكمة، وان كان كافرا تكون حكمته حجة عليه ووبالا ، وان كان مؤمنا تكون حكمته له نورا وبرهانا وشفاء ورحمة ، ويعلم ما لم يكن يعلم ويبصر ما لم يكن يبصر ، فأول ما أبصره عيوب نفسه حتى يشتغل بها عن عيوب غيره وأبصره في دقائق العلم حتى لا يدخل عليه الشيطان في مواضع وأبصره حيل الشيطان وحيل نفسه حتى لا يكون لنفسه وللشيطان عليه سبيل).

هذا إذا كان كثير النظر والاعتبار في ملكوت السموات والأرض والتفكر في آثار الصفات،وأما إذا كان همه العبادة والطاعة وامتثال الأوامر واجتناب النواهي وإصلاح أمر دينه وآخرته ولم يكن كثير التدبر في كتاب الله والنظر في

مخلوقات الله سبحانه، فإن مثل هذا يكون من الخواص ولا يكون من الخصيصين لأنه لم يفتح له أبواب الغيوب.

وهذا الزائر سأل الله أن يجعله من خيار مواليهم وإذا استجاب الله له وضعه في موضعه اللائق به من القرب ، على العبد أن يسعى لإصلاح شأنه وليس عليه أن يكون موفقا.

وقوله عليه السلام (التابعين لما دعوتم إليه) آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم دعوا إلى الله سبحانه كما أراد ، والدعاء إلى الله تعالى إلى معرفته ومعرفة ما يصح عليه ويمتنع منه، ومعرفة أنبيائه وحججه وملائكته وكتبه، ومعرفة أوامره ونواهيه، ومعرفة ما أراد وأحب من خلقه وما كره وسخط، وطاعته وامتثال أوامره ونواهيه وإجابته إلى ما دعا إليه على ألسنة أنبيائه وأوليائه صلى الله على محمد وآله وعليهم أجمعين.

والتابعون لما دعوا إليه هم المستجيبون لهم بالقبول والطاعة والامتثال كما أخبر الله سبحانه في كتابه فقال (يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ) أي إذا دعاكم فاستجيبوا لا فأجيبوا ، لأن الاستجابة تستلزم الإجابة والامتثال، والإجابة لا تستلزم الامتثال، فمعنى التابعين المؤتمون بكم في جميع أحوالكم وأعمالكم وأقوالكم واعتقاداتكم مما يتعلق بالنفس والمال والنسب والعرض والدنيا والدين والآخرة فمن فارقهم في شيء متعمدا ردا عليهم في شيء مما ذكر خرج من أمان الله إلى غضب الله وسخطه ومأواه جهنم وبئس المصير، ومن فوض الأمر في جميع ما ذكر لم يفارقهم في شيء عن عمد ردا عليهم فالجنة مرده وإن أتى بذنوب الثقلين.

قال عليه السلام وجعلني ممن يقتص آثاركم ويسلك سبيلكم ويهتدي بهداكم

قال الشارح المجلسي رحمه الله يقتص أي يتبع، انتهى.

أقول: سأل الزائر المؤمن ربه أن يجعله ممن يقتص آثار آل محمد ﷺ ومعنى يقتص يتبع مستخبرا أو مطلقا وليس المراد أن الاستخبار الواقع حالا علة للإتباع بل الاستخبار أحد معلولات الاتباع وإنما المراد أن يكون متبعا حقيقيا أي لا يكون في حال غير متبع فيكون فيها مستقلا نعوذ بالله من طلب الاستقلال بدونهم فإن من شذ عنهم شذ إلى النار لا فرق في هذا بين حكم العمل والقول والاعتقاد وليس القول بوجوب أخذ المعارف والأصول الدينية عن العقل منافيا لما نقوله لأن الحق لهم ومعهم وفيهم وبهم والعقل إنما حكم له بإصابة الحق لأن نوره من نورهم ألا ترى من يدعي العقل من أعداهم بل ربما تشهد له أنت بالعقل الدقيق والفهم الشديد عند التحقيق وكذلك كثير من أهل الملل والانتحال من الكفار والمسلمين مع أنهم لا يدركون بعقولهم في اعتقاداتهم إلا الاعتقادات الباطلة مثل مميت الدين بن الإعرابي في فتوحاته المكية بل حتوفاته وفي الفصوص وغيرها مع ما هو عليه من شدة الرياضات ودعوى المكاشفات حتى خضعت له رقاب أشباه العلماء فاعتقدوا حقيّة اخباراته وتركوا كلام أهل العصمة عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، وهم يعتقدون فيهم أنّ روح القدس لا يزال معهم يسدّدهم عن الخطأ والغفلة والسّهو والنسيان ومع هذا يتركون كلامهم وحكمتهم ويرون رأي هذا الملحدِ وليس هو على مذهبهم بما موّهَ لهم من العبارات وزيّن لهم مزخرفات الاعتقادات حتى أنّه قال بوحدة الوجود وهو كفر وقالوا به وقال بأنّ أهل النار مرجعهم إلى النعيم وقالوا به وحكم بأن فرعون مات مؤمناً طاهراً مطهّراً واستحسنوا كلامه حتى قال الملا صدرا الشيرازي هذا كلام يشمّ منه رائحة التّحقيق وقال

ما معناه أنّ السامري جرى في صنعه العجل على محبّة الله لأن الله سبحانه يحب أن يعبد في كلّ صورة وقال إنّ علم الله بالخلق مستفاد منهم، وقال به الملا محسن الكاشاني في الوافي في باب الشقاوة والسعادة وقال بأن مشيّة الله أحديّة التعلق يعني ليس له إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل لئلا ينقلب علمه جهلاً وقال به الملا محسن في المكان المشار إليه من الوافي في مقام بيان قوله تعالى (وَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ) إنّما فرض إمكان هداية الجميع راجع إلى حكم العقل بأن الممكن قابل للهداية والضلالة من حيث هو قابل فهو موضع الانقسام وفي نفس الأمر ليس للحقّ فيه إلاّ أمر واحد قال قبل هذا الكلام فمشيّته أحديّة التعلّق، وهي نسبة تابعة للعلم والعلم نسبة تابعة للمعلوم والمعلوم أنْتَ وأحوالُكَ انتهى كلامُهُ، وما انتهى هو عن غيِّه وهذه عبارة ابن عربي في الفصوص نقلها في الوافي وذكر في حتوفاته المكيّة منكرات من القول والاعتقاد يضيق بذكرها المقام وقد قَبِلها كثير لدقّة فهمه وعظم تمويهه حتى أنّ فخرهم وشرفهم عندهم فَهِمَ كلامه فضلاً عن أنْ يردّوه وكلّه في مقابلة كلام أئمّتهم عليهم السلام ويؤِّلون كلام الإمام عليه السلام ويردّونه إلى كلام ابن عربي وعبد الكريم الجيلاني وأمثالُهِمَا، ولو كان العقل يستقل في إدراك شيء من الاعتقادات بدون أنوارهم صلّى الله عليهم لاهتدى هؤلاء وأتباعهم ولو عاينتَ ما كنّا نُعاينُ معاينةً لرأيت قطعاً أنّ العقول التي في جميع من سواهم لا تستغني عن مددهم ونورهم حتى في أمر البيع والشراء والأكل والشرب والخياطة وجميع الصنائع والزراعات فضلاً عن أمر الاعتقادات ورُب قائل يقول نحنُ لا نحتاج إليهم عليهم السلام في شيء من أحوال الاعتقادات وإنّما نحتاج إليهم في الشرعيات فينبغي أن يقال له:

إذا كُنتَ ما تدري ولا أنت بالذي
تطيعُ الذي يدري هلكتَ وما تدري
وأعْجَبُ من هذا بأنَّكَ ما تدري
وأنّك ما تدري بأنّك ما تدري

أمَا يَعْلم أنّهم علل الوجود الكوني فكيف يكونُ معلول بدون علّةٍ وقد أشرنا إلى أدلّة ما ذكرْنا فيما قَبْلُ فراجع.

وقوله عليه السلام (وَيَسلُكُ سبيلكم) المراد بالسبيل هنا في الظاهر هو الولاية الظاهرة من أمر الدين من أحكام الإسلام والإيمان في الدنيا والآخرة مما قرّروه بالقيام به على حسب ما أمرهُم الله تعالى به من التبليغ والتعريف والأمر بما أمر الله سبحانه والنّهي عما نهى عنه والقيام بالواجبات والمندوبات والآداب الشرعية والأخلاق الإلهيّة وترك المحرمات والمكروهات وما لا ينْبَغي من الأخلاق الذميمة حتى أشادوا الدين بالعمل والعِلم والتبيين بالقول والعمل، فهذا ومثلُه سبيلهم، وسبيلهم في كل شيء قصدٌ وهي أقصر الطرق وأقْربُها إلى الله تعالى والسبيل في الباطن هو الإمام عليه السلام وولايته ومعنى السُّلوك على الأوّل اتّباعه في جميع ما جعله الله له من الإمامة في أحوال الدنيا والدين والآخرة.

وعلى الثاني القيام بمقتضى أحكامها من المحبة لهم ولأوليائهم والبغض لأعدائهم والتّابعين لهم.

وقوله عليه السلام (ويَهْتدي بهُداكُمْ) في (اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ) قيل ادْلُلنَا عليه ثبتنا وعن الصادق عليه السلام (أرشدنا للزوم الطريق المؤدي إلى محبتكَ والمُبَلِّغ إلى جَنَّتِك من أنْ نتّبعَ هوانا فنعطب أوْ نأخذ بآرائنا فنهلك) هـ.

فالهداية بمعنى الإرشاد والدلالة الموصلة إلى المطلوب أوْ إلى ما يوصل إلى المطلوب والظاهر أنه يكون ذلك في المتعدّي بنفسه وفي المتعدّي باللاّم وبإلى والفرق بينهما مدخول وقوله تعالى (والله يَهْدِي إِلى الحَقِّ وَ إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيم) يَردّ قول مَنْ فصّل وفرق، لأنّ المراد بالحقِّ والطريق المستقيم هو الدين المطلوب لا المُوصل إلى المطلوب، وكذا ظاهر قوله عليه السلام (ويهتدي بهداكم) أنّ المراد به الحق لا المُوصِل إليه لأنّه لا يسأل من الله أنْ يُوَفّقهُ إلى ما يُوْصِلُ إلى المطلوب لأنّ الموصل إلى المطلوب هو تبيين طريق الخير والشرّ كما قال تعالى (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْناهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمى عَلى الهُدى) فإنّ المراد به تعريف طريق الخير وتعريف طريق الشّرّ ولم يسأل هذا وأمّا التوفيق لطاعتهم حتّى يعمل كما عملوا ويَتْرك كما تركوا، فإنَّ ذلك هو المطلوب لا الجنّة كما قاله الأكثرون وإن سلّمنا فمطلوب الدّاعي صحّة اتباعهم وسلوك طريقهم كما هو صريح هذه الكلمات المعلوم منها هو اقتصاص آثارهم وسلوك سبيلهم والاهتداء بهديهم وأما النّعيم في العُقْبَى من جميع ما أعدّ الله فيها للمطيعين فهو آثار تلك ولوازمها وعوارضها.

ففي الحديث ما معناه لم يحضرني أن الصّادق صلوات الله عليه سمع رَجُلاً من الشيعة يقول (اللهم أدخلني الجنّة فقال عليه السلام أنتم في الجنّة ولكن سَلُوا الله ألاَّ يخرجكم منها أنّ الجنّة هي ولايتُنَا) هـ.

وإنما قلنا إن المطلوب هو العمل الصالح الصحيح المقبول نظراً إلى الصحيح من الأقوال في أن الأعمال هل تُجَسّم وهي الثواب والعقاب كما قال تعالى (إنَّ الذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوال اليَتامى ظُلماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلوْنَ سَعِيراً) وقال تعالى (وَما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) أم هي غيرها وقد جعل الله لكلّ عمل

أجْراً معيّناً إذا كان يوم القيامة وكشف عن الخلق الغِطاء عرفوا موافقة كلّ جزاء لعمله الموجب له على كمال العدل المستقيم أم الأعمال صور الثواب والعقاب ومعنى هذا أن كل شيء فله مادة منها يخلق وله صورة عليها يخلق وله إيجاد فيه يخلق وله حياة لها يخلق فلا بدّ له من هذه العلل الأربع التي لا يكون بدونها.

فالأولى العلّة الماديّة وهي أمر الله سبحانَهُ ونهيه وذلك مادة الثواب والعقاب كما تقوله أنت أن الوجود الذي هو خير كلّه هو مادة المؤمن والكافر فهو مع الطاعة مؤمن وإيمان ومع المعصية كافر وكفر.

والثانية العلّة الصّورية وهي فعل المكلّف لأنّه إنْ وافق الأمر والنهي كان إيماناً وطاعةً وكان مقبولاً فيخلق الله منهما بالعلّة الثالثة التي هي العلّة الإيجاديّة التي فيها يخلق كما قَبِل كما أشار إليه سبحانه حين عاتب الكفّار من النصارى حيث لم يفهموا ما أراد الله منهم بالقيام به وقالوا نحن لم نفهم ذلك لأن قلوبنا أنت خلقتها مطبوعاً عليها فردّ سبحانه عليهم وقال لم أخلقها كذلك إلاّ بأعمالهم وإنكارهم ولو أطاعوا ولم ينكروا لفتحتُ عليهم باب الفهم والتوفيق فقال تعالى (وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلفٌ بَل طَبَعَ الله عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ) فخلقهم كما قبلوا ولم يقبلوا إلاّ الكفر والإنكار فخلق في العلّةِ الفاعليّة للرّابعة التي هي العلّة الغائيّة وهي التي كلّ الخلق ميسّرون لها إذْ كلٌّ ميسّر لما خُلِقَ لهُ وكُلٌّ عاملٌ بعمله، والأخير عندي هو الصحيح وهو أن عَمَل العبد صورةُ ثوابه وعقابه، فإذا عمل الطاعة فالمراد أنّه قد عَمِل بما أمر اللهِ به فكان عمله صورة ثوابه وأمرُ الله الذي امتثل به من حيث هو مُمْتَثلٌ به مادّةُ ثوابِه والغائيّةُ رُوحُ ثوابه والفاعِليّة مؤثّرةُ تكوينه وكونه ومُحْدِثتُهما وإذا عمل المعصية فالمراد قد عمل بخلاف ما أمر الله به فكان عمله صورة عقابه

ومخالفةُ أمْر الله يعني أمر الله المخالف بفتح اللام مادة عقابه ومخالفةُ الغائيّة أي الغاية المخالفة بفتح اللام روح عقابه وجريانُ الفاعليّة في دَوَرَانِ مقتضى عمله عليها على خلاف التوالي مُحْدِثُ تكوُّنِه وقابله ومؤثّرهُمَا وكذلك امتثال النهي في الطَّاعةِ ومخالفته في المعصية فكان على ما قرّرنا أنّ المطلوب هو هديهم وسبيلهم إلى الله عرفَ من عرف، ومن عرف فَأَمَامَهُ اليقين ومن أنكر فَأَمَامَهُ سجين.

قال عليه السلام وَيُحْشَرُ في زُمرتكم ويَكُرّ في رجعتكم ويَملّك في دَوْلتِكم ويشرّف في عافيتكم ويمكّن في أيّامكم وتقرّ عينه غداً برؤيتِكم

قال الشارح المجلسي رحمه الله ويَكرّ أي يرجع في رجعتكم أي جعلني من الخلّصِ حتى أرجع معهم ويُملك في دولتكم أي صيرّني مِلكاً لإعلاء كلمة الله فإنّ كلّ واحدٍ من الخلّص في الرجعة يصير مِلكاً من الملوك كما كان في زمانَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأميرْ المؤمنين صلواتُ الله عليه ويشرّف في عاقبتكم بالقاف والفاء أي جعلني شريفاً معظّماً في عاقبة أمركم وهي الدولةُ أو في زمان سلامتكم من الأعادي انتهى.

اعلم أن الحشر عند أهل البيت عليهم السلام حشرانِ، الحشر الأصغر وهو عند قيام القائم عليه السلام في السنَة التي يخرج فيها يكون الحشر في أوّل شهر رجب وهو قول علي عليه السلام كما تقدّم قال (عجب وأي عجبٍ بين جمادى ورجب فسُئِل عن ذلك العجب فقال عليه السلام وما لي لا أعجبَ من أمواتٍ يضربُون هام الأحياء)، وقد تقدم في ذكر الرجعة ذكر ذلك ويكون أيضا عند رجعتهم عليهم السلام وهو قوله تعالى (وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآياتِنا فَهُمْ يُوزَعُونَ) فإنه قال (مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ) وآية الحشر الأكبر) وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً) وكذلك قوله تعالى (وَأَقْسَمُوا

بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ٭ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ) وهو القائم عليه السلام الذي هم فيه مختلفون منهم من قال مات ومنهم من قال لم يوجد ومنهم من قال هو عيسى ابن مريم ومنهم من قال هو المهدي العباسي من بني العباس وهو الآن في الأصلاب قال تعالى ليبيّن لهم أنّه من صلب الحسن العسكري عليه السلام وأنّه الآن موجود حي إلى أن يخرج ويملأها قسطاً وعدلا كما مُلِئَتْ جوراً وظلماً وليعلم الّذين كفروا بنصّ القرآن والروايات الصحيحة أنهم كانوا كاذبين والدليل على أن المراد بهذا الحشر حشر الرجعة قوله تعالى (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ).

لأنهم من المسلمين ولو كان المراد بهم الكفار ما أقسموا بالله جهد إيمانهم كما قال عليه السلام وهو القيامةُ الصغرى.

والثاني الحشر الأكبر وهو القيامة الكبرى ويحشر كلّ ذي روح من الإنس والملائكة والجن والشياطين وجميع الحيوانات البرّيّة والبحريّة والهوائية والناريّة ويحشر فيها كلّ مَنْ له شيء أو عليه شيء أو منه شيء أو فيه شيء من النباتات والمعادن والجمادات وما بينها وما بين ما ذكر من البرازخ وأهلها وما له شيء كأرضٍ مظلومة مِنْ عِرْقٍ ظالم بكسر العين وسكون الرّاء مثلاً والذي عليه شيء كالعكس والذي منه شيء كالأسباب الوضعيّة المخالف تأثيرها لمراد الله تعالى والذي فيه شيء كالأزمنة والأمكنة تحشر لتشهد للعاملين فيها أو عليه فافهم هذه الجملة فإنّ تحتها كنزاً من علوم الغيب أشار إليها سبحانه بقوله (وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ما فَرَّطْنا فِي الكِتابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) وبقوله تعالى(إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله حَصَبُ جَهَنَّمَ)

وقد عبدوا من دون الله جميع المعادن والنباتات والحجارة والعناصر والنجوم والحيوانات وغيرها.

وفي بشارة المصطفى بإسناده (عن أبي هريرة قال كنت أنا وأبو ذر وبلال نسير ذات يوم مع علي بن أبي طالب عليه السلام فنظر علي عليه السلام إلى بطيخ فحل درهما ودفعه إلى بلال ، فقال يا بلال ائتني بهذا الدرهم من هذا البطيخ ، ومضى علي عليه السلام إلى منزله فما شعرنا إلا وبلال قد وافانا بالبطيخ فأخذ علي عليه السلام بطيخة فقطعها فإذا هي مرة فقال يا بلال أبعد بهذا البطيخ عني وأقبل علي حتى أحدثك بحديث حدثني به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويده على منكبي، قال إن الله تبارك وتعالى طرح حبي على الحجر والمدر والبحار والجبال والشجر، فما أجاب إلى حبي عذب وطاب ، وما لم يجب إلى حبي خبث ومر، وإني لأظن إن هذا البطيخ مما لم يجب إلى حبي) .

وفي الاختصاص بإسناده (عن قنبر مولى أمير المؤمنين عليه السلام قال كنت عند أمير المؤمنين عليه السلام إذ دخل رجل فقال يا أمير المؤمنين أنا أشتهي بطيخا قال فأمرني أمير المؤمنين عليه السلام بشراء بطيخ فوجهت بدرهم فجاءونا بثلاث بطيخات فقطعت واحدة فإذا هو مر فقلت مر يا أمير المؤمنين فقال ارم به من النار وإلى النار قال وقطعت الثاني فإذا هو حامض فقلت حامض يا أمير المؤمنين فقال ارم به من النار وإلى النار قال فقطعت الثالث فإذا مُدَوّدَة فقلت مُدَوّدَة يا أمير المؤمنين فقال ارم به من النار وإلى النار قال ثم وجهت بدرهم آخر فجاءونا بثلاث بطيخات فوثبت على قدمي فقلت اعفني يا أمير المؤمنين عن قطعه كأنه تأثم بقطعه فقال له أمير المؤمنين عليه السلام اجلس يا قنبر فإنها مأمورة فجلست فقطعت واحدة فإذا هو حلو فقلت حلو يا أمير المؤمنين فقال كل وأطعمنا فأكلت ضلعا وأطعمته ضلعا وأطعمت الجليس

ضلعا فالتفت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال يا قنبر إن الله تبارك وتعالى عرض ولايتنا على أهل السماوات وأهل الأرض من الجن والإنس والثمر وغير ذلك فما قبل منه ولايتنا طاب وطهر وعذب وما لم يقبل منه خبث وردؤ ونتن).

وروي عنه عليه السلام ما معناه انه سئل قد نجد في بعض الرطب مثل الرماد قال عليه السلام أن الله وكَّل بها ملكا إذا تركت الذكر ذلك اليوم ضربها بنقاره فتفسد انتهى.

وأمثال ذلك كثيرة ولا دلالة لمن يعقل أصرح من قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً).

ومن أنكر مثل هذا أو أوله على المجازاة والكنايات وأنكر معناه الحقيقي فهو ممن قدر عظمة الله على قدر عقله -تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً- ولو قال لا أعلم لكان أسلم له.

فإذا فهمتَ أن الحشر حشرانِ كلُّ حشر منهما أَمْرُهُ وملكهُ راجعٌ إلى محمدٍ وأهل بيته الطاهرين صلى الله عليه وعليهم أجمعين وذلك لأنّ الله سبحانه خلقهم وخَلق لهم كُل شيءً وكلّ شيء فجميع ما له وعليه لا يكون إلاّ في الدنيا والآخرة والرجعة وهي أيّامهم وزمان ملكهم الّذي أعطاهم مالكهم فهم ملوك الدنيا وهم ملوك الرجعة وهم ملوك الآخرة وهذا ظاهر والمؤمن العارف بحقّهم الزائر لهم يسأل الله أنْ يحشره في زُمْرَتِهِمْ أي في جماعتهم وظاهر الكلام أن الحشر المطلوب هو الحشر الأكبر لأنّه عطف عليه حكم الرجعة فقال ويكرّ في رجعتكم فيكون سأل الاجتماع معهم في الرجعة وفي القيامة ويحتمل أنْ يراد بالحشر المَسْؤول هو الأوّل بأن يبعثه في ذلك الوقت ويكرّ معهم أي يصير معهم وهو بعيد إلاّ أن يراد بقوله ويكرّ بيان وتفسير لِيُحشَرَ أو يكرّ معهم أي يرجع

معهم بعد الموت ويكون يحشر معناه يبعث ويجمع عليهم أو يريد بالحشر ما هو أعم فيدخل الحشران لأنهم يومان لسلطنتهِم وتنصب على ملائمته الفقرات التي قبله والتي بعده.

وإنما سأل الحشر معهم الذي هو مشفوع بالكرة أو مفسر بها على تقدير إرادته بالخصوص وكذا في العموم لأن حصول هذا الحشر الأوّل مستلزم لحُصول محض الإيمان وهو الإيمان الكامل بالفعْل أو القوّة القريبة، لأن من لم يمحض الإيمان لم يحشر في الحشر الأول وإن أتاه الخبر بخروج القائم عليه السلام حتى يفرح في قبره ويستبشر إلاّ أنه لا يخرج إلاّ أن يكون له قصاص أو عليه قصاص فإن هؤلاء يحشرون حتى يقتص للمقتول من القاتل ويعيش المقتول بعد أخذ القصاص من قاتله ثلاثين شهراً ثم يموتون في ليلة واحدة، لأنهم لا حياة لهم وإنّما بقي لهم من عمر الدنيا ثلاثين شهراً قطعها القاتل وبقي لهم ممّا كتب في اللوح المحفوظ من أرزاقهم رزق ثلاثين شهرا فَبُعِثوا ليستوفوا قصاصهم ويعيشوا كمال عمرهم المكتوب لهم وينالوا نصيبهم من الكتاب من الرزق لأنهم ما محضوا الإيمان محضاً.

وأما من محض الإيمان محضاً فلقلبه المستنير ونفسه الصافية مُدَداً وآجالاً وغاياتٍ لا تسعها الدنيا ولا تسع مقتضياتها فإنه مثلاً يعزم على طاعات واخلاصات ومراتب من التسليم والإخلاص والتوكل والتفويض كلُّ زمان الدنيا لا يقوم بها في حقّه وتلك النيّات والإرادات أعطاها الله سبحانه عبده بحقيقةِ ما هو أهله، ولكن الدنيا في حقّه لا تفي بها لعدم تأهله في الدنيا لها بدون متمّم وفي الرجعة يحصل المتمّم فيتمّم المقتضي بما كتب لهم في اللوح الحفيظ فيرجعون مع المتفضِلين بتتميم ما نقص عليهم وهم أئمّتهم صلى الله عليهم

فيعيشوا بالضعف من أعمارهم في الدنيا أو بأضعاف مضاعفةٍ وكذلك مَن مَحَض الكفر مْحضاً على العكس ممن محض الإيمان محضاً وقد يعرف في الدنيا من محض الإيمان محضاً،كما رواه في مختصر بصائر سعد بن عبدالله الأشعري للحسن بن سليمان الحلي رحمه الله بسنده إلى جابر بن يزيد الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام (قال سئل عن قول الله تعالى وَلَئِنْ قُتِلتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ قال أ تدري يا جابر ما سبيل الله فقلت لا و الله إلا أن أسمعه منك قال سبيل الله علي عليه السلام وذريته فمن قتل في ولايته قتل في سبيل الله و من مات في ولايته مات في سبيل الله ليس من يؤمن من هذه الأمة إلا وله قتلة وميتة قال إنه من قتل ينشر حتى يموت ومن مات ينشر حتى يقتل) هـ.

أقول ظاهر هذا الحديث أنّ محض الإيمان هو معرفة الإمام عليه السلام بالنُّورانيّة وظاهر الآية الشّريفة ذلك مع بعض الأعمال الصَّالحة وهي قوله تعالى (فَمَنْ يَعْمَل مِنَ الصَّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنَّا لَهُ كاتِبُونَ) فإنَّ المراد به مَنْ محض الإيمان مَحْضاً بدليل قوله (وَحَرامٌ عَلى قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ) يعني أنّ مَنْ أَهْلَكْنَاهُ في الدنيا بالعذاب لا يرجع في رجعتهم عليهم السلام وحكم هذه الآية مرتبط بالّتي قبلها فدَلّ مفهومُهَا أنّ من لم يهلك بالعذاب يَرْجع، وقد ثبت أنه لا يرجع إلاّ مَنْ محض الإيمان محضاً ومن محض الكفر محضاً وإنّما المفهوم على ماحِض الكفر لأنّ ماحِض الإيمان لا يهلك بالعذاب في الدنيا ليعتبر المفهوم في حكم الرّاجع منه وإنّما دلّ في الكفر على ماحِض الإيمان لأنّ الرجوع في الفريقَيْن شرطه أن يكون ماحِضاً فهما متساويان في الرجوع لتساويهما في شرطه وهذه المعرفة النورانيّة التي هي دليل ماحِض الإيمان

لا تنحصر في مدلول آية (وَ لئِنْ قُتِلتُمْ فِي سَبِيلِ الله أَوْ مُتُّمْ) الآية،بل ضابطها ما في رواية داود بن كثير الرقّي على ما رواه الطوسي بإسناده إليه قال قلتُ لأبي عبدالله عليه السلام (أنتم الصلاة في كتاب الله عز وجل وأنتم الزكاة وأنتم الصيام و أنتم الحج فقال يا داود نحن الصلاة في كتاب الله عز وجل ونحن الزكاة ونحن الصيام ونحن الحج ونحن الشهر الحرام ونحن البلد الحرام ونحن كعبة الله ونحن قبلة الله ونحن وجه الله قال الله تعالى فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله و نحن الآيات و نحن البينات و عدونا في كتاب الله عز و جل الفحشاء والمنكر والبغي والخمر والميسر والأنصاب والأزلام والأصنام والأوثان والجبت والطاغوت والميتة والدم ولحم الخنزير يا داود إن الله خلقنا فأكرم خلقنا وفضلنا وجعلنا أمناءه وحفظته وخزانه على ما في السماوات وما في الأرض وجعل لنا أضدادا وأعداء فسمانا في كتابه وكنى عن أسمائنا بأحسن الأسماء وأحبها إليه تكنية عن العدو وسمى أضدادنا وأعداءنا في كتابه وكنى عن أسمائهم وضرب لهم الأمثال في كتابه في أبغض الأسماء إليه و إلى عباده المتقين) هـ.

قوله عليه السلام تكنية عن العَدُوّ لأنّ أعداءهم دائماً يتتبّعون القرآن والأحاديث فأيّما آية وجدوا فيها دلالة على أسمائهم عليهم السلام بمدحٍ أوْ أمرٍ باتّباعهم حذفُوها وغيّروها، وكذلك الخبر فكنّى عن أسمائهم لئلاّ يَحذِفوها مثلاً (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى يَدَيْهِ) لو قال يعض أبو فلان يقول (يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) وقال مع الرسول عليّاً إماماً دالاًّ على الله تعالى وعلى ما تحب يا ليتني لم اتّخذ فلاناً خليلاً وقال لم اتّخذ الثاني خليلاً وصاحِباً وبطانةً من دون مَنْ أمر الله بالكون معه (لَقَدْ أَضَلنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي)وقال لقد أضلّني عن علي

أو عن ولايته أو عنهما معاً (وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولا) وقال وكان الثاني لعليّ خذولاً وصادّاً عنه وعن ولايته لحذفوا ذلك وغيّروه فلمّا كنّي بذلك فهموا التكنية وقالوا هذه الآيات ما نفتضح بها لأن الناس ما يفهمون ذلك وهو شيء ألقاه الله سبحانه في قلوبهم من قوله تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ) ، لتبقى تذكرةً للمؤمنين وألقى في قلوبهم أنّا لو غيّرنا ما أشار إليه وكنّى عنه لزم تغيير أكثر كتابه أوْ كلّه وهو أشدّ فضيحة فالأولى الاقتصار في التغيير على ما تفهمه العوام على أنّ العوامّ إذا مالوا معنا ما نبالي بالخواصّ لقِلّتهم.

والحاصل إن هذا الحديث ومثله ميزان لمحض الإيمان ولمحض الكفر فمن سمعه وعرفه وقبِلهُ عن معرفة فهو ماحِض للإيمان ومن سمعه وعرفه وأنكره عن معرفةٍ فهو ماحِض الكفر ورتبة الخواصّ من الشيعة لا تقصر عن إدراك هذه المعرفة بل أكثرهم يعرف ما أشرنا إليه من الحديث.

واعلم أن شرحنا مشتمل على مراتب من معرفتهم لا تحتملها الخواصّ بل تكفر بها وإنما يعرفها الخصيصُون من الشيعة وفي هذا المعنى قال عليه السلام (لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لكفّره أوْ لقَتلهُ).

فالداعي السائل بأن الله سبحانه يحشره في زمرتهم قد يكون يقصد أنه يبلّغه ذلك بحصول شرطه من التوفيق لمعرفتهم بالنورانية وقد لا يفهم ذلك فيكون دعاء بما لا يفهم في الحقيقة وقد يستجاب فيوفّق للمعرفة وقد لا يستجاب لجهله بما يسأله، وإنّما أشرنا إلى بيان شَرْط الرجوع معهم في رجعتهم لئلاّ يجهل الدّاعي شرط مطلوبة هذا إذا أُريد بالحشر المطلوب الأوّل أو هو مع الثاني على جهة الملاحظة لهما معاً حال الدّعاء وأمّا إذا أُريد به الحشر الأكبر فلا يستلزم ذلك لعدم اعتباره فيه.

وقوله عليه السلام (ويكرُ في رجعتكم) يقال: كرّ عليه كرّاً وكروراً وتكراراً عطف عليه وكرّ عنه رجع والمعنى أنّي أرجع أي أعطف عليكم كأنّه في حال البرزخ مستدبر الدنيا مستقبل الآخرة فلمّا جاء وقتهم استقبل الدنيا راجعاً عاطفاً عليهم وقد يراد منه ما يراد من الحشر كما قال تعالى (وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ) أي جمعنا عليهم وعطفنا كأن المحشور سالك غير جهة المحشور عليه فعطف والمعنى واضح لأن المراد منه العود إلى الدنيا ويكُرّ بضم الكافِ كيَمُد وقد تقدّم بيان المراد من الرجعة فراجعه.

وقوله عليه السلام (ويملّك في دولتكم) أي أسأل الله سبحانه أن يجعلني في زمان دولتكم وتمكينكم من الأرض مَملكاً أي مالكاً لأمور رعيّةٍ من قبلكم أو ملكاً حاكِماً من جهتكم ليجعلني من الّذين ينتصر به لدينه من أتباعكم الصادرين عن أمركم وهذا لا يكون إلاّ لمن قد كمل إيمانه وبلغت معرفته ولطف حسّه وزكا عمله وخلصت نيّته، وإلاّ لم يجعلوه والياً على إصلاح جهّال شيعتهم فحقيقة المطلوب هذه الصفات الموجبة للتّمليك عندكم لا مجرّد الجاه والعزّة لأنّ ذلك محرّم في رجعتهم بمعنى أنه لا يكون لا بمعنى أنه ممنوع منه شرعاً فإن هذا لا يختصّ بذلك الوقت بل في هذا الوقت أيضاً هو محرّم، وإنّما المطلوب رفع الدرجة عند الله والقرب منه بالتوفيق لكمال الإيمان بإخلاص النيّة وتزكية العمل المقبول عند الله تعالى وعندهم وبلوغ المعرفة لله ولهم وقوّة الفهم فيما يحب الله فإن من كان كذلك جعله ممّن ينتصر به لدينه ويظهر به الحق ويزهق به الباطل.

وفي الدّعاء (وَاجْعَلنِي مِمَّنْ تَنْتَصِرُ بِهِ لِدِينِكَ وَلا تَسْتَبْدِل بِي غَيْرِي) هـ.

وروى الشيخ ياسين بن صلاح الدين البحراني في كشكوله أنه كتب رجل إلى

أبي عبدالله عليه السلام (يَسْأَلُهُ أَنْ يَدْعُوَ اللهَ أَنْ يَجْعَلَهُ مِمَّنْ يَنْتَصِرُ بِهِ لِدِينِهِ فَأَجَابَهُ وَكَتَبَ فِي أَسْفَلِ كِتَابِهِ يَرْحَمُكَ اللهُ إِنَّمَا يَنْتَصِرُ اللهُ لِدِينِهِ بِشَرِّ خَلقِهِ) هـ.

ووجه الجمع أنّ السائل طلب أعلى المراتب لهذه النصرة بأن لا يكون في نصرته لدين الله تابعاً لغيره وذلك مقام الإمام عليه السلام ومقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومقام خلفائه ومقام الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام إذا لم يكن ثَمَّ أشرف منه يأخذ عن الله تعالى بغير واسطته وعلم عليه السلام من نِيَّتِهِ ذلك فكرّهَ ذلك إليه بأن النّصرة تكون من شرِّ خلقِ الله كما قال تعالى في شأن بَخْت نَصَّر وذلك في قوله تعالى (وَكَمْ قَصَمْنا مِنْ قَرْيَةٍ كانَتْ ظالِمَةً وَ أَنْشَأْنا بَعْدَها قَوْماً آخَرِينَ فَلَمّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ) قيل القرية (حَضُور) قرية بالحجاز مما يلي الشام أرسل إليهم نبي اسمه شعيب بن ذي مهدم وقتلوه وقبره باليمن بجبل يقال له مَتين كثير الثلج وهو غير شعيب صاحب مَدْيَنْ وفي ذلك الوقت أصحاب الرس اليَمَني وهم غير أصحاب الظّلة أصحاب الرَّسِّ قوم شعيب صاحب مدين وغير الرَّسِّ العَجَمي أصحاب إسماعيل بن حزقيل وأصحاب الرّس اليمني في وقت قصّة حَضُور قتلوا نبيّهم واسمه حنظلة بن صفوان وطبخوه وأكلوه فأوحى الله إلى أرميا أن ائتِ بخت نصّر واعلمه أنّي قد سلّطته على أرض العرب وأني منتقمٌ بك منهم وأوحى إلى أرميا أن أحمل معدّ بن عدنان على البراق إلى أرض العراق كيلا تصيبه النّقمة فإني مستخرج من صلبه نبياً في آخر الزمان اسمه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فحمل معدّ وهو ابن اثنتي عشرة سنةً وكان مع بني إسرائيل إلى أنْ كَبُرَ وتزوّجَ امرأةً اسْمُهَا مُعَانة، ثم إنَّ بَخْت نصّر قَهَرَ بالجيوش وكمن للعرب في مكانٍ وهو أوّل من اتّخذَ المَكامِنَ في الحروب فيما زعموا ثمّ شَنَّ الغارات على حَضُور فقتل وسبَا وخرّب العامر ولم

يترك لِحَضُور أثراً قال الله تعالى (فَمَا زَالت تِّلكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ) ثم وَطَئ أَرْض العرب يمَنَها وحجازَها وأكثر القتل والسبي وخرّب وحرّق ثم كرّ راجعاً إلى السواد.

والحاصل إنه سبحانه انتصر لدينه ببخت نصّر شرّ خلقه وسمّى قوّة بخت نصّر وتسلّطه عليهم بأساً له فقال (فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ) وكما ينتصر لدينه بشر خلقه كذلك ينتصر لدينه بخير خلقه.

وإنّما نهى عليه السلام السائل عن دعوى ذلك ولو قصد بأن يكون تحت لواء إمام معصوم عليه السلام لما نهاه لأن هذا المقام العالي إذا لم يكن في الانتصار تابعاً لغيره لا يقوم فيه إلاّ نبي أو وصيّ نبي أوْ شقيٌّ فالمؤمن الزائر يريدُ بسؤاله من الله تعالى أن يكون مملّكاً في دولتهم عليهم السلام أي بأمرهم ومنصوباً من قبلهم لأنّ من وُفِّقَ لذلك فقد كمل له خير الدنيا والآخرة.

قوله عليه السلام (ويشرّف في عافيتكم) الشّرف العلوّ والمكان المرتفع والمال والمجد، والمجد قد لا يستعمل إلاّ بالآباء والعاقبة الولد وآخر كلّ شيء، وفي نُسخ كثيرة في عافيتكم بالفاء وبعدها ياء مثنّاة مِنْ تَحْت، السَّلامة من البلايا والمحن ومن الأمراض والآلام فالمؤمن الزّائر سئل الله أن يرفعَ درجته فيما يمكن له أو يجعل مكانه أو مكانته عاليةً بمتمِّم من فاضلِ خيرهم عليهم السلام لما يمكن له في عاقبتهم أي في وقت آخر أمرهم وهو مَلكُ الأرض كلّها مشرقها ومغربها من قوله تعالى (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) والمتّقون هم الصالحون في قوله تعالى (وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ) أي يملكها ويملكُ أمرها وأمر مَن عليهَا وذلك عاقبتهم وعلوّ المكان والدرجة والمكانة رَفعُ شأنه بتقريبه عندهم والمال فإنّه شرف رفعةٍ في أعين الخلق.

وفي الحديث عن الصادق عليه السلام (أكرموا أهل الشرف) والشرف هو المال والمعنى أن الله سبحانه وضع الأشياء في مواضعها فإذا أعنى شخصا سواء كان لاستحقاق لأنه شاكر للنعمة أو لإملاء واستدراج فإن المال إذا انضم إليه الإهانة والذله لا يجد صاحبه فيه أثر النعمة والتفضل لأن المستحق إذا وجد معه العزة والتكريم شاهد التفضل عليه وشكر الله تعالى، والمستدرج إذا وجد العزة معه والتكريم شاهد التفضل وكونه نعمة من الله فتقوم عليه الحجة بخلاف العكس بل ربما مع العكس يشاهد التنغص والكدر فلا يراها نعمة فقال عليه السلام (أكرموا أهل الشرف) والشرف المال، والمراد بإكرامهم وتعظيمهم إنزالهم المنزلة التي وضعهم الله فيها من لوازم المال لا للاحتيال في تحصيل شيء من مالهم فإن ذلك ممنوع منه وفي الحديث (من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه) أو كما قال لأني نقلته بالمعنى الذي حضرني حال الكتابة.

وعلى نسخة (عافيتكم) بالفاء المثناة بعدها من تحت المراد أنهم جرى عليهم في منح التكليف لهم ولشيعتهم في هذه الدنيا كل بلاء من الغصب والضرب والقتل والسبي والسب والغيبة في أعراضهم والقذف وغير ذلك من أعداهم ما لا يجري على أحد ممن مضى من الأمم وممن يأتي وما لحقهم منهم من التكذيب والرد عليهم وتغيير أحكام الله خلافا لهم وما أشبه ذلك وما ابتلوا به من الفقر والهم والغم والجوع وضيق المعيشة وغير ذلك من بلايا الدنيا مما لم يبتل به خلق حتى فسروا قوله تعالى (وَ أَمَّا إِنْ كانَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ) أنه قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم (فَسَلامٌ لَكَ) يا محمد (مِنْ أَصْحابِ الْيَمِينِ) واليمين علي بن أبي طالب عليه السلام يعني ما سلمت من أحد من الخلق إلا من شيعة علي وأصحابه

بمعنى أن كل شيء من الخلق من حيوان ونبات وجماد أخلص إليك بالأذية فيك وفي أهل بيتك وفي شيعتهم لأجلهم حتى الجمادات كالأرض السبخة والحديد وما أشبه ذلك من الجمادات والنباتات والحيوانات آذوكم من أول التكليف إلى أن يقوم قائمكم عجل الله فرجهم وفرجه وفرجنا بهم فتنكشف عنكم البلايا من جميع ما تكرهون وذلك زمان عافيتكم وسلامتكم أنتم وشيعتكم من المَكارِه كلها فسئل أن يشرف في زمان عافيتكم من المكاره كلها أو يشرف ببركة عاقبتكم أو عافيتكم.

فـ (في) بمعنى الباء للمصاحبة أو السببيّة أو هي للظرفية على المعنى الأوّل (الأولي).

فقولنا أوّلاً سأل الله أن يرفع درجته فيما يمكن له يعني بالفعل أو بالقوّة وهو ما يحصل له بحبّهم والتسليم لهم واتّباعهم في أقوالهم وأفعالهم فإنه ليس حاصلاً له بالفعل أي بدون العمل بل الأعمال القلبيّة واللسانية والأركانيّة فإنّها متمّماتٌ لقابليّته لما فضل من إفاضاتهم فعن الباقر عليه السلام (ما مِن عبدٍ حَبَّنا وزاد في حبّنا وأخلص في معرفتنا وسُئِل مسألة إلاّ ونفثنا في روعة جواباً لتلك المسألة) هـ.

وذلك لأنه إذا حبّهم أي بقلبه ولسانه وزاد في حبّهم بالعمل بسنّتهم والاقتداء بأفعالهم والأخذ بآثارهم وأخلص في معرفتهم بنحو ما كتبنا لك في هذا الشرح مما لم يكتب في كتاب ولم يجر في خطاب ولم يسمح به جواب فقد تَمّ له ما يمكن له بمتمّمات قابليّته وإمكان ما بقوّته.

وحينئذ يكون قلبه مفتاحاً لخزائن علومهم ولساناً لإرادتهم وهو معنى قولنا فيما يمكن له وإنّما قلنا هذا بياناً لغاية ترقيّه واحترازاً عن توهّم وصوله إلى رتبة

العصمة بتقريبهم له فإنّه بذلك لا يكون معصوماً أبداً ما دام هو إيّاه، لأنّ النور من حيث هو نورٌ لا يكون منيراً أبداً نعم لو شاء اللهُ أو شاءوا من اللهِ كان (وَلَوْ نشاء لجعلنا مِنكم ملائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ) وهو سبحانه قادر على قلب حقيقةٍ إلى حقيقةٍ أُخْرى وقولهم بامتناع انقلاب الحقائق باطل إلاّ أن يراد به خصوص امتناع انقلاب القديم حادثاً والحادث قديماً وظاهر كلام كثيرين أنّ هذا ليس هو المراد بقولهم أو يرادُ أنَّ الشيء حال كونِه هو إيّاه غيرُه في حال كونه إيّاه وهذا فرض جنون لا فرض عقلٍ.

وأمّا غير هذين فانقلاب الحقائق بعضها إلى بعض ممكن كإمكان وجودها وعدمِها بلا فرقٍ.

وعلى تفسير الشرف بالمالِ يكون المسؤول اليسار من الطاعات والحسنات بمعنى أسأل الله تعالى في زمن عاقبتِكم المحمودة التي تجمع فيها القلوب على إرادة الطاعات أو في زمن عافيتكم المسعودة التي تسلمون فيها أنتم ومن تابعكم من جميع المحذورات أن يمكّنني من كمال طاعتكم ونهاية خدمتكم حتى أكون ذا يسار من الحِسنات، كما فسّر به دعاء الوضوء في غسل اليد اليُمنى (اللهمَّ أَعْطِنِي كِتَابِي بِيَمِينِي وَ الخُلدَ فِي الجِنَانِ بِيَسَارِي) على أحد الوجهين بأن يعطيني كتابي بيميني وبراءة الخلد في الجنان بسبب يساري من الحسنات ضد الإعسار فإنّه أفضل كل يسار وفِي عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام ما معناه أنه قال عليه السلام إنّ أمّ سليمان عليه السلام قالت لابنها (يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ فَإِنَّ كَثْرَةَ النَّوْمِ بِاللَّيْلِ تَدَعُ الرَّجُل فَقِيراً يَوْمَ القِيَامَةِ) هـ يعني لقلّة حَسَناته.

وقوله عليه السلام (ويمكّن في أيّامكم) التمكين يراد به ما تقدّم في معنى المراد من

يملّك في دولتكم ويُشَرفُ في عاقِبتكِم بأن يجعله بما يوفّقه له من طاعته وطاعة أوْليائه ومحبّته لهم والقيام بواجب حقوقهم ومندوبِاتها والياً مملّكاً مُقدَّماً على أكثر أبناء صنفه بكمال إيمانه وإخلاص نيّته متصرفاً في أمورهم على ما حدّد أئمتهم عليهم السلام لهُ مما أمر اللهُ وهدى إليه.

وأيّامُهم يراد منها ما يراد من دولتِهمْ وعاقبتهم وعافيتهم وهو زمانُ سَلطَنتِهم وتمكينهم في الدنيا أو يراد من أيّامِهم أيّامُ الله أي الّتي يظهر فيها دينه ويُعْلي كلمته بهم وهي آلاؤه ونعمه أو هي قهره ونقمه وهي ما في الخصال عن مثنى الحنّاط قال سمعتُ أبا جعفرٍ عليه السلام يقول (أيام الله عز وجل ثلاثة يوم يقوم القائم ويوم الكرة ويوم القيامة).

وفي تفسرِ علي بن إبراهيم (أيام الله ثلاثة يوم القائم ويوم الموت ويوم القيامة).

وفي تفسير العياشي (عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ الله قال بآلائه يعني نعمه).

فإذا فسّرت بالآلاءِ أُريد منها أنّها زمان إتمام دينه وإكمال نعمته على عباده المؤمنين بما يفيض عليهم من بركات السّماء والأرض وقد ذكر ابن طاووس رحمه الله في كتاب سعد السعود أنّي وجدتُ في صحف إدريس النبي على محمد وآله و عليه السلام عند ذكر سؤال إبليس وجواب الله تعالى لهُ قال (يا رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قال لا ولكنك مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ فإنه يوم قضيت و حتمت أن أطهر الأرض ذلك اليوم من الكفر والشرك والمعاصي وانتخبت لذلك الوقت عبادا امتحنت قلوبهم للإيمان وحشوتها بالورع والإخلاص واليقين والتقوى

والخشوع والصدق والحلم والصبر والوقار والتقى والزهد في الدنيا والرغبة فيما عندي وأجعلهم دعاة الشمس والقمر وأستخلفهم في الأرض وأمكن لهم دينهم الذي ارتضيته لهم ثم يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً يُقِيمُونَ الصَّلاةَ لوقتها وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ لحينها ويَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وألقي في تلك الزمان الأمانة على الأرض فلا يضر شي ء شيئا ولا يخاف شيء من شيء ثم تكون الهوام والمواشي بين الناس فلا يؤذي بعضهم بعضا وأنزع حمة كل ذي حمة من الهوام وغيرها وأذهب سم كل ما يلدغ وأنزل بركات من السماء والأرض وتزهر الأرض بحسن نباتها وتخرج كل ثمارها وأنواع طيبها وألقي الرأفة والرحمة بينهم فيتواسون ويقتسمون بالسوية فيستغني الفقير ولا يعلو بعضهم بعضا ويرحم الكبير الصغير ويوقر الصغير الكبير ويدينون بِالحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ويحكمون أولئك أوليائي اخترت لهم نبيا مصطفى وأمينا مرتضى فجعلته لهم نبيا ورسولا وجعلتهم له أولياء وأنصارا تلك أمة اخترتها لنبيي المصطفى وأميني المرتضى ذلك وقت حجبته في علم غيبي ولا بد أنه واقع أبيدك يومئذ وخيلك ورجلك وجنودك أجمعين فاذهب فَإِنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ إِلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ) هـ.

وإذا فُسِّرتْ بالنقمة فظاهر لأنّها الأيّام التي ينتقم الله سبحانه فيها من أعدائه وأعدائهم.

أمّا في الآخرة أو في الرجعة وكذلك إذا فسّر الأول بقيام القائم عليه السلام وأمّا إذا فسّر بالدنيا كما في ظاهر التفسير قال في الآية في الكشاف أي أنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها... إلخ.

وأقول بل تجرى إلى قيام القائم عليه السلام فكذلك لأن الله تعالى ينتقم فيها منهم وإن أمهلهم حتى يستوفوا ما كتب لهم من الآجال والأرزاق وحتى يبلغوا دركاتهم في هُوِيّهم في جهنّم منها فإنّ (لِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا) فهو في هذه الدنيا يهوي في جهنّم بأعماله واعتقاداته وأقواله فهو يسير سيرا حثيثاً هاوياً حتى يصل إلى قعرها من رتبته فيموت، فمنهم من يستدرجه بالنعم حتى يأخذه بغتة، ومنهم من يبتليه بالمرشدين والأدلّة فيهلكهم على أيدي دُعاته بما يستحقه من أنواع الهلاك من الموت أو القتل أو الطاعون أو المسخ أو الخسف أو غير ذلك (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)، ومنهم من يهلكه بإقامة الحجة عليه حتى يحترق، بها وفي كل ذلك يكون المؤمن مملّكاً في أيّامهم في كلّ شيء بحسبه، فإنّ من علّمه حجّتهم عليهم السلام حتى كسر بها حجّة عدوّهم فقد ملّكه معاني ما علّمه وجعله والياً على كثير من أتباعه من الشيعة الآخذين منه وعلى كثير من الملائكة حتى سلّطهم على ناصري عدوّه من الشياطين فيهزونهم بإذن الله تعالى.

ولقد كنتُ قاعداً في الإحساء في دكّان عَطّارٍ فحضر معنا رجل من مشائخ الناصبة فسألني العطّار وكان شيعيّاً بمحضره عن وجه النّصب في قراءة (وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الكَعْبَينِ) فتكلّمتُ له وتعرّضتُ للناصب بذكر بعض حججهم ليدخل معنا في البحث فدخل فأخذتُ في إبطال مذهبهم في غسل الرجلين وكلّما توانى عن الكلام أو غفل عن حجّتهم ذكّرته حتى انقطع ولم يقدر على ردّ جوابٍ أبداً واسودّ وجهه في مجلسه ذلك سواداً لا يخفى على الغبي فضلاً عن الذكي، ثم قام ومضى بيته ولم يخرج عشر أيّام إلاّ إلى قبره لا رحمه الله حين أخرجوه ووضعوه في حفرة النار وهذا من انتقامِ الله سبحانه في الدنيا

لأوليائه عليهم السلام وانتصاره لدينه أجراهُ على يديّ فضلاً منه وحده لا شريك له، بل من ذلك ما إذا عرفت أنّ الوزغ عدوّ لهم فقتلتَهُ نصرةً لهم فإنه يصدق عليك أنّك مُكّنْتَ في أيّامهم في الدنيا بقتل أعدائهم والانتقام، وذلك حين كانوا وزغاً ولو كانوا بصورة الإنسان لما تمكنت من ذلك فالدنيا يوم من أيامهم المخفيّة فهم متمكِّنون فيها وإن لم يكن التمكن ظاهراً ولو لم تعرف هذا لم تتقرّب إلى الله بقتل حيوانٍ صغيرٍ لأنك لم تمكّن في أيّامهم كلّها وهذا منها وإن كان خفياً.

روى أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي في كتاب كنز الفوائد قال وروى أبو نصر قال كنتُ عند الإمام الباقر محمد بن علي صلوات الله عليه ذات يوم وسام أبرص على حائط ينقُّ فقال صلوات الله عليه هل فيكم أحد يدري ما يقول هذا المسخ قلنا ما ندري فقال صلوات الله عليه ولكنّي أدري ما يقول يقول لأن شتمتم معاوية لأشْتمَنَّ علياً فقلنا يا ابن رسول الله لو أمرت بقتله فقال صلوات الله عليه لغلام يا غلام اقتل هذا الوزغ فإنه مسخ وهو عدوّ مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالبٍ صلوات الله وسلامه عليه قلتُ جعلتُ فداك يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا الوزغ ممّن يبغض أمير المؤمنين صلوات الله عليه قال يا أبا نصر تدري ما كان هذا الوزغ قبل أن يمسخ في هذه الصورة قلتُ الله ورسوله وابنُ رسوله أعلم قال صلوات الله عليه كان رجلاً من بني أميّة وكان جبّارا عصيّاً ذا سلطانٍ شديدٍ وحشمٍ وعبيد فمسخه الله عز وجل كما ترى ثم قال صلوات الله عليه أيّما رجل قتل وزغاً وعاد مريضاً ومشى على أثر جنازة مؤمن في يوم واحدٍ أوجب الله عز وجل له الجنّة) هـ.

والحاصل المراد من سؤال التمكين في أيّامهم لإقامة دين الله وإعلاء كلمته لا لِنَيْل حظوظ الدنيا فافهم.

وقوله عليه السلام (وتقرّ عينه غدا برؤيتكم) قرت العين كناية عن الفرح والسرور وفي القاموس وعينُه تقرّ بالفتح والكسرِ قُرّةً وتضم وقرورا بردت وانقطع ماؤها إذا رأت ما كانت متشوّقةً إليه هـ.

والمراد بالغدِ يوم القيامة أو يوم يقوم القائم عليه السلامأو يوم الرجعة وهذه الاحتمالات مبنية على ما تقدّم من قوله عليه السلام (يحشر في زمرتكم ويكرّ في رجعتكم) يعني أنه إذا حصل الاجتماع وهذا في المعنى مرتّب على ما قبله وهو قوله (فثبتني الله أبداً ما حَيِيتُ على موالاتكم ومحبّتكم ودينكم ووفّقني لطاعتكم ورزقني شفاعتكم وجعلني من خيار مواليكم التابعين لما دعوتم إليه وجعلني ممّن يقتصّ آثاركم ويسلك سبيلكم ويهتدي بهداكم ويحشر في زمرتكم ويكرّ في رجعتكم ويملّك في دولتكم ويشرّف في عاقبتكم ويمكّن في أيّامكم).

ومعنى ترتّبهِ على هذه التي قبله في المعنى أنّ قرّة عينه على كمال ما ينبغي إنّما تحصل له إذا استجيب له دعاؤه في هذه كلها فإذا استجيب له دعاؤه فيها على نحو ما أشرنا إليه حصل له كمال السرور ونهاية الفرح الذي هو غاية قرّة العين، لأنه إذا بقي من طلباته شيء كان عند رؤيتهم مغموماً لفواتِ حال يحبّون أن يكون عليها محبهم ويلقاهم بها فلذا قلنا أنه مرتّب على ما قبله معنى وإنما قلنا معنى لأنه في الظاهر معطوف عليها فهو من جملتها.

قال عليه السلام بأبي أنتم وأمّي ونفسي وأهلي ومالي

قد تقدم الكلام في معنى بأبي أنتم ....إلخ.

فإن قلت هنا ذكر النفس وفيما سبق لم يذكر النفس فما الفائدة في ذلك.

قلتُ لأنّه لمّا ذكر سابقاً كثيراً مما هم أهله من صفاتهم وفداهم عند ذكرها بها ذكر وكان قد ذكر بعد ذلك من صفاتهم ما ذكر وعظم الشأن في نفسه وكبر في قلبه ولم يبق عنده شيء أعزّ ولا أحبّ من نفسه بل كل عزيزٍ وحبيبٍ فإنما كان عزيزاً وحبيباً لأجْلِها فداهم بها.

فإن قلت: لِمَ لم يقتصر عليها وكيف ذكر من ذكر قبل ذلك معها مع أن ذكره أولاً كافٍ.

قلتُ: لو اقتصر عليها ربّما فهم من ذلك الاختصاص هنا بها وهناك بهم أو على جهة البدليّة والتخيير بمعنى أنه إنما يفديهم بأحدهما فذكرهم معها ليدلّ على استحقاقهم لذلك كله ولمّا ذكرهم وذكر نفسه دلّ على أن هذا غاية جهده ولو وجد غير ذلك لبذله.

فإن قلت: لم قدّم الأب مع أن الأولى تقديم النفس لأن كل محبوبٍ فإنما هو لأجلها.

قلتُ: قد يقال إنما أخّر النفس لأنه ذكر المذكورات على جهة الترقي من الأضعف إلى الأقوى والترقي قد يكون في الإثبات من الأضعف إلى الأقوى وإن كان خلاف الغالب والذي يظهر لي أن الجواب الحق أن الترقي جارٍ على حكم الأغلب، وقد تقدم كثير من الجواب وإنما الأب بحكم الأقوى لتقدمه على النفس وأصالته وكذا الأم ولاحترامهما ولأن ذلك من المعروف المأمور بالمصاحبة به وقولي سابقاً في هذا البحث بحيث يفنى الحبيب والعزيز من كتاب الرعاية مرادي عند التفدّي ومعنى كتاب الرعاية والمحافظة الذي أشرتُ إليه في قوله عليه السلام (بأبي أنتم وأمي) الخ السابق لا هذا أريد به أن كل شيء تحبّه أو تكرهُه

أو تحذره فهو في كتاب عندك مسطور يسمونه أهل الظاهر والقشر بالخيال وأهل الشرع عليه السلام يسمونه بالكتاب، وقد أشرنا فيما تقدّم إلى ما يبيّن هذا فراجعه وإنما يصح أن يقال له الخيال لأنّ لخيالك عَيْنَيْنِ يلاحظ بهما ما في كتابي الزمان والمكان من الأمثال القائمة المعلّقة بالأعيان الخارجيّة تعلّق الظلّ بالشاخص فإذا ظهر لك المخاطب مثلاً بما استمال به كل قلبك من الصفة المستحسنة أحببتَ دوامَها عليك ولحظتَ احتمال تغيّرها أو تبدّلها بما لم تستحسن أو فناء الذي قامت به ملاحظةً بلا تشخّص لذلك المكروه الذي حذرته لاستغراق تعيينك في تعيُّنِه لكَ وإنّما يرد المحذور على وهمك لا على جهة التعيّن ولذا أكثر الناس لا يتوهمه فضلاً عن أن يجده أوْ يعرفه وهو ما ذكرتُ فلا تصغ إلى غير ما ذكرنا:

يا ابن الكرام ألا تدنو فتبصر ما
قد حدّثُوك فما رأى كمن سمِعَا

فإذا عرفت هذا فاعلم أنّ الصفة التي ظهروا بها لمن عرفهم هي مجموع ما اشتملت عليه مشيّة اللهِ من كلّ صفة مستحسنةٍ في نفس الأمر ليس في الإمكان مثلها أوْ أحسن منها وقد اشتملت هذه الزيارة المباركة على الإشارات إلى كثير من ذلك وقد ضمنا في هذا الشرح كثيراً من معاني قولهم(اجعلوا لنا ربا نؤب إليه و قولوا فينا ما شئتم).على أنّي ولله الحمد لم أقل فيهم ما شِئْتُ وإنّما قلتُ فيهم ما شاءوا إليَّ أن أقُول فيهم، فقلتُ بإذن الله وأذنهم ما لو سمعه السميع لصُمَّ والبصير لعَمى.

وهذا وأمثاله من صفاتهم الحقّية التي هي الأسماء الحسنى والأمثال العليا والنعم التي لا تحصى هي تلك الصفة المقتضية لميل القلوب العارفة بهم إلى حَدٍّ

يفنى عنده الجنان وتذاب في القيام بمدحه الأركان وينطق في تيار لُجَّتِه اللّسان بكلّ لغةٍ لها منه ترجمان إلى أن قال بأبي أنتم وأمّي ونفسي وأهلي ومالي ثم التفت القلبُ إلى أن يُجْمِلها أوْ أغلبُها في بعض جوامع الكلم فعلّمه الإمام عليه السلام.

فقال عليه السلام (من أراد الله بدأ بكم ومن وحّده قبل عنكم ومن قصده توجّه بكم)

قال الشارح المجلسي رحمه الله من أراد الله بدأ بكم فإنه لا يمكن الوصول إلى مَعارفه ومرضاته إلاّ باتّباعِهم في العقد والعمل ومن وحّده قَبِل عنكم أي كلّ يقول بتوحيد الله يقبل عنكم فإنّ البرهان كما يدُلُّ على التوحيد يدل على وجوب نصب الخليفة المعصوم أولم يوحّدِ الله وَلم يعبده حقّ عبادته من لم يقبل العلوم منكم، أوْ عرف التوحيد وغيره من المعارف من قولكم وأدلتِّكم أو نهاية مراتب التوحيد لا يوصل إليها إلا بمتابعتكم أو مَنْ لم يقبل منكم فهو من المشركين أو من عرف الله حقّ معرفته فهو يقبل منكم كلّما تقولونه انتهى.

أقول: هذه الفقرات الثلاث من جوامع الكلم لأنّ كل واحدٍ يراد منها كلّ معنى فقوله عليه السلام (مَنْ أراد الله بَدَأَ بكم) يراد به من أراد أن يعرف الله قصَدهُم

لعرّفوه معرفة الله وما يصح عليه ويمتنع لأنهم ألسنة إرادة الله ولا يعرف مراد اللهِ إلاّ بتعليمه ولا يعلم أحداً من خلقه إلا بهم، لأنهم محال مشيته وألسنة إرادته وظاهره في خلقه ونوّابه في عباده وأبوابه في بلاده وأمثاله العليا في بريّته وقصدهم أي ليعرفَهُمْ فإذا عرفهم عرف الله بمعرفتهم لأنّهم آيات معرفته فمن عرفهم فقد عرف الله لأن الشيء إنما يعرف بصفته وهم صفته وآثار صفته فإذا عرفتَ الصفة عرفتَ الموصوف بتلك الصفة بهيئتها، كالطويل فإنّك إذا عرفت الطول عرفت الطويل الموصوف بالطول بهيئة الطول، وكالقائم إذا عرفت القيام عرفت القائم

الموصوف بالقيام بأثره الذي هو القيام، وذلك أنه سبحانه لما كان لا يعرف بالكنه لأنّ الشيء لا يدرك إلاّ ما هو من جنسه وفي رتبته وحينئذ يحيط به فإذا أحاط به كان أعلى منه كما في رواية المُفضل عن الباقر عليه السلام إلى أن قال في قوله تعالى (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ فأحسن الحديث حديثنا لا يحتمله أحد من الخلائق أمره بكماله حتى يحده لأنه من حد شيئا فهو أكبر منه) هـ.

ولما أراد أن يُعرف تعرَّفَ لعباده بصفةٍ يعرفونه بها ولا تكون إلا مخلوقة من جنسهم فأول ما تعرّف تعرّف لمحمد وآله الطاهرين الثلاثة عشر المعصوم صلى الله عليه وآله وسلم بهم أي ظهر لهم بهم يعني وصف نفسه وكنههم ذلك الوصف ، وتعرف للأنبياء عليهم السلام بهم بمحمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم ومعنى ذلك ظاهراً لتفهمه أن النور صفه المنير فيعرف المنير بما وصف به نفسه وهو النور لأنه يشابه ظهور المنير به ، كالشمس فإن نورها يشابه ظهورها به ونور القمر كذلك ولا يشابه نور الشمس، ونور الشمس لا يشابه نور القمر لأن كل واحد إنما ظهر بنوره الذي هو صفة ظهوره به ودليله عليه لا بنور غيره فافهم.

فالوصف الأول حقيقة محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم ونور هذا الوصف الذي لا يوجد ولا يظهر إلا به لكونه صفته حقيقة الأنبياء عليهم السلام ونور تلك الحقيقة الذي لا يوجد ولا يظهر إلا بها لكونه صفتها حقيقة المؤمنين وهكذا.

فالمؤمنون إنما يعرفون الله بهيئة ظهوره لهم بالأنبياء الذين لا يعرفون الله إلا بهيئة ظهوره لهم بمحمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم كما لو قابلت مرآة فإن وجهك ينطبع فيها بلا واسطة فإذا قابلت المرآة مرآة أخرى كان في المرآة الثانية صورة المرآة الأولى فيها صورة وجهك وهكذا، فالذي يقابل الثانية إنما يرى صورة الوجه المنطبعة

في صورة الأولى فلم يرى إلا صورة الصورة والظاهر بها في الثانية صورة المرآة الأولى لا نفسها والصورة التي في الثانية مركبة من مادة وصورة ، فالمادة ظهور الأولى بما فيها من الصورة للثانية والصورة صفاء زجاجة الثانية واستقامتها أو اعوجاجها وبياضها أو سوادها وكبرها أو صغرها، ولهذا يختلف صورة الأولى وما فيها من صورة الوجه باختلاف الثانية في الصفاء والكدورة، والإستقامة والإعوجاج، والبياض والسواد، والكبر والصغر، ومادة الصورة التي في الأولى ظهور الظاهر لها بفعله إياها وصورتها هيئتها من صفاء واستقامة وبياض وكبر، فقوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ).

إذا أريد بالمعنيين محمد وآله ﷺ كان المراد بالآيات الآيات الكبرى ويصدق قول أمير المؤمنين عليه السلام (من عرف نفسه فقد عرف ربه) إذ حقيقة النفس حقيقة المعرفة وليس فوق هذه رتبة، وإذا أريد بهم غيرهم عليهم السلام

احتمل وجهان:

إحداهما: أن المراد بالأنفس محمد وآله ﷺ كما قال تعالى (لَقَدْ جاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) أي جاءكم رسول من آل محمد ﷺ لأنهم عليهم السلام هم أنفس الخلق وذواتهم أي هم أنفس النفوس وذوات الذوات والمعنى أن الخلق يعرفون الله بهم لأنهم الآيات الكبرى ، قال أمير المؤمنين عليه السلام (ما لله عز وجل آية هي أكبر مني ولا لله من نبأ أعظم مني).

رواه في الكافي، وفي قوله تعالى (لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الكُبْرى) إذا جعل الكبرى منصوب على أنه مفعول رأى وهو أفعل التفضيل أي رأى محمد ﷺ علي عليه السلام الذي ليس لله آية أكبر منه ليلة المعراج لم يصل إلى مكان إلا ويراه أمامه

وخاطبه الله بلسانه هذا على معنى الآية وعلى معنى الحديث فالمراد أن من عرفهم فقد عرف الله كما تقدم.

وثانيهما: أن المراد بالأنفس أنفس الخلق أي (سَنُرِيهِمْ آياتِنا) أي آيات معرفتنا (فِي أَنْفُسِهِمْ) ، والمعنى كما مثلنا لك بالمرآة المقابلة للمرآة المقابلة للوجه فإنك ترى صورة الوجه في صورة المرآة وذلك لأنك إذا عرفت نفسك عرفت وصف الله تعالى نفسه لك الظاهر لك فيهم وبهم عليهم السلام، وقصدهم ليعرفهم لأن معرفتهم هي معرفة الله حقيقة.

وإلى الثلاثة المقاصد أشار علي عليه السلام بقوله (نَحْنُ الأَعْرَافُ الذِي لا يُعْرَفُ الله عَزَّ وَجَل إِلا بِسَبِيلِ مَعْرِفَتِنَا) أي لا يعرف الله إلا بما وصفناه تعالى ودللنا عليه فمن أعرض عن شيء مما دللنا عليه من صفاته فإنما أعرض عنه إلى الشيطان، وهذا على المقصد الأول الذي هو مأخذ الخواص من شيعتهم وله معنى ثان فوق هذا أي لا يعرف الله إلا بمعرفتنا يعني أنا أركان توحيده فمن أنكرهم فقد أنكر الله ومن لم يعرفهم لم يعرف الله، فلم يعرف الله من وحد الله ولم يشهد أن محمد رسول الله ، ولم يوحد الله من شهد ألا إله إلا الله وحد لا شريك له وشهد أن محمد رسول الله ولم يشهد أن علي ولي الله صلوات الله عليه، ولم يوحد الله من شهد ألا إله إلا الله وشهد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشهد أن علي ولي الله صلوات الله عليه ولم يشهد بأن الأئمة الأحد عشر عليهم السلام حجج الله في أرضه وخلفائه في بلاده وأمنائه على دينه في عالمه وهكذا، وهذا المقصد الثاني هو طريق الخصيصين من شيعتهم وله معنى ثالث، وهو أنك لا تعرف زيدا إلا بظاهر منه من صفة أو اسم أو إشارة ، وهذا آية معرفة الله في قوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآْفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ) وقال تعالى (وَ فِي أَنْفُسِكُمْ أَ فَلا تُبْصِرُونَ).

فإذا عرفت بأي شيء عرفت زيدا عرفت الله سبحانه ألا تسمع إلى قول الصادق عليه السلام (العبودية جوهرة كنهها الربوبية فما فقد في العبودية وجد في الربوبية وما خفي في الربوبية أصيب في العبودية) الحديث.

فلما تأملنا معرفتنا بزيد وجدنا طريقنا إلى معرفته إنما هو وجهه الذي نتوجه إليه من صفته واسمه والإشارة إليه ولا سبيل لنا إلى غير ذلك من الإحاطة بكنهه ولما طلبنا معرفة خالقنا الذي لا يمكن أن يعرف من نحو ذاته استرشدناه فأرشدنا بناطق كتابه وترجمانه الذي أرسله إلينا صلى الله عليه وآله وسلم فقال في كتابه (وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ العالِمُونَ) (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ) فأخبرنا العالمون الذين يعقلون آيات الله فقال صلى الله عليه وآله وسلم (أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه) وقال علي عليه السلام (مَنْ عَرف نَفْسَه فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ) فلمّا طلبنا معرفة نفسِنا من حيث هي موجودة قائمة بنفسها لم نقدر على ذلك إلاّ بمعرفة صفتها واسمها والإشارة إليها، ثم نظرنا فإذا الذي عرفناها به هو أثرها وصفة فعلها وما ينسب إليها ولمّا نظرنا في الأثر وصفة الفعل وما ينسب إلى الشيء وجدناه وجه معرفتها الذي يدلّ بما فيه على جهة المبدئيّة فالأثر يدلّ على مؤثره يعني من جهة ظاهر التأثير لا مطلقاً كما تدلّ الكتابة على الكاتب من هذه الجهة ولهذا إذا رأيت الكتابة حسنة استدللتَ بذلك على استقامة حركة يد فاعلها، ولا تدلّ على جماله أو كماله أو علمه أو تقواهُ لأنّ الأثر إنّما يدل بما فيه على جهة المبدئيّة له وكذلك صفة الفعل تدلّ على فاعل لا على ذاتٍ وكذا أحوال النسب كالإشارات والأوضاع والإقترانات وأمثال ذلك هذا ونحن قد عرفنا حدوث أنفسنا بالفقر والتركيب والتغيّر والتحوَل وغير ذلك من صفات

الحدوث فلمّا طلبنا معرفة أنفسنا من حيث هي وجدنا أنموذجاً منقوشاً فهوانِيّاً قُدِّر في التّوصيف على قدر التّعريف لأنّ النقش يقع على قدر الرقِّ المنشور المنقوش ففتّشنا حقيقته فإذا هو قول الواصف لنفسه بذلك القول، فلمّا قرأناه عرفناه بأنه الوجه الذي يتوجّه إليه طالب المعرفة ورأينا فيه مرايا قد انتقش فيها وجه الوجود والفناء والبقاء والدّوام السّرمدي ولا رَيْبَ أنّ المنتقش وجه ونور وهو قول علي عليه السلام (إنّما تدرك الآلات أنفسها وتشير الأدوات إلى نظائرها) وقال عليه السلام (أنا الذي لا يقع عليه اسم ولا صفة) وفي الآَية الشريفة (وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى) وقال علي عليه السلام(انتهى المخلوق إلى مثله وألجَأَهُ الطَّلب إلى شكله) فعرَفْنَا بما كُتِبَ لنا من ذلك الأنموذج صورة وجه الله تبارك وتعالى لهُ الجَلالُ والإكرام وهو اسم المعبود وظاهر الوجود ومنبع الكرم والجود وهُو العليُّ العظيمُ فتَوجهْنَا إلى المسمى بهذا الاسم الكريم المعني بهذا الوصفِ العليّ العظيم وهذا سبيلُ معرفتهم يعني بهذا يعرفهم مَنْ عرفهم ومن عرفهم بهذا فقد عرف الله تعالى حقّ ما يمكن من معرفته وهو قول الصادق عليه السلام (وهو المكونُ ونحن المكان وهو المُشيءُ ونحن الشيء وهو الخالق ونحن المخلوقون وهو الرب ونحنُ المربوبون وهو المعنى ونحنُ أسماؤهُ وهو المحتَجِبُ ونحنُ حُجُبُه) الحديث.

أقول: الذي وجدته في نسخة أنيس السّمراء هكذا وهو المكوِّن بكسر الواو ونحن المكان وفي النسخة بضم الميم بمعنى المكوَّن بفتح الواو ويجوز أن يكون بفتح الميم بمعنى المكوَّن بفتح الواو وإنّما أطلق عليه لأنّه محلّ التكوين أو قابل التكوين ويحتمل أنه ونحنُ الكان بغير ميم قبل الكاف أي الممكن قال في مجمع البحرين وفي الحديث (إِنَّ الله كَانَ إِذْ لا كَانَ) أي لم يكن شيء من الممكنات (فَخَلقَ الكَانَ) أي الممكن الكائن كذا عن بعض الشّارحين.

وهذا المقصد الثالث لأهل العصمة عليهم السلام وطريق كمّل شيعتهم في الرّجعة ولمحمد وآله صلى الله عليه وآله حال أخبروا عنه في أحاديثهم على ما رواه كثير من علمائنا وهو قول الصادق عليه السلام (لنا مع اللهِ حالات نحن فيها هو وهو نحنُ وهو هو ونحْن نحنُ) وقول الحجة عليه السلام في دعاء شهر رجب كما تقدّم (يعرفك بها من عرفك لا فرق بينك و بينها إلا أنهم عبادك وخلقك)الدعاء.

وقد تتّحد هذه الحال مع المقام الثالث وقد يتعددان والتعددُ بالاعتبار.

وقوله عليه السلام أيضاً (مَنْ أراد الله بدَأ بِكم) يُرَاد به من أراد وجْهَ الله والتقرّب إليه بالأعمال الصّالحة بدأ بكم يعني أخذها عنكم وسلّم إليكم وفوّض في ذلك كله إليكم ظاهراً بالقول والعمل وباطناً بالاعتقاد والاعتماد مشفوعة بحبّكم وولايتكم لأنّ ذلك شرط في قبولها وتزكيتها والنظر إليها كما دلّت عليه أخبارهم وقد ذكرناه مراراً.

وقوله عليه السلام أيضا (مَنْ أراد الله بدأ بكم) يراد به أنكم سبيله إلى عباده وسبيل عباده إليه فمن سلك إلى الله من غيركم (فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) فلا يصل إلى الله ولا يصعد إليه منْ عملِه شيء لأنّ الله لم يجعل له طريقاً موصلاً إليه غيرهم، أوْ أنّ مريد الله تعالى لا يقدر على الوصول إلى الممكن له من القرب إلاّ بهم، لأنّهم صلى الله عليهم يقوّون العباد على التوصّل إلى نهايات حظوظهم من خيره تعالى لأنهم جعلهم الله أعضاداً لخلقه وأشهاداً ومُناة وأذواداً وحفظة وروّاداً، ومعنى أعضاد يقوّون كلّ ضعيف ويتمّمُون كل ناقص ويرشدون كلّ ضالّ حتّى يبلّغوه كلّ مالهُ من الوجود، وإشهادٌ له وعليه ومُنَاة يقدّرون كلّ شيء بعمله فيما هو عليه من السعادة والشقاوة والغنى والفقر والقوّة

والضعف وغير ذلك بإذن الله وأمره الذي حمّلهم إيّاهُ، وأذواد يمنعون كلّ شيء عمّا ليس له لعدم قبولِه لهُ، وحفظة أي معقبات من مستقبله وماضيه يحفظونه من أمر الله، وروّاد في الخير قادة ودعاة وأدلاّء، وفي الشر سائلون ومحاسبون وتاركون ومُبوّؤُنٍ كلاً مسكنه من الجنّة أو النار.

أو من أراد الله استشفع بكم أوّلاً أو قدّمكم أمام طلبته مقسماً على الله عز وجل بكم لأنه تعالى لا يردّ سائلاً أقسم عليه بكم أو لأنكم أسماؤهُ التي يُدعى بها وصفاته التي يعرف بها ونعمه التي يسأل من فاضلها وخزائن رحمته التي ينفق منها.

أو من أراد الله بدأ بكم في الإرادة لتعذر إرادة الله بدون إرادتكم لأنكم جهته ووجهه الّذي يتوجّه إليه من أراد الله.

أو مَنْ أراد الله بدأ بكم أي أرادكم ليكون بكم مُريداً لله بإرادتكم أي بفاضل إرادتكم أو وجودكم أو كرمكم وجودكم أو بتعليمكم أو بدلالتكم وإرشادكم أو بقيّوميّتكم وحفظكم له.

أو من أراد الله لزمه أن يريدكم أوّلاً، لأنكم واسطة بينه وبين جميع خلقه فإذا أراد الله بأيّ معنى ممّا ذكر وغيره فالإرادة والمراد من الله أو لله أو بالله والمريد كلها مخلوقة لله وهم الواسطة في ذلك كلّه فلا بُد أن يبدأ بالواسطة وإلاّ لم يكونوا في حال عدم البدءِ بهم واسطة، وقد تقدّم بيان كونهم عليهم السلام وَاسِطَةً في كل شيءٍ مراراً فراجع إن توقّفتَ في معنى ذلك.

وقوله عليه السلام (ومَن وحّده قَبِل عنكم) ما ذكره الشّارح رحمه الله في بيان هذه الفقرة إلاّ أن الوجه الثالث وهو قوله أوْ عُرِفَ التّوحيد وغيرهُ من المعارف من قولكم

لا يجري على ظاهر اللفظ وإنّما يصح على التأويل بمعنى أنّ من عرف التَّوْحيد وغيره من المعارف الحقّة قد قبل عنكم ما قلتم في بيانه وتعريفه ووصفه وإلاّ لم يعرف التوحيد فإذا رأينا اعتقاده صحيحاً وقوله حقّاً حكمنا بأنه قد قبل الحقّ لمّا جاءهُ منهم، وذلك لما قام عليه البرهان عَقْلاً ونقلاً أنّه لا يكون عند أحدٍ من الخلق حقّ إلاّ ما كان عنهم لا فرق بين أوّل الخلق وآخرهم فيلزم كلّ ذي حقٍ قبولهُ لما عَلِمَ من الحق وقبوله مِنْ مُفيض ما قبل من الحقّ ولوْ لم يقبل من المفيض للحقّ لم يقْبلِ الحقَّ فإذا قَبِل الحَقّ لزمه أنّه قبِل عن مفيضه والمتفضِّل به وعن جميع ما هو سبب في كونه وإيصاله.

ولمّا ثبت أنهم عليهم السلام هم سبب كون كلّ حق لجميع من سواهم من الخلق وسبب إيصاله بل وسببُ قبوله فبمثل هذا التوجيه يتجه كلامه رحمه الله في كونه تفسيراً لقوله عليه السلام (ومَنْ وحّده قبل عنكم) بل كل وجوهه الستّة تحتاج في تطبيقها على ظاهر كلامه عليه السلام إلى نحو ما وجّهنا به الوجه الثالث.

فإنّ قوله رحمه الله في الوجه الأوّل أي كلّ من يقول بتوحيد الله قبل عنكم، فيه لقائل أن يقول كثير ممّن يقول بتوحيد الله وهو ناصب لهم العداوة قد جعل ديدنه الردّ عليهم فأين قبوله عنهم، لكن إذا وجّهناه قلنا المراد بالقول بتوحيد الله القول الحقّ ولا يحصل لأحد من الخلق إلاّ بالقبول عنكم، لأنّه إذا لم يكن طريق إلى الحقّ إلاّ منهم فلا بدّ من القبول منهم أو يكون ليس قوله حقّاً.

وتعليله رحمه الله بأنَّ البرهان الدال على التوحيد دالّ على وجوب نصب خليفةٍ معصوم لا يلزم منه أن من قال بالتوحيد قبل عنهم فإنّ هذا لا يلزم في حق الأنبياء عليهم السلام ولا أوصيائهم عليهم السلام ولا في أحدٍ من المؤمنين لأنّ كلّ من سواهم لمْ

يكن باباً لجميع ما أفاض اللهُ من العلوم والمعارف وغيرهما ليصدق عليه أنّ من وحّد الله قبل عنكم أي لزمه القبول عن ذلك الباب وإنّما ذلك خاصّ بهم عليهم السلام.

وفي الثاني تفسير لمفهوم كلامه عليه السلام وهو متجه على قصد إرادة كونهم عليهم السلام بابَ كلِّ شيءً وإرادة اللزوم المذكور إلاّ أنّه في الثاني أظهر.

وفي الرابع وهو قوله أو نهاية مراتب التوحيد لا يوصل إليها إلاّ بمتابعتكم، إنّ كلامه هذا يدلّ على أنّ كلّ ما دون النهاية من مراتب التوحيد يمكن الوصول إليها بدون متابعتهم فإن أراد المتابعة الظّاهرة أمكن أن يقال لا بأس به إن أردنا على ما تفهمه العوام فإن أكثر المراتب إنّما تعرف بعقولهم حتى أنا نُقِل لنا قول بعضٍ ممّن يقال إنّه من الشيعة أنّه قال نحن لا نحتاج إلى الأئمة عليهم السلام في المعارف والاعتقادات لأنّها أمور عقلية، وإنّما نحتاج إليهم في الشرعيّات وإن أراد ما في نفس الأمر فهو خطأ لأنّ العقول كلّها جميع أنوار بصائرها من فاضل أنوارهم فإذا أردنا أن نعرّفك حقيقة عقل زيد قلنا إنّ العقل الكلي الّذي هو من أمر اللهِ (مَلكٌ لهُ رُءوسٌ بِعَدَدِ الخَلائِقِ) من ولد ومن لم يولد، فلزيد رأس من العقل يخصه وهو على صورته في متعلّقه من زيد فإذا تم نموّ دماغ زيد مثلاً ظهر نور ذلك الرأس وأشرق على دماغ زيد فاستضاءة دماغِ زيد بذلك النور المشرق من ذلك الرأس المختص به هي عقله فعقل زيد هو استضاءة دماغه بإشراق نور ذلك الرأس، وذلك الرأس وجه من ذلك الملك وذلك الملك هو عقلهم عليهم السلام فعقلهم الذي هو الملك الكلّي الذي هو من أمر اللهِ كالشمس وعقل زيد كاستضاءة الجدار المشرقة بإشراق نور الشمس على وجه الجدار فكما أن استضاءة الجدار إنما هي عبارة عن إشراق نور الشمس على وجهه فلا قوام لها إلاّ بوجود

الإشراق كذلك عقل زيد إنما هو عبارة عن إشراق وجه ذلك الرأس من الملك فلا قوام له إلاّ بوجود إشراق ذلك الرأس والإشراق من كل منير ليس إلاّ عبارة عن ظهور المنير بصفته لمن ظهر له، وقد دلّت الأخبار المستفيضة والعقول المستريضة بأنوارهم عليهم السلام على أن جميع عقول الخلق إنما هي ظهورات العقل الكلي وتعلّقاته فكيف يستغني الظهور عن الظاهر وكيف يتحقق للظهور وجود أو إظهار لشيء بغير الظاهر وكيف يستغني شيء عن علله الأربع حتى يفرض له تقوّم أو شيئيّةٌ بدونها.

فإذا عرفت ذلك ظهر لك أن جميع مراتب التوحيد من البداية إلى النهاية لا يوصل إلى شيء منها لشيء من الخلق إلاّ بمتابعتهم، ولكن من لم يعرف ما هم عليه مما رتبّهم الله سبحانه فيه من مراتب أمثاله تعالى وأفعاله لا يرى أنّ الأشياء بهم قامت وأنّهم عِللُ أكوانِها وأعيانها على نحو ما أشرنا إليه سابقاً.

وفي الخامس تفسير للمفهوم وهو حسن جارٍ على ما ينبغي.

وفي السادس من الوجوه التي ذكرها رحمه الله سِرٌّ مستور إن أرادهُ فقد تفوّق وتعمّق وهجم على كنزٍ من العلم لا ينفد إن كان قصده تفصيله وإن عنى إجماله فحسن ولكن لا يستخرج الكنز الذي لا ينفد لأن مجمله ينفد.

والإشارة إلى بيان ما ذكرنا على سبيل الاختصار أنه قال عليه السلام ومن وحّده قبل عنكم والشارح رحمه الله قال أو من عرف الله حق معرفته فهو يقبل منكم كلّ ما تقولونه لأنه إذا عرف الله حق معرفته فقد عرف جميع الشروط المتوقف عليها حقيقة المعرفة وركن الشروط المذكورة بل كلّها معرفتهم في رتبتهم من المقامات والمعاني والأبواب وفي ولايتهم من أحكام ربوبيّة وإرشادٍ وهداية وحفظٍ وتقدير

وإيرادٍ وذَوْدٍ ومعونةٍ ونصرة وخذلان منوطة بكلّ الخلق، أجراها العليم الحكيم بهم على جميع الخلائق وهم صلى الله عليهم إذْ ذاك (عِبادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبقُونَهُ بِالقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)((يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) مما لم يفعلوه (وَمَا خَلفَهُمْ) مما فعلوه أو بالعكس على الاحتماليْنِ ولا يشفعون لشيءٍ من الخلائق بإعطاء وتمكين وتمكّن وحفظ ومعونة إلا لمن ارتضى دينه ممّن تولّاهم وتبرّأ من أعدائهم وسلّم إليهم ولم يجد في نفسه شيئاً ممّا فعلوه وقالوا به وأخبروا به عن أنفسهم فيما لهم وفيما لأتباعهم وفيما على أعدائهم ويسلّم تسليماً (وَهُم مِّنْ خَشْيَته مُشْفقُونَ) خائفون من أن يروا أنفسهم في شيء مما ذكرنا وغيره (وَمَنْ يَقُلِ مِنْهُمْ إنيِّ إلهٌ مِنْ دُونه فَذلكَ نُجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذلِكَ نُجْزي الظَّالِمينَ)أي ومن يقل من أعدائهم أَنيّ استغني عن الولي الذي جعله الله محلّ مشيّته ولسان إرادته في شيء قليل أوْ كثير من الوجود الكوني أو شرعه والوجود الشرعي أو شرعه فذلك (نُجْزِيهِ جَهَنَّمَ) لأن مَنْ وجد في نفسه أنه مستغنٍ عنهم بنفسه أو بشخصٍ غيرهم فقد أَشرك بالله من حيث لا يعلم لأنّ الله تعالى أَمره بالأخذ عنهم والتسليم لهم وأنّ الرادّ عليهم رادّ على الله والرادّ على الله مشرك وقد أخبرك الله تعالى عن حكمهم وأنهم مشركون حيث يقول (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَميعاً ثُمَّ نَقُولُ للذينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكاؤُكُمُ الذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إلاَّ أَنْ قالُوا وَالله رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ).

يعني ما وضعوا أصناماً ظاهرة يعبدونهم من دون الله ويصلّون لهم ولكنّهم اتخذوا رجالاً من دون وليّ الله فأمروهم بخلاف ما أمر الله فأطاعوهم في خلاف أمر الله فعبدوهم من حيث لا يعلمون فردّ عليهم سبحانه فقال (انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلى أَنفُسِهِمْ وَضَل عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ)وقال الصادق عليه السلام حكاية عنهم

(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ فَاتَ قَوْمٌ وَمَاتُوا قَبْل أَنْ يَهْتَدُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ آمَنُوا وَأَشْرَكُوا مِنْ حَيْثُ لا يَعْلمُونَ).

ولا يعرف الله أحدٌ حقّ معرفته حتى يأتي بالشروط التي تتوقّف عليها المعرفة

وهذه الشروط كلّها معرفتهم عليهم السلام كما وصفتُ لك وفسّرتُ الآية به فإذا كان كذلك فكيف لا يقبل عنهم وهو قد قَبِل عنهم لأنّه قبِل العلمَ والمعرفةَ والتوحيدَ عنهم ولو لم يقبل لم يعلم ولم يعرف إذ لا يكون ذلِك من غيرهم.

وقوله عليه السلام (ومن قصده تَوجَّهَ بِكم) أي ومَنْ قصده من حيثُ القصدِ الذي أمرَ به لما لا يملكه غيره من خير الدنيا والآخرة لأن كل شيء فإنّما يطلب منه ولا يوجد عند غيره كما قال في محكم كتابه (مَنْ كانَ يُرِيدُ ثَوابَ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ ثَوابُ الدُّنْيا وَالآْخِرَةِ) وهذا العند خزائنه في عالمه الّتي لا تنفد (توجّه بكم) أي استشفع بكُمْ ليَسْتَجيبَ له فيستجيبُ له ولا يردّ من سألهُ بكم، وذلك لأنّهم صلّى الله عليهم في الحقيقة هم خزائنُ المطالِب كلّها لأنّهم خزان الله في أرضه وسمائه ففي البصائر عن الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى (صِراطِ الله الذِي لهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ يعني عليا إنه جعل عليا خازنَه على ما في السماوات وما في الأرض من شيء وائتمنه عليه ألا إلى الله تصير الأمور) انتهى.

أقول: (ما) تفيد العموم فكلّ شيء فعندهم خزائنه وهم خزائنه وعندهم مفاتحه وهم مفاتحه.

وأمّا قوله عليه السلام (يعني عليّاً) يريد أنّ معنى ألا إلى اللهِ تصير الأمور أنّها تصير إلى عليّ عليه السلام وبيان ذلك أن الأمور حادثة مخلوقة والحادث المخلوق لا يصل إلى

القديم ولا يرجع إليه سبحانه لأنه متعال عن كل شيء، وإنّما المعنى أنّ الأمور ترجع وتصير إلى أمره تعالى وأمره تعالى جعله عند وليّه فالمصير إليه مصير إلى الله والرادّ إليه رادّ إلى الله تعالى وقد قال الله تعالى (إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ) .

وقد دلّت الأدلّة القاطعة مع الإجماع على أن إياب الخلق إليهم عليهم السلام وحسابهم عليهم فإن الأخبار متواترةٌ معنى بذلك كما في هذه الزيارة الشريفة (وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم وفصل الخطاب عندكم) فهذا معنى قوله عليه السلام في بيان ألا إلى الله تصير الأمور يعني علياً مراده أن الله سبحانه بقوله ألا إلى الله أي إلى عليّ عليه السلام لأن علياً عليه السلام جعله الله وليّ الأمور فالرجوع إلى الله رجوع إليه ثم إنه بين عليه السلام معنى قوله يعني علياً فقال (إنه جعل علياً خازنه على ما في السماوات وما في الأرض من شيء وائتمنه عليه).

وهذا ظاهر لا ينكره إلاّ أهل الغباوة ومن طبع الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة لأنّ هذا اليوم قد انعقد على معناه إجماع الفرقة المحقة وهو حال متوسطة بين قول الغالي وقول القالي.

أمّا الغالي فيبطل قوله قولنا أنّ الله سبحانه متعالٍ عن الحوادث لا تصل إليه وإنّما اصطفى من خلقه عباداً معصومين مطهّرين مكرمين (لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) وولاهم جميع أمور سلطنته على خلقه وليس هذا تفويضاً كما يتوهم الجاهلون، لأنّ التفويض لو قيل بأنه جعل الأمور إليهم ورفع يده وهذا كفر وشرك كما تقدم، وإنّما نريد أنه جعل الأمور إليهم فهم بأمره وهدايته وقدرته يعملون يدبّرهم فيما ولاّهم عليه كيف يشاء لا يتحركون ولا يسكنون ولا يريدون ولا يتركون إلاّ بقدرته ومشيّته وأمره في كل جزئيّ جزئيّ وهم عليهم السلام

قد أخبروا بهذا كلّه في جميع ما ورد عنهم فالمنكر لهذا منكر لهم وقالٍ لهم ألا تسع قولهم الحق (اجعل لنا ربا نؤب إليه و قولوا فينا ما شئتم).

وأمّا القالي فهو من وضعهم وأزالهم عن هذه الرتبة التي رتّبهم الله فيها سبحان الله ما أكثر ما أردّد هذه المعاني في هذا الشرح وغيره مما جرى به قلمي ونطق به فمي والأغيار ينكرون كأنهم لا يسمعون (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ).

والحاصل لمّا كانوا عليهم السلام خزّانه سبحانه وتعالى في أرضه وسمائه وفي جميع عالمه كما قال عليه السلام في خطبته يوم الغدير ويوم الجمعة كما رواه الشيخ في المصباح وقد ذكرته فيما مَضى واذكره هنا (تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى) قال في خطبته عليه السلام (وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله استخلصه في القدم على سائر الأمم على علم منه انفرد عن التشاكل والتماثل من أبناء الجنس وانتجبه آمرا وناهيا عنه أقامه في سائر عالمه في الأداء مقامه إذ كان لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولا تحويه خواطر الأفكار ولا تمثله غوامض الظنون في الأسرار لا إله إلا هو الملك الجبار).

أقول: تأمل قوله عليه السلام (أقامه في سائر عالمِه في الأداء مقامه) ثم ذكر العلّة في ذلك لأنه تعالى لا تدركه الأبصار الخ، فوجب في الحكمة أن يتولّى أمر الخلق من هو من الخلق لتدركه أبصارهم ويفهمون كلامه فأقام محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم في سائر عالمه تعالى أي في جميع خلقه في الأداء إليهم ما شاء الله تعالى أن يؤدّيه إليهم مقامَهُ، ثم إنه عليه السلام ذكر بعد هذا الكلام آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فقال (وإن الله تعالى اختص لنفسه من بعد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من بريته خاصة علاهم بتعليته وسما بهم إلى رتبته وجعلهم الدعاة بالحق إليه والأدلاء بالإرشاد عليه لقرن قرن وزمن زمن أنشأهم في القدم قبل كل شيء

مذروء ومبروء أنوارا أنطقها بتحميده وألهمها شكره وتمجيده وجعلها الحجج على كل معترف له بملكة الربوبية وسلطان العبودية واستنطق بها الخرسات بأنواع اللغات بخوعا له بأنه فاطر الأرضين والسماوات وأشهدهم خلق خلقه وولاهم ما شاء من أمره وجعلهم تراجمة مشيته وألسن إرادته عبيدا لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون يحكمون بأحكامه ويستنون بسنته ويقيمون حدوده ويؤدون فروضه).

وقوله عليه السلام (في القدم) يراد بالقدم القدم الإمكاني الذي هو أوّل الإمكان الراجح لا القدم الذي هو الوجوب والأزل -تعالى الله عما سواه علوّاً كبيراً- فتدبّر هذه الكلمات من خطبته عليه السلام يظهر لك صحة ما أشرتُ إليه لأنّي لا أقول إلاّ بقولهم ولكن بحمد الله سبحانه وفضله وفضلهم علّموني مرادهم من كلامهم ومن ادّعى ما ليس فيه كذّبته شواهد الامتحان.

فلمّا كانوا خزّانه سبحانه في أرضه وسمائه وفي سائر عالمه كان مصير الأمور إليه مصيرها إليهم لما قلنا فهم خزائن جميع مطالب الخلائق ومقاصدها فيكون من قصد الله في حاجةٍ أو بأداء أمرٍ أمرَهُ به أو اجتناب نهي نهاه عنه أو لمعرفته ومعرفة ما أراد من صفاته وأسمائه وكتبه ورسله وحججه عليهم السلام ، يعني من قصد الله تعالى في شيء من الأشياء توجّه بهم أي استشفع بهم أو سلك في طريقه إلى الله تعالى طريقهم أو جعلهم أدّلاء على الله تعالى أوْ أنهم وجهه وإذا قصد الله توجه بقلبه وعمله ولسانه بوجهه تعالى وجهته وهم وجهه وهم جهته أو سلك طريقه وسبيله وهم طريقه وسبيله أو يستضيءُ في طريقه إلى الله تعالى بنورهم أوْ أنهم

عضُدُ وجودِ القاصد إلى الله تعالى أو سأل الله تعالى بهم كما هو عادة من عرفهم ومن لم يعرفهم.

أمّا من لم يعرفهم فإنّه يتصوّر كريماً على من يملك حاجته فيسأله به فقد يتوهم أنّ ذلك الكريم حُجْزةً كريمةً على مالك حاجته فيسأله بها وفي الحقيقة لا يملك حاجة أحد من الخلق إلاّ الله تعالى ولا أكرم عليه من محمد وآله ﷺ، فإذا سأل السائل مالكاً بكريم عليه فقد عنى في التصوّر المالك والكريم عليه وأصاب، وقد أخطأ في التصديق حيث جعل المالك زيداً أو شجراً وجعل الكريم عليه الذي يسأله بجاهه عَمراً أو شيئاً آخر، وإن كان قد أخطأ الطريق لجهله أو عناده الذي غطّى نور بصيرته لكن قد يدرك حاجته لمحض عنايته في التصور الإجمالي.

وأما من عرف فإنه يخصصهم بأسمائهم، ففي جامع الأخبار والأمالي بالإسناد إلى معمر بن راشد قال سمتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول (أتى يهودي إلى النبي ﷺ فقام بين يديه يحد النظر إليه فقال يا يهودي ما حاجتك فقال أنت أفضل أم موسى بن عمران عليه السلام النبي الذي كلمه الله تعالى وأنزل عليه التوراة والعصا وفلق له البحر وأظله بالغمام فقال له النبي إنه يكره للعبد أن يزكي نفسه ولكني أقول إن آدم عليه السلام لما أصاب الخطيئة كانت توبته أن قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما غفرت لي فغفر الله له وإن نوحا لما ركب في السفينة وخاف الغرق قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني من الغرق فنجاه الله عنها وإن إبراهيم لما أُلقي في النار قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أنجيتني منها فجعلها الله عليه بردا وسلاما وإن موسى لما أَلقى عصاه وأوجس في نفسه خيفة قال اللهم إني أسألك بحق محمد وآل محمد لما أمنتني منها فقال الله جل جلاله لا تخف

إنك أنت الأعلى يا يهودي إن موسى عليه السلام لو أدركني ثم لم يؤمن بي وبنبوتي ما نفعه إيمانه شيئا ولا نفعته النبوة يا يهودي ومن ذريتي المهدي إذا خرج نزل عيسى ابن مريم لنصرته فقدمه وصلى خلفه).

وفي قصص الراوندي بإسناده عن الرضا عليه السلام (قال لما أشرف نوح عليه السلام على الغرق دعا الله بحقنا فدفع الله عنه الغرق ولما رمي إبراهيم عليه السلام في النار دعا الله بحقنا فجعل الله النار عليه بردا وسلاما وإن موسى عليه السلام لما ضرب طريقا في البحر دعا الله بحقنا فجعله يبسا وإن عيسى عليه السلام لما أراد اليهود قتله دعا الله بحقنا فنجي من القتل فرفعه إليه) هـ.

والعارفون بهم في معرفته على مراتب لا تتناهى وفيهما قال صلى الله عليه وآله وسلم وقال الصادق عليه السلام أيضاً (لوْ عَلِمَ أَبُو ذَرٍّ مَا فِي قَلْبِ سَلمَانَ لقَتَلهُ)أو لكفّره.

ولا يعرفهم كنه معرفتهم إلاّ الذي خلقهم وهم يعلمون من ذلك ما علّمهم الله تعالى والّذي كتبتُ لكَ فوق معرفة الجمهور وهو يدور على ستّة أستارٍ كلّ سْترٍ تحته ألف معنى اثنان منها مذكوران في الكتب وعلى ألسن العلماء وهما الظاهر والباطن واثنان منها عند العرفاء وعند أهل التصوّف وهما ظاهر الظاهر والتّأويل وكلّ طائفة تتكلمّ فيهما على حسب ما تذهب إليه وتعتقد فبعض منهم يصيب الحق وهو يعلم، وما أقلّ هذا البعض على ما رأيت ممّن شافهتُ أو نظرتُ في كتبه وبعض يصيبُ الحقّ ولا يعلم وأكثرهم يخطئون وكذلك أصحاب الظاهر والباطن:

ولكلّ رأيتُ منهم مقاماً

شرحُه في الكتاب ممّا يطولُ

واثنان منها وهما باطن الباطن وباطن التأويل فلا يكاد يوجدانِ في السطور

وقد يوجدان في الصّدور سيّما باطن الباطن وقد ملأتُ منهما كتُبي ورسائلي لاسيّما هذا الشرح ولكنّي أكنّى عن ذلك خوفاً عليه وعليَّ وعلى من يسمعه كما قال:

أخاف عليـــك مـن غيري ومنّي
ومنك ومن مكانـــك والزمــانِ

ولو أنـي جعلتُكَ في عيـــونـــي
إلى يوم القيـامة مـــا كـفــانـــي

وكم سائل يسأل عن ذلك فبعضٌ أسكت عنه وبعض أسوّفه وبعض أعطيه من جراب النورة وبعض أقول له لا يجوز لك أن تسأل عن هذا، كما قال:

ومستخبرٍ عن سرِّ ليلى أجبـــتُه
بعميـاء من ليـلى بـــلا تـــعْيـــين

يقولون خبّرنا فأنـــــتَ أميـنُها
وما أنا إنْ خبّـــــرتُهـــم بـــأمـــينِ

ويكفيك قوله سيد العابدين عليه السلام:

إني لأكتمُ مـــن علــمي جواهرَهُ
كي لا يرى الحق ذو جهل فيَفتَتِنَا

وقد تقدّم في هذا أبـــو حســن
إلى الحسين وأوصى قبله الحَسَنـــا

ورُبَّ جوهر علـــمٍ لوْ أبُـــوحُ بـه
لقيل لي أنـــتَ ممّـــن يعبُدُ الوثَنَـــا

ولا استحَل رجالٌ مسلمون دَمي
يرون أقبح ما يأتونه حَسَنَا
فخذها قصيرةً من طويلة.

قال عليه السلام مواليّ لا أحصي ثناءكم ولا أبلغُ من المدح كنهكم ومن الوصف قدركم وأنتم نور الأخيار وهداة الأبرار وحجج الجبّار

قال الشارح رحمه الله مواليّ منادي لا أحصي ثناءكم كما أنه لا يمكن الثناء على الله لأنه لا يمكن لغيرهم معرفة كمالاتهم كما روي في الأخبار الكثيرة أنه قال أنه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت وما عرفني إلا الله وأنت وما عرفك إلا الله وأنا) .

وأنتم نور الأخيار، أي كيف أحصي ثناءكم وأمدحكم كنه مدحكم واصف قدركم والحال أنكم نور الأخيار أي منوّرهم ومُعلِّمُهم وهاديهم مع أنه لا يمكنني معرفة الأخيار من النبيين والمرسلين والملائكة المقرّبين أوْ أنتم كالشموس من بينهم ولا يمكن رُؤْية الشمس كما أن البصر عاجِزٌ عن رُؤْيةِ الشمس كذلك البصيرة عاجزة عن إدراك مراتبهم وكمالاتهم وصفاتهم فإنهم مرايا كماله تعالى وصفاته تقدّس ذكره انتهى.

أقول: المولى له معان أحدها المحب ، وثانيها ولاء الإسلام كقوله تعالى (ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلى الذِينَ آمَنُوا) أي القرب والدنو والنصرة والصداقة كما قال تعالى (عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَل بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً)، وثالثها المالك، ورابعُها العبد، وخامسها المعتِق بكسر التاء، وسادسها المعتَق بفتح

التاء، وسابعها الرب، وثامنها الناصر، وتاسعها المنعِم بكسر العين، وعاشرها المنعَم عليه، وحادي عشرها التابع، وثاني عشرها مالك الطاعة، وما سوى هذه لا يمكن إجراؤه.

وأما هذه المعاني الاثنا عشر فبعضها ظاهر وبعضها تأويل ونشير إلى ما سنح عند الكتابة كما هي عادتنا.

فنقول على الأول يكون معنى مواليّ أي يا أحبّائي وذلك لما جعله الله لكم على كل مسلم ومسلمة من أجر رسالة جدّكم ﷺ فقال تعالى (قُل لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ في القُرْبى) والمحبة الصادقة هي كما سمعتَ مما مر عليك من أنها هي الطَاعة كما أَمَروا والخدمة بما أرادوا والاستبطان لما أسرّوا، والإعلان بما أظهروا فإن صدقهم في المواطن بهذه وأمثالها فهم مواليه وهو مولاهم حقاً وإن كذبهم فيما عاهدهم عليه في الذر بعدم الموافاة فإن عفوا وتسامحوا فهم أهل العفو والتسامح والإغضاء عن محبّيهم وإلاّ فلهم أنْ يردّوه ويحجبوه حتى يتوب إلى الله تعالى ويخلص في الدعوة.

وعلى الثاني يكون المعنى يا مقرّبيّ إلى الله تعالى وإلى ما يحبّ من طاعته ورضاه وجنّته وإلى من يحبّ أي إليكم يا سادتي وإلى من أحبّكم بأن يحشر معهم ويجمعني معهم في مستقرٍّ من رحمته من حبّكم وولايتكم وجواركم في الدارين، ويا ناصريَّ على أعدائكم بالغلبة والحجّة وعدم تسلّطهم على غوايتي بتسديدكم وتأييدكم من الإنس والجنّ والشّياطينِ وعلى أعدائي من النفس الأمّارة بالسّوءِ وعلى سُكّانها ومجاوريها من الشياطين من الإنس والجن، ومن الدنيا الغرّارة الخدّاعة بزينتها وتمويهاتها وشهواتها الصادّة عن طاعة الله تعالى وطاعتكم، ومن

الشيطان الغويّ المجتهدِ في إضلالي عن طريق قصدِكم وإزلالي عن نهج ولايتكم بالميل إلى أعدائِكم وإلى شيء من أعمالهم وأتباعهم ويا مؤلِفين بيني وبين كثير ممّن كان عدوّاً لكم ولي حتى فتحتم عليهم باب هدايتكم وحبّبتم إليهم طريقتكم وسلوك نهجكم حتى كانوا أحبائي فيكم بعد أن تبَاغَضْنا فيكم وأصدقائي بعد أن تعاديْنا فيكم وأنصاري بعد أن تقاطعنا وتخاذَلنا فيكم.

وعلى الثالث يكون المعنى يا مالكي طاعتي أي أنّ الله تعالى فرض طاعتكم بفرض طاعته وجعلكم أوْلى بي من نفسي في أحوال نفسي وعقلي ومالي وديني ودنياي وآخِرتي وما خوّلني ربّي كما قال تعالى (إِنَّما وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالذِينَ آمَنُوا).

فأثبتَ سبحانه لمحمد وعليّ وأهل بيتهما صلى الله عليهما وآلهما ما أثبتَ لنفسه من الولاية على خلقه وشرَّكهم في سلطانه على خلقه حتى خصّهم بما انفرد به عن جميع خلقه بأن جعل كلّ ما له من خلقه لهم عليهم السلام ولا شيء ممّا لهُمْ له إلاّ بهم يعني أنهم عليهم السلام له تعالى وما سواهم لهم فكلّ شيءً سواهم فهو له تعالى بهم لا بدونهم لأنّ ما سواهم بدونهم ليس شيئاً يقع عليه التملّك، وإنّما جعله الله شيئاً بهم فحيث كان شيئاً كان لله بتبعيّةِ كونهم للهِ تعالى فهم أعضادُ الخلق وأبواب الرزق وأسباب الرتق والفتق إلاّ أنه لا يكون لهم عليهم السلام شيء إلاّ ما كان لله ليصح كونه وما ليس لله تعالى فهو باطل ولا يكون الباطل لهم فافهم ، وقد تقدّم هذا المعنى سابقاً.

وعلى الرابع يكون المعنى هو المعنى الثاني للثالث، وهو أن معنى المالك مالك الرّق وقد تقدم في أوّل الشرح الإشارة إلى هذا وأنَّه هل يصح هذا المعنى كما تشير إليه أحاديثهم أم لا لأنه لم يسمع ظاهراً عنهم ذلك على جهة الحقيقة ولم يسمّ أحد في زمانهم من شيعتهم بذلك فلا تجد فيما سبق وفي زمانهم من سمّي عبد

محمّد ولا عبد علي ولا عبد الحسن ولا عبد الحسين، وللأول أطباقُ شيعتهم في هذه الأعصار في جميع الأقطار على استعمال ذلك منْ غير إنكار والحجّة عليه السلام بين ظهرانيْهم، وقد تَواردت الأخبار عنهم صلى الله عليهم بأن (الأرض لا تخلوا من حجة كيما إنْ زاد المؤمنون ردّهم وإنْ نقَصُوا أتمّه لهم) فإن كان هذا تغييرا في الدين وإتياناً بما ليْس منه فيه كان زيادة ونقيصةً يجب على الإمام عليه السلام ردّ الزائد وإتمام الناقص لأن التغيير زيادة باطل ونقصان حقّ أوْ أحدهما وإطباقهم على ذلك مع وجود حجّة الله بينهم عجّل الله فرَجَهُ وسهّل مخرجه ولم يردّهم على ذلك دليل الصّحة.

فإن قلت: إن سلّمنا رضاه عليه السلام بذلك لم نسلّم إرادة الرقيّة فلعلّ العبوديّة يراد منها عبوديّة طاعةٍ وإذا قام الاحتمال بطل الاستدلال.

قلتُ: إنّما يبطل الاستدلال بقيام الاحتمال المساوي وأمّا الاحتمال المرجوح فلا يبطل الاستدلال لأن الرجحان إمارة الصحة ولا يعارض المرجوح الراجحَ وذلك لأنّ الأصل في الاستعمال الحقيقة على أنّ الصادق عليه السلام قد أقر أبا بصير على ذلك وذلك حين أراد أن يبيّن له أنّ كلّ شيء قليل أو كثير فله عندهم حكم حتى أرش الخدْش ونصف الجلدة وثلث الجلدة فقال لأبي بصير (ائذَنْ لي) يريد يحرّكه أو يغمزه بإصبعه ليُمَثِّل له بأنّ في ذلك أرْشاً فقال أبو بصير له عليه السلام (إنّما أنا لك) يعني لا تحتاج إلى الإذن منّي فإنّي ملكُكَ فأقرّهُ على ذلك.

ولو تتبعْتَ الأخبار الواردة عنهم وجدْتَ ما قلتُ لكَ، ومنها ما أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليه في قوله (نحنُ صنائع الله والخلقُ بعدُ صنائع لنا) يعني أن الخلق صنعهم الله لنا. وقد تقدّم الكلام في هذا.

ولو تتبعْتَ الأخبار الواردة عنهم وجدْتَ ما قلتُ لكَ، ومنها ما أشار أمير المؤمنين عليه السلام إليه في قوله (نحنُ صنائع الله والخلقُ بعدُ صنائع لنا) يعني أن الخلق صنعهم الله لنا. وقد تقدّم الكلام في هذا.

فإن قلت: فإذا يجوز للإمام أن يبيع الحرّ على هذا لأنه ملكه.

قلتُ: هذا أمرٌ مبنيّ على ما أتوْا به المكلّفين من ظاهر الشريعة ولم يأتوهم بجواز بيع الحرّ ولم يظهروا حكماً خاصّاً يجري على العموم لأنّ هذا لا يجوز شرعاً والذي تكلّمنا عليه إنّما هو حكم خاصّ فلا يظهرونه لئلاّ يكون عامّاً بخلاف ما هو عليه في نفس الأمر ولو أظهروا الخاص مخصّصاً لوقع الاشتباه وعظم البلاء ووقع من أهل الإقرار الإنكار، أما سمعت ما تقدّم في قصّة أصحاب القائم ﷺ حين دعاهم ليبايعوه فأنكروا عليه وتركوه حتى أن الصادق ﷺ قال (والله إني لأعرف الكلام الذي قاله لهم فيكفرون به).

نعم إذا استقرّ حكمهم ﷺ في رجعتهم عرفت ما قلنا على أنّ الإجماع منهم ومن شيعتهم منعقد على أنهم أولى بالخلق من أنفسهم ومعناه عامّ في كلّ شيء فإن أمرك بشيءٍ ما وجب عليك القبول فإن حرّم عليك مالك الحلال حرم عليك لأنه أولى به منك كما هو شأن الموالي مع مماليكهم وإن أمرك بقتل نفسك أو ولدك وجب، وهكذا في كلّ شيء وما ذكره صاحب مجمع البحرين في تفسير المولى من أنه بمعنى مالك الرق والمُعتِق والمُعتَق قال وهذه الثلاثة ساقطة في قول النبي ﷺ (مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ) إلى أن قال (لأنه ﷺ لا يملك بيع المسلمين و لا عتقهم من رق العبودية.. إلخ) صحيح على الحكم الشرعي الظاهري في هذه الدّار لأنّ الأحكام ترد على جهة العموم فلا تخصّص ولو

خصّصت لزم إمّا تخصيص كل ما هو مخصّص في نفس الأمر بهم فلا يمكن الانتفاع بأفعالهم وأعمالهم ولا يقع التأسي بهم في حال وهو منافٍ للغرض من الخليفة والحجّة أو تخصيص بعض دون بعض وهو ترجيح من غير مرجحٍ فملّكوا شيعتهم ما أمرهم الله تعالى بتمليكه على حسب ما تقتضيه دولة الباطل حتى يمكّنهم الله في الأرض فيحكمون بالحقّ الوجودي لارتفاع التقية وذهاب الموانع فافهم.

وعلى الخامس يكون المعنى أنكم الّذين أعْتَقْتُموني من رقّ الكفر والجهالة والضّلالة والمعاصي ومن رقّ الفقر والحاجة ومن رق الضعف والخمول حَتَى أنعم الله علي بتحرير الإسلام والإيمان بكم وعلّمني بكم ما لم أكن أعلم وهداني بكم إلى ما يرضيه ووفّقني لطاعته وطاعتكم وأغناني بكم وسدَّ خلّتي بكم وقوّاني بكم ورفع ذكري بكم ونوّه باسمي بكم وأنكم الّذين وهبتموني نفسي حتّى جعلني الله سبحانه بكم وبحبّكم وبولايتكم واتّباعكم مؤديا لحقّه الذي وجب عليّ له تعالى بخلقه إيّاي ورزقه لي وحياتي ومماتي وجميع ما أنعم به عليّ وبدئي وقوامي وملكي ومرجعي.

والسادس يعلم من الخامس والسابع يكون المعنى فيه كالثالث يعني بمعنى المالك ويكون بمعنى المربّي والمصلح أي يا أيّها الذين تربّونني بإذن الله في جميع أطوار التكوين وشرعه وفي جميع أحوال التشريع وكونه وتصلحونني بتعليمكم وإرشادكم وإعانتكم بفاضل علمكم ورشدكم وعملِكم.

والثامن يعلم من الثاني في أحد وجوهه كما تقدم.

والتاسع والعاشر من الطرفين يعلمان ممّا تقدّم في الثاني وفي السّابع وبأنّ أفضل

النعم نعمة الإسلام والإيمان أي يا من أنعم الله عليّ بسببهم بنعمة الإسلام والإيمان أو على الظاهر يا أيّها المنعمون عليَّ بنعمة الإسلام والإيمان كما قال تعالى (وَإِذْ تَقُولُ للذي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ) بنعمة الإسلام وهو وعلى معنى المفعول أي المَنعَم عليه أي يا أيّها الّذين أتمّ الله عليهم نعمته حتى جعلهم محالّ مشيته وألسِنَةَ إرادته وخزائن رحمته أو يا أيّها الّذين هداهم الله باصطناعهم لنفسه الصراط المستقيم صراط الذين أنعم عليهم يعني صراطهم حتى وصل فاضل تلك النعم والهدايات وآثار الرّحمة إليه فصحّ له أن يقول مواليّ جمع مولى بمعنى المنعم عليهم.

وعلى الحادي عشر يكون المعنى أيّها المطيعون لله التابعون لأمره ومشيّته وإرادته الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وأضاف ظهورهم بهذه الصفات إليه حيث كان أحد متعلقات آثار تلك الصفات.

وعلى الثاني عشر يكون المعنى يا مالكي طاعتي أي يا مفترضي الطاعةِ عليّ وعلى جميع الخلائق يا أوْليائي ويا مالكي اختياري في بدوَاتي في إعلاني وإسْرَاري ووجه ذلك أن الاختيار إنّما نشأ من ميل الوجود والماهية بداعي فقرهما إلى ما يتمّمهما من المدد الذي لا قوام للممكن إلاّ به، وذلك الميل اقتضاؤهما وقابليّتهما لذلك المدَد فلمّا كان الوجود يدور على وجهه من علته على التوالي كان مدده الذي به بقاؤه كلّ ما يحبّه الله من الخيراتِ الوجوديّة الثابتة الأصل بما يحبّه الله سبحانه من الخيرات التشريعية في الاعتقاد والأقوال والأعمال.

ولّما كانت الماهية تدور على وجهها من نفس الوجود من حيث نفسه بدون وجهه من علّته على خلاف التوالي لأنها هي وجميع ما لها بعكس الوجود وجميع

ماله هي وكلّ شيء منها ضدّ عام لعكسِه، مثلاً الوجود ضد الماهية وصفته النور وصفتها الظلمة وصفته الخير وصفتها الشر فإذا رضي غضبتْ بسبب رضاه، وإذا غضِبَ بذلك رضيتْ وإن انبعثَ قرّتْ وإن قرَّ انبعثتْ وإن تحرّك سكنتْ وإن سكنَ تحركتْ وإن أقبل أدبرتْ وإن أدبر أقبلتْ وإن فعل تركَتْ وإن تركَ فعلتْ وهكذا كان مددها الذي به بقاؤها عكس مدد الوجود وهو كل ما يكره الله سبحانه من الشرور المجتثّة الأصل بما يكرهه الله سبحانه من الشرور الصادرة بمخالفة الأوامر الشرعية بالترك والنواهي الشرعية بالفعل وذلك في الاعتقادات والأقوال والأعمال.

ولمّا كان الإنسان مركّباً منهما وهو عبارة عنهما منضمين غير متمازجَيْنِ تمازُجَ استهلاكٍ ولا متمايزين تمايز انفكاك إلاّ بآثارهما من الاعتقادات والأقوال والأعمال فلا يصدر عن ذلك الإنسان شيء من الخير إلاّ بميل الوجود إلى ما يجانسه من النّور الثابت الأصل ولا يصدر عنه شيء من الشر إلاّ بميل ماهيّته إلى ما يجانِسُها من الظلمة المجتثّةِ الأصل، وكان لا يستغني عن المدد بأحدهما لحظة وإذاً لتَلاشَى جرى له عنهما الاختيار لأنه إذا مال الوجود بفقره إلى شيء مالت الماهية بفقرها إلى ضد ذلك الشيء والميلان صادران عن ذلك الإنسان لأنّه عبارة عنهما فكلّ ميل له وعنه.

فلما كان كل هذه الأشياء إنما هي ذلك الإنسان لم يكد يفرق بين الميلين فخلق الله له خلقاً اختارهم لنفسه وجعلهم محالّ مشيّته وألسِنَةَ إرادته لم يكن لهم ميل فعلي إلاّ من جهة وجودهم إلى كل خير وإن كان لهم ميل إمكاني من جهة ماهيتهم إلى كل شرّ، وذلك لأن الله سبحانه علم منهم في زمان أعمالهم وأمكنتها

ألاّ يفعلوا إلاّ ما يحبّه أعانهم فاستولى وجودهم بتلألُؤِ أنواره على ماهيّتهم حتى فنِيَتْ ظلمتها وكادت هي أن تفنى وتتلاشى فلم يبق لها رسم إلاّ للوجود ولا فعل إلاّ في الإمكان فلذلك جعلهم الأدِلاّء إليه والهادين إلى سبيله فهم يميّزون للمكلّف بين ميْليه وداعييه لئلاّ يلتبس عليه داعي الخير وداعي الشر بالأمر بكل داع إلى الخير وبالنهي عن كل داع إلى الشرّ ووجود المكلّف ظهور الله تعالى بنورهم وشعاعهم عليهم السلام للمكلّف وماهيّته قبول ذلك الظهور بمقتضاه، ولا شك أنه أي ذلك القبول بإرشادهم وهداهم هذا في الخير وفي الشر قبول ذلك الظهور بخلاف مقتضاه ولا شك أنه أي ذلك القبول بتركهم له وتخليتهم له ونفسه المعبّر عنه عندهم بالذَّود والطرد كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لأبي الطفيل حين سأله عن حوض محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي يسقى منه في الدنيا أم في الآخرة قال عليه السلام (بل في الدنيا أوردُهُ أوليائي وأذُودُ عنه أعدائي) وقد تقدّم.

فإذا عرفت ما ذكرنا صرّحَ لكَ صحة ما قلنا لك في الوجه الثاني من الثاني عشر من قولنا ويا مالكي اختياري في بدواتي في إعلاني وإسراري.

وقوله عليه السلام (لا أحصي ثناءكم) أي لا أقْدِر أنْ أُعَدِّد ممادِحكم قال في مجمع البحرين وفي حديث الدعاء (لا أُحْصِي ثَنَاءكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلى نَفْسِكَ) أي لا أطيقه ولا أحصي نعمك وإحسانك وإن اجتهدتُ أنتَ كما أثنيتَ على نفسك هو اعتراف بالعجز أي لا أطيق أن أثني عليك كما تستحقّه وتحبّه أنت كما أثنيتَ على نفسك بقولك فلله الحمد ربّ السماوات وما في (كَمَا) موصولة أو موصوفة انتهى.

وظاهره أن أحصي بمعنى أطيق والظاهر أن معناه أعدَّ وفي القاموس وأحصاه عدَّهُ فيكون المعنى لا أقدر أن أعدّ الثناء عليكم لأنّه في كل شيء ثناء عليهم وقال

الغزّالي في الأحياء (ليس المراد أنه عاجز عما أدركه بل معناه الاعتراف بالقصور عن إدراك كنه جلاله وعلى هذا فيرجع المعنى إلى الثناء على الله تعالى بأتم الصفات وأكملها الّتي ارتضاها لنفسه واستأثر بها مما هو لائق بجلاله تعالى) انتهى.

وهذا وإن كان له وَجْهٌ بمعنى أنّي لا أُحيط بك علماً ولا يعلمك غيرك فأنت كما قلت لكنّ الظاهر من هذا اللفظ أن المعنى فيه أنّه إذا ذكر بعض الثناء على الله تعالى بذكر بعض صفاته اعترف بالعجز عن تعدادِها وإحصائها، وإنّما يعدها ويحصيها هو عز وجلّ.

وقوله عليه السلام أنت كما أثنيْتَ على نفسك لا يَدُلّ على إرادة الكنه بقوله أنت لأن الخطاب لا يعيّن إلاّ بقيدٍ والكنه لا يطلبُ بالقيد لأنه غير الكنه ويلزم منه التعدّد والكثرة وهو تعالى وإن كان إنّما يثني في الظاهر على نفسه بنحو ما نثني عليه مثل قوله تعالى (فَلله الحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ العالِمينَ) إلاّ أن الكلام يقع من المتكلم على حسب علمه وإرادته فيكون قوله ذلك لنفسه غير قولنا ذلك لنفسه وإلى مثل هذا أشار تعالى بقوله في الردّ على ما يعارض القرآن حين تحدّيهم فقال (فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَياتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ* فَإِن لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِل بِعِلم الله وَأَنْ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ).

يعني فإنَ عجزوا عن الإتْيان بعشرٍ سور مفتَرياتٍ مَثل القرآن علَى دعواهم بأنه مفترى فاعلموا أن الكلام يكون بنسبة عقل المتكلّم وعلمه ولو كان القرآن من عند غير الله لأمكن الإتيان بمثله لأنّ كلّ من لكلامه نظير فله نظير ولعلمه نظير ومَنْ لا نظير له ولا لعلمه فلا نظير لكلامه قال تعالى (فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِل بِعِلم اللهِ) ولا مثل لعلم اللهِ ولا مثل لكلامه ومن لا مثل لكلامه فلا مثل له فلا إله إلاّ هو

فإذا أثنى على نفسه بشَيْء مثل الآية المذكورة مثلاً فلا يقدر أحد من الخلق أن يثني عليه بمثل ذلك، وإن أثنى عليه بما تضمنتهُ الآية لأن ما سواه لا يعلم علمه ولا يريد إرادته فكلام الغزّالي إنْ حَصَر المعنى فيه فقد أَخْطَأَ الصَّواب وإنِ احْتَمَله مع عدم منعه من الظاهر فلا بأس هذا معنى لا أحصي ثناءكم في الجملة.

بقي معنى لا أحصي باعتبار جهة تعلّقه ومعنى الثناء.

أما الأوّل فالإحصاء في الثّناءِ مثلاً بالنسبة إلى نعمه تعالى من أين أتت وكم توقَّفتْ على أسباب لا تكاد تحصى وإلى أين تنتهي ولهذا قال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها) ولم يقل نعم الله ليقال إنّها كثيرة لا تحصى من جهة عَد أفرادها وإن كانت هي كذلك وأعظم ممّا يدخل في الأوهام، إلاّ أنّ المراد مبادئها وأسبابها وما سخّر لتلك النعمة من المدّبرات في الأوقات المتجدّدة والأمكنة المتعددة في الابتداء والانتهاء، وقد ذكر ذلك سلمان الفارسي رضي الله عنه كما في عيون الأخبار (عن الرضا عليه السلام عن أبيه موسى بن جعفر عن أبيه الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليهم السلام قال دعا سلمان أبا ذر رحمة الله عليهما إلى منزله فقدم إليه رغيفين فأخذ أبو ذر الرغيفين فقلبهما فقال سلمان يا أبا ذر لأي شيء تقلب هذين الرغيفين قال خفت أن لا يكونا ناضجين فغضب سلمان من ذلك غضبا شديدا ثم قال ما أجرأك حيث تقلب هذين الرغيفين فو الله لقد عمل في هذا الخبز الماء الذي تحت العرش وعملت فيه الملائكة حتى ألقوه إلى الريح وعملت فيه الريح حتى ألقته إلى السحاب وعمل فيه السحاب حتى أمطره إلى الأرض وعمل فيه الرعد والملائكة حتى وضعوه مواضعه وعملت فيه الأرض والخشب والحديد والبهائم والنار والحطب والملح وما لا أحصيه أكثر فكيف لك أن تقوم بهذا الشكر) هـ.

فنبّه سلمان رضي الله عنه أبا ذرّ على سرٍّ لا يَعْثر عليه إلاّ مثل سلمان وذلك من قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) ولا ريب أنّ الرّغيفيْن شيء وخزائنهما عنده في ملكه كلّ خزانة في محلِّها من الوجود يدبّرها فيه بأمر الله المَلَكُ الموكل بها وهو رأس من الملكِ الموكّل بتلك الرتبة مثلاً معناهما أي الرغيفين في الجبروت الذي هو عالم العقول موكّل بهما هناك ملك عقليّ وهو وجه ورأس من الملك الأكبر المسمّى بالعقل الكلّي وروح القدس وروحٍ من أمر الله، فلمّا قال الله تعالى للملك الكلي الذي هو العقل الكلّي أدبر فأَدْبَر يعني فتنَزّل بصور الأشياء في النفس يعني كتب القلم بإذن الله تعالى في اللوح فالقلم هو ذلك الملك المسمّى بالعقل الكلّي وبروح القدس وبروح من أمر الله صلى الله على محمد وآله والنفس أي النفس الكليّة هي اللوح المذكور في الأخبار وهو علّيُّون (كَلا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ).

فلمّا تنزل العقل بصورِ ما كان وما يكون إلى يوم القيامة في النفس الكليّة أي اللوح نزل بكلّ صورة من تلك الصِور الملك الموكّل بها وهو رأسٌ من الملك الأكبر النازل بالكلّ وهذا رأسٌ منه خاص بالرغيفيْن نزل بالرغيفَيْن في محلّهما من الوجود النفسي أي في رتبتهما من اللّوح حتى سلّمهما بيد الملك النفسي الموكّل بهما في هذه الرتبة، وهكذا في رتبة الطّبيعة وفي رتبة الموادّ وفي رتبة الـمُثُل بضم الميم والثناء المثلّثة والأشباح التي هي أظلّة الأنوار الجوهريّة ثم إلى الأفلاك ثم إلى العناصر ثم إلى الأرض والموادّ.

وقد تقدم بعض البيان لهذا المقام ولا يمكن تمام البيان هنا إلاّ بالخروج عما نحن بصدده ولا فائدة مهمّة هنا إلاّ مجرّد الإشارة إلى أن الأشياء متعددة

الأوقات والأمكنة وفي كلّ رتبة يدبّرها الملك الموكّل بها وهو من جنس تلك المرتبة إلى أن يصل الرغيفان مثلاً إلى عند الآكل، فإذا وصلا إليه قطعا نِصفَ مسافةِ وجودهما ثم يأخذان في العود إلى ما منه بُدِئَاً وأوّل العود كسرهما ثم الأكل والقطع بالأسنان والتنعيم وإرسال الماء من تحت اللسان من النّهرين المُعَدَّيْن لِبَذْرَقَةِ الطعام ثم الازدراد والبَلع ثم الكيلوس وينقسم أسفله إلى الشعر وأعلاه إلى الكيموس ثم إلى الغذاء المشاكل وإلى النطف والأولاد وهكذا إلى ما لا غاية له في الإمكان، وهذا نصف المسافة الآخر ولا يمكن أن يحصي العباد مراتب لُقمةٍ (نعمة) واحدةٍ مثلاً في النزول والصعود ولهذا أفرد سبحانه ذكر النعمة فقال تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها) فخزائن الشيء أطواره في مراتب وجوداته وقد روي عن علي عليه السلام أنه قال قَال تَعَالى (رفيع الدرجات ذو العرش وفي العرش مثل ما خلق الله في البرّ والبحر وذلك قوله تعالى (وإن من شيءٍ إلاّ عندنا خزائنهُ) هـ.

والعرش له إطلاقات في الشرع فيجوز أن يراد به في هذا الحديث العرش العِلمي أو الوجودي وعلى الأوّل ظاهر وعلى الثاني يمكن توجيه ما روي في التوحيد عن الباقر عليه السلام عليه وذلك حين سئل عن قوله تعالى (أَ فَعَيِينا بِالخَلقِ الأَوَّلِ بَل هُمْ فِي لبْسٍ مِنْ خَلقٍ جَدِيدٍ فقال عليه السلام تأويل ذلك أن الله عز وجل إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم وسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار جدد الله عالما غير هذا العالم وجدد خلقا من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحدونه وخلق لهم أرضا غير هذه الأرض تحملهم وسماء غير هذه السماء تظلهم لعلك ترى أن الله إنما خلق هذا العالم الواحد أو ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم بلى والله

لقد خلق الله ألف ألف عالم وألف ألف آدم أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين) هـ.

أقول: ألف ألف عالم وألف ألف آدم هذه إشارة إلى القوس النزولي، فإنّ مراتبه من أول مرتبة من الإمكان الراجح إلى عالمنا هذا بهذا المقدار سواء أريد بها خصوص العدد المذكور أم مطلق الكثرة، وسواء أريد بها أن الأجناس ألف وتحت كل جنس ألف نوعٍ أم أن الأنواع ألف وتحت كل نوع ألف شخص أم أن الأجناس أو الأنواع ألف ألف غير أنواع كل جنس أو أفراد كل نوع.

والذي في نفسي أن المراد بالأعداد على أي فرض واحتمال ليس خصوص العدد بل كناية عن الكثرة بهذا العدد لمن لا يحتمل ذكر ما هو أكثر منه وإلاّ فمقتضى الفيض الذي ملأ السرمد بلا ابتداءَ غيره ولا انتهاءً سواه، أنّ الواقع أكثر لأن الذي يجمعه العدد ويحصيه المقدار منقطع وفيض الله الصادر عن فعله لا من شيء غير متناهٍ في الإمكان وإنّما هو متناهٍ وفانٍ ومنقطعٌ عِندَ خالقه ومحدثه لا من شيء ولا لشيءٍ إلاّ إبانةً لقدرته وإظهاراً لكرمه وجوده سبحان من خلق كل شيء لا من شيء وأحاط بهم علماً وأحصاهم عددا.

ولا تنفر من قولي بلا ابتداء ولا انتهاء فتتوهم القول بقدم شيء غير الله تعالى فإن فيضه لا غاية له ولا نهاية وهو حادث وخزائنه لا تفنى وهي حادثة مصنوعة وعطاياه لا تتناهى ومراتب الأعداد لا تتناهى والجنة ونعيمها لا تتناهى بل هذه النار التي تورون مَثَلُ نار السراج لا تتناهى ولو اجتمع جميع الخلق أبد الآبدين لم تنقص ولا يتصوّر فيها نقص.

وهذه وأمثالها من الأشياء التي لا تتناهى كلها مخلوقة محدثة لا من شيء

متناهية عنده منقطعة في علمه فانية عند قدرته وقد أحاط بكلّ شيء علماً وقدرة فهو قبل ما لا يتناهى بما لا يتناهى وبعدما لا يتناهى بما لا يتناهى.

وإنما قلنا لا تتناهى في الإمكان مثل نعيم أهل الجنّة وطعامهم وشرابهم لا يتناهى ولا غاية له ولا انقطاع أبداً، وتألّم أهل النار وما أعدّ لهم من أنواع العذاب لا يتناهى بمعنى أنّها لا تنقطع أبداً كلّما ذهب تنعّمٌ أوْ تألُمٌ أهل النار أعاد مثله فهي باقية أبداً ببقاء مدد الله سبحانه وفيضه الصادر عن فعله تعالى الذي أقام به كلّ شيء.

فإذا سألتني وقلتَ لي: إن كانت حادثة فهي مسبوقة بالعدم فهي منقطعة.

قلتُ لك: العدم ليس شيئاً يسبق وإنما معنى كونها مسبوقة بالعدم إنّ ما قبلها كان ولم تكن هي فهي في رتبةِ ما قبْلها معدومة، فالعبارة الكاملة أن يقال الحادث هو المسبوق بغيره يعني وجد ما قبله قبل أن يوجد هو ثم وُجِد وإن كان معناك وهذا المعنى واحد في المآل إلاّ أن في عبارتك توهُّمَ أن العدم شيء وإلاّ لم يحصل سَبْق وأنت لا تريد أنه شيء فكيف يسبق الحادث فهذا قوس النزول للمخلوق المشار إليه بقوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ) وقوس الصعود والمردّ إلى الله تعالى كذلك فكيف يمكن لأحد من الخلق أن يحصي نعمة من نعم الله تعالى في مراتب نزولها وصعودها على نحو ما أشرنا إليه فافهم.

واعلم أنّ حديث الباقر عليه السلام يدل على أن هذا الخلق المجدد بعد استقرار أهل الجنّة فيها وأهل النار فيها لهم قنديل معلّق بالعرش غير هذا القنديل وليسوا من الألف ألف عالم وألف ألف آدم لأنه عليه السلام قال (أنت في آخر تلك العوالم) يعني ألف الألف وهؤلاء المجدّدون بعد أولئك كلهم فهم خارجون عنهم وعالمهم

خارج عن هذه العوالم، لأن القناديل المعلّقة في العرش ألف قنديل فعالمُنا هذا بجميع سماواته وأرضيه وما فيهن وما بينهن وما فوقهن وما تحتهنّ في قنديل واحدٍ وهو قنديل أبينا آدم أبي البشر عليه السلام، وهذا العالم المتجدّد في قنديل آخر غير عالمنا وهو قوله (وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم وسماء غير هذه السماء تظلّهم).

والحاصل مما نحن بصدده أنّ المكلف يعجز أن يحصي نعمةً واحدةً من نعم الله سبحانه كما نبّهناك عليه ولا يمكن أن يثني عليه إلاّ بما دلّ عليه من الثناء على نفسِه في تعريفه إيّاهم نفسَهُ وذلك الثناء يُحصون طرفه الأسفل الذي بأيديهم.

وأمّا طرفه الأعلى الذي بيده تعالى فلا يحصيه أحد غيره.

وأمّا يده تعالى التي هي محمّد وآله صلى الله عليه وآله وسلم فتحصي من ذلك الثناء من طرفه الأعلى ما شاءهُ تعالى مشيّةَ إكوانٍ.

وأمّا ما لم يشأْ منه إكوانَهُ وإنّما شاءَ إمكانه فإنّهم عليهم السلام لا يُحصونه ولا يحيطون به علماً وهو قوله تعالى (وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْ ءٍ مِنْ عِلمِهِ إلاَّ بِما شاءَ) أي ولا يحيطون بشيءً من علمه ممّا أمكنه في السرمد والوجود الراجح من كينونيّته الّتي هي الربوبيّة، إذْ مربوب إلاّ بما شاء كونَهُ من ذلك فإنّه تعالى جعلهم عليهم السلام أعضاد ذلِك كما تقدم مراراً فهم عليهم السلام يحيطون به.

والإحصاء تعدادُ الفواضل والفضائل التي هي الثناء في كلّ شيء حتّى نفس المحصي وإحصاؤه لها منها، وإذا أردْت أنْ تعرف شيئاً من ذلِكَ فتأمّل في كلام سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة وأنا أورده لتعرف ما أشرنا لك قال عليه السلام في الثناء على الله تعالى (فأي أنعمك يا إلهي أحصي عددا أو ذكرا أم أي عطاياك أقوم بها

شكرا وهي يا رب أكثر من أن يحصيها العادون أو يبلغ علما بها الحافظون ثم ما صرفت ودرأت عني اللهم من الضر والضراء أكثر مما ظهر لي من العافية والسراء فأنا أشهد يا إلهي بحقيقة إيماني وعقد عزمات يقيني وخالص صريح توحيدي وباطن مكنون ضميري وعلائق مجاري نور بصري وأسارير صفحة جبيني وخرق مسارب نفسي وخذاريف مادة عرنيني ومسارب صماخ سمعي وما ضمت وأطبقت عليه شفتاي وحركات لفظ لساني ومغرز حنك فمي وفكي ومنابت أضراسي ومساغ مطعمي ومشربي وحمالة أم رأسي وبلوع بارع حبائل عنقي وما اشتمل عليه تامور صدري وحمائل حبل وتيني ونياط حجاب قلبي وأفلاذ حواشي كبدي وما حوته شراشيف أضلاعي وحقاق مفاصلي وقبض عواملي وأطراف أناملي ولحمي ودمي وشعري وبشري وعصبي وقصبي وعظامي ومخي وعروقي وجميع جوارحي وما انتسج على ذلك أيام رضاعي وما أقلت الأرض مني ونومي ويقظتي وسكوني وحركتي وحركات ركوعي وسجودي أن لو حاولت واجتهدت مدى الأعصار والأحقاب لو عمرتها أن أؤدي شكر واحدة من أنعمك ما استطعت ذلك إلا بمنك الموجب عليَّ شكرا آنفا جديدا وثناء طارفا عتيدا أجل ولو حرصت والعادون من أنامك أن نحصي مدى إنعامك سالفه وآنفه ما حصرناه عددا ولا أحصيناه أمدا هيهات أنى ذلك وأنت المخبر عن نفسك في كتابك الناطق والنبأ الصادق وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها صدق كتابك اللهم وأنبياؤك ورسلك) الدعاء.

فتدبّر ما ضمّنه صلواتُ الله عليه من مُعَدِّداتٍ لنعمه تعالى هي نعمُهُ تعالى فهي تثني عليه بكلّ ما منها وبها ولها وبأنفسها وتُعَدِّدُ نعمهُ تعالى وإنّما يعدّ كلُّ شيءٍ

ما عندهُ من غيره ومن نفسِه إذ ليس في الإمكان إلاّ آثار جوده وكرمه فأثنى على نفسه بها وأثنَتْ عليه بأنفسها وكل ما سوى محمدٍ وأهل بيته ﷺ فمن أشعّتِهِم وأثَرِ وُجُودهمْ فأثْنى عز وجل عليهم بمن سواهم وأثنى على نفسه تعالى بهم عليهم السلام وَبِمَنْ سِوَاهم بواسطتهم، أي بكونهم ثناءً عليهم عليهم السلام وذلكَ ما قالهُ بَعْضُ النُّحَاة في إعراب البَسْمَلةِ قال والرّحمن صفة للهِ والرَّحيم صفة للرحمن وكون الرحيم صفةً لله إنَّما هو لكونه صفةَ الصفةِ ولا ريب أنَّ صفة الصِّفَةِ صفةٌ وهو الحقّ عندي وإن كان خلافَ المشهور هذا في ظاهر اللّغة.

وأمّا في باطنها فالمعبود سبحانه هو الحقّ المتّصف بالإلهيّة والمتّصف بالرحمانيّة والمتّصف بالرحيميّة فصفة الرحيم الرحمةُ المكتوبة للمؤمنين (وَكانَ بِالمُؤْمِنِينَ رَحِيماً) أي بشيعتهم عليهم السلام رحيماً وصفةُ الرحمنِ الرحمةُ التي وسعت كل شيء، وهم صلى الله عليهم رحمة الله التي وسعَتْ كلّ شَيْء فوسعت أهل الحقّ من كل جنس بالفضل ووسعت أهل الباطل من كل جنس بالعدلِ وشيعتهم الرحمة المكتوبة فالأسماء الثلاثة في البسملة مُسَمّاها هو المعبود بالحقّ تبارك وتعالى والأسماء ثلاثة وهي أسماؤه أي أسماءُ أفعاله يظهر مثاله بها في مراتبها واضرب لك مثلاً تعرف به وإن تقدم مكرّراً في مواضع متعددة، زيدٌ ذاتٌ واحدة بسيطة لا كثرة فيها بوجهٍ والقائم والقاعد والمضطجع أسماؤه أي أسماء أفعاله يظهر بها مثاله وهو القائم والقاعد والمضطجع وهي أي المعاني الفعلية أسْمَاء به أي بالمثال وهو مثال بها لأنها بدونه قيام وقعود واضطجاع وهي أركانه وهي معه قائم وقاعد ومضطجع فالمسمى واحد وهو زيد وهو آية المعبود بالحق عز وجل لأولي الألباب، والقائم مثل الله في البسملة فإنه اسم ومثال للظاهر بالألوهيّة عز وجل، والقاعد مثل

الرحمن فيها فإنه اسم ومثال للظاهر بالرحمانيّة عز وجل، والمضطجع مثل الرحيم فيها فإنّه اسم ومثال للظّاهرِ بالرّحيميّة عزّ وجلّ، فمثال زيد ظهر بالقائم في رتبة القيام لأنه اسم لمحدِثِ القيام، وظهر بالقاعد في رتبة القعود لأنه اسم لمحدث القعود وظهر بالمضطجع في رتبة الاضطجاع لأنه اسم لمحدث الاضطجاع، فالأسماء الثلاثة أسماء للظاهر بأفعال هذه الأحداث الثلاثة والظاهر بأفعالها مثال زيد ووجهه ومقامه في كل رتبةٍ بما لها، وهذه آيات الله في أنفس الخلق فاقرأ (تِلكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالحَقِّ) فالثناء على الله عز وجل لا يحصيه خلق وإنّما أثنى على نفسه تعالى بهم وبما لهم فهم الثناء على الله تعالى وبهم الثناء على الله تعالى وهم المثنون على الله تعالى، فالأوّل والثاني كما قال عليه السلام في الزيارة الجامعة الصغيرة (يُسَبِّحُ اللهَ بِأَسْمَائِهِ جَمِيعُ خَلقِهِ) وقال تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) أيضاً والثاني والثالث (لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ لله الواحِدِ القَهَّارِ).

فإذا كان هذا مكانهم من الوجود فكيف يمكن لأحدٌ سواهم يحصي ثنائهُمْ قال عليه السلام (كما أن الله لا يوصف كذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يوصف وكما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يوصف كذلك المؤمن لا يوصف)هـ.

والمراد بالمؤمن هنا على احتمالٍ هو الإمام عليه السلام وعلى احتمالٍ آخر مطلق المؤمن والإمام عليه السلام هنا أولى في الوصف الجميل من الحقير والجليل.

وقوله عليه السلام (لا أحصي ثناءكم) معناه عند من عرفهم بما عرّفوه أي بما وصفوا أنفسهم له أن كلّ من عرف شيئا من ذلك فإنما أدرك ما ارتسم في مشاعره من متجلّى صفاتهم ولا يدرك حقيقة ما تجلّى له من تلك الصفات ثم إن كل ما سواهم فأعلاه وأكبره وأوسعه إحاطة شيعتهم عليهم السلام، والشيعة إنما هم أشعتهم خلقوا من

أنوارهم وجزء الشعاع لا يسع كلّ ظهور المنير بكل الشعاع وإنّما يسع مقداره، ومقداره هو ما أوتي والذي أوتي الجزء من الشعاع هو رسم بعض صفة ما تجلّى به المنير لا كُلّ الصفة المتجلى بها ولا حقيقة المتجلّي بها، وثناؤهم عليهم السلام هو كل ما تجلّوا به وحقيقته فثبت بالحكم البتّ والقطع المثبت أنّ كل ما سواهم لا يحصي ثناءهم من هذين الوجهين.

الأوّل كل الثناء، والثاني حقيقة بعض ما أحصاه من ثنائهم فافهم، فقد جمعت لك أجوبة ما يرد عليك من الاحتمالات في هذه العبارات المكرّرة.

قوله عليه السلام (ولا أبلغ من المدح كنهكم) معطوف على ما قبله عَطْفَ تَرَقٍّ وهو الانتقال من الأقوى إلى الأضعف كما هو الأغلب لأنّه في سياق النفي وهو بيان للوجه الثاني الذي هو عدم إدراك كنه ما أدرك من الثناء، أي لا أحصي جميع ثنائِكم وممادحكم ولا أبلغ أي ولا أصلُ إلى كُنهِ ما أحصيته من ثنائكم وممادحكم.

وقوله عليه السلام (كُنهكم) أي كنه ثنائِكم وإنّما كان إدراك كنه الثناء أضَعف من الإحاطة بالثناء لأن الإدراك لِكُنْهِ ما أحْصاه أسهلُ في العادة من الإحصاء للكل أو في الواقع.

أما في الأوّل فلأنّ الإحصاء له أقرب من رتبته وهو مقتضٍ في العادة لإدراك الكنه غالباً.

وأمّا في الثاني فلأن بعض ما يحصى من الفضائل الظاهرة التي يُدرك كنهها.

وأمّا الإحصاء فممتنع لكل من دونهم كما قال تعالى (تَعْلمُ ما فِي نَفْسي وَلا أَعْلمُ ما فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الغُيُوبِ) إلاّ أنّ هذا الامتناع مبني علَى كون

الأشياء على ما هي عليه لأن ما هو دونهم من حيْث هو دونهم لا يحصي ثناءهم، وأمّا في مشيّة الله سبحانه فيمكن أن يرفع من يشاء إلى ما يشاء حتى يحصي ثناءهم والإمكان في مشيّة الله لا يلزم منه الوقوع، بل قد يكون باعتبار عدم وقوعه بحكم الممتنع وتسميته بالممتنع في الحكمة لأنّه معلوم لله تعالى وكلّ معلومٍ له تعالى فهو ممكن في مشيته مقدور له إلاّ المعلوم بذاته الذي هو ذاته فهو معلَومَ له بلا اعتبار مغايرة ولا تعدد حيثيّة لا في نفس الأمر ولا في الفرض والاحتمال والإمكان فإنه حينئذ نفس العلم ونفس القدرة فلا يمكن فرض القدرة إلاّ على مقدور غير القدرة ولو بالفرض وهو محال هُنا.

وقول المتكلّمين أن العلم أعم من القدرة لأنه يتعلق بالممكن والواجب والممتنع والقدرة إنّما تتعلّق بالممكن خاصة جهل بعموم القدرة وخصوص العلم لأنّ العلم هو القدرة وإنّما يختلفان ويتعدّدان باعتبار المفهوم.

وأمّا باعتبار المصداق فهو واحد العلم نفس القدرة في نفس الأمر وإنّما تعددا واختلفا باعتبار اختلاف متعلّقهما وجهته من حيث الفهم والإدراك والمفهومان حادثان وهما عنوانُ المعنى القديم الذي هو واحد بكل اعتبار جلّ وعلا، فإنّا إن أردنا العلم القديم فهو الله سبحانه وإن أردنا العلم الحادث المرتبط بالمعلوم فهو المعلوم أو صفة المعلوم، والأول غير مرتبطٍ بشيء لأنّ ذاته تعالى غير مرتبطٍ بشيء.

والأوّل ليس هو المعلوم ولا صفة المعلوم لأن ذاته تعالى ليس هو المعلوم الحادث ولا صفته، وإذا قلتَ هو المعلوم القديم وجب الاتحاد وامتنع التعدّد والكثرة ولو باعتبار الفرض والاحتمال والإمكان.

والثاني أي العلم الحادث مرتبط بالمعلوم لأنه إمّا نفس المعلوم على قول أو

صفته على آخر وإذا أردنا القدرة القديمة فهو الله سبحانه وإنْ أردنا الحادثة فهي المتعلّقة بالحادث.

والممتنع ليس شيئاً فكما لا يكون مقدوراً لا يكون معلوماً لأنه لو كان معلوماً لكان إمّا نفس العلم فلا يكون ممتَنِعاً لأنّ العلم موجود، وإمّا موصوفاً والعلم صفته على القول الآخر بأن العلم صفة المعلوم ويجب أن يكون على هذا الممتنع موجوداً لأن العلم صفته وهي موجودة ولا يجوز في العقول أن تكون الصفة موجودة والموصوف ممتنع الوجود.

فإن قلت: أنّا نتصور شريك الباري سبحانه وهو معنى العلم.

قلتُ: هذا غلط فاحش لأنّ المتصوّر إنّما هو شيء موجودٌ تسمّونه بأوهامكم شريك الباري سبحانه ومصداقه إنّما هو اللاّت والعزّى وهُبَل وأمثالها مثلاً تبعاً بتفكّركم في أحوال متّخِذيها أرباباً لهم حيثُ سمّوها شركاء، فنظرتم بخيالاتكم في أحوالكم فانتزعَتْ خيالاتكم صوراً متخيّلةً من أحوالهم سميتموها شركاء عند الردّ عليهم وإبطال دعوتهم وتلك التي في أوهامكم صور مخلوقة لكم، أي أنّ الله سبحانه أحدثها بمقتضى أوهامكم فأنتم الذين خلقتموها بأوهامكم كما قال تعالى (وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا).

وأيضاً هذه التي في أوهامكم وتزعمون أنها صورة شريك الباري سبحانه هل هي ذاتٌ قائمة في أوهامكم بنفسها أو ظِلّ، فإن كانت ذاتاً قائمة بنفسها فهي موجودة محدثة متحيّزة في أوهامكم وليست ممتنعةً وإن كانت ظِلاًّ فالظل إنّما يوجد إذا كان الشاخص موجوداً ويلزم أن يكون ذو الظل الذي هو عندكم شريك الباري سبحانه موجوداً لا أنّه ممتنع وإذا كان موجوداً لزم تجهيل الواجب

تعالى لأنه سبحانه قال (قُل أَ تُنَبِّئُونَ اللهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الأَرْضِ) فأخبر عز وجلّ بأنه لا يعلم له شريكاً في السماوات ولا في الأرض فنفى علمه تعالى بشريكه وأنتم تقولون أنّا نعلم لهُ شريكاً لأنكم تقولون أنّا نتصوره والتّصوّر هو العلم (ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فدعوى عموم العلم القديم وخصوص القدرة القديمة وهما معاً نفس الذّاتِ وذلك مستلزم لاتّحادهما موجبة لجعل الشيء الواحد أعمّ من نفسه أوْ لمغايرتهما للذاتِ ومُغايرة أحدِهما للآخر وذلك كفر وشرك، نعم لو أريد بتعلق القدرة التعلّق الكوني خاصةً أمكن فرض عموم تعلق العلم بمطلق المعلومات وخصوص تعلّق القدرة بالمقدروات الكونية لا بمطلق المقدورات فإنّها حينئذ مساوية للعلم لأن المعلومات منها كونية ومنها إمكانيّة وهي بعينها مطلق المقدورات فإن منها كونية ومنها إمكانية.

وقولنا قبل وأمّا في مشيّة الله فيمكن أن يرفع من يشاء إلى ما يشاء حتى يحصي ثناءهم فيه سؤال يحسن التنبيه عليه لأنه من تمام البيان إذ ربّما يتنبّه الناظر في هذا الكلام للشبهة ولا يتمكن من الجواب.

سألني بعض المفكّرين هل يمكن إيجاد مثل محمّد ﷺ؟ وهل يمكن إيجاد شخص بشريّ أفضل منه وقبله ﷺ؟ فأجبتُه بكلام مجمل غير مبيّن يعني يحتاج في فهمه لمن ينظر فيه إلى البيان.

قلتُ: قد خلق الله سبحانه مثل محمد ﷺ وهو علي بن أبي طالب عليه السلام فإنّه مثل محمد ﷺ وإليه الإشارة بتأويل قوله تعالى (ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها) فالآيات محمد وآله ﷺ فحين مات محمد ﷺ أتي بعَلِيٍّ وهو مثله، وحين مات الحسن العسكري أُتِي بالحجة عليه السلام وهو خير منه لأنّه أفضل الثمانية

على ما يظهر من رواياتهم فقد خلق الله تعالى مثل محمد ﷺ وهو علي عليه السلام لأنّ المثل يصدق بالمساواة في كلّ شيء يراد في المقام وقد لا يلتفت إلى ما يختصّ واحد في نفسه به إذ لا يلحظ عند المقايَسة، وقد يصدق المثل للشيء نفسِه، وذلك لأنّ الشّيء يقال إنه خلق على صورته أي على شكله ومثله يعني على ما هو عليه وإنّما قلنا ذلك لما برهن عليه ودلّ عليه الدليل العقلي والنقلي أنّ أوّل ما فاض من فعل اللهِ الحقيقة المحمدية وفلك الولاية بل هما للمشيّة كالانكسار للكَسْر، يعني لا يتحقق الانكسار إلاّ بالكسر ولا يظهر الكسر في الوجود الكوني إلاّ بالانكسار فأحدهما متقوّمٌ بالآخر، كذلك فعل الله كالكسر والحقيقة المحمديّة وفلك الولاية كالانكسار، وهذا في السرمد وهو أي الفعل المحدث بنفسه وليس قبله قبل، إذ كلّ قبليّة ابتدائيّة فهي حادثة بالفعل فالفعل لا يوصف بالقبليّة الحادثة والسرمد هو وقت الفعل.

وأما قوله ﷺ (أول ما خلق الله العقل)فالمراد به أوّل ما خلق الله من الوجود المقيد وهو عالم الجبروت الذي وقته الدهر والفعل والحقيقة المحمديّة وفلك الولاية من الوجود المطلق وهو الوجود الحادث بنفسه أي خلقه الله بنفسه وهو قوله عليه السلام (خلق الله المشية بنفسها ثم خلق الأشياء بالمشية).

قال الرضا عليه السلام لعمران الصابي (الإبداع والمشية والإرادة معناها واحد وأسماؤها ثلاثة)، وقد ثبت بالدليل العقلي والنقلي أنّ ما كان سابقاً في الوجود الأصلي فهو أفضل وأشرف، فالحقيقة المحمديّة أفضل من العقل الكلّي لأنها قبله لأنها في السرمد والوجود المطلق الراجح.

وأمّا العقل فهو في الدهر والوجود الجائز المقيّد.

فإذا عرفتَ هذا ظهر لك أن الحقيقة المحمديّة قد ملأت الوجود المطلق الذيَ ليس وراءه إمكان وإنما وراءه وجوب فالحادث الممكن غير الحقيقة المحمديّة وفلك الولاية ليس له مكان هناك، أما قبله فليس قبل الوجود الراجح إلاّ الوجود الحق الواجب.

وأمّا معه فليس ثَمَّ فراغ لغيره حتى يكون فيه ولا يدخل فيه إلا ما كان فوقه.

وأمّا بعده فله مكان تحته ويلزم أنّ الحالّ فيه أنقص لأنّ ما فوقه أعلى منه وأفضل.

فيظهر من هذا التقرير أنه لا يمكن إيجاد شخص بَشَري أفضل منه أو قبله لا في دائرة العقل لأن كل ما فيها تحته وهو فوقها والأعلى أشرف ولا فيما فوْقها لأن ما فوقها ليس إلاّ الحقيقة المحمديّة وليس فوق الحقيقة المحمديّة رتبةٌ لشَيء يصدر عن مشيّة الله سبحانه فلو فرض وجود شخص هناك لم يكن إلاّ هذا ﷺ.

نعم قد خلق الله سبحانه مثله وأفضل منه في دائرة الدعوى والباطل المسمّاة بدائرة الجهل، ومعنى هذا أنّ رؤوس الشياطين وأهل الضلالة وأصحاب الكبر والحسد والدّعوى تميل ماهيّاتهم المظلمة بما تقتضيه من صفاتها الخبيثة بسبب دواعي فقرها وعدميّة أصلها المجتَثِّ إلى دعوى تلك الرّتب العالية والاستعلاء على أصحابها عليهم السلام، فيخلق الله بمقتضى تلك الأوهام المنكوسة الخبيثة أمثالاً وصوراً قد كتبها قلم الجهل الكلّي بمدد الخذلانِ في الثرى وما تحته تجِدُ أنفسها مُثُلاً للحقيقة المحمديّة وأعلى منها وأفضل وقبلها وليس لشيءٍ من ذلِك أصل كما أنه سبحانه وتعالى أحدث في أوهام المشركين حين صَنَعُوا حجراً على صورة

شَخْص من نَوْعِهِمْ وقالُوا هذا إلهنا وهو شريكُ إله الخلق سبحانه فأحدَثَ الله عز وجل من تلك الدَّعاوَى والميولات صوراً وأمثالاً لما يتوهمونه في أوهامِهِمْ بمقْتَضاها، وهذا معنى قولنا قد خلقَ الله سبحانه مثله وأفضل منه في دائرة الدعوى والباطل، يعني أنّ في الوجود الظلماني العرضي شيئاً يدّعيه أصحاب البُعدِ من الخير بأنه مثل محمدا ﷺ وأفضل منه وقبله.

فإن قلت: إذا كان باطلاً فلم أقررتموهم على تلك التسمية الباطلة.

قلتُ: كما قال الله سبحانه (الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبانٍ) حيثُ قال أصحاب إمامي الضلالة فلان شمس هذه الأمة وفلان قمرها وكما قال تعالى في حق أبي جهل لعنه الله (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ) استهزاءً به لأنه كان يقول أنا العزيز الكريم.

فإن قلت: كيف يجوز أنْ يكون الله سبحانه يخلق صُوراً للباطل تكون سبباً لإضلالهم وغوايتهم.

قلتُ: إنّه سبحانه خلق الأشياء وأعطى كلّ ذي حقٍّ حقّه فخلق المِرآة وجعلها قابلةً لأن تحكي ما قابلها فتنطبع فيها صورته فهو جعلها كذلك فهي بجعله لها على حسب قابليّتها تقتضي أن تنتقش فيها صورة المقابل وهو سبحانه جعل صورة المقابل تَنْتقش فِي المرآة وهو ينقش الصورة بكونها قابلةً لأن تنتقِشَ في المرآة بكونها قابلة لأن تنتقش فيها الصورة، فالله عز وجلّ فعل كلّ شيءً بقابليّته للفِعْل فإذا قابَلَتْ المِرآة إنساناً لم يتركها بغير نقش صورةٍ ولم ينقش فيها صورة طير بل ينقش فيها صورة إنسان لأنه هو المقابل وهو تعالى ينقش الصورة في المرآة بذي الصورة ولو لم ينقش فيها صورة لكان تعالى قد منع عطيّته لأنه خلق المرآة دالّةً

ولو نقش فيها غير صورة المقابل لكان قد منع عطيّته أيضاً وهي حكم المقابلة ولكانت المنقوشة إمّا صورةً للفعل وإمّا لغيره وإمّا ليست صورةً والكل باطل، فكذلك الخيال وما يرتسم فيه فإن الله سبحانه جعله مرآةً وحكمه حكم المرآة في كلّ شيء ولا عجب في ذلك فإنه تعالى جعل الرحم عاقداً للنطفة ومحلاً لحرث النسل فإذا وقعت فيه النطفة الحرام خلق منها ولد الزّنا ولا يجوز في الحكمة أن يمنعه ما أعطاه ممّا خلقه لأجله من كونه عاقِداً للنُّطْفَةِ الحلالِ فلو لم يخلق بِهِ النُّطْفة الحرام ويخلقُ به النّطفةَ الحَلاَل لما كان يخلق بالأَسْبَاب والمقتضيات ولوْ كان كذلك اتّحدَ المخلوقُ وارتفع الثواب والعقاب للزوم الجبرَ فلا يفعل سبحانه إلاّ بالقابليّة كما قال تعالى (وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلفٌ) يعني ما نفهم ما تقول لأنّ الله سبحانه خلقَنا هكذا فردّ الله عليهم وقال (بَل طَبَعَ الله عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ) يعني إنما طبع على قلوبهم بكفرهم.

ومثال ذلك أيضاً أنه تعالى خلق الحديد يقطع لمنافع الخلق فإذا ذَبَحَ عمروٌ زيداً بالسّيفِ ظلماً فلا بدّ أن يجري القدرُ بإحداثِ الذبح فلو لم يحدث الذبح لزم منه منع عطيّته تعالى للحديد بأنّه يقطع لأنّ القطع من جملة منافع الناس بالحديد التي هي علّةُ إنزاله والامتنانُ به ولزم عدمُ تمكّن عمروٌ من المعصية والإرادة بدون وقوع المراد لا تكفي في التمكن لا سيّما في هذِه الأمة المرحومة، وإذا لم يتمكّن من المعصية لم يصحّ منه وُقوعُ الطاعة لأن الطاعة إنّما تصحّ من العبدِ المكلّفِ إذا كان قادراً على تركها فيفعلها مختاراً متمكِّناً من تركها وإذا لم يتمكّن من تركها لم يتمكن منها وإذا لم يتمكّن منها لم يحسن تكليفهُ لعدم الفائدة بدون ذلك وإذا لم يحسن تكليفه لم يحسن إيجاده فكان من شروط الإيجاد التمكن من المعصية، وإن

كان إنّما وجد للطاعة والتمكن من المعصية إنّما يكون إذا كان مختاراً وإنّما يكون مختاراً إذا خُلِقَ بمقتضى قابليّته.

فإذا وقفتَ على هذه الأسرار المكرّرة في هذه العبارات فهمتَ قولنا إنّ الله سبحانه خلق في دائرة الجهل الكلّي والدعوى المجتثة مثل محمّد ﷺوأفضل منه وقبله في الرتبة، وكلّ ذلك في أوهام أولئِك الجاهلين المُدعين خلق ذلِك المثال الباطل بمقتضى أوْهامِهم وميلها كما تقدم.

فعلى ما قرّرنا أنّ ما فرضناه من إمكان إيجاد من يحصي ثناءهم عليهم السلام غيرهم نقول إمّا إيجاد شخصٍ واحدٍ فهو وإن كان ممكناً لكنّه غير واقع يعني لم يوجد شخصٌ واحد غيرهم يحصي ثناءهُمْ، أمّا إيجادُ كثيرين من أشخاص وأصنافِ وأنواع وأجناس وغير ذلك من جواهر وأعْراضٍ معانٍ وأعيانٍ كليّة وجزئيّة مجرّدة ومادّية سرمديّة ودهريّة وزمانيّة ركنية وبرزخية فهي ممكنة وواقعةٌ وهي الألواح والكتب ونَعْني بها جميع المكوّنات غيرهم، فإنّها تحصي جميع ثناءهم عليهم السلام وذلك جميعها لا بعضٌ منها فإن البعض إنّما يعدّ ما فيه من ثنائهم وذلك الذي فيه هو الأمانة فكلّ شيء يثني عليهم بما أودعه اللهُ سبحانه وائتمنه عليه من جميل صفاتهم وممادحهم (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إِلى أَهْلِها) يُسَبِّحُ الله بأسمائه جميع خلقِه ومرادنا بجميع ثنائهم المادح الصِّفاتيّة الغير الذاتيّة سواء كانت فعليّة أم نسبيّة أمْ سببيّة أم غير ذلك يعني كلّ ما هو غير الذاتية، أمّا الذاتيّة فلا يحصيها بعد الله سبحانه إلاّ هُم عليهم السلام.

ويمكن أن يراد بالكنه في قوله (ولا أبلغ من المدح كنهكم) الكنه الذّاتي فيكون المعنى لا أحصي ثناءكم أي ممادحكم وفضائلكم ولا أبلغ أي لا أصلُ ولا أحيْط

أو لا أدركُ أي لا أصِلُ إلى حقيقتكم أو لا أحيط بها علماً أوْ لا أدركُها.

و(من) في قوله (من المدح) للابتداء أي ابتدئُ في طلب معرفة كنهكم وإحصائها من المدح ولم يذكر الانتهاء لعدم الغاية للطالب في مطلوبه وهو على الوجه الأول ظاهر وهو كنُه مدحكم وثنائها بتقدير مضافٍ.

وأمّا على الوجه الثاني وهو عدم التقدير أي لا أبلغ من المدح حقيقتكم فيراد من المدح الوصف والتبيين أطلق عليه لعدم انْفكاكه عن الثناء بل لا عبارة له إلاّ بذكر الثناء والفضائل فلا بد منه وإن لم يقصد ويجوز أن تكون (من) للتبيين وهو على الأول أيضاً ظاهر أي لا أبلغ كنه وصفكم وثنائكم الذي هو المدح.

وأما على الثاني فلا يصح إلاّ بما يؤُل إلى الأوّل إلاّ على وجهٍ بعيد من أفهام أكثر الزائرين وإن كان كما قال تعالى (إنّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً ★ وَنَراهُ قَرِيباً) بأن يأوّل كنههم على معنى الصفة العليا لله سبحانه بمعنى أن حقيقتهم عالمُ (فأحببتُ أنْ أُعْرفَ) وهو غاية الثناء على الله تعالى والحمد لهُ إذ ليس وراء ذلك شيء في الإمكان وهو قول علي عليه السلام (ليس لله آية أكبر مني ولا نبأٌ أعظم مني).

فحقيقتهم الثناء، على الله بما أثنى به على نفسه ممّا ابتدعَ من الثناء وهذا الثناء محدثٌ يتعالى عز وجل عنه وإنّما هو الثناء على نفسه لخلقه ليعرفوه فمحمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم أولى الخلق به فهو لهم على نحو ما تقدم في قولنا إنه تعالى خلقهم له وخلق ما سواهم لهم ومعنى أنّه خلقهم له أنّهم من جهته له وحده تعالى ومن جهة ما سواه خَلقَهُمْ لأنفسهم فهم لديْه عبيد أرقّاء لا يمكن أنْ يتحرّرُوا ، ومن جهة الخلق هم أحرارٌ أبرار لا يجري عليهم الاسترقاق بل وهبهم أنفسهم في خلقه وأخذهم من أنفسهم له سبحانه قال تعالى (وَلَقَدْ آتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ المَثانِي وَ القُرْآنَ العَظِيمَ) فهو صلى الله عليه وآله وسلم أول السبع والقرآن العظيم فافهم.

ويجوز أن يكون (مِنْ) في قوله من المدح بمعنى في، كما في قوله تعالى (أَرُونِي ما ذا خَلقُوا مِنَ الأَرْضِ) أي في الأرض وقوله تعالى (إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ) أي في يوم الجمعة والمعنى لا أبلغ في المدح بأن يكون المدح ظرفاً للبلوغ والإحاطة والإدراك فإن أريد بالمدح ما يتعلّق بالقلب من الاعتقادات كان ما في الظرف ممّا به البلوغ والإحاطة والإدراك من عالم الأسرار مما لا طريق إلى إدراكه إلاّ بالفؤاد، لأن القلب ظرفه فإن كانت هذه القرية مدينةً حصينةً تعلّق بها الجَعْلُ الربّاني وإليه الإشارة بقوله تعالى (رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَل أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) وإلاّ فبنسبة ما يحصّن منها يقيم الصلاة وبنسبة إقامته الصلاة يحصل البلوغ له، وأن أريد بالمدح ما يتعلّق باللّسان من الأقوال كان ما في الظرف ممّا به البلوغ والإحاطة والإدراك من عالم الأنوار وهي المعاني الحقّة المأثورة عن أهل الحق عليهم السلام من الكتاب والسنّة ودليل العقل المؤيّد بالكتاب والسنّة أي يشهدانِ لهُ بالصدق فإنّهما شاهدا عَدْلٍ قَد قَبِل اللهُ شهادتهما، فإذا شهِدَا أجَاز الله شهادتهما وذلك ذخائر اليقين وصفايا الإيمان من كنوز الاستقامة كما أشار إليه سبحانه (إِنَّ الذِينَ قالُوا رَبُّنَا الله ثُمَّ اسْتَقامُوا) وإنْ أريد بالمدح ما يتعلّق بالأركان من الأعمال كان لازم ما في الظَّرْف ممّا به البلوغ والإحاطة والإدراك من عالمِ الأشباحِ من الأبدان التي لا أرْواح لها ومن الهياكل النّورانيّة الّتي لها أرواح وهي الأظلّة والذر وقد يطلق على وَرَق الآس أي الأرواح وهي مراتب العلوم وما قبلها مراتب اليقين والإيمان وما قبل مراتب اليقين والإيمان مراتب المعارف والحقائق الحقة.

وإنما قلتُ هنا لازم ما في الظرف لأنّ الأعمال الموافقة لامتثال الأمر واجتناب

النهي هي الزراعة الصَّالحة بالبذر الصالح في الأرض الصَّالحة في الفصْل الصالح التي تُثْمر العلوم المتحقّقة ثم تثمر بالعلوم المتحقّقة الإيمان الثّابتَ واليقينَ القارّ ثم يثمِرُ بالعلوم المتحقّقة وبالإيمان المستقيم وباليقين الثّابت المعارف الحقة.

ويجوز أن تكون (من) لِلتّعليل والسَّببيّة وبمعنى الباء للاستعانة مثالهما قوله تعالى (وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ) فهي في من الذلُّ للتعليل والسببية، أي لأجل الذلّ وسبب استيلائه على جميع مشاعرهم وقواهم حتى خشعوا ينظرون من طرف خفيٍّ وفي من طرفٍ خفيٍ للاستعانة بمعنى الباء أي استعانوا على التمكُّن من أضعَفِ النظر مِنْ طرفٍ خفيٍّ أي بطرفٍ ضعيفٍ الحركة لاستيلاء الذلّ على حواسّهم الباطنة والظاهرة، فعلى التعليل والسببيّة يكون المعنى من أجل المدح وبسببه أي من أجل طلب مدحكم بما تستحقّونه من الثّناءِ لا أبْلغ كنه ثنائكم على تقدير المضاف أي إحصاءِ ممادحكم وفضائِلكُمْ، يعني لا أبلغ حقيقةَ ممادِحكم وفضائِلكم لا في الإحصاء لأن كل من سواهم ثناء عليهم ومدحٌ لهم وكلّ شيٍ إنما يحصي نفسه ومالهُ من الأفعال والنّسب والأوضاع ولا في المعنى لأنّي لا أُحيط بمعاني كلّ من سواهم ومعاني ما لمن سواهم من الأفعال والنّسب والأوْضاعِ، وعلى عدم تقدير المضاف فبطريقٍ أوْلى، لأنّ مَنْ يقصر بمبلغ جهده عن بُلوغِ إحصاء الآثار والصفات وعن معاني بعضها ينحَطُ عن بلوغ الحقيقة واكتناهِهَا بطريقٍ أولى.

وقول بعض الصّوفية بأنّ الله سبحانه تستحيلُ الإحاطة بصفاته لعدم تناهيها وأمّا ذاته فيدركها الواصلون ويتأوّلون مثل قوله تعالى (مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ) وقوله تعالى (فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَل عَمَلاً صالِحاً

وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) وغير ذلك هذيانٌ وشرك وكفر لأن الصفات إن كانت ذاتيّة فهي إمّا مساوية للذات كما في القديم تعالى وأمّا جزء الذات كالناطق للإنسان والجزء تحت الذات، وإن كانت فعليّة فهي شأن من شؤون الذات فكلّ ما تصدق عليه الصفة بأي اعتبارٍ فهو لا يزيد عليها فافهم.

وعلى الاستعانة يكون المعنى لا أُحْصي عدد ممادحكم وفضائِلكم مع استعانتي على الإحصاء وإدراك معانيها من المدح أي بالمدح يعني مع استعانتي على ذلك بما وقفتُ عليه ممّا ورد عنكم في بيان فضائِلكم ممّا عرّفتم به من جهِل قَدْرَكم ومقامَكم ومنزلتكم عِنْدَ الله سبحانه وبما علّمني الله بكم من ثنائكم، وعِظَم شأنكم ومع استعانتي أيضاً بذلك لا أبلغ معرفة كنهكم إذ لم يصل إليّ من ذلك إلا جزءٌ من أظِلةِ أشِعّتكم ولهذا لا أبلغ بجميع مشاعري ممّا ذكرتُ في حمل (مِنْ) في (من المدح) على معنى في الظّرفيّة وبما أثمرَتْ في الزراعة الصَّالحة أعني إلقاء البذر الصّالح في الأرض الصالحة في الفصل الصالح على نحو ما سبق مما أشرنا إليه في التّمثيل لما يلزم الأعمال من المعارف الحقّةِ والعلوم القطعية، فإنّها وإن كانت تصل إلى بعض أسرارهم لكنّها لما كانَتْ ذَواتُهَا من آثار إجاباتهم لربّهم حين أجرى فيهم حكم الامتثال فلا يمكن في ذواتِها الإدراكُ والإحاطَةُ لأنّ الإدراك إنما يمكن للمساوي في الرتبة وللأعلى.

وأمّا النازلِ فلا يدرك الكنه ومن أجل ذلك قال ﷺ (يا علي ما عرف الله إلا أنا وأنت وما عرفني إلا الله وأنت وما عرفك إلا الله و أنا) هـ.

فلرسولِ الله ﷺ رتبة في معرفة الله تعالى لا يصل إليها أحد من الخلق وعلي عليه السلام لم يصل إليها لأنّه لم يكن مساوياً له ﷺ بل مقامه دونه وتحتَ تلك الرتبة

رتبةٌ يصل إليها علي عليه السلام فيجتمع فيها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهي مقام (ما عرفَ الله إلاّ أنا وأنت) نجتمع في معرفة الله تعالى في رتبة لا يصل إليها إلاّ أنا وأنت وهي مقامُ (ما عرفك إلاّ الله وأنا) يعني لعليّ عليه السلام رتبة في الوجود الكوني لم يشاركه فيها إلاّ رسول الله عليه وآله السلام فصحّ بما اختصّ به علي عليه السلام من دون ابنه الحسن عليه السلام أو فاطمة عليها السلام على أحد القولين أن يقول (ما عرف الله إلاّ أنا وأنتَ ولا عرفني إلا الله وأنت ولا عرفك إلاّ الله وأنا) فإذا صدق بهذا الحرف الذي تفرّد به عليه السلام أنه لا يعرفك إلا الله وأنا صح أن كلّ مَنْ سِوَاهُمْ لا يعرفهم لأن عليّاً عليه السلام زادَ عليهم صلى الله عليْهم معرفةً بحَرفٍ واحدٍ وهم عليهم السلام زادوا على الخلق معرفةً بما لا يتناهى في رتبة الخلقِ.

هنا فائدة في الإشارة إلى الحرف الذي يتفاضلون به وقدر مدّته أمّا الحرف فهو في تقدّم الذوات بعضها على بعض كما تقدّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عليّ عليه السلام وعليّ على الحسن والحسن على الحسين والحسين على القائم والقائم على الأئمة الثمانية وهم على فاطمة على ما ظهر لي صلى الله عليهم أجمعين، فتقدّم المتقدم على المتأخّر حرف من العلم والوجود الذاتي فسَبْقُه حرف وجودي ظهر به الحق تعالى فيه ظهوراً لم يشاركه المتأخر فهو زائِد بما اختصّ به من العلم بالله تعالى وهو ظهوره به فيه قبل وجود المُتَأخّر، وهكذا فهذا هو الحرف الذي نشير إليه لا أنّه يرد عليه بعد تمامه ولم يصل إلى من بعده من الأئمة عليهم السلام لقيام الدّليل عقلاً ونقلاً أنه لا يصل إلى سابقهم شيء إلاّ ويجب عليه أن يؤديه إلى اللاّحق وهو تأويل قوله تعالى (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَاناتِ إِلى أَهْلِها).

كما في الكافي بإسناده إلى أَحْمَدَ بْنِ عُمَرَ قَال (سَأَلْتُ الرِّضَا عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ

وَجَل إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمانَاتِ إِلى أَهْلِها قَال هُمُ الأَئِمَّةُ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يُؤَدِّيَ الإِمَامُ الأَمَانَةَ إِلى مَنْ بَعْدَهُ وَلا يَخُصَّ بِهَا غَيْرَهُ وَلا يَزْوِيَهَا عَنْهُ).

وعَن المُعَلى بْنِ خُنَيْسٍ قَال (سَأَلتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَل إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إِلى أَهْلِها قَال أَمَرَ اللهُ الإِمَامَ الأَوَّل أَنْ يَدْفَعَ إِلى الإِمَامِ الذِي بَعْدَهُ كُل شَيْءٍ عِنْدَهُ)هـ.

إلى غير ذلك فثبت أن الإمام الأوّل لو كانت زيادته الّتي بها يفضل على من بعده مما يرد عليه بعد تمامه ولم تصل إلى الثاني لكان الثاني ناقصا ولكنّها كانت رتبة ذاته إذا سبقت في الوجود الكوني.

وأمّا قدر مدّة ذلك الحرف فلم نقف على تصريح خاص عنهم عليهم السلام بذلك وإنما ورد عنهم أن بعضهم أعلم من بعض كما تدل عليه رواية مختصر بصائر سعد الأشعري للحسن بن سليمان الحلي بسنده إلى أيوب بن حر عن أبي عبد الله عليه السلام (قال قلت له الأئمة بعضهم أعلم من بعض فقال نعم وعلمهم بالحلال والحرام وتفسير القرآن واحد)هـ.

نعم قد يستفاد ذلك من بعض الروايات مثل ما رواه جابر بن عبد الله في تفسير قوله تعالى كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وتنهون عن المنكر قال (قال رسول الله ﷺ أول ما خلق الله نوري ابتدعه من نوره واشتقه من جلال عظمته فأقبل يطوف بالقدرة حتى وصل إلى جلال العظمة في ثمانين ألف سنة ثم سجد لله تعظيما ففتق منه نور علي عليه السلام فكان نوري محيطا بالعظمة و نور علي محيطا بالقدرة) الحديث.

وهو طويل فإن قوله ﷺ ثمانين ألف سنة يعني من سني الدنيا يستفاد منه

أنه مقدار ما سبق به عليّاً صلى الله عليهما وآلهما والعظمة مصدر النبوة والقدرة مصدر الولاية فكانت لمحمد ﷺ وجعلها لعلي عليه السلام كما يظهر من الأخبار وهي كثيرة مثل قوله ﷺ (أُعطيتُ ثلاثاً وشاركني عليّ فيها أعطيتُ لواء الحمد وعليّ حامله وأعطيت الجنّة والنار وعليّ قسيمهما وأعطيت الكوثر وعلي ساقيه) الحديث.

واعلم أن السبق المشار إليه في حق أهل العصمة عليهم السلام بينهم وبين الخلائق مختلف في الروايات، ففي بعضها أربعون ألف سنة، وفي بعضها أربعة عشر ألف سنة، وفي بعضها ثمانية عشر ألفاً، وغير ذلك من الاختلافات المتكثرة وهي محمولة على اختلاف المراتب والمقامات.

وقوله عليه السلام (ومن الوصف قدركم) مثل ما قبله في المعنى ظاهراً وقد يراد من العطف التفسير والبيان وقد يراد منه غير ذلك لأن الأصل فيه اقتضاء المغايرة فيراد من الوصف ذكر أحوال الموصوف وتعدادُها أو الكشف عن معانيها سواء تضمّنت المدح أم غيره هذا هو المراد من الوصف إلاّ أنّ المقام يقتضي ذكر ما يتضمّن المدح والثناء وتعداد الفضائل والفواضل وهؤلاء صلى الله عليهم لمّا كانوا أوّل فائض مخترع من الفعل الإلهي كانوا في أصل تكوّنهم على أكمل ما يمكن في باب الإيجاد والاختراع ومن كان كذلك لا ينفكّ ذكره ووصفه عن الثناء والمدح، لأنه على أي اعتبار فهو منبع الكمالات فمن ذكر أحوالهم بأي اعتبار فهو يثني عليهم، وقولي فائض مخترع لبيان ما هو الواقع لا أن الفائض منه مخترع ومنه غير مخترع إذْ ليس شيءٌ كامِن فيظهر وإنّما يظهر ما هو مخترع لم يكن قبل الاختراع شيئاً ومعنى ظهورِه وجودهُ.

والقدر هو مبلغ الشيء والعِظم وقياس الشيء بالشيء والمراد أني لا أبلغُ من الوَصفِ مبلغكم من الوجود الكوني وقربكم من المبدأ ولأُعظمكم في الواقع ولا نسبتكم من الخلق والكلام في (مِن) في قوله (من الوصفِ) كالكلام في (من المدح) بجميع ما ذكر هناك فلا حاجة إلى إعادته وكذلك الكلام في قدركم باعتبار ملاحظة الكنه والذات وباعتبار تقدير مضاف محذوف وما يترتّب على ذلك من المعاني كالكلام على قوله (كنهكم) كما تقدم.

قوله ﷺ (وأنتم نور الأخيار) المراد بالأخيار على الظاهر الأنبياء والرسل ومن يقربُ منهم كأوصيائهم من أهل العِصمة كما قال تعالى (وَاذْكُرْ عِبادَنا إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصارِ⋆ إِنَّا أَخْلَصْناهُمْ بِخالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ⋆ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الأَخْيارِ⋆ وَاذْكُرْ إِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الأَخْيَارِ) ويجوز أن يراد بالأخيار ما هو أعم من أهل العصمة فإن أريد الأول كان التنوير أو ظهورهم ﷺ بعقول الأنبياء والرسل وأوصيائهم وبأرواحهم وأنفسهم لهُمْ بغير واسطةٍ وإن طالت المدّة بين ذواتهم صلوات الله عليهم وبين ظهورهم بعقول الأنبياء والرسل وأوصيائهم وبأرواحهم وأنفسهم فقد أشار بعضُ أخبارهم أنها ألف دهرٍ وبعضُها بغير ذلك إذ ليس بينهم وبين الأنبياء والرّسل خلق كما ليس بين المنير وبين الشعاع شيء، وإن طالت المسافة بل قد يقال بعدم التناهي في الوجود الكوني لأن أقرب أجزاء الشعاع إلى المنير لا يكون بشدة قربه منيراً أي جزءا من المنير أبداً فليس بينهما فصْل ولا وصل أبداً وهذا آيةٌ ما أشرنا لك من هذا السّرّ المستور، فبما أشرنا لك من البيان يظهر لك إن فهمتَ المراد أنه لا واسطة في ذلك، وإن أريد الثاني كان التنوير أو ظهورهم ﷺ لمن ظهروا لهُ بها ظهروا به بواسطةٍ أو بأكثر من ذلك.

ثم اعلم أن قوله (نور الأخيار) ظاهره أنهم عليهم السلام نفس نور الأخيار فإن أريد الحقيقة لزم على هذا الظاهر الحلول أو الاتّحاد ويلزم على الوجهين المساواة ومساواتهم لغيرهم أو مساوة غيرهم لهم لم تصحّ إذ ليس أحد في رتبتهم وفي التأويل ورد في تفسير قوله تعالى (قالُوا وَهُمْ فِيها يَخْتَصِمُون ★ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ ★ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمِينَ).

إنّ الضمير في (فَكُبْكِبُوا فِيهَا) يعود إلى بني أميّة(وَالغَاوُونَ) بنو العباس، كما في تفسير القمّي ومعلوم أنهم ما وضعوا أصناماً يعبدونها من دون الله وإنّما اتّخذوا رجالاً أئمة من دون أولياء الله الذين أمرهم الله بالإئتمام بهم فأطاعوهم في معصية الله فقد سوَّوْا بهم أولياء الله ومن سوّى بأولياء الله غيرهم فقد سوى ذلك الغير بالله رب العالمين، لأن أولياء الله عليهم السلام أمرهم أمر الله ونهيهم نهي الله وطاعتهم طاعة الله ومعصيتهم معصية الله لأنهم لا يعملون إلاّ بأمر الله ولا يقولون إلاّ عن الله من أن الله سبحانه أمرهم ونهاهم وأمر جميع خلقه بطاعتهم فمن سوّى بهم غيرهم فقد سوى الغير بالله ربّ العالمين.

وإنما قال هنا رب العالمين ولم يقل بالله للإشارة إلى أنّ محمداً وأهل بيته عليهم السلام هم ملوك الآخرة ومالكوها من عطاء الله وفضله عليهم كما هم ملوك الدنيا ومالكوها كما قال تعالى (أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ)وقال (إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

وذلك لأن إياب الخلق إليهم وحسابهم عليهم فهم القوّام بأمر الخلق عن الله تعالى فقال (إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمِينَ) للتّنبيه بذكر الربوبيّة في هذا المقام على أنّهم المدبّرون لأحوال الخلق يوم القيامة كما أمرهم الله تعالى (لا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ).

فلو أريد بقوله ﴿ع﴾ نور الأخيار الحقيقة لزم ما ذكر وما رُوي في قوله تعالى (لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) بمعنى أنّ الأنْفُس هم الأئمة ﴿ع﴾ لأنهم ذوات الذوات كما روي عن علي ﴿ع﴾ فَمِن نحوِ ما نحن بصدده وإذا أريد المجاز كان معناه أحد الوجهين اللّذين ذكرناهما أمّا إن المعنى أنهم المنوّرون للأخيار بمعنى أن حقائق الأخيار من النبيين والمرسلين والأوْصياء والصالحين مطارح لأشعّة إشراقاتِهِمْ، ومرَايَا تنطبع فيها صور أمثالهم فأنوار جميع الخلائق من أشعّة أنوارهم مستضيئة كاستضاءة وجه الجدار الأيْمَنِ والمِرْآة بشعاع الشمس عند مقابَلتِها فأنوار حقائقهم ما حكت عن صور تلك الأنوار وما انطبعتْ فيها من هياكل تلك الشؤون والأقْدار فهم بهذا المعنى أنوار الأخيار على المجاز لأن حقيقة نور الأخيار إنما هي مثال ظهور أنوارهم على مرايا ذوات الخلق فمعنى (أنتم نور الأخيار) مثال ظهور أنواركم على مرايا ذوات الأخيار نورهم، وقد قلتُ في قصيدة نظمتها في مدح علي وفاطمة والأحد عشر من نسلهما عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام في ذكر القائم ﴿ع﴾ وإن الأنبياء ﴿ع﴾ بشّروا به وإنّ أنوارهم من أشعة أنواره:

فنورُهُ وَحْيُهُمُ ووجهُهُ
قبلتهُمْ فحيثُ صلوْا وَصَلُوا

وأمّا قولي فنورُه وحيُهُمْ فمعناه أن الوحي الذي نزلت عليهم به الملائكة من الله سبحانه فهو شعاع نوره ﴿ع﴾ وذلك كما في قوله تعالى (وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا) والمراد به الملك الذي هو من أمر الله الذي يكون مع محمد وآله ﴿ص﴾ بكله فإنه منذ هبط عليهم ما صَعِد قطّ وهكذا يكون مع جميع الأنبياء والرسل ﴿ع﴾

بوجه من وجوهه ورأس من رؤوسه فإنّه ما هبط على مخلوقٍ أبدا إلا على محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين صلى الله عليه وعليهم.

وأمّا ما كان منه قبلهم عليهم السلام من أوّلِ ما أكل الباكورةَ من حدائقهم إلى أن خرجوا فإنما هو تنزّلاته حين خلقه الله تعالى فقال (له أدبر فأدبر ثم قال له أقبل فأقبل) ، فالإدبار الأعظم والإقبال الأعز الأجل الأكرم ما كان بهم صلّى الله عليهم (مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلكِن جَعَلنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا) أي جعلنا ذلك الروح الّذي هو من أمرنا نوراً أي كتاباً منيراً وهو القرآن (نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا) والمعنى المراد أن الوجود المقيّد أول ما ظهر منه في الوجود الكوني معنى ولفظ متساوِقان في الظهور يعني كل معنى فله اسم فهما مبني كلّ منهما على صاحبه.

فالمعنى هو الملك المذكور الذي هو القلم بعبارة، والعقل بعبارة، والروح من أمر الله بعبارة، وروح القدس بأخرى.

واللفظ هو القرآن، ولهذا وحّد الضمير العائد إليه وثنّى الصفة فقال فيه من حيث هو معنى روحاً من أمرنا ومن حيثُ هو لفظٌ (نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا) فافهم.

وقولي سابقاً كان التنوير أو ظهورهم عليهم السلام بعقول الأنبياء والرسل وأوصيائهم وبأرْوَاحهم وأنفسهم لهم بغير واسطةٍ مرادي منه بالتنوير ما أشرتُ إليه.

وأما قولي أو ظهورهم عليهم السلام بعقول الأنبياء ...إلخ، فالمراد أن عقول الأنبياء والرسل وأوصيائهم حقيقتها ظهورهم عليهم السلام بها لهم وإن شئت قلتَ لها، وكذلك أرواحهم ونفوسهم فهي تشهد لهم صلّى الله عليهم بسرّ ما أودعوها مما وعَتْه من

ظهورهم بها بأنهم نور الأخيار وهداة الأبرار وحجج الجبار فَسبّحوا الله بأسمائه ومجدوه بنعمائه وآلائه وهو تأويل قوله (فَاجْعَل أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ).

وقوله عليه السلام (وهداة الأبرار) لعل المراد بهم من كان التنوير لهم أو الظهور بعقولهم بالواسطة لأنه الأغلب في الاستعمال وقد يستعمل في المقربين ولكن استعماله في أصحاب اليمين أغلب، وأما الأخيار فيستعمل في المقربين وفي أصحاب اليمين ولكنهما إذا أريد بواحد منهما المقربين فهو من المشكك، لأن بين المقربين بعضهم بعضا درجات متفاضلة لا تكاد تتناهى في مراتب الإمكان، بمعنى أن محمدا وآله صلى الله عليه وآله وسلم وإن كانوا من المقربين بينهم وبين من سواهم مراتب لا يصل إليها أحد ممن سواهم أبدا وإن بلغ كل مبلغ كما ذكرنا سابقا من أن النور وإن قرب من المنير غاية القرب لا يكون من المنير بل هو أبدا نور من المنير وشعاع منه فمن سواهم لا يزال مستمدا للهداية منهم كل ما وصل رتبة وضعت له رتبة أعلى من الأولى وهكذا بلا نهاية ولا غاية فإن أهل الجنة لا ينتهي نعيمهم، وكل استمدادهم لا سيما في النعيم الأعظم الغير المتناهي الذي هو الرضوان قال تعالى (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ) لأنه الحجاب الأعلى وعالم (فأحببت أن أعرف) وإليه تنتهي النهايات في الإمكان ولا نهاية له وكل ذلك إنما هو بهم وعنهم فهم يدلجون بين يدي المدلج من الخلق والله سبحانه يدلج بين يدي المدلج منهم ومن خلقه بهم.

وقوله عليه السلام (وحجج الجبار) قد تقدمت الإشارة إلى معناه وأن له معاني متعددة في كل رتبة من مراتب الوجود بحسبها، مثلا ما ظهرت على الأنبياء والرسل عليهم السلام وأتوا به من المعجزات كإحياء الموتى ونطق الجمادات والحيوانات

العجم وقلب الجمادات حيوانات كعصى موسى وغير ذلك فإنها آياتهم وأمثالهم وذلك ما أشير إليه علي بن الحسين عليه السلام كما تقدم في رواية جابر بن يزيد الجعفي في حديث طويل ثم تلا عليه السلام قوله تعالى (فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَـذَا وَمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) وهي والله آياتنا وهذه أحدها وهي والله ولايتنا يا جابر) الحديث.

ومن المعاني كونهم تراجمة لوحيه الوجودي الكوني والوجودي التشريعي كما تقدم.

فيكون من الأول ترجمة الأغذية والأمزجة للأجسام النامية بمعنى أن الله سبحانه خلقهم عليهم السلام على أكمل وجه يمكن في مقام الخلق في اعتدال الأمزجة والتركيب بحيث لا يمكن ذلك إلا في تأليف أنوارهم الذاتية وخُلِقَ من فواضل تلك الأمزجة المعتدلة والتأليفات المتسقة جميع الخلائق سواهم كل شيء على حسب قابليته وجعلهم كما ذكرنا سابقا علل جميع الخلائق العلل الفاعلية لكونهم محال مشيئته وألسنة إرادته وأيدي إيجاده وإبداعه، والعلل المادية لكون مواد الأشياء من فاضل أنوارهم وأشعة وجوداتهم ، والعلل الصورية لكون صور الأشياء من فاضل هيئات ذواتهم وحركاتهم وإقبالاتهم وإدباراتهم للمؤمن على نحو التوالي والموافقة وللكافر على نحو خلاف التوالي وعلى المخالفة، والعلل الغائية لكون الأشياء ألسنة الثناء عليهم قال تعالى (وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) فبهم خلق ما خلق ولهم خلق ما خلق وعلى مثالهم خلق ما خلق، فاختلفت الأشياء باختلاف إجابتها وقبولها ، فمن

اختلف واعوج وضعف واسود والتوى وزاد ونقص فمن قابليته وتقصيره وسوء إجابته، ولم يأتهم ربهم سبحانه إلا بأكمل مزاج وأحسن تأليف لأنه آتاهم بفاضل مزاج أصفيائه عليهم السلام وشعاع تأليفهم ولكنهم اختلفوا لاختلاف دواعيهم فمن لم يستقم لعدم إجابته فمقصر ملوم والحجة عليه المزاج المستقيم الذي آتاه الله به فغيره باختياره.

واعلم أن وجوه معنى كونهم حجة عليهم السلام كثيرة ظاهرة وباطنة كما في تأويل قوله تعالى (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)، فالظاهرة معلومة والباطنة ذكرت منها هنا وجهين وفي ما تقدم ذكرت أكثر من ذلك، وإن أعددها لم أحصها ولكن تعرف بكلامي وما مثلت به نوع ذلك فإن فهمت مرادي وسألت الكريم الجواد سبحانه بنحو لسان استعدادي أعطاك ما شاء فإنه الغني الحميد.

ومن الثاني ما عبروا عنه بهذه الأوامر والنواهي وهو في الظاهر ظاهر لا يكاد يخفى وفي الباطن باطن لا يكاد يدرى وأغلب ما سوى هذين من معاني حجج الجبار يعلم من الأول ويعلم كثير منها مما مضى.

قال عليه السلام بكم فتح الله وبكم يختتم وبكم ينزّل الغيث وبكم يمسكُ السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه وبكم ينفّس الهم ويكشف الضّرّ

قال الشارح المجلسي رحمه الله تعالى بكم فتح الله أي في جميع الفيوضات والخيرات كما يشعر به الصلاة أو في الخلق فإنه أوّل ما خلق أرواحهم كما في الأخبار المتكثّرة وتقدّم بعضها أوْ لكم خلق الله الخلق أوْ أنتم وسائط الفيوض الإلهية وبكم يختم كما في الرجعة والمهدي أو كل خيرٍ يصل إلى أحدٍ فإنه بسببكم، لأنهم العِلّةُ الغائيّة وبكم ينزّل الغيث كما ورد في الأخبار الكثيرة لأنهم المقصود بالذاتِ أو بدعائهم

كما ورد أيضاً متواتراً وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض مع حصول أسبابه من ادِّعاء الولد والآلهة الباطلة كما قال تعالى (تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا) إن دعوا للرحمن ولداً إلا بإذنه عند قيام الساعة أو غيره إن أراد انتهى.

أقول: بكم فتح الله في كل وجودٍ بل في كل إمكان، أمّا في الإيجاد فمن حيث كونهم العلل الأربع للخَلقِ كلّه على نحو ما أشرنا إليه في العلّة الفاعلية لكون التمشية إليها لا تجري على الظاهر لأنّه غلو ممنوع منه وإنّما يقال في العِلّةِ الفاعليّة على نحو ما ذكرنا سابِقاً من كون الفاعلية هي المثال المتقوّم بالفعل، فإنّ المثال الذي هو اسم الفاعل كالقائم لزيد هو المشيّة المتقومة بالحقيقة المحمّديّة تقوّم ظهورٍ بمعنى أنّ المثال هو المشيّة حال تعلّقها بالحقيقة المحمديّة كما تقول أن السّراج هو النار حال تعلّقها بالدهن.

والأوْلى في التحقيق أن يقال إنّه الحقيقة المحمديّة حال تعلّق المشيّة بها وربطها بها كما تقول أن السراج هُوَ الدهن حال تعلّق المشيّة بها المعبّر عنه في الآية الشريفة

نور بمسّ النار في قوله تعالى (يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ وَلوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نار) والمراد من هذا أن السراج المضيء للغير الّذي تعلّقت به الأَشعة وتوجهَتْ إليه في عبادتها آية الـ
له بافتقارها إليه في تلقّي وجوداتِها منه، إنّما هو في الحقيقة الدهنُ الذي تكلّس بحرارة النار ويبوستها حتى كان دخاناً فانفعَل بالضياء عن مس النار التي هي الحرارة واليبوسة فمسُّها هو فِعلُهَا أبرزَتْهُ بنفسه لا من ذاتها لأنه ليس جزءاً منها وهذا هو الذي أشار إليه تعالى حيث قال (يَكادُ زَيْتُها يُضيءُ وَلوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نار) ولم يقل تكاد النار تضيء ولو لم تتعلق بالدهن لأنّ الاستنارةَ إنّما هي من الدهن وذلك

لشدّة صفائه وبياضه قال يكاد يضيء، لكنه لا يضيء إلاّ بمس النار فالدهن هو المضيء بمس النار، وهاهنا قال ابن سينا في الإشارات (اعلم أن استضاءة النار السّائرة لما ورائها إنّما تكون إذا علقَتْ شيئاً أرضِيّاً ينفعل بالضوء عنها إلى أن قال: فإذا طُفئت انفصَلتِ النارُ هواء والكثافةُ دخاناً) انتهى.

فقد ثبت بالآية الشريفة وكلام الحكماء أنّ السراج المضيء الذي تعلّقت به الأشعة ووجدتْ بإفاضته وتحقّقت بظهوره وَقَامت باستمدادها منه إنّما هو الدخان المستضيئ بمسّ النار أي المنفعل بالضياء عنها وهذا الدخان المستضيئ ليس هو من النار وإنّما هو أجنبي منها وهو دهن قد كلّسَتْهُ وجفّفَتْهُ ونعّمته حتى يبس وجفَّ فقرب منها فاستنار بتأثيرها فهو عرش لها قد استوت عليه بظهور فعلِها فأعطَتْ كلّ جزءٍ من الأشعَّةِ على قدره، فالأشعّة صفاتٌ لما ظهر بالدهن عليه من تأثير النار بفعلها فيه والمثال هو السّراج والسراج هو الدهن المستضيئ بمسّ النار كما تلونا عليك والحقيقة المحمّدية ﷺ هي الزيت المستضيئ بمسّ النار والزيت هو الوجود المخترع بالفعل فاستضاءتهُ بهذا الاختراع، فالحقيقة المحمّديّة ﷺ بالاختراع هو المثال المشار إليه فكما أنّ السراج الظاهر الذي بيّنّا لك أنّه في الحقيقة هو الدخان المنفعل بالاستضاءة عن مسّ النار هو علّة وجود الأشعّة بل لا وجود لشيء منها إلاّ بكونه صورة ظهور ذلك السراج وهو العلّة الفاعليّة لتلك الأشعة كذلك الحقيقة المحمديّة بالاختراع أي بكونها محلاًّ له هي علّة وجود الأشعّة وهي العلّة الفاعليّة لها لأنّ الحقيقة المحمديّة بذلك هي اسم الفاعل فهي كالقائم بالنسبة إلى زيد من حيث هو فاعل القيام وهذا آية معرفة ذلك للعالِمين بكسر اللاّم.

وقولي هذا إشارة إلى قائم وإلى السراج وقولي آية معرفة ذلك أشير به إلى قول أمير المؤمنين صلوات الله عليه (من عرف نفسه فقد عرف ربه) مشيراً إلى قوله تعالى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفاقِ وَفِي أَنْفُسِهِم) فإنّ الآيات الدالّة على ما ذكرتُ لك في الآفاق كالسّراج والقائم والشمس والكلام والأصوات والصدا من الصوت والصورة في المِرآة وغير ذلك وفي الأنفس معرفة النفس مجرّدة عن سبحات الجلال بلا إشارة إلى التجريد فهي الآية الكبرى، فهذا مراد لي من قولي هذا بقرينة ذكري آية معرفة ذلك فافهم.

فيكون المعنى بهم فتح الله إيجاد الأشياء وبهم يختم يعني بهم يختم على فم القلم الأعلى فلا ينطق أبدا.

وأمّا في الوجود فهم عالم الحمد في قوله (الحَمْدُ لله رَبِّ العالِمِينَ) فإنه قد افتتح الخلق بالحمد فقال (الحَمْدُ لله الذِي خَلقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ) وختمه بالحمد فقال (وَ تَرَى المَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَقِيل الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالِمِينَ) هذا دليل الافتتاح في الظاهر بأوّلَ سورة الأنعام وفي الباطن بأوّلِ فاتحة الكتاب ليكون أول الكتاب التكويني مدلولاً لأوّل الكتاب التّدويني ولوصفه تعالى عند الحمد لله بربّ العالمين لتدلّ في الافتتاح والاختتام على اعتبار الإيجاد والتَّرْبيَة والملك على اختلاف أحوالها، ولهذا قال (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وَقِيل الحَمْدُ للهِ رَبِّ العالِمِينَ) فهم عليهم السلام أوّل الخلق في الكَون والبَدْءِ وآخر الخَلق في العود.

وما قيل من أنّ أوّل ما خلق الله العقل فهو وإن كان ظاهره العموم إلاّ أنّه مخصوص بالوجود المقيّد وهم عليهم السلام كانوا في الوجود المطلق وقد دلتْ أخبارهم

أنّ الوجود المقيد من زرع حدائقهم فإنّ العقل هو القلم وقد ورد أنّه أوّل غُصن من شجرة الخلدِ، وقال الحسن بن العليّ العسكري عليه السلام في تاريخه قال (وروح القدس في جنان الصاقورة ذاق من حدائقنا الباكورة) يعني روح القدس هو المذكور المسمى بالروح من أمر الله وبالعقل الكلي وبالقلم والباكورة هي أوّل الثمرة يعني أنّ روح القدس أوّل من ذاقَ ثمرة الوجود الكوني من حدائِقنا التي غرسناها في أرض الجرز والأرض الميتة وإليه الإشارة بقوله تعالى (حَتَّى إِذا أَقَلتْ سَحاباً ثِقالاً سُقْناهُ لِبَلدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلنا بِهِ الماءَ فَأَخْرَجْنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخْرِجُ المَوْتى لعَلكُمْ تَذَكَّرُونَ) والبلد الطيّب يعني مثل قابلية العقل الكلّي يخرج نباته بإذن ربّه يعني باسمه البديع وهو أكله أول ثمرة الوجود، والذي خَبُثَ كقابلية الجهل الأول ومظاهره ورُؤوسِه.

فالله سبحانه فتح الوجود الكوني فكانوا ولم يكن خلق كما مرّ فيما رواه جابر بن عبد الله الأنصاري كما في رياض الجنان قال قلتُ يا رسول الله (أول شيء خلق الله تعالى ما هو فقال نور نبيك يا جابر خلقه الله ثم خلق منه كل خير ثم أقامه بين يديه في مقام القرب ما شاء الله ثم جعله أقساما فخلق العرش من قسم والكرسي من قسم وحملة العرش وخزنة الكرسي من قسم وأقام القسم الرابع في مقام الحب ما شاء الله ثم جعله أقساما فخلق القلم من قسم واللوح من قسم والجنة من قسم وأقام القسم الرابع في مقام الخوف ما شاء الله ثم جعله أجزاء فخلق الملائكة من جزء والشمس من جزء والقمر والكواكب من جزء وأقام القسم الرابع في مقام الرجاء ما شاء الله ثم جعله أجزاء فخلق العقل من جزء والعلم والحلم من جزء والعصمة والتوفيق من جزء وأقام القسم الرابع في مقام الحياء

ما شاء الله ثم نظر إليه بعين الهيبة فرشح ذلك النور وقطرت منه مائة ألف وأربعة وعشرون ألف قطرة فخلق الله من كل قطرة روح نبي ورسول ثم تنفست أرواح الأنبياء فخلق الله من أنفاسها أرواح الأولياء والشهداء والصالحين) انتهى.

وقد تقدّم هذا الحديث وإنما أعدته تسهيلاً وقد اشتمل على جهات كثيرة من العلوم خصوصاً فيما نحن فيه ولا يمكن بيان ذلك لاستلزامه الطول لكن لا بدّ من قليل يحصل به بعض الإشارة.

منه أنّ قوله ﷺ (ما شاء الله) يراد منه بيان الرتبة وهي دهر من الدهور التي ذكروها عليهم السلام أنهم قبل الخلق بألف دهرٍ، وقد يعبّر عنه بأربعين ألف عام أو ثمانين ألف عام أو أربعة عشر ألف عام أو غير ذلك باختلاف مقامات التعبير، والخلق الذين هم قبله قد يراد منه ما في الجبروت أو الملكوت أو الملك أو ما بينها من البرازخ في سلسلة الطول أو في سلسلة العرض كما قيل في الألف ألف عالم أن المراد منها الأجْناس أو الأنواع أو الأصناف في العوالم الثلاثة في سلسلة الطول أو سلسلة العرض أو فيهما.

ومنه أن المراد بالقلم عقل الكل والمراد بالعقل المذكور في مقام الرجاء عقل النوع، وقد يعبر عن الأول بغيب فلك محدد الجهات وعن الثاني بغيب فلك زحل.

ومنه أن العرش مركب من أربعة أنوارٍ أحدها النور الأبيض وهو المراد بعقل الكل.

فإن قيل: فلم ذكر العرش قبل مع أن الأجزاء سابقة في الوجود على المركب؟.

والجواب أن العرش هو الكلّ والكل في الرتبة سابق على الجزء باعتبار البساطة

والتركيب فإن الجملة كالشجرة مقدّمة على أبعاض كالأغصان في هذا اللحاظ كما في قوله ﷺ في قوله تعالى (كَشَجَرَةٍ طَيِّبَة) أنا الشجرة وفاطمة أصلها وعلي لقاحها الخ.

ويحتمل أن المراد بالعرش هنا المشيَّة أو الحقيقة المحمديّة المعبر عنها بالوجود الراجح والماء الذي به حياة كلّ شيء والدواة الأولى وذلك كلّه قبل عقْل الكلّ كما تقدّم.

ومنه أن كون أرواح الأولياء والشهداء والصالحين مِنْ تَنَفّس أرواح الأنبياء ككون أرواح الأنبياء من تنفس أرواحهم صلى الله عليهم أجمعين.

والحاصل أن من المعلوم أنهم كانوا ولم يكن خلق ففتح بهم الوجود ويعودون إليه تعالى حيث لا يكون خلق سواهم لأن كلّ مخلوق فمَدَى عودِه بقدرِ مَدَى بدئه لا ينقص ولا يزيد، فمَن كان مدى بدئه منذ خمس سنين مثلاً لا يكون مدى عوده خمس سنين ويوماً وإلاّ لكان موجوداً قبل أوّلِ وقتِ وجوده ولا فرق في جميع أنحاء الوجود لكل موجود فكما لا يختلف المدى في وجود ذاته لا يختلف في إدراكاته لأن الإدراك مساوقٌ للوجود هذا في الوجود الكوني وكذلك الله فتح سبحانه بهم الوجود الامكاني، وذلك لأن الإمكان كلّه وإن كان في الوجود الراجح في الجملة إلاّ أنّ الممكنات فيه مرتّبة قد ترتّبت معلولاتها على عللها، فمنها من أمكنه المبدع المريد جل وعلا بنفسه، ومنها من أمكنه بواسطة إمكان آخر، ومنها بوسائط كما في الوجود الكوني حرفاً بحرف بل الكوني شرح الإمكاني، فكان إمكانهم صلّى الله عليهم أجمعين بنفسه لم يتوقّف في إمكانه إلاّ على خلق المشية فيه وهو قوله تعالى (يَكادُ زَيْتُها يُضِيءُ وَ لَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نارٌ نُورٌ

عَلى نُورٍ) وإمكانُ غيرهم متوقّف على إمكانهم فبهم فتح الله الوجود الإمكاني وبهم يختم فيعودون حيثُ لا يكون خلق، ثم ما ذكره الشارح المجلسي رحمه الله جار هُنا على بعض ما أشرنا إليه وإن لم يكن مُتّسِقاً لأنه قابل بكم فتح الله الفيوض والخيرات بقوله بكم يختم كما في الرجعة ويجوز بكم فتح الله الإسلام وبكم يختمه في الرجعة كما قال تعالى (لِيُظْهِرَهُ عَلى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ).

فإن قلت: قولك بتساوي البدء والعود يلزم منه القِدم لأنهم بل سائر الخلق باقون في الجنّة والنار بلا نهاية ولا انقطاع في الآخريّة ، فإذا كان البدء مساوياً للعود لزم أن يكون البدء لا نهاية له ولا انقطاع في الأوّليّة ولا يعني بالقديم إلاّ هذا فيلزم من القول بتساوي البدء والعود القول بقدم العالم أو انقطاع النعيم والعذاب الأليم وفناء الجنّة والنار وأهلهما والقول باللازمين أو أحدهما كفر.

قلت: لا يلزم ذلك لأنّي أقول أنّ الأشياء مسبوقة بالعدم بمعنى أن الله سبحانه كان ولا شيء معه ثم خلق ما شاء مما تعلمون ومما لا تعلمون ولا نعني بالحادث إلاّ ما كان بعد إن لم يكن وما وجد غيره قبله وجميع ما سوى الله تعالى خلقه الله، ولا ريب أنه لم يكن في الأزل لأن الأزل ليس إلاّ ذاته عز وجل وخارج الذات خارج الأزل وليس إلا الحادث سواء طالت مدته أم قصرت وإذا لم يكن في الأزل لزمه شيئانِ أحدهما كونه مسبوقاً بصانعه تعالى وثانيهما كونه مسبوقاً بالعدم أي عدم وجوده في الأزل.

وأما توهّم من ذهب إلى أنّ القول بوجود شيء من الأشياء قبل الزمان فهو قول بقدم العالم إذ لا حادث إلاّ الحادث في الزمان فهو غلط لأنّ الزمان مخلوق ولم يخلق في الزمان فيتسلسل مع الاتفاق على أنّ أوّل ما خلق الله العقل ولو كان

في الزمان لم يكن أوّل مخلوقٍ بل يجب أن يكون قبل الزمان وكذا الماء على قول أنه أول ما خلقه الله.

وأمّا قول قديم زماني وذاتي فشيء لا معنى له صحيح وليس في كلام أهل العصمة ﷈ وإنما مبنى كلامهم ﷈ على أنّ كلّ ما سوى الله مخلوق خَلقَة اللهُ تعالى وإنّ أوّل ما خلقَ الله نور محمد ﷺ.

وأمّا قديم زماني وحادث زماني فاصْطِلاحٌ باطلٌ لاستلزامِهِ القول الباطل والحقّ ما قاله أهل الحق ﷈ من أنّ الله سبحانه ليس معه شيء وكل ما سواه فهو محدث خلقه الله لا من شيء وصنعه لا على احتذاء شيء بل أحدث فعله بنفسه لا من شيء غير نفسه حين أحدثه وشقّ المادّة من كينونة فعله بفعله وخلق الصورة من انفعال المادة وخلق المصنوع في وقت الفعل فما كان ظرفاً للإمكانات فسرمد، وما كان للممكنات فدهر وزمان فوقت الفعل على حسب تعلّقه بالمفعول فبساطة الوقت ولطافته بسبب تعلّقه بمفعول بسيط لطيف وتركيب الوقت وغلظه وكثافته بسبب تعلّقه بمفعول مركب وغليظ وكثيف فوقت كل شيء بحسبه وما بينها من البرازخ فعلى حسب حالها فالزمان مخلوق يجري فيه حكم ما يجري في غيره فلا معنى لقديم زماني أو حادث زماني، فإن كل شيء خلقه الله سبحانه ولم يَكُ شيئاً ولا فرق بين المحقّق عند الناس والمقدّر بالنسبة إلى صنع الله تعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون فخذها قصيرةً من طويلةٍ تَهتَد سواء السبيل.

بقي هُنا شيء ينبغي الإشارة إلى التنبيه عليه على جهة الاقتصار لعَلّ الله أن يجعله سبباً لتوفيقه عبدهُ لفهمه إن كان ممن كُتِب من أهله، وهو أنّا قد ذكرنا هنا ما يدل على أنّ الزمان فيه لطيف وغليظ وبسيط ومركب وهذا شيء مستغرب

لأنه لم يوجد في كتاب ولم يسمع في جواب، فاعلم أنَّ الوجود الذي خلق الله منه كلّ شيء بسيط لا يكون شيء من المخلوقات أبسط منه ولا ألطف منه ومادة كل شيء منه وإنّما اختلفت الأشياء في اللطافة والكثافة بسبب المشخّصات والوجود وإن كان في نفسه مختلفاً في مراتبه فما كان منه مشرِقاً ألطف وأشرف مما كان منه إشراقاً إلاّ أنّه إلى آخر مرتبة منه لطيف في غاية اللطافة بالنسبة إلى المركّبات وهي إنّما كانت غليظة وكثيفة مع أنّ مادّتها الوجود اللطيف من جهة المشخّصات فالمشخّصات إن كانت لطيفة كان المركب منها لطيفاً كالعقول والأرواح والنفوس، وإن كانت كثيفةً كان المركب منها كثيفاً وإن كانت مادّته التي هي من الوجود لطيفاً والمشخصات كثيرة، منها الاعتقادات والأقوال والأعمال والأحوال، ومنها الكم والكيف والوقت والمكان والجهة والرتبة، ومنها لوازم لها كالوضع والنسبة والكينونة وغير ذلك.

فالوقت من الأصول المشخصة فالوجود المتشخّص بالسرمدِ ألطف من المتشخّص بالدهر وهو ألطف من المتشخّص بالزمان بل ما في الزمان مختلف باختلافه ففلك المحدد ألطف من فلك الثوابت، لأن زمانه ألطف من زمان فلك الثوابت وكذلك في المكان وسائر المشخصات ولهذا تكون حركته أسرع لرقّة المتعِلّق وهكذا إلى الأرض فهي أبطأ من كل الأجسام وكلّ ما قلت أرضيّته قويت حركته وأسرعت وبالعكس وهكذا ولو كان الغلظ والرقة راجعاً إلى المادة لتساوت الأجسام في القوّة والحركة فافهم.

فإن قلتَ: إن المشخّصات من الوجود أيضاً فلم اختلفت.

قلتُ: هي أيضاً لها مشخّصات نوعية قبل تشخصها لغيرها وشخصيّة مع

تشخيصها للغير ولهذا اختلفت واختلفت به المتشخّصات بها.

فإن قلت: أنّ فلك الثوابت الطف من السماوات السبع فلم كانت حركته أبطأ

منها وهو خلاف ما ذكرتم.

قلتُ: هي الطفُ من السبع ولكن لكثرة كواكبها أبطأت حركتها لأن الأدلّة دلّت على أن لكل كوكب فلك تدوير منها أو خارج مركز وإن تقاربت حركاتها، المختلفة لعلّةٍ ذكرناها في بعض أجوبتنا فلاختلاف الدائرات فيها أبطأت حركة مجموعها ولقلّة مختلفات السبع بالنسبة إلى فلك الثوابت أسرعت حركتها فافهم.

هذا كله في الكون الوجودي وشرعه أي بكم فتح الله الكون الوجودي في العلل والمعلولات وبكم يختم كذلك وبكم شرع الوجودي في العلل والمعلولات وبكم يختم كذلك وكذلك في الكون التشريعي، ووجوده على نحو ما مرّ من التفصيل إلاّ أن التكوين الوجودي ظاهر التكوين التشريعي والتشريعي باطنه والشرع الكوني ظاهر الوجود الشرعي والوجود الشرعي باطنه وقد أشرنا إلى هذا المعنى فيما سبق وفي بعض رسائلنا على وجه الاقتصار، وأمّا على جهة كمال البيان فلم أكتبه لأنه يقتضي بسطاً كثيراً ولم يحصل داع موجب إلى ذلِك وغيري لم يذكره لأنّ هذه أشياء لا يعرفونها ولم تذكر في كتب أحد لعدم علمهم بذلك وإنما هذه الأشياء مذكورة في كلام أهل العصمة عليهم السلام وعليها ألف حجاب فلا يعرفها إلاّ هم أوْ مَن شاءوا بتعليم خاص منهم عليهم السلام لأنّ الله سبحانه قال (وَ تِلكَ الأمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلاَّ العالِمُونَ)وهم عليهم السلام يعلمونها من شاءوا بأمرٍ خاصٍ من الله سبحانه، نعم قد يذكر بعض الحكماء الإلهيون خصوصاً أهل

العلم المكتوم قواعد أو مسائل تدل على نوع ما أشرنا إليه فإن قبلت مني ما أقول فمن توفيق الله سبحانه، وإلا فاعلم إن الله سبحانه بذل الحكمة والأنوار لأهلها ونشرها في السماء كما نشرت الشمس نورها في السماء والهواء ولا يلقيها إلا مع حصول قابليّتها من عبده كما أن نور الشمس لا يظهر إلاّ في كثيف كَمِدْ فافهم.

وقوله عليه السلام (وبكم يُنزل الغيث) قد تقدم أنّ الشارح المجلسي رحمه الله قال كما ورد في الأخبار الكثيرة لأنهم المقصود بالذّاتِ يُشيرُ إلى ما ذكرنا مِرَاراً كثيرة من أنّهم العلل الأربع خصوصاً العلّة الغائيّة لأن الغيث من فوائد نزوله أنّه مثل للدنيا قال تعالى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ).

كذلك الدنيا في نعيمها الزائل وقوله (فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْضِ) يراد منه أن ينحل منه جزءان مشاكلان في جزء من التراب مشاكل بتسخين الشمس فيكونان بعد الانحلال شيئا واحداً، غذاء للنبات فتمصّ منه العروق غذاء الأغصان وقال تعالى (كَماءٍ) ولم يقل كمثل ماء لأنّ نفس الماء ونزوله هو مثل الدنيا لا أن مثله مثل الدنيا بل هو بنفسه مثل الدنيا ولو أريد به أنّ مثله مثل الحياة لقال كمثل ماءٍ كما قال في نظائر هذا مثل قوله تعالى (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ نارا) وقال (مَثَلُ الذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الحِمارِ).

وأمثال هذا في القرآن وكلام الأئمة عليهم السلام كثير فإذا أريد الاتحاد لم يأت بمثل كما قال تعالى في تمثيل حالِ المنافقينَ قال في تشبيه المثل بالمثل (مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذِي اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءتْ ما حَوْلَهُ)الآية.

وقال في تشبيه المثل بالشيء (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَ رَعْدٌ وَ بَرْقٌ) الآية.

فافهم فإنّ البيان يحتاج إلى تطويل وأنه مثل للآخرة قال تعالى (ومِنْ آياتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلنا عَلَيْهَا الماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الذي أَحْياها لَمُحْيِ المَوْتى)وأنّه مثلٌ للدنيا والآخرة قال تعالى (وَنَزَّلنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ وَالنَّخل باسِقاتٍ لها طَلعٌ نَضِيدٌ رِزْقاً لِلعِبادِ رِزْقاً لِلعِبادِ) هذا مثل الدنيا ومثل الآخرة (وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الخُرُوجُ).

فهذا من فوائده وهم عليهم السلام الذين يعقلون الأمثال المضروبة فلهم نزول الغيث، ومن فوائده رزق العباد والعباد غنمهم والغيث ينبت عَلفَ غنمهم لأن من سواهم أَنعامَهُم تعمل لهم ما يراد منهم من إقامة الوجود الكوني وشرعه والكون الشرعي ووجوده قال تعالى (وَجَعَل لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها أَثاثاً وَمَتاعاً إِلى حِينٍ).

وما ورد في تفسير قوله تعالى (فَليَنْظُرِ الإِنْسانُ إِلى طَعامِهِ)ما معناه فلينظر إلى علمه من أين يأخذه (أَنَّا صَبَبْنَا الماءَ صَبًّا) أي العلم (ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا) وهي قلب الإمام عليه السلام (فَأَنْبَتْنا فِيها) يعني من أنواع العلوم (حَبًّا) من علم الولاية (وَعِنَباً) من رحيق المعرفة (وَ قَضْباً) من علوم الأحكام (وَزَيْتُوناً) من أخلاق الكرم والزهد (وَنَخْلاً) من لذة الإيمان ومحبّته يعني الولاية كما قال تعالى (وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِليْكُمُ الإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) (وَحَدائِقَ غُلباً) من مراتب اليقين والاستقامة (وَفاكِهَةً وَأَبًّا) من علوم الطريقة والأبّ مثل لما تعلمه العوام من الشريعة أَوْ أن الفاكهة ما بطن وتحقّق من العلوم للإنسان والأبّ ما ظهر منها وظُنَّ للجاهل (مَتاعاً لَكُمْ) لكم أي للمؤمنين العالمين العارفين (وَلأَنْعامِكُمْ)

أي لرعيّتكم وعوامّكم فإنهم أنعام العلماء ، كما أشار إليه الصادق عليه السلام في كلامه لعُبيْد بن زرارة قال (والذي فرق بينكم فهو راعيكم الذي استرعاه الله خلقه وهو أعرف بمصلحة غنمه في فساد أمرها فإن شاء فرق بينها لتسلم ثم يجمع بينها لتأمن) الحديث.

وهذه المعاني التي أشرتُ إلى ذكرها في تأويل الآية أخذتها من معاني أحاديث متعددةٍ لفّقْتُ بعض معانيها وعبّرتُ عنه بما يناسب معنى ما نحنُ فيه من هذا الشرح فإنّه طُلِبَ منّي على هذا النّحو لا على النّحو الظاهر.

وبالجملة فكونهم العِلّة الغائيّة في نزول الغَيْث فمعلومٌ بل في كلّ شيء كما يشير إليه كلامه رحمه الله إلا أن ظاهر الفقرة الشريفة يدلُّ على كونهم سبباً أَوْ أَنَّ وجودهم أو فعلهم أو دعاءهم أو كون المطر مطلوباً لهم لبعض شئونهم الكونية أو الشّرعية لهم أو لغنمهم آلةٌ لإنزال المطر، والمراد بالآلة السبب الصوري أو المادّيّ والمراد بكونهم غير أنهم آلة بمعنى الصوري أو الماديّ لأن الأوّل يراد منه العلّة الفاعلية سواء أريد بالعلة الفاعليّة فعل الفاعل أم محلّ الفعل وترجمانه والحامل له ولا نريد بالعلّة الفاعليّة ذات الفاعل لأن ذلك غير جائزٍ بل ولا واقعٍ وإنما نريد بها فعله كما ذكرناه فيما سبق مكرّراً فراجع.

وقوله عليه السلام (وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه) ما أشار إليه الشارح رحمه الله من معناه من قوله مع حصول أسْبَابه من ادِّعاءِ الولد والآلهة الباطلة الخ، له وَجْهٌ ولكنه ناقص فالاقتصار على خصوص ما ذكره ليس في الحقيقة بشيء وإن كان في الظاهر له وجهٌ، لأنّ المراد إن الله سبحانه يمسك بهم السماء لأنّهم عمَدُهَا وبهم قوامُها فهي قائمةٌ بهم قيامَ صُدُورٍ وقيامَ تَحققٍ لأنّهم أمرُ

الله قال تعالى (وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِه)، وفي الدعاء (كل شيء سواك قام بأمرك) أو لأنهم محالّ أمرِ الله وقد صرّحوا بذلك في أحاديثهم عليهم السلام بأنهم أمر الله الوجودي ومحال أمر الله الفعلي فبهم أمسك الله السماوات والأرض وكل شيء سواء قيل بأن لله ولداً أو بأن معه شريكاً أم لم يقل، لأنهم للأشياء كلّها العلل المادّيّة والصُّوريّة كما ذكرنا سابِقاً، والله سُبحانه يُمْسِكُ الشيء بمادته وصورته، نعم لو قال رحمه الله تعالى أنّ من معنى ذلك إن الله تعالى يمسك السماء أن تقع على الأرض إذا حصل لها مقتضى ذلك من دعوى الولد والشريك لم يكن به بأس وكان مما يراد من ذلك اللّفظ ومعنى ما أشرنا إليه من أنّ الله سبحانه بهم عليهم السلام يمسك كلّ شيء سواهم من الخلق أنّ كلّ شيء له أصل يقوم الشيء به وذلك الأصل هو صورته من أمر الله يعنِي أنّ لأمر الله هيئاتٍ و رؤوساً بعدد الخلائق وهي تلك الأصول المشار إليها كما أن لكلّ جزءٍ من شعاع الشمس وجهاً من الشمس يستمدّ ذلك الجزء من ذلك الوجه وهو وجهُه الذي لا يهلك وبه قوامه، كما أشار إليه سبحانه بقوله (كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلاَّ وَجْهَه) على أحد التفاسير بأن الضمير في وجهه يعود إلى الشيء وذلك الجزء من الشعاع خلق من ذلك الوجه من الشمس وهو وجهه منه بدئ وإليه يعود وبينهما مسافة لا يقطعها ذلك الجزء أبداً مع شدّة سيره إليه وسرعته فهم ذلك المنير الذي فيه وجوه كلّ شيء من الخلق وكل شيء أقامه الله عز وجل بوجهه من المنير الذي هو أمر الله صلى الله عليهم أجمعين.

ومعنى قوله عليه السلام (إلاّ بإذنه) كما في الآية الشريفة، فهو أن الأشياء بمشيّته دون قوله مؤتمرة وبإرادته دون نهيه منزجرة، فلمّا شاء أمسك بمشيّته السماء فلا تزال

قائمة حتّى يأذن لها أنْ تقع وإمساكه بأمره وإذنه بأمره وأمرُه هو مشيّته ومحالّ مشيّته وحَمَلتُها وألسِنَةُ إرادته وكلماتُهَا، اللهم صل على محالّ مشيّتك وألسِنَةِ إرادتك وخزائن كرمك ومفاتح غيبِك واسلك بنا محجّتهم ومنهاجهم وتوفنا على ولايتهم ومحبّتهم وعلى البراءة من أعدائهم واجعلنا من أنصارهم على الحق في السر والعلانية يا أرحم الراحمين.

وقوله عليه السلام (وبكم ينفس الهم) نفسٍ بتشديد الفاء بمعنى فرّجَ ووسع يقال نفّس عنه كربته أي فرَّجها وكان في نَفَسٍ من أمره والنفس محركةً هنا بمعنى السعة أي في سعةٍ من أمره والهمّ الحزنٌ أو الحزن قويّ الهمّ وهو مما يتعلّق بالقلب، قيل أنواع الرذائل منها نفسانيّة ومنها بدنيّة ومنها خارجية والأول بحسب القُوَى التي للإنسان العقليّة والغضبيّة والشهوية والهم والحزن يتعلّق بالعقليّة والجبن بالغضبية والبخل بالشهويّة والعجز والكسل بالبَدنيةِ والضلعْ والغلبة بالخارجية.

أقول: مراد القائل بالعقليّة النفسانيّة أي التي في الجانب الأيسر من القَلب إن كان للدنيا وما يرتبط بها ويكون لها وإن كان ذلك الاعتناء والتّوجّه للآخرة أو لما يرتبط بها ويكون لها سواء في تحصيل محبوب أو تخلصٍ من محذورٍ، ففي الجانب الأيمن فلمّا كان الهمّ لا يخلو من أحدهما وكان مصدر الدّاعيين من القلب من جانبه الأيمن أو الأيسر وهو يطلق على القلب قيل يتعلق بالعقليّة.

والهم والغم قيل يطلق أحدهما على الآخر لأنهما بمعنى الحزن أو الغم بمعنى التغطية لأنه يغطّي السرور والحلم والهمّ بمعنى الاعتناء بالشيء وتوجّه النفس إلى طلبه وجهة تحصيله أو التخلص منه.

وقيل الهم لما سيكون وينفي النوم والغم لما كان ويجلب النوم وربّما قيل بالعكس بأن الغم لما يأتي والهمّ لما مضى والعكس أشْهَرُ وأظْهر ومعنى بكم يُنَفِّس الهمّ بكم يفرّج الكرب والضيق لأن من اهتمّ لما سيقَعُ به محبوس العزيمة والانبعاثِ في مطمورة هَمّه وكونُ ذلك التفريج بهم على نحو ما مر.

وقوله عليه السلام (ويكشف الضر) أي بهم يكشف الأمراض والأوجاع وسُوءُ الحال يعني يزيلها بهم لأجل وجودهم فيمن ابتلى بالضرّ كما قال تعالى (وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) أوْ لأن من ابتلى بالضرّ إنما هو بتقصيره في ولايتهم وإذا تسامح الولي وعفا عن حقّه كما قال تعالى (وَلَقَدْ عَفا عَنْكُم) وقوله تعالى (وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) أو أن المبتلي تاب ورجع كما قال تعالى (وَأَنِيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لهُ) أي أنيبوا إلى الله سبحانه بإقراركم بالولاية كلها لمن جعله الله سبحانه وليّاً وأسلموا له أي للولي بتسليم الأمر له أوْ أسلموا لله سبحانه بتسليم الأمر لوليّ الأمرِ الذي ولّاه الله الأمر فإذا عفا صاحب الحق عن حقّه أو تاب وأدّى المطلوب بالحق لولي الحق كشف الله تعالى الضر الذي هو أثر تقصيره في الولاية بسبب ولايتهم أو لأجل إقامة ولايتهم أوْ أنّ مقتضى إنيّة المكلّف استحقاق الضرّ ومقتضى ولاية محمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله أو مقتضى ذواتهم عليه السلام كشف الضرّ فإذا اجتمع المقتضيان في محلٍّ واحدٍ كان حكم الوجود والغلبة للأقوى منهما وهو الولاية، ولمّا كانت الولاية ولاية الولي المخلوق كانت غير مستقلّة بالإحْداث بل كان ربّها ومالكها الحقّ سبحانه وتعالى هو الذي أجراها على عبده ووليه وهو الذي خلقها سبحانه وخلق بها ما شاء فكان عزّ وجل بها يكشف الضر وكذا إذا أردنا بالضمير في بكم الحقيقة صلى الله عليه وآله حقيقة كان تعالى يكشف لأنها

اسمه الأعظم ومحلّ مشيّته ومظهر فعله، وكذا إذا قلنا المراد من بكم بدعائكم وغير ذلك وكيفيّة هذا الكشف في حق المكشوف به والمكشوف عنه والمكشوف يتوقّف بيانها على تطويل ويشتمل على بيان البيوت الّتي يتّخذها المكشوف به من المكشوف عنه ليستخرج منها مقتضياتها منها وهي المكشوف فيسكنها المكشوف به مدة الاستخراج وتقع في المكشوف به إرادة الكاشف سبحانه وتعالى على حسب مقتضى قوابل الجميع من المكشوف به والبيوت التي يسكُنُهَا، والمكشوف عنه والمكشوف مع ما يتمّمها من قوابل الوقت والمكان والأسباب الخارجة كالأوضاع والإضافات والنّسب وغير ذلك ممّا يطول به الكلام واتّخاذ هذه البيوت مما أشار إليه تعالى في تأويل قوله (أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا) فتأويل (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ) هو معنى بكم وتأويل (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلا) هو معنى يكشف الضرّ فافهم أو فاسأل وتعلّم وسَلِّم تَعْلَمْ والله سبحانه ولي التوفيق.

قال عليه السلام وعندكم ما نزلتْ به رسله وهبطت به ملائكتهُ

يراد من النزول الهبوط من أعلى معنويٍّ كالأنبياء عليهم السلام فإنهم حال التلقّي للوحي في مكان عالٍ علوّاً معنوياً لا يصل إليه أحد من أُمَمِهم إلى أسفل حسيّ وهو مقامهم في التأدية والبلاغ إلى أممهم أو الهبوط من أعلى معنوي وحسيّ معاً كنبيّنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فإنه حال التلقّي للوحي في أعلى مقام معنوي كمقامِ أَوْ أَدْنَى وحسّي فإنه صلى الله عليه وآله وسلم تجاوز بجسمه الشريف مقام الأجسامٍ حتى وقف في معراجه

بجسمه الشريف على كل جسم من أجسام الدنيا جزءً وكلٍّ في جَرْيَةٍ من جريات البراق وعلى كلّ جسم من أجسام الآخرة في الجرية الأخرى، كذلك فوقف على كلّ جسم من النّشأتين في أوّل بدئه وآخر عوده وما بينهما وكذلك وقف بجسمه وروحه على كل قلبٍ وروحٍ وجسمٍ ممّا سواه وسوى أهل بيته عليهم السلام في الدنيا والآخرة كما ذكرنا لك ووقف بجسمه صلى الله عليه وآله على أجسام أهل بيته الطاهرين صلى الله عليهم أجمعين وبعقله وروحه على عقولهم وأرواحهم وعلى عقله وروحِه صلى الله عليه وآله كذلك أي في النّشأتيْن في جَرْيتَيْنِ إلى أسفل حسّي وهو مقامه في التأدية والبلاغ إلى أمّته ظاهراً ومعنويّ وهو مقامه في التأدية والبلاغ إلى عقولهم وأرواحهم ونفوسهم وطبائعهم وموادهم وصورهم وإلى جميع الحيوانات والنّباتات والمعادنِ وسائر الجمادات إمّا بنزُوله إلى مرتبة كلِّ واحدٍ منها أو رفع ما يُبَلِّغُه إلى مقامه في تبليغه إيّاها أو إلى أعلى معنوي كما قال تعالى(نَزَل بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلى قَلبِكَ) و ويُراد من الهبوط النّزول من أعلى حسّي يلزمه المعنوي إلى أسفل حسّي أو من أعلى إلى معنوي أسْفل معنوي كما قال تعالى (قِيل يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَليْكَ وَعَلى أُمَم مِمَّنْ مَعَكَ) فإنه مقام أعلى من حاله في السفينةً وإن استلزم الأسفل الحسّي وإلَىَ أسفل معنوي كما قال تعالى (قال فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لكَ أَنْ تَتكَبَّرَ فِيها).

والحاصل أن الفارق بينهما الاستعمال في المقامات المختلفة وإلاّ فهما ظاهراً بمعنى واحدٍ في هذا المقام وإلاّ فقد يراد من النزول السكون واللبث في المكان والمجاورة والحلول فلا يتّحدان إلاّ بتَمَحُّل ولكن المقام يقتضي إرادة اتّحادهما ظاهراً أو تقاربهما وعلى هذا فإن اعتبرنا الظاهر كان التعبير بهما في مقام كلّ منهما،

إنّما هو لتحسين اللفظ برفع توهم التكرير وإن اعتبرنا التّأويل كان الأنسب بالأنبياء النزول لظهور النزول إذا ذكر مع الهبوط في المعنوي لعدم صعودهم عليهم السلام الصعود الحسّي ولا شرفيته على الهبوط وإن كان بمعناه كما ذكرنا في الفرق بين صاحب وذو وإلاّ لما استلزم الحسّي كما قال في نوح عليه السلام فإنه لا نقص فيه لأنه جمع المعنوي والحسّي فهو كالنزول والأنسب بالملائكة عليهم السلام إذا ضمُّوا إلى الأنبياء عليهم السلام الهبوط لنقص مقامهم عن مقام الأنبياء ولنزولهم من الأعلى الحسّي فيلزمه الأسفل الحسّي ومعنى هاتين الفقرتين ظاهر، وهو أنّهم صلّى الله عليهم جامعون لجميع علوم ما كان وما يكون فجميع ما نزل على الأنبياء عليهم السلام من الوحي والكتب وما سمعوه من الملائكة وما علموه من الجمادات والحيوانات وجميع إلهَامَاتِهم من جميع ما حدّثهم به روح القدس وسائر الملائكة فهو عند محمد وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم وجميع ما هبطت به الملائكة مطلقاً سواء كانت الملائكة ملائكة الوحي أو الإلهام أو التدبير للأمر أو زواجر السحاب أو غيرهم كما أشار إليه سيد الساجدين عليه السلام في دعاء الصحيفة في الصلاة على الملائكة قال (وَحُمَّالِ الغَيْبِ إِلى رُسُلِكَ، وَالمُؤْتَمَنِينَ عَلى وَحْيِك) ثم قال عليه السلام (والذِينَ عَلى أَرْجَائِهَا إِذَا نَزَلَ الأَمْرُ بِتَمَامِ وَعْدِكَ ، وَخُزَّانِ المَطَرِ وَزَوَاجِرِ السَّحَابِ ، وَالذِي بِصَوْتِ زَجْرِهِ يُسْمَعُ زَجَلُ الرُّعُودِ، وَإِذَا سَبَحَتْ بِهِ حَفِيفَةُ السَّحَابِ التَمَعَتْ صَوَاعِقُ البُرُوقِ ، وَمُشَيِّعِي الثَّلجِ وَالبَرَدِ، وَالهَابِطِينَ مَعَ قَطْرِ المَطَرِ إِذَا نَزَلَ، وَالقُوَّامِ عَلى خَزَائِنِ الرِّيَاحِ، وَالمُوَكَّلِينَ بِالجِبَالِ فَلا تَزُولُ ، وَالذِينَ عَرَّفْتَهُمْ مَثَاقِيلَ المِيَاهِ، وَكَيْلَ مَا تَحْوِيهِ لَوَاعِجُ الأَمْطَارِ وَعَوَاجِلُهَا ، وَرُسُلِكَ مِنَ المَلائِكَةِ إِلى أَهْلِ الأَرْضِ بِمَكْرُوهِ مَا يَنْزِلُ مِنَ البَلاءِ وَمَحْبُوبِ الرَّخَاءِ ، وَالسَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَالحَفَظَةِ الكِرَامِ

الكَاتِبِينَ، وَمَلكِ المَوْتِ وَأَعْوَانِهِ، وَمُنْكَرٍ وَ كِيرٍ، وَرُومَانَ فَتَّانِ القُبُورِ، وَالطَّائِفِينَ بِالبَيْتِ المَعْمُورِ، وَمَالِكٍ، وَالخَزَنَةِ، وَرِضْوَانَ، وَسَدَنَةِ الجِنَانِ ، وَالذِينَ لا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) إلى غير ذلك، فإن هؤلاء ونظائرهم من الملائكة ينزلون بأحكام ما وكّلوا به على جميع الأشياء مثل ما أشار إليه عليه السلام في الدعاء ومثل قوله تعالى (وَأَوْحى رَبُّكَ إِلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذي مِنَ الجِبالِ بُيُوتاً) الآية، فما من ذرّة في الأرض ولا في السماء إلاّ وعليها ملائكة يؤدّون إليها جميع أحكام خلقها ورزقها ومماتها وحياتها ممّا يتلقّونه من فوّارة القدر وكل ذلك عند الإمام عليه السلام (وَكُل شَيْ ءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ) وهو قوله تعالى (وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ) وفي احتجاج الطبرسي عن أبي عبدالله عليه السلام في حديث طويل فيه (قال لصاحبكم أمير المؤمنين عليه السلام (قُلْ كَفى بِالله شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ وقال الله عز وجل وَلا رَطْبٍ وَلا يابِسٍ إِلا فِي كِتابٍ مُبِينٍ وعلم هذا الكتاب عنده) هـ.

ولو شرحتُ بعض ما أشار إليه عليه السلام في ذكر الملائكة وما أوصى إليه مما أقامهم الله فيه من تدبير أمور العالم لتحيّر فيه ذو اللبّ الحكيم ولوقف عنده الماهر العليم إلاّ من علّموه فقبل وأتى الله بقلبٍ سليم.

وأمّا بيان الفقرتين على ما أشرنا إليه فقد مرّ مكرّراً وعلى ما أتت به أخبارهم عليهم السلام فذلك كثير متواتر معنى، فمنه ما رواه في البصائر بسنده عن أبي جعفر عليه السلام قال (إن لله علما عاما وعلما خاصا فأما الخاص فالذي لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل و أما علمه العام الذي اطلعت عليه الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين قد رفع ذلك كله إلينا) الحديث.

أقول: هذا مما أشرتُ إليه بقولي فما من ذرّة في الأرض ولا في السماء إلخ ، ومرادي بقولي في الأرض الظاهرة والأرض الباطنة ليشمل ما في الوجود الكوني بأجمعه فإنه ليس في الوجود الكوني ذرّة ولا دُرة إلاّ وقد وكل الله بها ملائكة في جميع ما لها وعليها وأعطاهم علم جميع جهات التصرف فيها وكلوا به وكذلك الأنبياء عليهم السلام فيما أرسلوا به إلى أممهم في جميع ما يراد منهم، وأخبر الباقر عليه السلام أن جميع ذلك وقع إلينا، وفيه بسنده عن ضريس عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول (إِنَّ لله عَزَّ وَجَل عِلمَيْنِ عِلمٌ مَبْذُولٌ وَعِلمٌ مَكْفُوفٌ فَأَمَّا المَبْذُولُ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ تَعْلمُهُ المَلائِكَةُ وَالرُّسُلُ إلا نَحْنُ نَعْلمُهُ وَأَمَّ المَكْفُوفُ فَهُوَ الذِي عِنْدَ الله عَزَّ وَجَل فِي أُمِّ الكِتَابِ إِذَا خَرَجَ نَفَذَ) هـ.

أقول معنى نفذ أي لا مردَّ له بخلاف العلم الأوّلي والظاهر أنّ المراد بالأوّل الذي هو المبذول هو صورة المعلوم كالصورة التي تكون في خيالك الّتي انتزعها الخيال من كون زيدٍ قائماً إمّا لأنّك شاهدتَهُ قائماً في آنٍ أو أخبرت بقيامه في ذلك الآن مثلا، فإنه بعد ذلك الآن يجوز أن يتغيّر فلو أخبرتَ بقيامه بعد ذلك الوقت ولم يكن زيد حاضراً عندك جاز فيه التغيّر والتبدّل والبقاء.

وأما العلم الثاني الذي هو المكفوف فهو نفسُ قيام زيد لا صورته المنتزعة الخياليّة بل هو العلم الحضوري ومعنى كونه مكفوفاً هو أنه موجود حين هو موجود وذلك في زمان وجوده ومكان حدوده وحيث لم يكن عنده سبحانه مُضُي ولا استقبال ولا امتداد فما يكون عندنا كان عنده ففي حال كونه مستقبلاً عندنا إذا أُخْبِرنا به حصل لنا صورته المنتزعة وهو لم يحصل عندنا فيجوز في الصورة التغيّر والتبدل والبقاء، وهذا المستقبل عندنا هو عنده تعالى حاصل

بنفسه في مكان حدوده وزمان وجوده حاضراً لا مستقبلاً كما عندنا فإذا خرج أي كان عندنا حاضرا بنفسه في زمان وجوده ومكان حدوده نَفَذَ أي لم يمكن تغيّره وتبدّله يعني أنه كان فلا يمكن حين كان أنه ما كان فهو يعلم الشيء بنفس الشيء لا بصورته لا غير ويعلم صورته بنفسها في الثلاث الصفحات كلاًّ بما هي عليه صفحة ما لا يجري في كونه البداء بعد كونه، وصفحة ما يجري في كونه البداء وصفحة ما لا يجري في كونه البداء بعد كونه ويجري البداء في بقائه وثباته وفي فنائه وتبدّله وتغيّره فهذه الثلاث الصفحات من اللوح المحفوظ فالأولى منها جفّ فيها القلم وهو رطب في الثانية والثالثة يجري فيهما بمشيّة الله سبحانه والأولى لا تتعلّق المشيّة بشيء مما فيها إلاّ كما هو فيها فقد ختم فيها على فم القلم فلا ينطق أبداً وذلك لأن جميع ما في المرتبة الأولى ليس في شيء من الإمكان إلاّ كما هو لا غير.

وفيه بسنده عن سدير قال سمعتُ حمران بن أعين يسأل أبا جعفر عليه السلام (عن قول الله تبارك وتعالى بَدِيعُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ قال أبو جعفر عليه السلام إن الله ابتدع الأشياء كلها على غير مثال كان وابتدع السماوات والأرض ولم يكن قبلهن سماوات ولا أرضون أ ما تسمع لقوله تعالى وكانَ عَرْشُهُ عَلى الماءِ فقال له حمران بن أعين أ رأيت قوله عالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً فقال له أبو جعفر عليه السلام إِلا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلفِهِ رَصَداً وكان والله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ممن ارتضاه و أما قوله عالِمُ الغَيْبِ فإن الله تبارك وتعالى عالم بما غاب عن خلقه بما يقدر من شيء ويقضيه في علمه فذلك يا حمران علم موقوف عنده إليه فيه المشية فيقضيه إذا أراد ويبدو له فيه فلا يمضيه فأما العلم الذي يقدره الله ويقضيه ويمضيه فهو العلم الذي انتهى إلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم إلينا).

ومنه بسنده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال (إن لله علمين علم لا يعلمه إلا هو وعلم علمه ملائكته ورسله فما علمه ملائكته ورسله فنحن نعلمه).

وفيه بسنده إلى إبراهيم بن عبد الحميد عن أبيه عن أبي الحسن الأول عليه السلام (قال قلت له جعلت فداك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورث علم النبيين كلهم قال لي نعم قلت من لدن آدم إلى أن انتهى إلى نفسه قال نعم ورثهم النبوة وما كان في آبائهم من النبوة والعلم قال ما بعث الله نبيا إلا وقد كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم أعلم منه قال قلت إن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يحيي الموتى بإذن الله قال صدقت وسليمان بن داود كان يفهم كلام الطير قال وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقدر على هذه المنازل فقال إن سليمان بن داود قال لهدهد حين فقده وشك في أمره مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ وكانت المردة والريح والنمل والإنس والجن والشياطين له طائعين وغضب عليه فقال لأُعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطانٍ مُبِينٍ وإنما غضب عليه لأنه كان يدله على الماء فهذا وهو طير قد أعطي ما لم يعط سليمان وإنما أراده ليدله على الماء فهذا لم يعط سليمان و كانت المردة له طائعين ولم يكن يعرف الماء تحت الهواء وكانت الطير تعرفه إن الله يقول في كتابه وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى فقد ورثنا نحن هذا القرآن فعندنا ما نسيّر به الجبال ونقطع به البلدان ونحيي به الموتى بإذن الله ونحن نعرف ما تحت الهواء وإن كان في كتاب الله لآيات ما يراد بها أمر من الأمور التي أعطاها الله الماضين النبيين والمرسلين إلا وقد جعله الله ذلك كله لنا في أم الكتاب إن الله تبارك وتعالى يقول وَما مِنْ غائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالأَرْضِ إِلا فِي كِتابٍ مُبِينٍ) الحديث.

وبالجملة ما ورد عنهم عليهم السلام مما هو صريح في أن جميع ما وصل إلى الملائكة

والأنبياء المرسلين بل وجميع الخلق من العلوم بكل نوع فهو عندهم كثير لا يكاد يمكن حصره، فعلى ما سمعتَ ممّا ذكرنا من الأحاديث قد يتوهّم أنّ جميع ما عندهم هو جميع ما عند الملائكة والرسل والأنبياء فهم مساوون لهم وليس كذلك، وإنّما ذلك أنّ الأنبياء والمرسلين والملائكة منذ خلقوا وكلّفوا بما يراد منهم من تدبير أنفسهم وتدبير مَن دونهم مما وُكِّلوا به وأن الله سبحانه بعظيم فضله وجزيل منّه ولطيف صنعه وسابغ إحسانه أنهى إليهم علم ذلك كله وما يتوقف ما يراد منهم عليه من علم وعمل وقد انتهى ذلك كله إلى محمد وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم وكان الله سبحانه قد خلق محمداً وآله ﷺ قبل خلق أولئك كلهم بألف دهر فبقوا في حجب الغيوب يسبّحون الله ويحمدونه ويهللونه ويكبّرونه يطوفون حول حجب الأسرار قائمين بأحكام الأقدار ولم يكن خلق معهم لا أرض ولا سماء ولا هواء ولا ماء ولا إنس ولا جان، وقد أعطاهم الله الجواد المتفضّل من علوم تلك المقامات والمراتب ما انتظم به ذلك الوجود ولذلك عرف بآياته المعبود سبحانه كما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته حيث قال (لم تكن الدعائم من أطراف الأكناف ولا مِن أعمدة فساطيط السجاف إلاّ على كواهل أنوارنا ونحن العمل ومحبتنا الثواب وولايتنا فصل الخطاب ونحن حجبة الحجاب) الخ، وجميع ما وصل إلى الملائكة والأنبياء والمرسلين ومن دونهم من الخلائق من العلوم في العلوم التي وصلت إليهم من الله سبحانه وخصّهم بها ولم يطلع عليها أحداً غيرهم كالقطرة في البحر الخضمّ الّذي لا ساحل له، ويؤيده ما في كتاب المحتضر للحسن بن سليمان بسنده قال (وجد في ذخيرة أحد حواري المسيح عليه السلام رِقٌّ مكتوب بالقلم السرياني منقولا من

التوراة وذلك لما تشاجر موسى والخضر عليهما السلام في قضية السفينة والغلام والجدار ورجع موسى إلى قومه سأله أخوه هارون عما استعمله من الخضر عليه السلام في السفينة وشاهده من عجائب البحر قال بينما أنا والخضر على شاطئ البحر إذ سقط بين أيدينا طائر أخذ في منقاره قطرة من ماء البحر ورمى بها نحو المشرق ثم أخذ ثانية ورمى بها نحو المغرب ثم أخذ ثالثة ورمى بها نحو السماء ثم أخذ رابعة ورمى بها نحو الأرض ثم أخذ خامسة وألقاها في البحر فبهت الخضر وأنا قال موسى فسألت الخضر عن ذلك فلم يجب وإذا نحن بصياد يصطاد فنظر إلينا وقال ما لي أراكما في فكر وتعجب فقلنا في أمر الطائر فقال أنا رجل صياد وقد علمت إشارته وأنتما نبيان لا تعلمان قلنا ما نعلم إلا ما علمنا الله عز و جل قال هذا طائر في البحر يسمى مسلم لأنه إذا صاح يقول في صياحه مسلم وأشار بذلك إلى أنه يأتي في آخر الزمان نبي يكون علم أهل المشرق والمغرب وأهل السماء والأرض عند علمه مثل هذه القطرة الملقاة في البحر ويرث علمه ابن عمه ووصيه فسكن ما كنا فيه من المشاجرة واستقل كل واحد منا علمه بعد أن كنا به معجبين ومشينا ثم غاب الصياد عنا فعلمنا أنه ملك بعثه الله عز وجل إلينا يعرفنا بنقصنا حيث ادعينا الكمال) هـ.

وفي بصائر الدرجات بإسناده إلى أبي جعفر عليه السلام قال (لما لقي موسى عليه السلام العالم كلمه وساءله نظر إلى خطاف يصفر ويرتفع في السماء ويتسفل في البحر فقال العالم لموسى أ تدري ما يقول هذا الخطاف قال وما يقول قال يقول ورب السماء ورب الأرض ما علمكما في علم ربكما إلا مثل ما أخذت بمنقاري من هذا البحر قال فقال أبو جعفر عليه السلام أما لو كنت عندهما لسألتهما عن مسألة لا يكون عندهما فيها علم).

وفيه عن أبي عبدالله عليه السلام وهو في الحِجر فقال (ورب هذه البنية ورب هذه الكعبة ثلاث مرات إني لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما) هـ.

وفي بعض روايات الحديث الأول وأخذ قطرة فرمى بها نحو الشمال وأخرى نحو الجنوب أو كما قال أو كمعناه وكلامهم عليهم السلام وأدعيتهم وخطبهم وأحاديثهم صريحة في هذا المعنى وإنّما قال عليه السلام وعندكم ما نزلت به رسله وهبطت به ملائكته على ما هو الشأن الأعلى عند العوامّ.

قال عليه السلام (وإلى جدّكم بُعِثَ الرُّوح الأمين) وإن كانت الزّيارة لأمير المؤمنين عليه السلام فقل (وإلى أخيك بُعِثَ الرُّوح الأمين)

أقول: المراد بالروح الأمين جبرائيل عليه السلام من قوله تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ) وقال علي بن الحسين عليه السلام في دعائه لحملة العرش والملائكة المقربين من الصحيفة (وَجِبْرِيلُ الأَمِينُ عَلى وَحْيِكَ الْمُطَاعُ فِي أَهْلِ سَمَاوَاتِكَ) إشارة إلى قوله تعالى (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) أمّا أنه الرُّوحُ فلأنّه مجرّدٌ عن المادّة العنصريّة والمدّة الزمانيّة وليس المراد بالمجرّد المتّصف بالغنى المطلق المستغني عن كل شيء حتّى أنه لا يحتاج في تَقَوّمِه إلى مادّةٍ ولا صورةٍ ولا وقتٍ كما توهمه بعض، فقال من قال بالتجرّد في شيء من الخلق فهو كافر، كما ذكره صاحب البحار وغيره وأنكروا هذا المعنى بالكلية وادعوا أنه لم يرد في أخبار أهل العصمة عليهم السلام ما يوهم ذلك فضلاً عمّا يدل عليه، وليس الأمر كما توهموا ولا كما ادّعوا ولا كما أنكروا من

ورود شيء في ذلك بل الحق كما بيّنّاه سابقاً، وهو أنّ مُراد القائلين بالتجرّد أنّ المجرّد كالعقول والنفوس والأرواح والملائكة الموكّلين بها هنالك يراد منه أنّه مجرّد عن العناصر الأربعة والزمان لا أنه ليس له مادة بل له مادةٌ نورانيّة من نوع ما نسب إليه فإن كان ما نسب إليه عقلاً فعقلانية وإن كان روحاً فروحانيّة وإن كان نفساً فنفسانيّة وإن كان طبيعة فطبيعية أو مادةً مجرّدة أي هيولى فهيولانية أو شبحاً فمثاليّة وله وقتٌ وهو الدهر الذي هو وعاء المجرّدات كيف يكون مخلوق ولا مادّة له بل لا بد له من مادة إلا أن من المخلوقات ما خلق من مادة مخترعة لم تكن قبله شيئاً ومنها ما خلق مادته من ذي المادة المخترعة هذا في الجواهر.

وأمّا في الأعراض فكذلك إلاّ أنّ مادة كلّ شيء بحسبه فمادة الجوهر إما مادة جوهرية مخترعة -جل البديع وتعالى علواً كبيراً- وإما مادة عرضية خلقت من هيئة معروضها فإن العرض خلق من هيئة الجوهر التي هي ماهيته وقابليته وماهيته وقابليته هي انفعال المادة عند فعل الفاعل فلا يكون شيء إلا وله مادة وصورة ووقت ومكان إلا الواحد الحق تعالى فإن وقته ذاته ومادته عين ذاته وعين صورته أي كينونته ومكانه عين ذاته فلا مكان له ولا وقت ولا مادة ولا صورة بكل اعتبار فلا مغايرة فيه ولا كثرة لا في الفرض ولا في الاعتبار ولا في التقدير لأن كل هذه من الممكنات ولا إمكان فيه تعالى إذ لا يجري عليه ما هو أجراه.

فإذا قلنا أن النفوس والعقول والملائكة مجردات فنريد بها هذا المعنى ولهذا نحنُ نعتقد أن النفس مجردة وأنّها جسمٌ لطيف وكذلك جميع الملائكة، نعم لنا عبارات نستعملها في محلّها لا في غيرها، فنقول الملائكة العقلانية والعقول جواهر مجرّدة والملائكة النفسانية والنفوس أجسام لطيفة والكلّ عندنا مجرّد يعني عن المدة الزمانية والمادّة العنصريّة لا مطلقاً.

وقولهم إنّ التجرد المدّعى لغير الله تعالى لم يوجد في الأخبار غفلة عن الأخبار كيف وقد ذكرنا سابقاً معنى ذلك في رواية كميل عن علي عليه السلام حين سأله الأعرابي فقال وما النفس اللاهوتية الملكوتيّة فقال (قوّة لاهوتيّة وجوهرة بسيطة حيّةٌ بالذاتِ أصلها العقل منه بدئت وعنه وعت وإليه دلّت وأشارَتْ وعودُها إليه إذا كملت وشابهته ومنها بدِئت الموجودات وإليها تعود) الحديث.

فقوله عليه السلام (قوة لاهوتيّة ..الخ) صريح في التجرّد بل أعظم مما نريد من التجرّد وكذا ما رواه صاحب الغرر والدرر من قول علي عليه السلام وقد (وسئل عن العالم العلوي فقال عليه السلام صور عارية عن المواد عالية عن القوة والاستعداد تجلى لها فأشرقت وطالعها فتلألأت وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله) الحديث، وهذا أصرح من الأول في ما ندّعيه وقد تقدم وغير ذلك فإنكاره ليس بصحيح.

وقوله عليه السلام (الأمين) يعني به الأمين على وحي الله في جميع ما أوحى إليه بأن يُؤَدّيه إلى الأنبياء والرسل وفي الأفاعيل التي وُكّل بها وما يترتب عليها من الأحكام ممّا في حيطة التسعين الاسم من الأسماء المتعلقة بربع الوجود وهو ركن الإيجاد في العوالم الثلاثة ثلاثون اسماً لعالم الجبروت في جميع ما يتعلق بإيجاد العقول وثلاثون اسماً لعالم الملكوت في جميع ما يتعلق بإيجاد النفوس.

وأما الأرواح فبرزخ بين العقول والنفوس وثلاثون اسماً لعالم الملك في جميع ما يتعلق بعالم الملك بإيجاد الأجسام.

وأمّا أن جبرائيل عليه السلام مطاعٌ ثمَّ فما قاله زين العابدين عليه السلام (الْمُطَاعُ فِي أَهْلِ سَمَاوَاتِكَ) وإنّما كان مُطاعاً في ملائكة السماوات لأَنَّهُ صاحِبُ الإيجاد وصاحِبُ الوحي والتبليغ إلى الرسلِ وغيرهم وأمين الله على وَحْيه فأمره فيهم من وحي الله وفعلِ الله فلو لم يمتثلوا أمرَهُ استحقّوا العقوبة من الله تعالى.

وفي حديث العيون في المعراج عنه ﷺ حين وصل إلى خازن النار مالك في سماء الدنيا لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها قال ﷺ (فقلت لجبرائيل وجبرائيل بالمكان الذي وصفه الله (مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) أ لا تأمره أن يريني النار فقال له جبرئيل يا مالك أرِ محمدا النار فكشف عنها غطاءها وفتح بابا منها، فخرج منها لهب ساطع في السماء وفارت وارتفعت فارتعدت حتى ظننت ليتناولني مما رأيت، فقلت له يا جبرئيل قل له فليرد عليها غطاءها فأمرها)، وفيه (ثم صعدنا إلى السماء الرابعة) إلى أن قال (ثم رأيت ملكا جالسا على سرير تحت يديه سبعون ألف ملك تحت كل ملك سبعون ألف ملك فوقع في نفس رسول الله ﷺ أنه هو فصاح به جبرائيل عليه السلام فقال قم فهو قائم إلى يوم القيامة) الحديث.

فانظر كيف تمتثل الملائكة أمر جبرائيل عليه السلام لأنه مطاع فيهم لكونه القائم بركن الإيجاد بالتسعين الاسم كما ذكرنا سابقاً وصاحب الوحي والتبليغ وصاحب الكسوف والخسوف والزّلازل والصيحات والصواعق.

وأمّا قوله عليه السلام (فوقع في نفس رسول الله ﷺ) أنّه هو فالظاهر والله سبحانه أعلم أن المراد أنّه وقع في نفسه أنّه روح القدس لِما رأى من جلالته وكثرة جنوده فأبان له جبرائيل عليه السلام أنه خادمٌ يمتثل أمر جبرائيل عليه السلام الذي هو خادم للروح فأمره بالقيام المشعر بالخدمة.

وقول زين العابدين عليه السلام (المَكِينُ لدَيْكَ ، المُقَرَّبُ عِنْدَكَ) أشار به إلى قوله تعالى (ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِينٍ) وإنّما خصّ كونه مكيناً عند ذي العرش دون سائر الصفات لأنّ العرش هو المظهر الجامع للرحمة الواسعة، وكان العرش ينقسم إلى أربعة أركانٍ ركن أحمر احمرّت منه الحمرة وفيه مائة وخمسون ألف ركن

يحمل كل ركن منها ستّمائة ألف ملك ومائة وخمسون ملكاً، وهذا ركن الخلق من قوله تعالى (خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) ومنهم المتلقّي عنه والقائم بجهات هذه الملائكة الحاملين له جبرائيل عليه السلام ويعينه إسرافيل بنصف قوّته وعزرائيل بنصف قوّته وركن أخضر اخضرّت منه الخضرة وفيه مائة وخمسون ألف ركن يحمل كل ركن منها ستّمائة ألف ملك ومائة وخمسون ملكاً، وهذا ركنُ الممات ومنهم المتلقّي عنه والقائم بجهات هذه الملائكة الحاملين له عزرائيل عليه السلام ويعينه جبرائيل بنصف قوته وميكائيل بنصف قوّته وركن أصفر اصفرّت منه الصفرة وفيه مائة وخمسون ألف ركن يحمل كل ركنٍ منها ستّمائة ألف ملك ومائة وخمسون ملكاً وهذا ركن الحياة ومنهم المتلقي عنه والقائم بجهات هذه الملائكة الحاملين له إسرافيل عليه السلام ويعينه جبرائيل بنصف قوته وميكائيل بنصف قوته وركن أبيض ابيّض منه البياض ومنه ضوء النهار وفيه مائة وخمسون ألف ركن يحمل كلّ ركن منها ستمائة ألف ملكٍ ومائة وخمسون ملكاً وهذا ركن الرزق ومنهم المتلقي عنه والقائم بجهات هذه الملائكة الحاملين له ميكائيل عليه السلام ويعينه إسرافيل بنصف قوته وعزرائيل بنصف قوته وكلّ واحد من هؤلاء الملائكة الأربعة الحاملين للعرش يعني المتلقّين عن أركانه يحمل ما حُمِّل منه بثلاثة أحرف من الاسم الأعظم وهي بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم وصلّى الله على محمّد وآله الطيّبين.

ومعنى قولي في كلّ واحدٍ يتلقى عن ركنٍ أن المراد بالأركان أربعة ملائكة وهم العالون الذين لم يسجدوا لآدم لأنّ السجود إنّما هو لأجل ظهور أنوارهم في صلب آدم عليه السلام وهو الروح من أمر الله ويطلق على ملكين أحدهما الأبيض

وهو المعبّر عنه بالقلم وبالعقل الكلي وهو عقل محمد ﷺ وثانيهما الأصفر وهو المعبر عنه بالروح في قوله ﷺ (أوّل ما خلق الله روحي) وأشار علي بن الحسين عليه السلام إليهما معاً بقوله (والروح الّذي هو من أمرك) فإنه يطلق عليهما فأشار بهذا إلى ركنين وأشار إلى الركنين الآخرين بقوله (والروح الّذي هو على ملائكة الحجب) فإنه يطلق على الأخضر والأحمر، والمراد بملائكة الحجب الكروبيون وهم شيعة علي وأهل بيته عليهم السلام من الخلق الأوّل أي من عالم الغيب جعلهم الله خلف العرش وهذه الأربعة هم أركان العرش وهم الأنوار الأربعة ويعبّر عن الأخضر باللوح وقد أشار الصادق عليه السلام إليهما معاً، كما رواه في المعاني في معنى (ن وَالقَلمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) قال عليه السلام (وأما نون فهو نهر في الجنة قال الله عز وجل اجمد فجمدَ فصار مدادا ثم قال عز وجل للقلم اكتب فسطر القلم في اللوح المحفوظ ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فالمداد مداد من نور والقلم قلم من نور واللوح لوح من نور قال سفيان فقلت له يا ابن رسول الله ﷺ بيّن لي أمر اللوح والقلم والمداد فضل بيان وعلمني مما علمك الله فقال يا ابن سعيد لو لا أنك أهل للجواب ما أجبتك فنون ملك يؤدي إلى القلم وهو ملك والقلم يؤدي إلى اللوح وهو ملك واللوح يؤدي إلى إسرافيل وإسرافيل يؤدي إلى ميكائيل وميكائيل يؤدي إلى جبرائيل وجبرائيل يؤدي إلى الأنبياء والرسل قال ثم قال لي قم يا سفيان فلا آمن عليك) هـ.

والحاصل الأربعة الملائكة المذكورة المشار إليها هي الأنوار الأربعة التي هي أركان العرش في حديث عليّ بن الحسين عليه السلام (وإسرافيل وميكائيل وجبرائيل وعزرائيل هم حملة العرش يعني المتلقّين عن الأربعة الأول الّذين هم العالُون).

وروي في البحار من الاختصاص عن ابن عباس في حديث طويل في مسائل عبدالله بن سلام فأخبرني عن جبرائيل في زي الإناث أم في زي الذكور قال ﷺ في زي الذكور ليس في زي الإناث قال فأخبرني ما طعامه وشرابه قال طعامه التسبيح وشرابه التهليل قال صدقت يا محمد قال فأخبرني ما طول جبرائيل قال إنه على قدر بين الملائكة ليس بالطويل العالي و لا بالقصير المتداني له ثمانون ذؤابة وقصة جعدة وهلال بين عينيه أغر أدعج محجل ضوؤه بين الملائكة كضوء النهار عند ظلمة الليل له أربع وعشرون جناحا خضرا مشبكة بالدر والياقوت مُخَتَمَةٌ باللؤلؤ وعليه وشاح بطانته الرحمة أزراره الكرامة ظهارته الوقار ريشه الزعفران واضح الجبين أقنى الأنف سائل الخدين مدور الجبين حسن القامة لا يأكل ولا يشرب ولا يمل ولا يسهو قائم بوحي الله إليه إلى يوم القيامة قال صدقت يا محمد) والحديث طويل.

أقول: وروي أن له ستّمائة جناح كل جناح ما بين المشرق والمغرب، وروي أنه ينغمس كل يوم في عين الحيوان فينتفِض فيخلق الله عز وجل من كل قطرة ملكاً من ذهب فتطير تلك الملائكة وتقع على سدرة المنتهى فتكون صفراء وهو قوله تعالى (إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى) ولعل الجمع بينهما أن المراد بكل جناح من الأربع وعشرين جناح نَوْعيّة هي خمسة وعشرون جناحاً شخْصيّةً والله أعلم.

والروحِ الأمين بقرينة بعث الظاهر أن المراد منه جبرائيل عليه السلام ويكون المراد منه في الآية إيّاه وإلاّ فيحتمل أن يكون هو الروح الّذي هو من العالين لأنه لم ينزل قبل محمد ﷺ إلى أحدٍ قطّ ومنذ نزل لم يصعد قطّ ويكونُ الثناء ببعثهِ إلى جدهم أبلغ بخلاف جبرائيل عليه السلام فإنه نزل على جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام ويصعد وينزل.

فإن قلت: إنّ قول الزائر إنما هو في مقام الثناء عَليهم عليهم السلام لا في مقام الثناء على جدّهم صلى الله عليه وآله وسلم فذكر الثناء على جدّهم صلى الله عليه وآله وسلم إمّا لأنه لا ينزل الروح الأمين إليهم وهذا مخالف لما دلّت عليه الأحاديث المتكثرة من أنه ينزل إليهم ويخدمهم وإنّما انكسرت الملائكة عنه حين فاخرُوه لأنّه افتخر بخدمتهم وهذا معلوم وكثيراً ما ينزل في حجراتهم ويطأ فُرشهم مع الملائكة الكروبيّين.

وأمّا أنه ينزل ولكن لا فخر لهم في نزوله عليهم وإنّما الفخر في نزوله على جدهم ويلزم أنهم أفضل من جدهم صلى الله عليه وآله وسلم ولا شك أنهم عليهم السلام إنما شُرِّفوا بجدّهم صلى الله عليه وآله وسلم.

قلتُ: إنّ قول الزائر إنّما هو في مقام الثناء عليهم بنزول الروح الأمين على جدهم صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان ينزل إليهم ولكنه إنّما ينزل إليهم للخدمة أوْ لبيان ما أُبهم فيما أنزل على جدهم صلى الله عليه وآله وسلم أو وُقِّتَ أو شُرِطَ أو حَانَ وقته وكلّها تفريع وبيان لما نزل على جدّهم صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينزل عليهم بوحيٍ مؤسِس لأن الوحي قد انقطع بموت محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا قال جبرائيل عليه السلام حين حضرت جدهم صلى الله عليه وآله وسلم الوفاة هـذا آخِرُ نزولي إلى الدنيا فالآن أصعَدُ ولا أنزل أبداً يعني لا أنزل بوحي مؤسّسٍ لأن ذلك انقطع بموت خاتم النبوّة صلى الله عليه وآله وسلم وإن كان ينزل ببيانِ مبهم وحضور مؤجّل وحتم مشروط وغير ذلك، ومن ثم قال (وإلى جدّكم بُعِثَ الروح الأمين) ولم يقل نزل وإن كان يستعمل في المعنى المراد من بعث إلاّ أن ذكر بعث قرينة الوحي المؤسِّس مأخوذ من بعث بمعنى أرسل الظاهر في الرسالة والنبوّة لأن أصله من بعث من ماتَ لأن النبوّة والرسالة تحمى ميِّتَ القلوب والدّين ونزول الملك بالوحي المؤسّس أفضل من نزوله بالوحي المبيّن لأن هذا تابع ولم ينزل بالمؤسس إلاّ على جدهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو فخرهم وشرفهُمْ وبه شرِّفوا فصحّ قصدُ الثّناء عليهم بما هو ثناء على جدّهم صلى الله عليه وآله وسلم.

فإن قلت: إنّما يصحّ الثناء على جدّهم ﷺ صوت إذا كان جبرائيلُ أفضل له ليكون بعثه إليه شرفاً في حقّه وأمّا على العكس فلا يكون ثناءً.

قلتُ: إنّما كان الثناء ببعث جبرائيل لكونه بَعْثاً بالوحي والقرآن لا من جهة خصوص بعث جبرائيل عليه السلام وقد قال تعالى (وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتابُ وَلاَ الإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا) الآية، وقال تعالى في القرآن (وَإِنَّهُ لذِكْرٌ لكَ وَلِقَوْمِكَ) أو أي وأنّه لشَرفٌ لك.

فإن قلت: تفصَّيْتَ من إشكالٍ ووقعتَ في مثله وأشكل فإنّ المعروف أن محمّداً وآله ﷺ أفضل من جميع ما خلق الله فإن جعلت القرآن قديماً كما هو مذهب الأشاعرة فلا إشكال ولكنه مخالف لما عليه الفرقة المحقّة ودلّ عليه الدليل القطعي العقلي والنقلي على حدوثه وإذا قلنا بحدوثه كان ﷺ أفضل من القُرآن وكذلك آله عليهم السلام ويعود الإشكال.

قلتُ: قد دلّ الدليل العقلي والنقلي على أن محمّداً وآله ﷺ أفضل من القرآن مثل قول علي عليه السلام (أنا كتاب الله الناطق وهذا كتاب الله الصامت) ومثل قولهم عليهم السلام على اختلاف عباراتهم في هذا المعنى وهو (اجعلوا لنا ربّاً نؤبُ إليه وقولوا فينا ما شِئتم ولنْ تبلغوا) الحديث.

وقولنا أنّهم أفضل من القرآن لا ينافي كونهم مربوبين وإنّ لهم ربّاً يؤبُونَ إليه في كل شيء.

وأمّا كون القرآن الثقل الأكبر وهم الثقل الأصغر فالمراد أن القرآن هو عقلهم وقرين عقله وذلك في قوله تعالى (وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتابُ وَلاَ الإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلناهُ نُوراً) الآية.

فإن المراد بالروح من أمر الله هو العقل الكلّي المذكور سابقاً وهو عقله ﷺ في قوله ﷺ (أول ما خلق الله العقل) وقول الصادق عليه السلام (وَهُوَ أَوَّلُ خَلقٍ مِنَ الرُّوحَانِيِّينَ عَنْ يَمِينِ العَرْشِ) وقوله ﷺ (أول ما خلق الله القلم) (أول ما خلق الله نوري) (أول ما خلق الله روحي) (أوّل ما خلق الله عقلي)، (أوّل ما خلق الله نور نبيك يا جابر) (أوّل ما خلق الله الماء) على اختلاف الروايات من الفريقين واتفاقهم على أن المراد بها شيء واحد وضمير جعلناه نوراً يعود إلى القرآن ولم يتقدم له ذكر، وإنّما ذكر الروح من أمرنا وهو الملك والإشارة إلى بيان المقام على جهة الاقتصار أن القلم والعقل وما أشبه ذلك من المذكورات يراد منها عقله ﷺ والعقل هو وجْهُ الفؤاد والوجود والحقيقة والذات والعقل وزيره أيضاً وهو مِرآةُ الحقيقة اليمنى ووجهها وهذه الحقيقة المحمديّة هي محل المشيّة وزيتها وبعد تعلّق نار المشيّة بالزيت وجد السراج والمصباح وهو هذا العقل، ولا ريب أن الحقيقة أشرف من العقل ولمّا أوجدَ الله سبحانه ذلك المصباح من نور تلك الحقيقة المحمدية التي هي الشجرة المباركة التي اعتُصِرَ منها الزيت وأخرج منها النار افترق ذلك المخلوق منها الذي هو المصباح إلى لفظ ومعنى متساوقين أحدهما مبني على صاحبه، فالمعنى عقلهم واللفظ قرآنهم فعقلهم قرآن وقرآنهم عقل فلمّا تنزّل إلى عالم الشهادة كان الإمام عليه السلام شريك القرآن فإن قسمتَ هذا الحجة الظاهرة إلى عقل وجسم كان العقل الذي هو القرآن كما اتّحدا في الآية المتقدّمة فإنهم الثقل الأكبر والجسم الحامل للقرآن الثقل الأصغر فالعقل أكبر من الجسم وأفضل والعاقل أكبر من العقل وأفضل فمن حيث أن القرآن عقلهم وقسيم عقلهم وأن جميع علومهم مستندة إليه، وأن هذا هو المعروف بين عامة

المكلّفين والمخاطبين وأنّهم لو قيل علمهم من غير القرآن مثلاً لأنكرهم الرعيّة وكذّبوهم واتّهموهم ولما ركنوا إلى قولهم ولا اطمئنّوا بالإتمام بهم والأخذ عنهم فمن حيث ذلك كله وما أشبهه حَسُنَ أن يقال هو الثقل الأكبر مع أنه بالنسبة إلى أجسامهم عند الانقسام كذلك ومن حيث أنهم الكتاب الناطق والعاقلون فهم مجموع القسمين أكبر وأفضل مع أن الحقيقة الجامعة للكل حقيقتهم وأنّ العقل والقرآن نور تلك الحقيقة وصفتها وفرعها فهم أفضل وأكبر، ولكن لمّا كان ما أخبروا به من العلوم وما أضمروا مستنداً إلى القرآن وإلى الوحي صحّ كون نسبته إليهم ثناء عليهم وفخراً لهم ولا منافاة، كما أن الشخص جميع ما عنده من العلوم تنسب إلى عقله ومنه صدرت ويصح الثناء عليه بها بل يصح الفخر والثناء للمرء بعبيده وخيله وأعماله وأفعاله وهو أكبر وأفضل منها وتمدح الشجرة ويبدو حسنها بورقها الذي يستمدّ منها ويفتقر إليها وقد أشار ﷺ إلى ذلك بقوله ﷺ (تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم الماضية والقرون السالفة يوم القيامة ولو بالسقط)، واعلم أني أجملت الأمر فإن أشكل عليك شيء فتدبر كلامي لأني اقتصرت خوفا من الإطالة والمقام مقام دقيق ولكن إذا فهمت المراد فقد شربت شربتاً لن تظمأ بعدها أبدا.

فإن قلت: بقي شيء وهو أنه قد تقدم فيما ذكرت ورويت أن الأربعة العالين أشرف الملائكة وأفضلها وفي حديث سفيان المتقدم أن القلم وهو ملك يؤدي إلى اللوح وهو ملك وهو يؤدي إلى إسرافيل وهو يؤدي إلى ميكائيل وهو يؤدي إلى جبريل وحيث علم بالحديث المذكور وغيره وبالدليل العقلي أن السابق المؤدي أفضل من اللاحق المؤدى إليه وهذا ظاهر، ومعنى هذا أن يكون القلم أفضل من

اللوح وهو أفضل من إسرافيل وهو أفضل من ميكائيل وهو أفضل من جبرائيل وجبرائيل أفضل من محمد ﷺ وقد علم وأنت ذكرت أيضا أن جبرائيل خادم لهم بل قد روي أن رجل من شيعتهم وهو سلمان أفضل من جبرائيل كما رواه في الاحتجاج وإذا كان كذلك كيف يكون واسطة بينه وبين الله سبحانه فإن ذلك يقتضي أن يكون جبرائيل أفضل.

قلت: لا إشكال في كونهم أفضل خلق الله وإن ما ثبت فضل لأحد من خلق الله من فاضل فضلهم ولامتثاله لأمرهم وقيامه بواجب حقهم لا فرق في ذلك بين الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين ولا بين سائر الحيوانات والنباتات والجمادات ولا بين الذوات والصفات وإنما تفاضلت المخلوقات في الفضل لتفاضلها في القرب منهم والقيام بولايتهم، لكن لما كانوا علة الموجودات كما تقدم مكررا كان كل شيء إذا نسب إليهم كجزء من نور الشمس إذا نسب إليها وكالجزء من الشعاع إذا نسب إلى السراج وكالصورة في المرآة إذا نسبت إلى الشاخص وكالصوت إذا نسب إلى الصائت وكالأثر إذا نسب إلى المؤثر فجميع الموجودات بنحو هذه النسب إليهم صلى الله عليهم والشيء قد يتوسط بعض آثاره وصفاته وأفعاله وقواه بينه وبين مطلبه وجبريل عليه السلام من حقيقة محمد ﷺ شأن من شؤونه وشعاع من نوره فهو في الحقيقة يأخذ من حقيقة محمد ﷺ بل منْ عقله لأنّ جبرائيل منه كالشَأْن وكالخطْرة الّتي ترد عليك فإنّك قد تنسى الشيء ثم قد تسأل عنه فتقول لا أدري ثم قد تذكره فتقول جاء على بالي كذا أو تقول خطر على قلبي كذا فهذا الوارد الذي أتاك حتى ذكّرك ما نسيتَ فمِنْ أين أتَاكَ بما نسيته إنما أتاك من قلبك أو من فؤادك الذي هو وجودُك وحقيقتُك فقد أخذ

ذلك الواردُ الذي هو إلتفاتة من عقلك ما نسيتَهُ أَتَى به إلى خيالِك فتصوّرتَهُ، فقلتَ لمن سألك عن تلك المسألة التي نَسيتَها جاء على خاطري كذا فالذي أتاك به هو الوارد وهو إلتفاتة عقلك أخذ المسألة من قلبك فأتى بها إلى خيالك يعني أخذ منك وأتى به إليك فجبرائيل هو هذا الوارد أخذ من عقله وقلبه وأتى به أي بالوحي إليه والعقل والقلب واحد، ولكن إذا قلتَ أخذ من عقله تبادر إلى الملك الذي هو الملك من أمر الله والقلم وروح القدس والروح والعقل الكلّي والمراد واحد وإذا قلتَ أخذ من قلبه تبادر إلى العرش الذي هو عبارة عن أربعة أركان أحدها هذا الملك الذي هو العقل وهو أعلاها وأعظمها فقوله تعالى (ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن) معناه (الرَّحْمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى)وقوله (الرَّحْمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى) يعني ظهر بالولاية فأعطى كلّ ذي حق حقّه.

وروي أن النبي ﷺ قال (يا جبرائيل من أين تأخذ الوحي قال من ميكائيل قال وميكائيل من أين يأخذ الوحي قاب من إسرافيل قال وإسرافيل من أين يأخذ الوحي قال من ملك قال وذلك الملك من أين يأخذ الوحي قال يلهمه الله الوحي أو قال يقذف الله الوحي في قلبه)هـ ، نقلتُ الحديث بالمعنى وهذا كما سمعتَ فيما مرّ عليك في تفسير نون في رواية سفيان.

فإن قلتَ: فما معنى قوله في الحديث السّابق حديث المعراج في شأن النبي ﷺ فوقع في نفسه أنه هو وهذا ينافي العصمة وأنّ معه ملكاً يسدده.

قلتُ: يجري عليه ﷺ هذا ومثله إذا غاب عنه الملك المسدّد وكذلك الأئمة عليهم السلام ولكنه إذا غاب عنهم لا يغيب إلاّ بإذن الله تعالى ليقع منهم بعض مقتضى

البشريّة ليفرق بينهم وبين حال الربوبية الذي لا يشغله شأن عن شأن وهم يشغلهم شأن عن شأنٍ يعني إذا أقبلوا على شأنٍ وأرادوا الإقبال على شأنٍ آخر انتقلوا عن الأوّل إلى الآخر فيدركون الشأنين المتغايرين بإقبالين متعاقبين وإن لم يكن كَمٌّ زمَانيٌّ بَيْنَ الإقبالَيْن منهم كما بين الإقبالين منّا بل قد يكون كمّاً دهريّاً أو كمّاً سرمديّاً كما أشار تعالى إليه في قوله (ما جَعَل الله لِرَجُلٍ مِنْ قَلبَيْنِ في جَوْفِهِ) فإذا لم يكن له إلاّ قلبٌ واحد وجب له التنقل في الأمور المتغايرة المتباعدة ولا كذلك حكم الربوبيّة، وما أشار إليه ابن الجوزي لمن سأله وهو يخطب وقيل أن عليّ بن أبي طالب تقولون إنه لا يغفل عن الله طرفة عين خصوصاً في صلاته فكيف أشعر بالسائل حين تَصدّق بالخاتم فقال على الفور:

يسقي ويشرب لا تلهيه سكرته
عن النديم ولا يلهو عن الكاس
أطاعه سكره حتى تمكن من
فعل الصحاة فهذا واحد الناس

غير منافٍ لما قلنا لأنّه عليه السلام أشعر بالسائل لله وأعطاه لله تعالى وهذا من اللهِ إلى اللهِ كما لو ذكر الله في الصلاة أو صلّى على محمد وآله صلى الله عليه وآله وسلم فإنه لا ينافي الإقبال على الله ولا ينافي الصلاة ولا يعدّ أجنبيّاً منها منافياً ما لم يكن كثيراً مُخلاً بنظْمها أو بقراءتها أو الموظف فيها أوْ ماحياً لها على أن ما يقع منهم من هذا النحو لا يقع بما يتعلّق بشيءً من أمور الدين ولا يقع منهم منافي الدين وإنّما يقع ما يخصّهم ومع هذا كلّه فيقع بصنعٍ من الله سبحانه وتعالى فيهم لغرضٍ يكون فعله في الحكمة أرجح من تركه فإنّ الضرر الذي يدفع به الأضر نفع باعتبار ما يراد منه كالقطع

والكيّ طلباً للسلامة والعافية كيف لا يكون المعصوم كذلك والله سبحانه يقول (وَإِنَّكَ لعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ويقول (اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالتَهُ).

وقوله عليه السلام (وإن كانت الزيارة لأمير المؤمنين عليه السلام فقل (وإلى أخيك بُعِث الروح الأمين) يُشير فيه إلى أنّ علياّ هو أخو رسول الله ﷺ من حديث المواخاة وهو مشهور بين الفريقين ولم يرد أن رسول الله ﷺ جدٌّ لعلي عليه السلام في استعمال ما فلا يكون بينه وبين أهل بيته فرق، وإنّما لم يقل وإلى أبيك بُعِث الروح الأمين مع أنّه ورد في تسميته ﷺ أبا القاسم أن رسول الله ﷺ كان أباً لعليّ عليه السلام وكان حين وضعته أمّه فاطمة بنت أسد في جوف الكعبة وخرجت به (دخل عليها رسول الله ﷺ فلما دخل اهتز له أمير المؤمنين عليه السلام وضحك في وجهه وقال السلام عليك يا رسول الله ﷺ ورحمة الله وبركاته قال ثم تنحنح بإذن الله تعالى وقال (بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ) إلى آخر الآيات فقال رسول الله ﷺ قد أفلحوا بك وقرأ تمام الآيات إلى قوله (أُولئِكَ هُمُ الوارِثُونَ الذِينَ يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ) فقال رسول الله ﷺ أنت والله أميرهم أمير المؤمنين تميرهم من علومهم فيمتارون وأنت والله دليلهم وبك يهتدون ثم قال رسول الله ﷺ لفاطمة اذهبي إلى عمه حمزة فبشريه به فقالت وإذا خرجت أنا فمن يرويه قال أنا أرويه فقالت فاطمة أنت ترويه قال نعم فوضع رسول الله ﷺ لسانه في فيه (فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتا عَشْرَةَ عَيْناً) قال فسمي ذلك اليوم يوم التروية) الحديث.

فكان يرضعه من إبهام يده وفي معاني الأخبار وبإسناده إلى الحسن بن علي بن فضال عن أبيه قال (سألت الرضا أبا الحسن عليه السلام فقلت له لم كني النبي ﷺ بأبي

القاسم فقال لأنه كان له ابن يقال له قاسم فكني به قال فقلت له يا ابن رسول الله فهل تراني أهلا للزيادة فقال نعم أ ما علمت أن رسول الله ﷺ قال أنا وعلي أبوا هذه الأمة قلت بلى قال أ ما علمت أن رسول الله ﷺ أب لجميع أمته وعلي عليه السلام فيهم بمنزلته قلت بلى قال أ ما علمت أن عليا قاسم الجنة والنار قلت بلى قال فقيل له أبو القاسم لأنه أبو قاسم الجنة والنار فقلت له وما معنى ذلك فقال إن شفقة النبي ﷺ على أمته شفقة الآباء على الأولاد وأفضل أمته علي بن أبي طالب عليه السلام ومن بعده شفقة علي عليه السلام عليهم كشفقته ﷺ لأنه وصيه وخليفته والإمام بعده فقال فلذلك قال ﷺ أنا وعلي أبوا هذه الأمة) الحديث.

لأن كونه أباً لعلي صلى الله عليهما وآلهما غير مشهور وغير معروف فقد يحصل من ينكره أو يتردد في معناه بخلاف الأخوّة.

قال عليه السلام آتاكم الله ما لم يؤتِ أحداً من العالمين

قال الشارح المجلسي قدس سره فإن أريد بالخطاب النبي مع الأئمة صلى الله عليه وعليهم فظاهر وإلا فالنبي ﷺ مستثنى منه انتهى.

أقول: هذه الفقرة من قوله تعالى حكايةً عن قول موسى عليه السلام لقومه (وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ العالَمِينَ) يعني آتاكم ما لم يؤتِ أحداً من الخلق أو من عالمي زمانهم وممّن قبلهم من فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنِّ والسلوى وغير ذلك مما آتاهم ولم يؤتِ غيرهم، والأظهر عند أكثر المفسّرين إن المخاطبين في الآية هم أمّة موسى عليه السلام وعن سعيد بن جُبَير وأبي مالك أنّ المخاطبين في الآية أُمَّةَ

محمد ﷺ فعلى القول الأخير يجوز أن يراد بموسى محمد ﷺ وقومُهُ بَنُو إسرائيل وبَنُو إسرائيل آل مُحَمّدٍ ﷺ ففي رواية العيّاشي عن الصادق عليه السلام أنِه سئل عن قول الله (يا بَنِي إِسْرائِيل) قال (هم نحن خاصة) هـ.

وهذه إمّا لأنّ إسرائيل بمعنى عبدالله ومحمد صحيح هو عبدالله قال وإنه لمّا قام عبد الله يدعوه وإمّا لأنّ إسرائيل مَثَلٌ له صلّى الله عليه وآله فتتبادر الإرادة والقصد عند الإطلاق إليه وروي عن النبي ﷺ أنه سُمِع (يقول أنا عبد الله اسمي أحمد وأنا عبد الله اسمي إسرائيل فما أمره فقد أمرني وما عناه فقد عناني) هـ.

وعليه يكون المرادُ بالعالمينَ كلّ ما يَصِحُّ أن يعلم ويُعلم ويُعلمُ به وذلك كلُّ الخلقِ لأن الله سبحانه خلقهم له وحدَهُ ويلزم خلقهم له ما به بقاؤهم واستمدادهم لما هم له ولما لهم وخلق الخلق لهم وجعلهم أولياء على خلقه قُوَّاماً على بريَّته فوجب لهم في الحكمة كل ما يحتاج إليه رعيّتهم وهذا عند رعيّتهم مُفَرّقاً على جميعهم وجميع ما خلق لهم أي للرعيّة، ووجب لهم في الحكمة كل ما يخصّهم مما به بقاؤهم واستمدادهم لما هم له ولما لهم ووجب لهم في الحكمة ما به قاموا بخدمته فيما يشاء كما يشاء فهو سبحانه آتى جميع العالمين الذين هم جميع الخلق جميع ما يحتاجون إليه في أحوال النّشأتين وما به صلاحهم وبقاء نظامهم في الدارين مفرّقاً، بمعنى أنّ بعض ذلك يوجد عند بعض العالمين وبعضه يوجَدُ عند البعض الآخرين ولم يجمع الكلّ عند أحدٍ منهم إلاّ محمد وأهل بيته المعصومين ﷺ الطاهرين فإنه جمع لكلّ واحدٍ منهم جميع ما كان عند جميع الخلائق مفرّقاً فهم عليهم السلام مساوون لكلّ الخلق أي كل واحدٍ منهم مُسَاوٍ لكل الخلق لأنه أعطى الخلق مما في قوابلهم وسعه وزادهم الله على جميع الخلائق وما يختصّون به مما به بقاؤهم

واستمدادهم لما هم له سبحانه ولما هم لهم، وما أعطى جميع الخلائق في هذا إلاّ كجزءً من مائة ألفِ جزءً من مثقال الذرّ مما يختصّون به وزادهم على ما يختصون به ما به قامُوا بخِدْمته فيما يشاء كما يشاء وما يختصّون به من هذا جزء من سبعين جزءاً وهاتان الزيادتان لم يعطهما ولا شيئاً منهما أحداً من خلقه لا مجتمعاً ولا مفرّقاً ولا يحتملهما سواهم فصحّ بهما أو بأحدهما أن يقال آتاهم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين.

وعلى قول الأكثر من المفسّرين للآية يراد بالعالمين عالمي أهل زمان بني إسرائيل فالعموم مخصّصٌ بما علم من الدين، فإنّ إجماع المسلمين منعقد بأنّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم آتاه الله ما لم يؤت أحداً من الأولين والآخرين وأحاديث أهل العصمة عليهم السلام متظافرة بأن جميع ما وصل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصل إليهم وذلك كما دلّ عليه ما ورد عنهم في تفسير قوله تعالى (إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَاناتِ إِلى أَهْلِها) ففي معاني الأخبار بسنده إلى يونس بن عبد الرحمن قال سألت موسى بن جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل (إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إِلى أَهْلِها) فقال هذه مخاطبة لنا خاصة أمر الله تبارك وتعالى كل إمام منا أن يؤدي إلى الإمام الذي بعده ويوصي إليه ثم هي جارية في سائر الأمانات) الحديث.

وفي الكافي بسنده المُعَلى بْن خُنَيْس قَال سَأَلتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ الله عَزَّ وَجَل (إِنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَاناتِ إِلى أَهْلِها) قَال أَمَرَ الله الإِمَامَ الأَوَّل أَنْ يَدْفَعَ إِلىَ الإِمَامِ الذي بَعْدَهُ كُل شَيْءٍ عِنْدَهُ) هـ.وغير ذلك فأنهى رسول الله طغت جميع ما انتهى إليه من الله سبحانه إلى علي عليه السلام وأمره أن يدفع جميع ذلك إلى من بعده وكذلك أمر من بعده واحداً بعد واحدٍ إلى آخرهم يجري لآخرهم ما يجري لأوّلهم كما نصّوا عليه في أحاديثهم.

ومن ذلك ما رواه في بصائر الدرجات بسنده إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام قَال (فَضْلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مَا جَاءَ بِهِ آخُذُ بِهِ وَمَا نَهَى عَنْهُ أَنْتَهِي عَنْهُ جَرَى لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله مَا لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَالفَضْلُ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله الْمُتَقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالْمُتَقَدِّمِ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُتَفَضِّلُ عَلَيْهِ كَالْمُتَفَضِّلِ عَلَى اللهِ و على رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَالرَّادُّ عَلَيْهِ فِي صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ عَلَى حَدِّ الشِّرْكِ بِاللهِ فَإِنَّ رَسُول اللهِ صلى الله عليه وآله بَابُ اللهِ الَّذِي لا يُؤْتَى إِلا مِنْهُ وَسَبِيلُهُ الَّذِي مَنْ سَلَكَهُ وَصَل إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَل وَكَذَلِكَ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مِنْ بَعْدِهِ وَجَرَى لِلأَئِمَّةِ عليهم السلام وَاحِداً بَعْدَ وَاحِدٍ جَعَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَل أَرْكَانَ الأَرْضِ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا وَعُمُدَ الإِسْلامِ وَرَابِطَةً عَلَى سَبِيلِ هُدَاهُ لا يَهْتَدِي هَادٍ إِلا بِهُدَاهُمْ وَلا يَضِلُّ خَارِجٌ مِنَ الْهُدَى إِلاَ بِتَقْصِيرٍ عَنْ حَقِّهِمْ أُمَنَاءُ اللهِ عَلَى مَا أَهْبَطَ مِنْ عِلمٍ أَوْ عُذْرٍ أَوْ نُذْرٍ وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى مَنْ فِي الأَرْضِ يَجْرِي لآخِرِهِمْ مِنَ اللهِ مِثْلُ الَّذِي جَرَى لِأَوَّلِهِمْ وَ لا يَصِلُ أَحَدٌ إِلَى ذَلِكَ إِلا بِعَوْنِ اللهِ وَقَال أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام أَنَا قَسِيمُ اللهِ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لا يَدْخُلُهَا (يدخلهما) دَاخِلٌ إِلا عَلَى حَدِّ قَسْمِي وَأَنَا الفَارُوقُ الأَكْبَرُ وَأَنَا الإِمَامُ لِمَنْ بَعْدِي وَالْمُؤَدِّي عَمَّنْ كَانَ قَبْلِي لا يَتَقَدَّمُنِي أَحَدٌ إِلا أَحْمَدُ صلى الله عليه وآله وَإِنِّي وَإِيَّاهُ لَعَلَى سَبِيلٍ وَاحِدٍ إِلا أَنَّهُ هُوَ الْمَدْعُوُّ بِاسْمِهِ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ السِّتَّ عِلمَ الْمَنَايَا وَالبَلايَا وَالوَصَايَا والأَنْسَابْ وَفَصْل الخِطَابِ وَإِنِّي لَصَاحِبُ الكَرَّاتِ والرَجعَاتْ وَدَوْلَةِ الدُّوَلِ وَإِنِّي لَصَاحِبُ العَصَا وَالمِيسَمِ وَالدَّابَّةُ التِي تُكَلِّمُ النَّاسَ) هـ.

أقولَ: قوله عليه السلام إلاّ أنه هو المدعو باسمه يعني به أنّي أنا شريكه في جميع الكمالات إلاّ أنه مسمّى باسم غير اسمي يُدعا به وبه يتميّز ويحتمل أنه عنى به أنّي شريكه في العلم والولايةً المطلقة وغير ذلك إلا أنه يُدعا بالنبي ولا أُدعا به

أوْ أنّ الله سبحانه صرّح باسمه في كتابه عند الخطاب بالوحي ولم أُدْعَ بذلك أو أنه إذا دُعي باسمه تميّز مني، وإذا دُعِيتُ باسمي لم أتميّز منه يعني باسم الصفة فإنه كما قال عليه السلام في وصف الإسلام إلى أن قال (فيه تفصيل وتوصيل وبيان الاسمين الأعليْنِ اللذَيْن جُمِعا فاجتمعا لا يصلحانِ إلاّ معاً يسميّان فيعرفانِ ويوصفانِ فيجتمعان قيامهما في تمام أحدهما في منازلهما لَهُمَا جرى بهما ولهما نجوم وعلى نجومهما نجوم) الخطبة. قوله (يسمّيان فيعرفانِ) أي يسميّان محمد وعلي فيتميزان يوصفان نبي وولي فيجتمعان إذ لا منافاة بين النبي والولي فإنّ النّبي ولي يعني إذا دُعِيتُ باسمي فقيل وليّ لم أتميّز منه فإنّي ولي وهو ولي وإذا دُعي باسمه فقيل نبي تميّز منّيِ.

وقوله عليه السلام (وإني لصاحب الكرّات) يعني به صاحب الحملات في الحروب كما قال صلى الله عليه وآله وسلم وسلم فيه كرّار غير فرّار أو صاحب الرجعات كما قال عليه السلام (وَلِيَ الكرة بعد الكرة والرجعة بعد الرجعة) أو كما قيل إنّ له رجعة قبل قيام القائم عليه السلام ومعه وبعده.

أقول: وأنا لم يحضرني رواية تدلّ على أن له عليه السلام رجعة قبل القائم عليه السلام بل الأخبار التي وقفت عليها إنما تدل على أنه له رجعتين مع القائم عليه السلام وبعده وقد تقدم الكلام على هذا في ذكر الرجعة وهذا القائل وهو الشيخ عبدالله بن نور الله البحراني في كتابه الذي ألّفه المعروف بالعوالم هو أعرف بما قال.

وقيل في معنى (صاحب الكرات) أنه عرض عليه الحق كرّات في الميثاق في عالم الأظلّة والذر وفي الرحم وعند الولادة وعند الموت، وفي القبر وعند البعث وعند الحساب وعند الصراط وعند الجنّة وعند النار وغيرها ومن ذلك ما روي

في بصائر الدرجات بسنده إلى أبي جعفر الثاني عليه السلام قال قال أبو عبد الله عليه السلام (إِنَّا أَنْزَلناهُ) نور كهيئة العين على رأس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسلم و الأوصياء لا يريد أحد منا علم أمر من أمر الأرض أو أمر من أمر السماء إلى الحجب التي بين الله وبين العرش إلا رفع طرفه إلى ذلك النور فرأى تفسير الذي أراد فيه مكتوبا).

وفيه بالسند المذكور قال يعني أبا جعفر الثاني عليه السلام قال (سأل أبا عبد الله عليه السلام رجل من أهل بيته عن سورة (إِنَّا أَنْزَلناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) فقال ويلك سألت عن عظيم إياك والسؤال عن مثل هذا فقام الرجل قال فأتيته يوما فأقبلت عليه فسألته فقال (إِنَّا أَنْزَلناهُ) نور عند الأنبياء والأوصياء لا يريدون حاجة من السماء ولا من الأرض إلا ذكروها لذلك النور فأتاهم بها فإن مما ذكر علي بن أبي طالب عليه السلام من الحوائج أنه قال لأبي بكر يوما (وَلا تَحْسَبَنَّ الذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْواتاً بَل أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فاشهد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مات شهيدا فإياك أن تقول إنه ميت والله ليأتينك فاتق الله إذا جاءك الشيطان غير متمثل به فعجب به أبو بكر أو فقال إن جاءني والله أطعته وخرجت مما أنا فيه قال فذكر أمير المؤمنين عليه السلام لذلك النور فعرج إلى أرواح النبيين فإذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم قد ألبس وجهه ذلك النور وأتى وهو يقول يا أبا بكر آمن بعلي عليه السلام وبأحد عشر من ولده إنهم مثلي إلا النبوة وتب إلى الله برد ما في يديك إليهم فإنه لا حق لك فيه قال ثم ذهب فلم ير فقال أبو بكر أجمع الناس فأخطبهم بما رأيت وأبرأ إلى الله مما أنا فيه إليك يا علي على أن تؤمنني قال عليه السلام ما أنت بفاعل ولو لا أنك تنسى ما رأيت لفعلت قال فانطلق أبو بكر إلى عمر ورجع نور (إِنَّا أَنْزَلناهُ) إلى علي عليه السلام فقال له قد اجتمع أبو بكر مع عمر فقلت أوعلم النور قال إن له لسانا ناطقا وبصرا ناقدا يتجسس الأخبار للأوصياء عليهم السلام

ويستمع الأسرار ويأتيهم بتفسير كل أمر يكتتم به أعداؤهم فلما أخبر أبو بكر الخبر عمر قال سحرك وإنها لفي بني هاشم لقديمة قال ثم قاما يخبران الناس فما دريا ما يقولان قلت لماذا قال لأنهما قد نسياه وجاء النور فأخبر علياً عليه السلام خبرهما فقال بعدا لهما كما بعدت ثمود) هـ.

أقول: قوله في الحديث الأول (نوركهيئة العين) الظاهر عندي أن المراد بالعين العين الباصرة يعني تنطبع فيه الأشياء كالعين أو بها الإبصار كالعين لأنها آلة القوّة الباصرة لأنّ المراد بهذا النور على ما أعرف بحيث لا أكاد أشكّ فيه هو الروح من أمر الله وهو عقلهم يعني العقل الكلي الذي يكون مع سائر الأنبياء ببعض وجوهه يسدّدهم عن السهو والخطأ والنسيان وهو بكليّته عند محمد وآله الطاهرين صلى الله عليه وآله وسلم منذ نزل عندهم لم يصعد ولا يصعد عنهم أبداً ولم ينزل قبلهم قطّ إلاّ بوجهٍ من وجوهه وهو نور ليلة القدر كما قال تعالى (تَنَزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ) فهذا الروح هو نور هذه السورة لأن مدار جميع ما ينزل في ليلة القدر من كل أمر حكيم عليه ومنه وهو النور الأبيض من أنوار العرش وهو ركنه الأيمن الأعلى والأسفل الأيمن هو الأصفر وهذا النور الأبيض هو العمود المذكور.

في البصائر بسنده إلى الثُمالي قال قال أبو جعفر عليه السلام (إن الإمام ليسمع الكلام في بطن أمه حتى إذا سقط على الأرض أتاه ملك فيكتب على عضده الأيمن (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلا لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) فإذا شب رفع الله عاموداً من نور يرى فيه الدنيا وما فيها ولا يستتر عنه منها شيء) هـ.

وفي مرسلة جميل بن درّاج (فإذا قام بالأمر رفع له في كل بلد منار ينظر فيه إلى أعمال العباد) وغير ذلك من الأخبار فهذا العمود والمنار يراد منه الروح المشار إليه وهو عقل الوليّ.

وقوله عليه السلام في الحديث الأول (كهيئة العين على رأس النبي والأوصياء عليه وعليهم السلام) يراد منه أنّه العقل ومتعلق العقل الرأس من العاقل وكونه كهيئة العين أنّ له عينين يبصر بهما يجده كلّ مَنْ له وجدانٌ ، وإنّما قال (كهيئة العين) ولم يقل له عينان لأن العقل ليس هو شيء غير المدرك ليقال له عينان فتكون العينان بعضه بل هو العينان ولكنه ليس له عينين كما هو المعروف وإنما هو إدراك أقوى وأجلى من مدارك البصر فشبّه صفته في الإدراك كهيئة العين في الإدراك ، وقال بعض العلماء المراد بالعين عين الشمس يعني من جهة النور ولا شك أنه كذلك بل نوره أقوى من نور الشمس في الظاهر بأربعة آلاف مرة وتسعمائة مرة ،وفي الحقيقة هذا العقل أقوى من نور الشمس ألفي ألف مرة وسبعمائة ألف مرة وثلاثة وثمانين ألف مرة ومائتي مرة إلا أن الظاهر من المراد بالمشبه بهيئته هو العين الباصرة لأن هذا الملك هو عين الله الناظرة في عباده.

وقوله عليه السلام (إلا رفع طرفه إلى ذلك النور) أي إلتفت إلى غيبه فنظر بعقله.

وقوله عليه السلام (فرأى تفسير الذي أراد مكتوبا فيه) أي منتقشاً في صدره صورته أي خياله الذي هو الصدر الذي هو محل القلب أعني العقل وهو الملك المشار إليه فافهم .

وقوله عليه السلام في الحديث الثاني (إلا ذكروها لذلك النور) يعني أراد من عقله أن يكون كذا وعقله هو لسان مشية الله تعالى ومحل أمره الذي هو كن فيكون لأنه علّة الأشياء وسببها.

وقوله عليه السلام (فعرج إلى أرواح النبيين .. الخ) أي التفت إلى جهة مطلوبة والتفاته هو عروجه فافهم ما لوحت به مكررا وقد تقدم في مواطن كثيرة ما فيه من بيان كثير من هذه المطالب.

فإن قلت إن قول السائل إنما هو في السورة فقال عليه السلام إنا أنزلناه عند الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ومعلوم أن السورة لم تنزل إلا في هذا القرآن فما معنى قوله عليه السلام إنا أنزلناه عند الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

قلت: إن المراد من هذه السورة هو نزول الملك عليهم في ليالي القدر بما يسألون عنه وذلك حاصل لهم فإن ليلة القدر ثابتة لم ترتفع منذ نزلت على آدم عليه السلام إلى آخر الدهر وفي كنز الفوائد للشيخ محمد بن علي بن عثمان الكراجكي قرأ على السيد المرتضى والشيخ الطوسي بسنده إلى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام أنه قَال (لَقَدْ خَلقَ اللهُ جَل ذِكْرُهُ لَيْلةَ القَدْرِ أَوَّل مَا خَلقَ الدُّنْيَا وَلَقَدْ خَلقَ فِيهَا أَوَّل نَبِيٍّ يَكُونُ وَأَوَّل وَصِيٍّ يَكُونُ وَلقَدْ قَضَى أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ سَنَةٍ لَيْلةٌ يَهْبِطُ فِيهَا بِتَفْسِيرِ الأُمُورِ إِلى مِثْلِهَا مِنَ السَّنَةِ المُقْبِلةِ مَنْ جَحَدَ ذَلِكَ فَقَدْ رَدَّ عَلى اللهِ عَزَّ وَجَل عِلمَهُ لأَنَّهُ لا يَقُومُ الأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ وَالمُحَدَّثُونَ إِلا أَنْ تَكُونَ عَليْهِمْ حُجَّةٌ بِمَا يَأْتِيهِمْ فِي تِلكَ الليْلةِ مَعَ الحُجَّةِ التِي يَأْتِيهِمْ بِهَا جَبْرَئِيلُ عليه السلام قُلتُ وَالمُحَدَّثُونَ أَيْضاً يَأْتِيهِمْ جَبْرَئِيلُ أَوْ غَيْرُهُ مِنَ المَلائِكَةِ عليهم السلام قَال أَمَّا الأَنْبِيَاءُ وَالرُّسُلُ صلى اللهُ عَليْهِمْ فَلا شَكَّ وَلا بُدَّ لِمَنْ سِوَاهُمْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ خُلِقَتْ فِيهِ الأَرْضُ إِلى آخِرِ فَنَاءِ الدُّنْيَا أَنْ تَكُونَ عَلى أَهْلِ الأَرْضِ حُجَّةٌ يَنْزِلُ ذَلِكَ فِي تِلكَ الليْلةِ إِلى مَنْ أَحَبَّ مِنْ عِبَادِهِ وَايْمُ اللهِ لقَدْ نَزَل الرُّوحُ وَالمَلائِكَةُ بِالأَمْرِ فِي لَيْلةِ القَدْرِ عَلى آدَمَ وَايْمُ اللهِ مَا مَاتَ آدَمُ إِلا وَلهُ وَصِيٌّ وَكُلُّ مَنْ بَعْدَ آدَمَ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَدْ أَتَاهُ الأَمْرُ فِيهَا وَوَضَعَ لِوَصِيِّهِ مِنْ بَعْدِهِ وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ليُؤْمَرُ فِيمَا يَأْتِيهِ مِنَ الأَمْرِ فِي تِلكَ الليْلةِ مِنْ آدَمَ إِلى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم أَنْ أَوْصِ إِلى فُلانٍ وَلقَدْ قَال اللهُ عَزَّ وَجَل فِي كِتَابِهِ لِوُلاةِ الأَمْرِ مِنْ بَعْدِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم خَاصَّةً وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِلى قَوْلِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ يَقُولُ أَسْتَخْلِفُكُمْ لِعِلمِي وَدِينِي وَعِبادَتي بَعْدَ نَبِيِّكُمْ كَما اسْتَخْلفَ وُصاةَ آدَمَ مِنْ بَعْدِهِ حَتَّى يَبْعَثَ النَّبيَّ الذِي يَلِيهِ يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً يَقُولُ يَعْبُدُونَنِي بِإِيمانٍ لا نَبِيَّ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلكَ فَأُولئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ فَقَدْ مَكَّنَ وُلاةَ الأَمْرِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ بِالعِلمِ وَنَحْنُ هُمْ فَاسْأَلُونَا فَإِنْ صَدَقْنَاكُمْ فَأَقِرُّوا وَمَا أَنْتُمْ بِفَاعِلِينَ) الحديث.

والمراد بذلك نزول الملائكة عليهم بالأمر في ليالي القدر.

فإن قلت: فقوله عليه السلام إلا ذكر وما لذلك النور بالإشارة كيف يكون ولم يجر له ذكر.

قلت: إنّ قوله لذلك إشارة إلى معود الضمير في قوله (إنا أنزلناه) لأنّه يعود إلى الملك المشار إليه المسمى بالرّوح.

فإن قلت: أنّ الظاهر من معود الضمير هو القرآن.

قلتُ: نعم هو كذلك والروح قرين القرآن وقسيمه كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى (وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتابُ وَلاَ الإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ) الآية.

فسمّاه روحاً وهو الملك المذكور وجعله نوراً وهو القرآن المسطور فالروح هو النور المعنوي والقرآن هو النور اللفظي وتقدم الكلام فراجع.

ثم اعلم أن النسيان المذكور في الحديث الثاني في الموضعين بمعنى الترك فقوله عليه السلام (لولا أنّك تنسى) أي تترك ما رأيت لفعلت، وقوله عليه السلام (لأنهما قد نسياهُ) أي تركاهُ.

والحاصل إذا تفهّمت ما ذكرنا مع أنه قليل من كثيرٍ ظهر لك أن الله سبحانه (آتاهم الله ما لم يؤتِ أحداً من العالمين) أي من الخلائق أجمعين، لأنّ المراد بالعالمين جميع أجناس العوالم بعموم الجمع المحلّى بالألف واللام وجميع أفرادها

بعموم الألف واللام المراد منهما الاستغراق وهو ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام كما في تفسير العسكري وعيون الأخبار في تفسير (الحَمْدُ لله رَبِّ العالِمِينَ) قال عليه السلام (قولوا الحمد لله على ما أنعم به علينا رب العالمين وهم الجماعات من كل مخلوق من الجمادات والحيوانات)الحديث.

قال عليه السلام طأطأ كلّ شريفٍ لشرفكم وبخع كلُّ متكبرٍ لطاعتكم وخضع كلُّ جبّارٍ لفضلكم وذَلّ كلّ شيء لكم

قال الشارح المجلسي رحمه الله (طأطأ) أي خضع أو خفض ولم يصل كل شريف لشرفكم أي إليه أو لأجله، (وبخع) بالباء المُوَحدة والخاء المعجمة أي خضع كل متكبّر لطاعتكم أي فيها أو لأجل طاعتكم لله وذل كل شيء لكم بقدرة الله تعالى انتهى.

وقال السيد نعمت الله الجزائري في شرح التهذيب وبخع بالباء الموحدة من تحت والخاء المعجمة وفي بعض النسخ بالنون والخاء المعجمة وكلاهما بمعنى الإقرار والاعتراف انتهى.

أقول: يقال طأطأ رأسَهُ إذا طأطأ منه وخفضه والشرف العلو والمكان العالي الحسيّ كما في الحديث كان يكبّر على شرفٍ من الأرض والمعنوي ومنه يسمّى الرجل العالي المقام والمكانة شريفاً لعلو رتبته وقد يقال لمن نال شيئاً لم ينله بعض أمثاله من الناس حتى أنه ليقال لصاحب المال المتموّل والمتملّك شريفاً وروي في الحديث (إذا أتاكم شريف قوم فأكرموه سئل ما الشريف فقال الشريف من كان له مال) انتهى.

لأنه عالي الرتبة بين من لم يملك مثله من المال ولا يختصّ بأمرٍ بل كل من فاق

بعض أبناء جنسه في شيء فهو شريف وقد شرّفه الله تشريفاً علاّه ورفع درجته وقد يفرق بينه وبين الحسب فإن الحسب الشرف من قبل الآباء أي لآبائه شرف ومراتب عالية وشرف الرجل من نفسه، فلما كان الشرف علوّ الرتبة والشريف العالي وهو بخلاف معنى طأطأ أبانَ عليه السلام أن كل شريف يخضع ويخفض رأسه خشوعا وخضوعا لشرفكم من جميع العالمين، لأنه لما ذكر أن الله سبحانه آتاهم ما لم يؤتِ أحدا من العالمين كما أشرنا إلى بيانه سابقا لزم من ذلك أن مقامهم عليهم السلام أعلى من كل مقام وصل إليه أحد من الخلق من الجمادات والنباتات والحيوانات لأن علو العالي إما أن يكون بسبب نجابة الشخص أو طهارة مولده أو نورية طينته وطيبها أو استقامة خَلقه بفتح الخاء وضمها واعتدال مزاجه وحسن صورته أو صوته أو قوته أو شجاعته أو كرمه وسخائه وجوده وزهده وتقواه وورعه ويقينه ومعرفته وعبادته أو علمه أو قدرته أو اقتداره أو انقياد أشياء بأمره أو إرادته أو محبته أو الاحتياج إليه في شيء مما ذكر أو غيره أو حفظه أو فهمه أو غير ذلك من جميع الصفات الحميدة والأخلاق الحسنة والطباع المستقيمة والأحوال المحبوبة للنفوس والعقول والمستطابة للأوهام والأفهام والأحلام مما يتميّز من اتصف به من بعض أهل نوعه أو كلهم من كل محبوب ومطلوب ومرغوب أو من جهة ما خصّه الله به من النعم والفضائل العظيمة والمنن الابتدائية أو من جهة شرافة الآباء وطهارة الأمهات وتطهير الأصل والفرع من جميع الخبائث والأرجاس الظاهرة والباطنة وما أشبه ذلك، وهم صلى الله عليهم قد جمعوا جميع ذلك وجمع الله لهم متفرقه حتى أنهم حلّوا في كل كمال وطُهر وقُدس بمكان لا يصل إلى أدنى أدانيه أحد من خلق الله لا ملك مقرب ولا نبي مرسل بل لا يمكن في الإمكان كون ولا ذو كون يفوق عليهم أو يساويهم في شيء من ذلك لأن كل من سواهم

مما خلق الله سبحانه معلول لهم ومحتاج إليهم وأثر من آثارهم ولزم من جميع ما ذكر أن يطأطِئ كل شريف لشرفهم إذ ليس في الكون مما خلق الله سبحانه شريف يفوقهم أو يساويهم بل كل من سواهم معلول لهم أقامه الله تعالى بهم قيام صدور أو قيام ظهور أو قيام تحقق أو قيام عروض لما لهم أو منهم أو عنهم أو بهم فيخضع كل عالٍ لعلوهم خضوع افتقار واستمداد وانقياد إذ لا يعبد الله سبحانه وتعالى إلا بذلك لا فرقٍ في ذلك بين محبِّهم ومبغضهم، إن الله سبحانه يقول (أَوَ لَمْ يَرَوْا إلى ما خَلقَ الله مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلالُهُ عَنِ اليَمينِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً للهِ وَ هُمْ داخِرُونَ) فعن اليمين محبّوهم واليمين علي أمير المؤمنين عليه السلام، والشمائل أصحاب الشمال وأئمتهم أئمة الضلال والكل داخرون منقادون يسجدون لله سبحانه بقبول قدرته تعالى فيهم ويعبدونه بالإقرار بوحدانيته ونبوة محمد نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وبولاية أوليائه علي وآله الأحد عشر عليه و عليهم السلام وبالبراءة من أعدائهم وهو تأويل قوله تعالى (إِنَّ الله فالِقُ الحَبِّ وَالنَّوى) فإنّ الله سبحانه وتعالى كما فلق الحبّ الذين هم المحبّون فلق النوى الذين هم المناوونَ وما فلق سبحانه إلاّ من قِبَل الفلقَ منه تعالى وما قبل من هو مكرَهٌ وإنّما يقبل من هو مطيع في القبول أحبّ كالمؤمنين أو كره كالمنافقين، فإنّ أعداءهم يعصونهم وهم يطيعونهم ويكرهونهم وهم يحبّونهم كيف يطيعونهم وهم نصبوا لهم العداوة حتى غصبوهم ما جعله الله لهم من المراتب والفيء وقتلوهم وسبوهم وساموهم كُل إهانةٍ ومع ذلك يحبّونهم كمال المحبةِ بمعنى أنهم لعنهم الله لا يرون فيهم عليهم السلام شيئاً يكرهونه ولا حالاً لا يَسْتحْسِنونهُ ولا عملاً ولا قولاً ولا حركةً ولا سكوناً إلا ما هو الأحسن المطلوب والأحب المرغوب ولكنهم لا يقدرون على شيء من ذلك فحسَدُوهم وبلغ بهم الحسد على تلك الفضائل، التي لا تحصى والمناقب التي

لا تعدّ ولا تستقصى إلى أن سعوا في إبطال تلك المناقب وحطّ تلك المراتب لمّا عجزوا عن نيلِها وانحطّوا عن تحصيلها كما سعى إبليس اللعين أبوهم وشيخهم وإمامهم في كيدِ آدم عليه السلام لمّا وَجَدهُ أهلاً لفضائل يعجز عنها ويقصر دونها حسده وسعى في إفسادِ هِمَمِهِ بالخيرات وفي إهلاكه وطرده عن حظّه من الفضائل فسلك جنوده المنافقون وفروعه الظالمون في إطفاء أنوار الله التي أشرقها وأبانها لعباده حسداً وبغياً ويأبى الله إلاّ أن يتمّ نورَهُ وَلو كَرِهَ الكافِرُون وهذا هو معنى قول الصادق عليه السلام (أما واللهِ لو قدروا أنْ يُحِبّونا لأَحَبُّونَا ولكنهم لا يقدرون) فقوله عليه السلام (لأَحَبونا) لأنّا لا يصدر عنّا شيء يكرهه أحد وإنّما لا يقبلونه لما فيهم من الحسد والاعوجاج الصادرين من تغيير خلق الله وتبديل فطرة الله التي فطر الناس عليها فهم مطيعون لأنّهم يعلمون أنّ هذا هو الصواب والصلاح كما قال الثاني لابنه لما سأله قال (لو قَلّدُوهَا الأصلع لهجم بهم على الهدى) ولأنّهم لا يردون ما ذادهم ولي الله عليه السلام عنه ولا يصدرون عما أوردهم، ومحبون لهم لأنهم لا يرون منهم إلاّ الصفات المطلوبة لهم ولجميع الخلق والمحبوبة عند الكل بل لا تجد أحداً من أعدائهم إلا وهو يحبّ أكل السّكر وحلاوته من أسماء ولايتهم عليهم السلام ولا تجد أحداً من أعدائهم إلاّ وهو يكره أكل الصَّبر ومرارته من أسماء ولاية أئمّة الضّلال ومن أسماء بغض أئمة الهدى عليهم السلام فكلّهم يكرهون أنفسهم وصفاتها بحيث لو كان ذلك في غيرهم لما قبلوا منه شيئاً كما في الحديث القدسي في بعض كتب الله ولعلّه الزبور (يَا ابْنَ آدَمَ لوْ سَمِعْتَ وَصْفَكَ مِنْ غَيْرِكَ وَأَنْتَ لا تَعْلَمُ مَنِ المَوْصُوفُ لسَارَعْتَ إِلى مَقْتِهِ).

وإليه الإشارة في الدعاء بقوله عليه السلام لا يخالف شيء منها محبّتك ومع هذا كُلِّه فهم عاصون لهم عليهم السلام ولله حيث لم يأخذوا عنهم ولم يأتمروا بأمرهم وينتهوا بنَهْيهم

وكارهون لهم لما في طبائعهم من الاعوجاج الناشئ من تغيير خَلق الله وتبديل فطرة اللهِ التي فطر الناس عليها، فلهذا قلنا أنّهم عليهم اللّعنة يحبّون أئمة الهدى عليهم السلام وهم يبغضونهم ويسبّحون الله وهم عاصون له لأنه تعالى أخبر أن كل شيء يسبّح بحمده وما تسبيحهم له تعالى إلاّ بأسمائه وهم عليهم السلام أسماؤه فيحبّونهم ويسبّحون الله تعالى بذلك لأجل ما خلقهم وفطرهم عليه من فطرة الإسلام.

وفي الزيارة الجامعة الصغيرة (يُسَبِّحُ الله بِأَسْمَائِهِ جَمِيعُ خَلقِهِ).

وقد تقدم مكرراً ويبغضونهم ويستكبرون عن عبادةِ الله سبحانه كذلك لأجل ما غيّروا من خلق الله سبحانه وما بدّلوا من فطرته ولأجل ما أشرنا إليه من قولنا فلق سبحانه النوى الذين هم المناوون وما فلقَ سبحانه إلاّ من قَبل الفلقَ منه تعالى وما قبِل وهو مكرهٌ وإنّما يقبَلُ من هو مطيع في القبول أحبّ كالمؤمنين أو كره كالمنافقين.

ولأجل هذا الذي أشرنا إليه أيضاً بخعَ كلّ متكبّرٍ لطاعتهم فإنّ كثيراً من المتكبّرين لا يخضع لطاعتهم عليهم السلام إلاّ على النحو الذي أشرنا إليه، فإنه بعض الدواعي إلى أن يذلّ لهم المتكبّرون من أعدائهم، وليس قولي من أعدائهم تخصيصاً لعموم المتكبّرين فيكون من محبيهم متكبّرون بل ولا تقييداً لمطلق ليقال قد يصدق على بعض محبيهم التكبّر وإن لم يوضع بإزائه، لأن محبّيهم أهل الخضوع والخشوع والخشية، وما يصدر عنهم من المعاصي التي هي في الحقيقة من ولاية أئمة الضلال والأكل من شجرة الزّقّوم وذلك استكبار عن طاعتهم التي هي طاعة الله لأنّ أمر الله ونهيه يجري على المكلّفين بواسطتهم فطاعتهم طاعة الله تعالى فليس ذلك من حقيقتهم من ربّهم ولهذا تراه يفعل المعصية وهو في

قلبه ماقتٌ لنفسه ولفعله وإنْ غلبَتْه الشهوة لما فيه من إمكانها من قبل الماهيّة وإنّما فعل المعصية بما فيه من لطخ طينة المتكبّرين واتباع المتكبّرين فالتّكبر منسوب إلى مبدئه وهو طينة اللّطخ وهي من المتكبّرين، ولهذا إذا كان يوم القيامة ولحق كل شيءً بأصله لحقت طينة المتكبّر التي في المؤمن التي عصى بها مع ما كان عنها من الذنوب إلى ذلك المتكبر المنافق وليس ذلك ظلماً لأنّ المؤمن حقيقة لم يعص وإنّما المعصية من ذلك اللطخ فلحِقَتْ معه إلى أصلها.

فإن قلتَ: أنّا وإن سلّمنا أن اللطخ من المنافق وإنّما ترتّب عليه من المعاصي يلحق به ويلحقان بالمنافق ولا شيْءَ من ذلك على المؤمن بل هذا حقّ ولكن ذلك المؤمن لو لم يكن فيه ما يلائم ذلك اللطخ لم يصبه، ألا ترى إلى المعصوم لعدم وجود ما يلائم اللطخ فيه لم يصبه، فلما كان فيه ما يلائمُ اللطخ أصابه، واللطخ من طينة الخبيث المنافق وهو لطخ ظلمانيّ عدمي المدد مجتثّ الأصل ولا يلائمه إلاّ ما كان كذلك وهو من حقيقة المؤمن فيصدق عليه التكبر لما قرّرتم أن العاصي متكبّر ولما ثبت أن عليه عقوبةً ما من مجاورة اللطخ العاصي فإنه محلّ له ولمعصيته فيلحقه ما يحقّق هذا الصدق وهو وصمة مجاورة المعصية ومكانيّتها.

قلتُ: إن المؤمن فيه ما يلائم اللطخ وهو أسفل من طينته وهو وإن كان لاحقاً بالطيّب إلاّ أنه قابل للكدورة لكثافته وسفليّته وقلّة نوريّته لأنه ظاهر الطيب من الجانب الشمال ولكنه في الحقيقة من الطيّب المنير إلاّ أن نوريّته ضعيفة لقربها من الطِيَن المظلمة بفتح الياء وما فيها من الكدورة لا يبلغ مقام الظلمة التي توجب لِمَحَلِّها فعل المعصية، نعم إذا حصل لها اللطخ من الخبيث كان متمِّماً لما فيها من الكدورة فكانت به مقتضية لمحلّها فِعل المعصية، فهي باللطخ محلّ

لملزوم التكبر وهو المعصية وإذا عاد اللطخ بما فيه من المعصية لم يبق في المحلّ الذي تعلّق به اللطخ إلاّ كدورته الأصلية وهي لا تقتضي المعصية بنفسها من غير متمم لظلمتها ولاسيّما بعد مفارقة اللطخ بما صدر عنه من المعصية فإن طينة المؤمن طينة منيرة لأنها من شعاع محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام فيقوّي القوي منها نور الضعيف منها، فبما بيّنّا لك يظهر لك أن قولي من أعدائهم في قولي إلى أن يذلّ لهم المتكبرون من أعدائهم ليس للتخصيص وإنما هو للبيان لما هو الواقع وعلى ما أوّلنا وقرّرنا يظهر لك أن المراد من قوله عليه السلام (وبخع كل متكبر لطاعتكم) غير شيعتهم قطعاً وغير سائر محبيهم على الظاهر عند الفهم وعلى التأويل في الحكم لأن شيعتهم ومحبيهم ليسوا من المتكبرين لأنّ المتكبر من ترفّع على ولي الأمر من اللهِ ولأن شيعتهم يطلبون طاعتهم بل لا محبوب لهم مثل طاعة مواليهم فلا يقال خضع للطاعة إلاّ لمن لا يريدها ولكن لا مناص له عنها وهذا حال أعدائهم لا حال شيعتهم.

وقوله عليه السلام (وخضع كل جبّار لفضلكم) مثل ما قبله في كلّ شيء إلاّ أن ظاهر المراد من الطاعة هو امْتثال الأمر والانزجار عند النهي وظاهر المراد من الفضل هو الإقرار بالفضل والقبول من حامليه والتسليم لراويه وناقليه.

وأمّا باطن المقامَيْن فلا منافاة بين إرادة أحدهما من لفظ الآخر فإن الإقرار بالفضل منه وجوب امتثال الأمر والانزجار عند النهي، وكذلك الامتثال عند الأمر به والنزجار عند النهي منه قبول ما ورد في بيان فضلهم والتسليم لرواته فإنّهم عليهم السلام قد أمروا بذلك ونهوا عن الشك فيه والتردد والاحتمال في مقابلته كما نهى تعالى عن ذلك في تأويل قوله تعالى (يا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا

تَسْلِيماً) وقوله تعالى (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيما) وقوله تعالى (وَما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ) صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله عليه السلام (وذلّ كلّ شيءٍ لكم) معناه كما قبله، بقي تنبيه: وهو أن كلّ ما سواهم إنّما يُطَأْطِئُ ويَبْخع ويخضع ويذلّ لهم عليهم السلام لما يجد في نفسه من وجودِ شَيْءٍ له شرفٌ ومجد ليس في إمكانه أن يبلغ أدنى أدانيه وله عزة وكبرياء ليس في إمكانه مقابلته ولا مساواته بل لا يجد في نفسه شيء وإن تعزّز وتكبّر في نفسه وعند غيره إلاّ الانقياد لطاعته سواء تطابقت فطرة الله سبحانه فيه مع طبيعته العمليّة كالمؤمنين أم تقابلتَا كالمنافقين، وسواء عرفا ذلك بالتصور والعلم أمْ لا، وسواء عرفاهم عليهم السلام بأنّهم هم أرباب ما شاهَدُوا من الكبرياء والعزة والشّرف أمْ لا ولهُ فضائل ومناقِبُ ليس في إمكانه بلوغ أدنى أداني بعضها له ولغيره سواهم وله عزّة ليس في إمْكانِه أنْ يحوم حول أدنى مراتبِها هو أو غيرها سواهم وفي هذه كُلِّها وما يجري مجراها من الصفات الحميدة كالعلم والقدرة والغنى باللهِ عن كل من سواهم من الخلق في كل شيءً وحاجة كل من سواهم إليهم في كلّ شيء وغير ذلك يجري جميع المخلوقات على حَدّ واحدٍ، بل قد كان كلّ من اتّصفَ بشيء من هذه الصفات الحميدة بالحق لا بالدعوى كالأنبياء والأوصياء والأولياء تكون ذِلّته وطاعته وخضوعه لهم أشدّ بنسبة ما أوتي لقوّة مَعْرفتِه فمن عرفهم وعرف ذلك منهم فذلك، وإلاّ فكما قلنا يجد في نفسه وجود شيء قد تفرّد بخصال حميدة لا يُدانيهِ أحدٌ من الخلق فيها بحيث يجد في نفسه انحطاطَهُ وانحطاط غيره عن أدْنَى

مَرْتَبَةٍ من مراتبها فقد يُشرِق بعض أشعتها على بعْضِ الخلق من صادقٍ ومُدّعٍ وإذا نسبَهُ من وجده في نفسِه أو غيره إلى ما أتاهم الله سبحانه من جزيل عطائه لم يجده شيئاً، وطأطأ لشرفهم وبخع لطاعتهم وخضع لفضلهم وذلّ لهم على نحوِ ما قلنا، يعني سواء عرف وتصوّر أم لا وسواء ظهرت له عليهم صلوات الله عليهم أم على غيرهم كما لو رأى نهر الفرات في حال احتياجه إلى الشرب والسحاب الهامي حال احتياجه إلى المطر والدواء حال مرضه والطّبيب الماهر حال احتياجه إلى المعالجة ونظر إلى الجبل العظيم ونسب قدرته إلى حمله بنفسه كما هو والجبل كما هو، وكذا لو رأى السماء ونسب قدرته إلى صعوده كما هو والسماء كما هو أو نسب قدرته على خوْض الماء إلى خوض البحر المحيط كما هو والبحر كما هو وأمثال هذه فإنّه يجد العجز في نفسه والقصور عن ذلِك وإنما وجد العجز لما ظهر لهُ من أمر لا يحتمله وكذلك الحال في نفس الأمر فإنه لا يحتمله فلا تنفكّ نفسُه عن الخضوع والانقياد والذّلّة فما ظهر له من عِظَم هذه أو افتقاره إلى ما لا استغناء له عنه منها فإنّه أثر قليل وحال ضعيف بل ظِلٌّ مُتَلاَشي ممّا هم عليه صلوات الله عليهم من العزة والعِظم والاستغناء باللهِ عما سواه واحتياج ما سواهم إليهم، وانحطاط مقاماتهم ومراتبهم وهممهم دونهم عليهم السلام بل دون ما ظهر من آثارِ ما هُم عليه من آثار هذه الأُمورِ المذكورة.

ومعنى قولي سواء ظهرت له عليهم صلوات الله عليهم أم على غيرهم هو هذا المذكور كما يجد في نفسه مثلاً من عجزه عن حمل الجبل لعظم الجبل وثقله لا تنفكّ نفسه عن وجدان ذلك وهو أثر من آثار عظمتِهم، بل آثار الآثار إلى سبعين ألفاً في رتبة النزول وما عِظَم الجبال لولا إشراق جزئيّ من آثار عظمتهم وهكذا سائر

ما ذكرت وما لم أذكر هذا في جانب الحب والرغبة والرجاء والمطلوب وفي جانب الكراهة والرهبة واليأس والمحذور على العكس وكلّ لا يتناهى في الإمكان (قال عَذابي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُل شَيْء).

واعلم أنا قلنا كما أشار عليه السلام بقوله فيما تقدم (حَتَّى لا يَبْقَى مَلكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلا صِدِّيقٌ وَلا شَهِيدٌ وَلا عَالِمٌ وَلا جَاهِلٌ وَلا دَنِيٌّ وَلا فَاضِلٌ وَلا مُؤْمِنٌ صَالِحٌ وَلا فَاجِرٌ طَالِحٌ وَلا جَبَّارٌ عَنِيدٌ وَلا شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَلا خَلقٌ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ شَهِيدٌ إِلا عَرَّفَهُمْ جَلالَةَ أَمْرِكُمْ وَعِظَمَ خَطَرِكُمْ وَكِبَرَ شَأْنِكُمْ وَتَمَامَ نُورِكُمْ وَصِدْقَ مَقَاعِدِكُمْ وَثَبَاتَ مَقَامِكُمْ وَشَرَفَ مَحَلِّكُمْ وَمَنْزِلَتِكُمْ عِنْدَهُ وَكَرَامَتَكُمْ عَلَيْهِ وَخَاصَّتَكُمْ لدَيه) انتهـى .

فتدبّر في هذه الكلمات هل بقي شيء لم يعرّفه الله ما هم عليه عنده سبحانه.

فإذا قلت: لم يبق شيء .

قلتُ: لك وهل أحد غيرهم يعلم ذلك أو يحصي ذلك فيكون مساوياً لهم أو أعلى منهم.

فإذا قلتَ: لا .

قلتُ: لك فقد دلّ هذا على أن كلّ شيء من الخلق عرف منهم ما لا يحيط به ولا يحصيه ولا ريبَ أنه يلزم منه خُضوعه وذلّته وإقراره بالعجز والقصور سواء عرف الشيء بنفسه أمْ أثره فيهم أم في غيرهم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

قال عليه السلام وأشرقت الأرض بنوركم وفاز الفائزون بولايتكم بكم يسلك إلى الرضوان وعلى مَنْ جحدَ ولايتكم غضَب الرحمن

قال الشارح المجلسي رحمه الله (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِكُمْ) أي بنورِ وجودكم

وهدايتكم، (وفاز الفائزون بولايتكم) أي لم يصل أحد إلى مرتبةٍ من المراتب إلا بسبب اعتقاد إمامتكم ومحبّتِكم ومُتَابعتِكم، (بكم يسلك إلى الرضوان) خازن الجنان الموصل إليها أو الجنّة أو رضى الله سبحانه فإنه أعلى الدرجات، انتهى.

أقول: قوله ﵇ (وأشرقت الأرض بنوركم) اقتباس من قوله تعالى (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا) وروي عن الصَّادِق ﵇ في هذه الآية قال (رب الأرض إمام الأرض قلت فإذا خرج يكون ما ذا قال إذا يستغني الناس عن ضوء الشمس ونور القمر ويجتزءون بنور الإمام).

وروى المفيد عن الصادق ﵇ قال (إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربها واستغنى العباد عن ضوء الشمس وذهبت الظلمة).

أقول: قوله ﵇ في الآية (ربّ الأرض إمام الأرض) لأن الربّ هو المربّي لها والمصلح وهذه صفة الإمام وقوله ﵇ (يستغني الناس عن ضوء الشمس) يحتمل وجوهاً وظني أنّها كلّها مرادة ولهذا قلتُ يحتمل وجوهاً ولم أقل يحتمل أحد وجوهٍ.

منها أن المؤمن إذا قام القائم ﵇ تنكشف له العلوم والأسرار كما روي عن علي ﵇ أنه قال (إذا قام قائمنا يستغني كل أحدٍ عن علم الآخر وهو تأويل قوله تعالى (يُغْنِ الله كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ) ويشرف على حقائق الأشياء لشدة نور قلبه من جهة مقابلة الإمام ﵇ لقلب المؤمن فيشرق قلبه بنوره ﵇ ويكمل إيمانه في أركانه الثلاثة.

الاعتقاد: فيثبت على ما لو سمعتموه لكفرتم كما كان في حق سلمان وأبي ذر.

واللسان: فينطق بما يوضح عن مرادِ إمامه ﵇ من كل ما أحبّ الله تعالى أن يقال.

والأركان: فيعمل بعمل إمامه ﵇ لأنه حينئذٍ قوي الإيمان والعلم والمعرفة.

والإمام عليه السلام دائماً ناظرٌ إليه فإنه في وجوده يراه كل أحدٍ في مشرق الأرض ومغربها وهو في مكانه كما يرون القمر لأنه عليه السلام إذا خرج وضع يده على رؤوس الخلائِق فيكمل بذلك إيمانهم فيكونون في جميع الأعمال على حدّ الصدق مع الله والإخلاص في العمل بنسبة ما يمكن في حقّه.

فإذا كان بهذا المقام من العلم والاطّلاع على حقائق الأشياء بما يمكن له والصلاح والدّين والتقوى والزهد والورع واليقين والإيمان الكامل في غاية ما يمكن في حقّه من صحة الاعتقاد وصدق اللسان ومطابقتَه للقلب والإخلاص في الأعمال الصحيحة الصالحة التي هي مطابقة لمراد إمامه عليه السلام إلى غير ذلك بحيث يصدق عليه أنه متابع لإمامه عليه السلام في الاعتقادات والأقوال والأعمال فيكون إذ ذاك منشرح الصَّدْر للإسلام ممتحن القلب للإيمان فإذا اطمأنّ على ذلك رفع الله عن بصيرته الحجاب وأرقاه في الأسباب، وفتح له الأبواب وأراه ما استتر وغاب فحينئذٍ يستغني بهذا النور الذي هو نور إمامه عن ضوء الشمس ونور القمر ويجتزون بنور الإمام عليه السلام كما قال جعفر بن محمد عليهما السلام (وتذهب الظلمة) كما في الحديث الآخر بحيث يشاهد الأشياء في الظلمة كما يشاهدها في النور فمعنى ذهبت الظلمة يعني لا تحجب أبصارهم لقوّة بصائرهم لا أنه لا ظلمة في الوجود.

ومنها أن إشراق الأرض بنور الإمام عليه السلام كناية عن ظهور الحق وانتشار العدل عند ظهوره عليه السلام حتى لا يستخفي بشيء من الحق مخافة أحدٍ من الخلق فإن العدل الذي ينشره تُزَيّن به الأرض كالنّور بعد ما ملئت ظلماً وجوراً الذي هما ظلمة باطنيّة، وقد روي الظلم ظلمات يوم القيامة، ففي دولة الظالمين قد عمّت ظلمة الظلم وإذا قام القائم اللهمّ عجّل فرجه ذهبت هذه الظلمة.

ومنها زمان رجعتهم ليس مثل زمان الدنيا بل هو زمان واسطة بين زمانِ هذه الدّنيا وبين زمان الآخرة، فهو وإن لم يكن على حدّ لطافة زمان الآخرة لكنه ألطف من زمان الدنيا فيستغني العباد بنور وجودهم عليهم السلام عن ضياء الشمس ونور القمر وإن كانا موجودين لشدّة صفاء ذلك الزمان ببركة وجودهم وتذهب هذه الظلمة الموجودة في هذه الدنيا، لأنها إنّما حدثت بكثافة الأرض وكثافة الأرض إنّما حدثت بوقوع المعاصي فيها ولهذا قيل أن البقاع التي لم يطأ عليها ابن آدم بذنوبه شفّافةٌ لا تُرَى كمثل السماوات وإنّما هذه الكثافة حدثت من ذنوب العباد، وفي زمان رجعتهم عليهم السلام تطهر الأرض من المعاصي وأهلها فتذهب الظلمة لذهاب علتِها ولأن ذلك الزمان زمان البرزخ ولهذا يرى الناس الملائكة رأي العين والجنّ وسائر الأرواح وتظهر الجنّتان المدهامّتان، وقد روي أن عليّاً عليه السلام قال في وصف حال رجعتهم وزمانها (وعند ذلك تظهر الجنّتان المدهامّتان عند مسجد الكوفة وما وراء ذلك بما شاء الله) وقد تقدّم هذا الحديث في ذكر الرجعة فراجعه وعلى هذا تذهب هذه الظلمة وإن وجدت ظلمة بنسبة ذلك الزمان كما أشار إليه قوله تعالى (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَعَشِيًّا) وذلك في حقهم وحق أصحاب جنان البرزخ من الأرواح فإن الوقتَ واحد إلاّ أن تلك الظلمة لا تحجب أبصارهم فصحّ أنهم يستغنون عن ضوء الشمس وصحّ أنّ هذه الظلمة التي الآن موجودة تذهب هنا كما ذهبت عن أرواح المؤمنين عند مفارقتهم للأبدان في هذه الدنيا.

ومنها أنّ الإمام عليه السلام إذا ظهر بسط العدل والحق في الأرض وارتفع الجور والظلم منها وهذا نور الإمام عليه السلام الذي أشرقت به الأرض وتزيّنت بظهور

البركات حتى أنّ الأشجار تحمل في كل سنةٍ مرّتين وتظهر الكنوز ويستغني الناس حتّى أن الرجل ليحمل زكاة ماله ويطلب فقيراً يأخذها فلا يجده ويظهر في الأرض ظاهر قوله تعالى لأصحاب الزراعات من المؤمنين (كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ) وكانت الأرض قبل ظهوره عليه السلام قد مُلِئَتْ ظلماً وجوراً والناس في تلك الظلمات ظلمات الظلم والجور يسعون فيها ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج المؤمن يده لم يكد يراها، فإنهم حينئذٍ لم يجعل الله لهم نوراً أي لم يظهر لهم إماماً، وهذه الظلمات المشار إليها سنة الشمس وبدع القمر فإنّ الشمس والقمر إعرابيّان من المنافقين أسَّسَا هذه الظلمات التي كان المؤمن لا يبصر فيها يده وهي أثرهما ونور الشيء أثره وكان أصحابهما يسمّونهما بالشمس والقمر فأنزل الله سبحانه على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم (الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبانٍ) وحسبان اسم النار كما قال تعالى (وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً) أي يرسل عليها ناراً، فلمّا كانا يسميّانِ بالشمس والقمر ويسمّون ما أحدثا من البدع حقّاً وهدى والحق ضياء كضياء الشمس والهدى نورٌ كنور القمر قال عليه السلام إن العباد كانوا ينتفعون في هذه الدنيا في سعيهم إلى الآخرة بهذه البدع التي هي ظلمات بعضها فوق بعض ويسمّونها ضياءً ونوراً أي حقّاً وهُدىً مع أنها ظلمة فأخبر بأنه إذا قام قائمهم عليه السلام أشرقت الأرض بنور عدله واستغنى العباد بنور عدله عن ضياء ذلك الشمس ونور ذلك القمر وذهبت تلك الظلمة.

ومنها أنّ من حكمة خلق الشمس أنّها حارّة فتسخّن العالم بحرارتها فتصلح بها الزروع والثمار والأبدان والأرواح بتقوية الحرارة الغريزية المصلحة لمطارح

الأرواح وتعين القوي والطبائع على تجفيف الرطوبات الفضلية من القلب والدماغ فيستضيء البدن بإشراق الأنوار المعنوية لارتباطها بها فتتعلق بها الأرواح والعقول تعلّق التدبير ومن حكمة خلق القمر أنه بارد فيبرّد العالم ببرودته، لأن الشمس حارّة ولو استمرت حرارتها أحرقت ما كانت أصلحته كما لو أردت أن تجفّف ثوبك الرطب على النار لتلبسه فصلاحه منها حتى تجفّ رطوبته ولو تركته بعدما جفّ أحرقته وفسد فكما أن الشمس إنما جعلت تعاقب القمر لتسخّن ما بَرَّدهُ لأن البرودة لو دامت أفسدت العالم كذلك القمر يعاقبها ليبرّد ما زاد من حرارتها على القدر النافع ذلك تقدير العزيز العليم، فإذا كثرت معاصي العباد أدّبهم سبحانه وروّعهم بأنْ حجَب عنهم نور الشمس في وقت الحاجة إليه أو حجب عنهم نور القمر في وقت الحاجة إليه وذلك في الكسوف والخسوف فينحبس عنهم المدد المصلح ويقع في العالم أثر فقدان ذلك المصلح، فتحدث مفاسد في زروعهم وأشجارهم ومواشيهم وأبدانهم ونفوسهم وإراداتهم وعقولهم وعزائمهم وأعمالهم وغير ذلك ممّا يريد سبحانه على قدر ما استحقوه بعضاً من بعض أو من كلّ فأمرهم حين حبس عنهم المدد الظاهري بذنوبهم بأن يفزعوا إلى الله سبحانه ويتوبوا ويستغفروا ويصلّوا ففتح لهم بما أمرهم به باب المدد الباطني الذي هو أقوى في إصلاح ما فسد بفقدان المدد الظاهري فكان هذا العمل والصلاة مغنية عن ضوء الشمس ونور القمر مع أنها فرع من فروع الإمام عليه السلام وباب لبعض بيوت ولايته ومساكنها لأنّها هي وجميع الأعمال مبنيّة على ولايته ومحبّته وطاعته والإقرار بفضائله والامتثال لأمره والانزجار عند نهيه فإذا ظهر إنما يظهر بإقامة الأعمال الصالحة التي هي قوام

المدد الباطني الذي به صلاح الدنيا والآخرة على أكمل وجهٍ يريده الله سبحانه من عباده فبظهوره وبما أقام من دين الله تصلح الشمس والقمر وجميع الأفلاك والعالم العلوي والسفلي وجميع الخلائق من الحيوانات والنباتات والمعادن والجمادات فتستغني العباد بنوره عن ضوء الشمس ونور القمر لأنهما في الحقيقة آلتان لنوره وأقوى من هذه الآلة فإن نور الشمس أقوى من نور القمر بسبعين مرة ونور الإمام عليه السلام أقوى من نور الشمس في كلّ ما خلقت الشمس له وما يراد منها ألف ألف ألف مرّة وأربعة آلاف ألف مرة وسبعمائة ألف مرة وعشرة آلاف مرّة كما أشارت إليه رواية علي بن عاصم في باب الرؤية عن الصادق عليه السلام (نُورِ الشَّمْسُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ الكُرْسِيِّ وَالكُرْسِيُّ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ العَرْشِ وَالعَرْشُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ الحِجَابِ وَالحِجَابُ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نُورِ السِّتْرِ) الحديث.

والحجاب هم الكروبيّون وهم شيعتهم من الخلق الأول خلق الله تعالى أنبياءه على صورهم فنوح عليه السلام على صورة أحدهم واسمه يعني نوح سمّي باسمه وإبراهيم عليه السلام على صورة أحدهم واسمه وموسى عليه السلام على صورة أحدكم واسمه وهذا هو الذي تجلّى للجبل حين سأل موسى ربّه ما سأل فجعله دكّاً وعيسى عليه السلام على صورة أحدهم واسمه وبنور هذا الكروبيّ كان عيسى عليه السلام يبرء الأكمه والأبرص ويحصي الموتى.

فإذا عرفتَ ما ذكرنا تبيّن لك أن العباد يستغنون عن ضوء الشمس ونور القمر بنورهم عليهم السلام إذا رجعوا إلى الدنيا ومكّنهم الله في الأرض لإظهار دينه.

وقوله عليه السلام (وأشرقت الأرض بنوركم) يريد به ما ذكرنا في الأرض وما كان في

هذه الدنيا أيضاً وإن كان في دولة الباطل إذ لولا وجودهم في هذه الدنيا في قلوب شيعتهم وألسنتِهِم وأبدانهم وفي صدور المسلمين وألسنتهم وأبدانهم لاشتدّت الظلمة وتراكمت فلم يعبد الله سبحانه في أرضه من سائر خلقه إلاّ بما اضطرّوا إليه لأنّه من لوازم الإيجاد إذ لو لم يوجدوا عليهم السلام لم يوجد مخلوق فلمّا وجدوا وجد الخلق واضطر الخلق في إيجادهم إلى عبادة الله سبحانه بشرع الكون الوجودي ولمّا ظهروا عليهم السلام في هذه الدنيا أظهروا في الخلق عبادة الله عز وجلّ بشرع الكون التشريعي الاختياري لأنه أثر ظهورهم في هذه الدار وتمكينهم أي تمكين الله سبحانه إيّاهم في القوالب وإن لم يمكّنهم في الظاهر وإذا رجعوا إلى الدنيا مكّنهم في الأرض وما فيها فيظهرهم على الدين كله ولو كره المشركون اللهم عجّل فرج محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم واجعلنا من أنصارهم وأتباعهم واللازمين لهم في الدنيا والآخر بفضلِك ومنّك إنك ذو الفضل العظيم والمن الجسيم وأنت أرحم من كل رحيم.

وقوله عليه السلام (وفاز الفائزون بولايتكم) المراد به أنّ من والاكم فقد فاز أي ظفر بمطلوبه أو من قوله تعالى (فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فازَ) أي فقد نجى كقوله تعالى (وَيُنَجِّي اللهُ الذِينَ اتَّقَوْا بِمَفازَتِهِمْ) أي بسب منجاتهم يعني بسبب العمل الصّالح أو فاز النّاجون أو الظافرون بولايتكم لأنّها هي الخير أو خير الخير أو كلّ الخير أو هي الجنّة كما قال الصادق عليه السلام لِمَنْ سَمِعه يقول (اللهم أدْخلنا الجنّة قال أنتم في الجنّة ولكن سَلُوا الله ألا يخرجكم منها إنّ الجنّة هي ولايتنا فولايتهم هي الجنّة وهي نعيم الجنة وهي سبب الجنّة وهي صورة الجنّة وهي معنى الجنّة).

فإذا جعلتَ الفوْز بالمطلوب والظفر بالمحبوب هو الولاية كان المراد بالولاية النعيم كما في قوله تعالى (ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم)وفي عيون الأخبارعَنِ الرِّضَا عليه السلام أَنَّهُ قَال (لَيْسَ فِي الدُّنْيَا نَعِيمٌ حَقِيقِيٌّ فَقَال لَهُ بَعْض الفُقَهاءْ مِمَّنْ حَضَرَ فَيَقُولُ الله تَعَالى ثُمَ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم مَا هَذَا النَّعِيمُ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ المَاءُ البَارِدُ فَقَال الرِّضَا عليه السلام وَعَلا صَوْتُهُ وَكَذَا فَسَّرْتُمُوهُ أَنْتُمْ وَجعَلْتُمُوهُ على ضُرُوبٍ فَقَالتْ طَائِفَةٌ هُوَ المَاءُ البَارِدُ وَقَال غَيْرُهُمْ هُوَ الطَّعَامُ الطَّيِّبُ وَقَال آخَرُونَ هُوَ النَّوْمُ الطَّيِّبُ وَلقَدْ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ أَبِي عبدالله عليه السلام أَنَّ أَقْوالكُمْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ فِي قَوْلِ الله عَزَّ وَجل ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم فَغَضِبَ وَقَال إِنَّ الله عَزَّ وَجل لا يَسْأَلُ عِبَادَهُ عَمَّا تَفَضَّل بِهِ عَليْهِمْ وَلا يَمُنُّ بِذَلِكَ عَليْهِمْ وَالامْتِنَانُ بِالإِنْعَام مُسْتَقْبَحٌ مِنَ المَخْلُوقِينَ فَكَيْفَ يُضَافُ إِلى الخَالِقِ مَا لا يَرْضَى المَخْلُوقُونَ بِهِ وَلكِنَّ النَّعِيمَ حُبُّنَا أَهْلَ البَيْتِ وَمُوَالاتُنَا يَسْأَلُ الله عَنْهُ عِبَادَهُ بَعْدَ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَلأَنَّ العَبْدَ إِذَا اهُ بِذَلِكَ أَدَّاهُ إِلى نَعِيمِ الجَنَّةِ الذِي لا يَزُولُ)الحَدِيث.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية (إِنَّ الله عَزَّ وَجل أَكْرَمُ وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يُطْعِمَكُمْ طَعَاماً فَيُسَوِّغَكُمُوهُ ثُمَّ يَسْأَلكُمْ عَنْهُ وَلكِنْ يَسْأَلُكُمْ عَمَّا أَنْعَمَ عَليْكُمْ بِمُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم).

فعلى أنَّ المراد بالولاية النّعيم يترتّب على ذلك بعض نعيم ليس مطلوباً لعدم علم الفائز به بكنهه بل ولا يخطر على قلبه وهو مما يترتّب على الولاية من النعيم كما قال تعالى (فَلا تَعْلمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) وكما في الرواية (مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلى قَلبِ بَشَرٍ)وكذلك قوله تعالى (وَلدَيْنا مَزِيدٌ)فإن هذا المزيد الذي قال تعالى (لدَيْنا) لم يكن ممّا يشاءون لأنهم لا يعلمونه

ولا من الّذي قال تعالى (فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) لأنّ المزيد يرد على أهل الجنّة قبل هذا وأنزل منه رتبةً لأن المزيد وإن لم يشأه المؤمن لعدم علمه به إلاّ أنه قد يعلمه غيره بخلاف ذلك، فإنه لا تعلمه نفس ويترتّب عليها ما هو معلوم بالإجمال وما هو معلوم بالتفصيل، ومن هذا محبّتهم عليهم السلام وهي محبّة الله وفي حديث الأسرار قال الله تعالى (يا أحمد إن في الجنة قصرا من لؤلؤ فوق لؤلؤ ودرة فوق درة ليس فيها قصم ولا وصل فيها الخواص أنظر إليهم كل يوم سبعين مرة فأكلمهم كلما نظرت إليهم وأزيد في ملكهم سبعين ضعفا وإذا تلذذ أهل الجنة بالطعام والشراب تلذذوا أولئك بذكري وكلامي وحديثي) الحديث.

هذان إذا جعلت المطلوب الذي ظفرَ به الفائز هو الولاية والمحبّة.

وإن جعلت الولاية صورة المطلوب قلتَ المراد بالولاية هو طهارة الباطن بالمعرفة لله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله وبمعرفة محمّد وأهل بيته علي وفاطمة والحسن والحسين والتسعة الأطهار من ذرّية الحسين صلى الله على محمد وعلي وعليهم أجمعين وبمعرفة أنبيائه ورسله وكتبه وباليوم الأوّل الذي هو رجعتهم عليهم السلام وباليوم الآخر ومعرفة محمّد وأهل بيته صلى الله عليه وعليهم معرفة أنهم معانيه ومعرفة أنهم أبوابه وبمعرفة أنهم أئمة الهدى وأعلام التقى والعروة الوثقى وبمعرفة أركان قائمهم ونقباء شيعتهم ونجبائهم وطهارة الظّاهر من رفع الأحداث عن الجسد بالوضوء وبالغسل والتيمّم ورفع الأخباث عن الجسد والثياب للعبادات من الأحياء والأموات وعن الأواني للاستعمال وعن المطاعم والمشارب للأكل والشرب وعن المساكِنِ للسُّكنى ونحو ذلك وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام شهر رمضان أو بالتزام العبادات من الأحياء والأموات

وما كان مندوباً من الصيام أو اعتكاف أو حج للبيت الحرام أو لزيارة لأحدهم عليهم السلام والقيام بما حَدَّد من الحدود والأحكام وبما أبان من معاملة سائر الأنام.

وبالجملة فهي جميع ما أراد معرفته من أحوال النّشأتَيْن وأمر به عبادَهُ من أعمال الدَّاريْنِ وبيان هذا بالإشارة على وجه الإجمال أنّ كلّ صورة معنويّة خلقها الله سبحانه في العبد أو للعبد أوّلاً وبالذّات فهي من صور الولاية كصورة الإيمان مثلاً فإن الصورة محدودة بخُطوطٍ وأوضاع كما في هيئة السرير فإنه مربّع مستطيل فيحيط به خطّان طويلان متوازيان وخطّان قصيرانِ متوازيان كذلك الإيمان فإنه صورة إنسانيّة ربّانيّة يحيط بها خطوط معنويّة كثيرة كخطّ التوحيد في أحواله الأربعة توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الأفعال وتوحيد العبادة.

فالأول: (قال الله لا تَتَّخِذُوا إلهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ).

والثاني: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ).

والثالث: (أَرُوني ما ذا خَلَقُوا مِنَ الأَرْض أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ).

والرابع: (وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً).

وكخطّ الشهادة بالرسالة يجمعهما أشهد إلاّ إله إلاّ الله وحده في هذه الأمور الأربعة لا شريك له في شيء منها وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وما يتبع ذلك من الإقرار بنبوة أنبياء الله ورسله.

وكخطّ الولاية والإقرار بأنّ علياً وأهل بيته الطاهرين صلى الله عليه وعليهم أجمعين خلفاء الله وأوصياء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأولياء الله وحججه على خلقه وأمناؤه على وحيه وحُفّاظه على خلقه ومَنَارُهُ في بلاده والولاية لهم ولشيعتهم إلى التراب الطَّيِّبِ والبراءة من أعدائِهم وأشياعهم إلى التراب المالح والأرْضِ السَّبِخَةِ.

وكخطّ الإيمان بالموت والقبر والمسألة والبرزخ والنشر والحشر والحساب والصراط والميزان وتطاير الكتب والختم على الأفواه وإنطاق الجوارح والنار وما أعدّ فيها من العذاب والأغلال والحوض والجنّة وما أعدّ لأهلها من الملابس والمشارب والنكاح وبرجعة محمد وآل محمد ﷺ إلى الدنيا حتى يملئوا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً والإقرار بالبداء وألاّ جبر ولا تفويض إلى غير ذلك من الأمور التي يجب الإيمان بها مما جاء به محمد ﷺ من أحوال النشأتين.

وكخطّ الأعمال كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وغير ذلك.

وكخطّ المروة والشجاعة والكرم والزّهد والورع والتقوى واليقين والتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلودِ والقول بالعلم وعدم القول مع الجهل وترك هوى النفس الأمارة واتّباع دواعي العقل وأمثال ما ذكرنا.

فإن الصورة التي تحيط بها هذه الخطوط على جهة التّبعيّة والتفقّد ولو غالباً هي صورة الإيمان ولو كان ذلك على جهة الأصالة والتفقّد على جهة الإحاطة مع عدم الترك لشَيْءً منها ولا لبعضٍ من شيْء كانت صورة الإيمان التي هي محلّ العصمة وصورة الإيمان المطلقةً صورة كليّة ذات صور متعددة من صور الولاية وهي صور متعدّدة، مثلاً الطهارة صورة تامّة منها لاشتمالها على الحدود الّتي حدّدوها المذكورة في علم الشريعة من الوضوء والغسل بالماء الطاهر المباح والتيمّم بالتراب الطاهر المباح على الوجه الذي أمر به في الأمور الثلاثة وكذلك الصلاة والزكاة وغيرهما، فكل شيء مما أمر الله به أو ندب إليه فهو صورة من صور الولاية الظاهرة والباطنة ومجموع باطن هذه الصور صورة الإيمان الكامل وباطن باطنِها صورة العصمة وصور عكوساتها من صور المعاصي أي عكوسات ما مثّلنا به صور ولاية أعدائهم.

فامتثال أوامر الله سبحانه واجتناب مناهيه كلها ظاهرها وباطنها علميّها وعَمَلِيّها اعتقاداً وقولاً وعملاً هو صورة الولاية الكليّة وعكس ذلك كله ولاية الأشرار وأئمة الكفار فإنهم صالوا النار.

فولاية الحق وما يترتّب عليها من الاعتقادات الحق والأعمال الحق والأقوال الحق وما تثمر تلك من أنواع النعيم الذي لا ينقطع أبداً وجميع ذلك هو باطن الأمانة وباطن الباب من الرحمة المكتوبة لعباده المؤمنين.

وولاية الباطل وما يترتّب عليها من الاعتقادات والأعمال والأقوال الباطلة وما تثمر تلك من أنواع العذاب الأليم المخلّد أبداً جميع ذلك هو ظاهر الأمانة وظاهر الباب الذي من قبله العذاب وذلك من قوله تعالى (فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بابٌ باطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ العَذابُ) فالسور محمد ﷺ لأنه مدينة العلم والباب علي ﷺ باطنه وهو القيام بولايته فيه الرحمة أي المكتوبة وكان بالمؤمنين رحيماً وظاهره خلاف ولايته وهو اتّباع ولاية أعدائه وبغضه من قبله أي من جهتِه العذاب فإن المحبّة منسوبة إليه وهي الجنّةُ لمحبّيه والبغض منسوب إليه وهو النار لمبغضيه فكانت الجنّة وأهلها وأعمالها التي أوصلتهم إليها من ولايته وهي محبّته، وكانت النار وأهلها وأعمالها التي أوصلتهم إليها من خلاف ولايته وظاهرها الذي هو وراءها وخلفها وخلافها وهي بغضه وعداوته فكانتا منسوبتيْن إليه، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام قسيم الجنّة لأنّها من حُبّه وقسيم النار لأنّها من بغْضِه، فظهر لمن نظر واعتبر أن قوله عليه السلام في الفقرة الشريفة (وفاز الفائزون بولايتكم) جامع لكلِّ خير فمن فاز بها فقد ظفر بكلّ خير في الدنيا والآخرة.

اللهم يا مقلِّب القلوب والأبصار صلِ على محمد وآله الأطهار وثبّتْنا على ولايتهم ومحبّتهم وعلى البراءة من أعدائهم في الدنيا والآخرة إنك ذو الفضل العظيم.

قوله عليه السلام (بكم يُسْلكُ إلى الرّضوان)أي بولايتكم ومحبتكم واتّباعكم فيما أمرتم وفيما نهيتم عنه وبالتسليم لكم والردّ إليكم والأخذ عنكم وباللزوم لكم مع البراءة من أعدائكم ومن أتباعهم والراضين بأفعالهم والمقتدين بهم والمسلّمين لهم والرادّين إليهم والعاملين بأقوالهم والمقتدين بأفعالهم إذ لا تتحقق ولايتكم إلاّ بالبراءة منهم يسلك الطريق الموصل إلى الرضوان، أو بكم لأنكم الأدلاء إلى كل خير وذلك لأنهم القائدون إلى الجنّة من اتّبعَهم وأحبّهم وتولّى بهم.

أو ببركة وجودكم أو لأجل حبّكم وولايتكم أو لأجلكم يسلك الله تعالى بمن اتبعكم وأحبّكم أو مَنْ عمَّتْه بركةُ وجودِكم أو لأجل حبّكم أوْ لأجلكم طريق الرضوان، أو يوصله الرضوان وهو الجنّة أو يراد به رضوان الله أو يراد به أنه سبحانه يجعل محبّيكم وتابعيكم مجاورين لمحمد صلى الله عليه وآله في جنّة عدن لأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو الرضوان كما في تأويل قوله تعالى (وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ) .

أو يراد من الرضوان ما قيل إن أهل الجنّة لأهلَها مقامات ومراتب في القرب كلّما استقرّوا في رتبة من مراتب القرب ما شاء الله انتقلوا إلى مقام فوقه وهكذا فقيل أوّل مقام لهم مقام الرفرف الأخضر ثم ينتقلون منه إلى مقام الَكَثيب الأحمر أو الأصفر المسمى بأرض الزعفران وهو أعلى من مقام الرفرف علوّاً كبيراً وأشرف وأقرب فإذا مكثوا فيه ما شاء الله تعالى انتقلوا إلى مقام الأعراف وهو أعلى من مقام الكثيب الأحمر أو أرض الزعفران علوّاً كبيراً وأشرف وأقرب

فإذا مكثوا فيه ما شاء الله تعالى انتقلوا منه إلى مقام الرضوان وهو أعلى ممّا ذكر وأشرف وأقرب بما لا يكاد يوصف ويمكثون فيه ما شاء الله بلا غاية ولا نهاية وليس وراء هذا مقام إلاّ أنه له درجات ينتقلون من درجة إلى أخرى أشرف من الأخرى ولا نهاية لذلك فإنهم قبل وصول هذه الرتبة التي هي الرضوان كل جمعة تأتيهم الملائكة المقرّبُون بنجائبَ من نورٍ من نجائب الجنّة فيقول للمؤمن إن ربّك يدعوك ليجزيك أو يزيديك من فضله وعطاياه فيركب ويصعد حتى يصل إلى المقام الذي دُعِي إليه فيعطى ضعف ما عنده من ممالك الجنّة ونعيمها، ولا يزال هكذا كلّ جمعة وهو يتنقّل في المقامات كما ذكر ويعطى في كلّ مقامٍ ممّا فوقه حتى ينتهي في سيره في الدرجات وتنقله في مقامات القرب إلى أن يصلَ إلى الرضوان فإذا دُعِي وأتى قال يا ربّ لا حاجة لي إلى العطاء فيقال له بلى رضاي عنك ولا يزال هكذا أبداً كلما وفد على ربّه زاده رضىً عنه جديداً ليس في الجنّة نعيم يدانيه فيمكثون يتنقّلون في مقامات الرضوان ودرجات القرب إلى الرحمن بلا غاية ولا نهاية فعلى هذا يكون المراد من الفقرة بكم يسلك المؤمن أو يسلك الله به أو يسلكون به إلى الرضوان الذي ليس وراء نعيمه نعيم هذا معنى ما قيل.

والذي يجول في نفسي من معنى الرضوان المذكور هنا وهو الرتبة القصوى من نعيم أهل الجنة وفيها تكون تُحَفُ أهل الجو فيها رضى الله سبحانه أنّ أوّل هذا المقام بحر الحجاب الأبيض وهو أعلى الحجب وأشرفها وألطفها وأشَفُّهَا وهو أوّل ما خلق الله من الحجب ولهذا كان هو النهاية في التقييد ليس وراء ذلك إلاّ البيان ورفع الحجاب وهذا آخرُ المقال لأن أهل الجنة في هذا المقام الذي هو كمال الرضوان وغاية الرضوان المسمى بالبيان والعيان ورفع الحجاب، وهو الذي

أشار إليه سيّد الوصيين علي أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله في جوابه لكميل بن زياد حين سأله ما الحقيقة (فقال له ما لك والحقيقة يا كميل فقال أولستُ صاحبَ سرّك قال بلى ولكن يرشح عليك ما يطفح منّي فقال أَوَمِثلُكَ يخيّب سائلاً فقال عليه السلام الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة فقال زدني بياناً قال محو الموهوم وصحو المعلوم فقال زدني بياناً قال هتكُ السِّتر وغلبة السِّرِ) الحديث.

فقوله عليه السلام (محو الموهوم) المراد بالموهوم هو ما قبل مقام الحجاب الأبيض لأنه ليس من الموهوم مطلقاً ولكنه برزخ المعلوم والمراد بالمعلوم هو ما أشرنا إليه بقولنا البيان والعيان ورفع الحجاب الذي هو الحجاب الأبيض المشار إليه لأنّ البيان مقام لا بياض فيه ولا سواد ولا شيء إلاّ شيء ليس كمثله شيء وهو آية الله ودليل الله سبحانه وما وصف به نفسه لعباده المقرّبين عنده وهذا المقام غاية الرضوان وأعلى الجنان وآية الرحمن وهو أوّل ما فاضَ من فعْلِ الله خلقه الله سبحانه وجعله أصل الأصول ونهاية المحصول وهو شيء ليس كمثله شيء، وكيف يكون مثله شيء وإنّما خلقه الله دليلاً عليه ليُعرف به فلو شابهَهُ شيء لكان ذلك الشيء مِثل الله تعالى بكسر ميم المثل والله سبحانه ليس له مِثل فلا يكون شيء مِثل هذا لأن هذا هو وصف الله نفسه لعباده فلو كان شيء يشابهه لكان الله تعالى وصفه نفسه بوصف لا يختصّ به بل يشاركه فيه غيره –تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً–.

وهذا المقام أيضاً هو صحو المعلوم لأنه تعالى وصف نفسه بوصف لا يشاركه فيه غيره فصحا المعلوم لمن عرفه في وصفه كما وصف نفسه فالبيان هو رفع الحجاب وأول الرضوان الحجاب الأبيض وآخر الرضوان وكماله وغايته البيان

وهو الذي أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام كما رواه جابر بن يزيد الجعفي عن الباقر عليه السلام أنه قال (يا جابر عليك بالبيان والمعاني قال فقلتُ له وما البيان والمعاني قال فقال علي عليه السلام أما البيان فهو أن تعرف الله سبحانه ليس كمثله شيء فتعبده ولا تشرك به شيئاً) الحديث.

وهذا أوّل ما خلق بعد المشيّة فخلق الله سبحانه منه ما شاء فأوّل ما خلق منه هذا الحجاب الأبيض فالبيان هو الولاية الكبرى والحجاب الأبيض هو اليد اليمنى وذلك قوله تعالى (يَدُ الله فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) وهو هذه اليد ولا يصل أحد من خلق الله إلى هذه الرضوان المشار إليه إلاّ بهم صلوات الله عليهم.

وقوله عليه السلام (وعلى من جحد ولايتكم غضب الرحمن) إنما قال غضب الرحمن للسجع ولمعنى آخر لا يليق هنا أن يقال غضب الله وإن كان يجوز من حيث المعنى لأن المراد بالرضوان هو الرحمة المكتوبة وهو سبحانه تجلى يعني استوى على عرشه بصفة الرحمن فقال (الرَّحْمنُ عَلى العَرْشِ اسْتَوى) وقال (ثُمَّ اسْتَوى عَلى العَرْشِ الرَّحْمنُ فَسْئَل بِهِ خَبيراً) فالرحمة التي هي صفة الرحمن التي استوى بها على عرشه وهي الرحمة الواسعة كما قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُل شَيْءٍ) وهي صفة الرحمن العامة للمؤمن والكافر وهي على قسمَيْن صفة فضل وصفة عدل فالفضل هو الرحمة المكتوبة كما قال تعالى (فَسَأَكْتُبُها لِلذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ) الآية، وهي صفة الرحيم الخاصة بالمؤمنين يوم القيامة وكان بالمؤمنين رحيماً.

والعدل هو المقاصّة نعوذ بالله من سخط اللهِ والغضب من العدل لأنه تعالى إذا غضب على من عصاه عامله بعدله المستجار بك يا الله من عدلك، فكانت صفة الرحمن تنقسم إلى فضل وهو رحمة وإلى عدل وهو غضب، واستوى على عرشه

بهاتَيْن الصّفِتيْن صفة الفضل وهي الرّحمة المكتوبة التي هي صفة الرحيم الخاصّة بالمؤمنين، وصفة العدل وهي الغضب ومجموع الصِّفتيْن هي الرحمة الواسعة التي هي صفة الرحمن فلمّا كان الغضب والرحمة هما الرحمة الواسعة التي هي صفة الرحمن وذكر أنّ بهم عليه السلام يسلك إلى الرضوان الذي هو الرحمة المكتوبة ناسب أن يذكر كما هو الواقع أنّ على من جحد ما هو سبب الإيصال إلى الرحمة غضبَ الرحمن ولم يناسب أن يقال غضب الله فافهم.

ونريد بالجاحد من جَحَد بعد المعرفة واليقين كما قال تعالى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلماً وَعُلُوًّا) أي جحدوا بها ظلماً وعلوّاً بعد الاستيقان وقدّم الرضوان على الغضب في الذكر كما تقدم عليه في الأولوية لرجحان الرضى على الغضب وفي الوجود كما قال تعالى (سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي).

وفي مناقب ابن شاذان عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال صلى الله عليه وآله وسلم (ألا ومن مات على بغض آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم مات كافرا ألا ومن مات على حب آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم مات على الإيمان وكنت أنا كفيله بالجنة) انتهى.

ومن أمالي الطوسي بسنده إلى صالح بن ميثم التّمار رحمه الله (قال وجدت في كتاب ميثم رضي الله عنه يقول تمسينا ليلة عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فقال لنا ليس من عبد امتحن الله قلبه بالإيمان إلا أصبح يجد مودتنا على قلبه، ولا أصبح عبد ممن سخط الله عليه إلا يجد بغضنا على قلبه، فأصبحنا نفرح بحب المحب لنا، ونعرف بغض المبغض لنا، وأصبح محبنا مغتبطا بحبنا برحمة من الله ينتظرها كل يوم، وأصبح مبغضنا يؤسس بنيانه على شفا جرف هار، فكأن ذلك الشفا قد انهار به في نار جهنم، وكأن أبواب الرحمة قد فتحت لأصحاب الرحمة،

فهنيئا لأصحاب الرحمة رحمتهم، وتعساً لأهل النار مثواهم، إن عبدا لن يقصر في حبنا لخير جعله الله في قلبه، ولن يحبنا من يحب مبغضنا، إن ذلك لا يجتمع في قلب واحد وما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلبَيْنِ فِي جَوْفِهِ يحب بهذا قوما، ويحب بالآخر عدوهم، والذي يحبنا فهو يخلص حبنا كما يخلص الذهب لا غش فيه، نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء، وأنا وصي الأوصياء، وأنا حزب الله ورسوله عليه السلام، والفئة الباغية حزب الشيطان، فمن أحب أن يعلم حاله في حبنا فليمتحن قلبه، فإن وجد فيه حب من ألب علينا فليعلم أن الله عدوه وجبرائيل وميكائيل، والله عدو للكافرين) هـ.

فإن قلت: مَن جحد ولايتهم إن كان عن جهل فمقتضى الحكمة أنه لا يُؤَاخذُ بفعله وإن كان يعتقد أنَّ ولايتهُمْ حقّ فلا معنى لكونه جاحداً مع أَنَهُ مُعْتَقِدٌ وإن كابر مقتضى عقله فأمره واضح لأن معنى مكابرة عقله ترك العمل بمقتضاه وترك العمل بمقتضاه ليس جحوداً إذ الجحود فعل قلبي ولم يقع من القلب إلاّ الاعتقاد لا الجحود.

قلتُ: الجحود الحقيقي هو الإنكار وغير الحقيقي هو عدم قبولهم لا عنْ معرفةٍ وقد يقع ممّن تكون عاقبتُه إلى خير كما إذا لم يقبلهم عن جهل فلمّا عرف قَبِلهم وقد يكون ممّن يختم له بالسُّوأى كمن ينكرهم في التكليف الثالث يوم القيامة.

وأمّا الجحود الحقيقي لا يكون عن جهل وهو الإنكار بعد التّعريف وحكم هذا ظاهر فالجحود غير الحقيقي وهو ما كان عن جهل ففي الدنيا ضلال وصاحبه على ظاهر الإسلام ويوم القيامة يكلّف ويلحق بأحد الفريقين المؤمنين أو الكافرين.

وأمّا مع الاعتقاد بأن ولايتهم حقّ فلا يخلو إمّا أن يثبت اعتقاده ويتحقّق أولاً فإن

ثبت اعتقادُه فهو مؤمن وإن ظهر منه خلاف الحق فللتّقيّة كما وقع من كثيرين لأن الاعتقاد بولايتهم إذا ثبتَ صدر عنه مقتضاهُ من المتابعة والتسليم والائتمام والرّدّ إليهم وغير ذلِك إلاّ مع التّقيّة من إظهار لوازمه ومقتضياته فإنّه معها قد يظهر خلاف ما يقتضيه مع وجود لوازمه الذاتيّة من المحبّة والمَيْل القلبي وهذا هو معنى ثبوته فإنّه لا تتخلّف آثارُه إلاّ لمانع فإذا عرض المانع منع من الإظهار لا من الاستقرار كما قال تعالى (مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ).

وأمّا إذا لم يثبت كما إذا عرف أنهم عليهم السلام أئمة الهدى وولايتهم من الله سبحانه ولكن ليس معه من هذا إلاّ هذا التصوّر.

وأما لوازمها فلا ترد على قلبه إلاّ بالذكر والتصوّر ومعرفة أنّ هذا حق بل الدّواعي والميولات القلبيّة على خلاق ذلك لِما يعارض تلك المعرفة وذلك التصوّر من المنافيات كالحسد والتكبّر الحابِسَيْنِ للوازم ذلك التصوّر وتلك المعرفة والمانعَيْنِ من الميل القلبي إلى شَيْء منها ولا يثبت الاعتقاد ولا يسمّى ذلك التصوّر وتلك المعرفة اعتقاداً إلاّ بما يحقّقه ويثبّته من لوازمه مع انتفاء الموانع من ذلك وهذا التصوير وهذه المعرفة يقال لها استيقانٌ لعدم حصول تصوّرٍ منافٍ لها في محلِّها من الفطرة التي فطر الله الخلق عليها لأنّ فطرة الله التي فطر الناس عليها ليس لها خطوطٌ وحدودٌ وهيئات إلاّ هذا التّصوّر والمنافي إنّما عرضَ من هيئة تغيير الفطرة وتبديلها، فما حصل من التصورات الحقّة من هيئة فطْرة الله التي فطر الناس عليها المسمّى بالاستيقان في قوله تعالى (وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلماً وَعُلُوًّا) فهو شرط التكلف وسببُ قيام الحجة عليهم إذ لو لم يعرفوا ويتصّوروا ما كلِّفوا به لما قامت الحجة عليهم فلا مُنافاة بين الجحود

والاستيقان كما قال تعالى، لأن هذه المعرفة لم تثبت لوجود الموانع النافية لما يثبت به هذا الاستيقان كما أشرنا إليه فتفهّم.

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله اللهم يا مقلّب القلوب والأبصار صل على محمد وآله الأطهار وثبّت قلبي على دينك ودين نبيك ﷺ ولا تزغ قلبي بعد إذ هدَيْتني وهب لي من لدنك رحمة إنّك أنت الوهّاب وصلى الله على محمد وآله الأطياب.

وقع الفراغ من الجزء الثالث من الشرح الشريف للزيارة الشريفة الزيارة الجامعة ويتلوه إن شاء الله الجزء الرابع والحمد لله رب العالمين وكتب أحمد بن زين الدين الأحسائي روحي فداه في أوائل شوّال سنة تسع وعشرين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية على مهاجرها أفضل الصلاة وأزكى السلام عليه وآله الأنجاب الكرام صلى الله عليه وعليهم أجمعين حامداً مصلياً مسلماً مستغفراً تمت.